العربية

دراسات في اللغة واللهجات والأساليب

تأليف

يوهان فك

مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالر

ترجمه وقدم له وعلق عليه وصنع فهارسه

الدكتور رمضان عبد التواب
أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب
جامعة عين شمس

الناشر

مكتبة الخانجي بمصر

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

عرفت هذا الكتاب فى أصله الألمانى ، وأنا أحضر للدكتوراه فى ميونخ ، حينما أهدانى مؤلفه نسخة منه ، أعتز باقتنائها ، وكنت عقدت العزم على ترجمته إلى العربية ، بعد الفراغ من الدراسة ، وعلمت بعد ذلك أن المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، قد سبقنى إلى تولى هذا العمل العظيم ، وانتشرت ترجمته ، وأفاد منها قراء العربية فى الشرق والغرب .

وعند ما نفدت نسخ تلك الترجمة ، وفكر الأستاذ الفاضل نجيب الخانجى فى إعادة طبع الكتاب ، عرضت عليه أن أعيد ترجمته من جديد ، مضيفاً إليه تعليقات أستاذى ، شيخ المستشرقين فى الوقت الحاضر ، بروفسور « شبيتالر » رئيس معهد اللغات السامية بجامعة ميونخ ، وما تجمع لدى من ملاحظات على مادة الكتاب وقضاياه ، وتصحيح شىء من التصحيف والتحريف وبعض الأخطاء التى وقعت فى ترجمته ، فرحب بالفكرة ترحيباً بالغاً. وكان لتشجيعه وغيرته العظيمة على العربية وتراثها ، أكبر الأثر فى ظهور هذا الكتاب ، بالصورة التى هو عليه الآن ، فله الشكر على ما قدم ويقدم ، فى سبيل خدمة العربية ، لغة الكتاب الكريم .

والكتاب دائرة معارف واسعة ، يحتاج من مترجمه إلى الكثير من الصبر والجهد ، ومراجعة الكثير من المصادر ، لتحقيق هذا النص أو ذاك ، من نصوصه الكثيرة ، الممتدة عبر عصور العربية الخالدة . ولقد التزمت الدقة فى التعبير عما أراده المؤلف ، وحاولت البحث عن المصطلح العربى المناسب ، لترجمة المصطلحات الإفرنجية ، التى عالج بها المؤلف قضايا العربية وتطورها .

وكان المترجم الأول ، قد ترك شيئاً غير قليل من هوامش النص بلا ترجمة ،

إذ كان يراه غير مهم للقارىء العربى ، كما كان يلخص هذه الهوامش أحياناً ، تلخيصاً شديداً . ولكننى آثرت ترجمة هذه الهوامش المتروكة ، إلا ما ندر ، وفاء لحق المؤلف على قارىء كتابه . ولا شك أننى أفدت كثيراً من بعض الصياغة البارعة ، والعبارات الطلية ، التى تغلب بها المرحوم الدكتور النجار ، على جفاف الأسلوب الألمانى وجمله المعقدة .

أما تعليقات بروفسور « شبيتالر » ، فإن قسما منها يخص النظرية ، التى بنى عليها « فك » كتابه ، وهذه ترجمتها ووضعتها عقب هذه المقدمة . كما أن قسما آخر منها ، يخص قضايا جزئية فى الكتاب ، وهذه ترجمتها وجعلتها فى أماكنها من الحواشى ، معزوة إليه .

وبعد ، فهذه ترجمة أخرى جديدة ، مزيدة ومحققة ، لعمل رائد من أعمال المستشرقين الألمان ، الذين امتازوا بالصبر والدقة فى الدراسات اللغوية ، ترجمة شد من أزرى فى التصدى لها ، ذكرى الصداقة الوفية ، التى كانت بينى وبين المؤلف ، حتى قضى نحبه .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

د . رمضان عبد التواب

تعليقات المستشرق الألماني
أنطون شبيتالر (١)

قدم « فك » بكتابه : « العربية » إلى المتخصصين فى علم العربية ، عملا لم يقدم مثله من قبل . وإذا كان العنوان الفرعى للكتاب هو : « دراسات فى اللغة والأساليب العربية » ، كما أن فصوله الأربعة عشر (بالإضافة إلى الملحق الذى يتضمن دراسة معجمية دلالية لكلمة « لحن » واشتقاقاتها) تعد بصورة أو أخرى عملا رائداً فى حقيقة الأمر ؛ فإن الكتاب فى مجموعه ليس فى الواقع إلا نوعاً من تأريخ التطور للعربية ، أو على وجه الدقة ، للعربية المولدة ، إذا أخذنا بما قاله « فك » من أن العربية المولدة بدأت « حينما انتقلت العربية ، بعد وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) مباشرة ، عن طريق الغزوات الكبرى ، فى العهد الإسلامى الأول ، إلى خارج حدودها القديمة ، فى مواطن لغوية أجنبية » .

وقد تعقب « فك » تاريخ العربية ، ابتداء من العصر الأموى والعباسى ، وانتهاء بعصور السلاجقة والسيل المغولى الذى « أكمل حلقة الختام فى مراحل الانحلال اللغوى ، التى بدأت بظهور السلاجقة » ، لكى يشير فى « نظرة خاطفة » إلى الطريق الذى سلكه تطور العربية الأدبية ، فى القرون التالية حتى العصر الحاضر .

وإنه لمن غير الممكن ، التحدث بالتفصيل ، عن كيفية استيفاء « فك » لجوانب الموضوع ، فقد استطاع المؤلف بالقراءة الواسعة المستفيضة ، التى ربما لم تتوفر فى الوقت الحاضر ، إلا لقلة من المتخصصين ، (٢) وبالشواهد التى لا تحصى من المصادر العربية الأصيلة التى لم تجمع إلا بجهد سنوات — أن يقدم إلينا عرضاً حياً مثيراً ، يشوق القارىء دائماً ، للأحوال والظروف التى

---

(١) نشرها فى الجزء العاشر من مجلة : Bibliotheca Orientalis ٣/٤ (مايو / يولية ١٩٥٣) ص ١٤٤ — ١٥٠

(٢) قائمة مصادر الكتاب تحتوى على أكثر من ٢٥٠ كتاباً معظمها بالعربية .

تقلبت فيها اللغة العربية والتاريخ الإسلامى ، وكذلك للتأثيرات المتعددة للبيئات المجاورة المتغيرة دائماً ، على اللغة والأدب ؛ فمن تخطيط تاريخى للحضارة ، إلى بحوث معجمية ، وتحليلات أدبية وأسلوبية ، تختلط بملاحظات إعرابية ، ونصوص غير مجهولة لنا تعرض فى سياق جديد ، ومادة غير معروفة من قبل ، تساق للبرهنة فى أصالة .

وإن نظرة على الفهارس المتنوعة (للأشخاص والموضوعات والكلمات والآيات القرآنية) التى ألحقت بالكتاب ، والتى تجعل منه بالتأكيد مرجعاً عربياً ، لتعطى صورة تقريبية عن اتساع المادة التى عالجها المؤلف فيه .

والكتاب مهدى إلى أستاذ العربية القديم ، المستشرق الألمانى « أوجست فيشر » . وكاتب هذه التعليقات ، مدين للكتاب بالكثير من الفوائد ، والعديد من التوجيهات ، التى خرج بها من قراءته ، مع الشكر .

وإنه لمن المتوقع مع كثرة الموضوعات المعالجة فى الكتاب ، أن نجد من القراء من يخالف رأيه رأى المؤلف فى بعض الأحيان ، وهذا أمر لا يمكن تجنبه ، فى ميدان يندر أن تتفق فيه الآراء ، رغم البحوث الكثيرة القيمة التى تناولته .

وإننى أسمح لنفسى بمناقشة بعض النقط الأساسية ، التى لا أتفق فيها مع المؤلف ، فإن له رأياً فى مشكلة الإعراب التى تناقش كثيراً ، أعلنه فى الفصل الأول ، وفى مواضع أخرى من كتابه ، فهو يرى أن التصرف الإعرابى كان حياً فى عنفوانه لدى البدو ، فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى . وقد اعتمد فى ذلك على الأخبار التى رواها العرب فى هذا الشأن ، وعلى البقايا المتجمدة من هذا التصرف الإعرابى فى لهجات البدو المعاصرة .

ولكننى لا أثق فى صدق هذه الأخبار على الإطلاق ؛ فإنه بصرف النظر عن أن ملاحظة لهجات البدو المعاصرة ، لا تؤدى إلى الخروج بهذه النتيجة[1]

---

(١) المادة الموجودة عندنا من لهجات البدو ، تعد قليلة ، وغير متكافئة القيمة فى نظرى ، فلا تكون أساساً ثابتاً للبحث ، بالإضافة إلى أن مثل هذا البحث ، لم يقم به أحد — فيما أعلم — حتى الآن .

فإن الأخبار العربية التى يعتمد « فك » عليها ، لا يمكن فى نظرى أن تؤخذ على معناها الحقيقى[١] ؛ فإننى لا أميل إلى القول بأن العربية ، كما نعرفها من الشعر العربى القديم ، تساوى تماماً فى كل شىء لغة البدو على الإطلاق[٢]، وهذا يعنى ببساطة أن هذه الأخيرة لا تحتاج إلا إلى الإيقاع والوزن ، لكى تصبح شعراً .

بل على العكس من ذلك ، أنا مقتنع بأن العربية فى عصور سحيقة قبل العصور التى نعرفها فيها ، قد أصابها ذلك التغير الذى نلاحظه بوضوح فى العصر الإسلامى ، كلما تقادم به العهد ، والذى يتضح لكل واحد فى اللهجات المعاصرة ؛ فإنه لا شىء فى اللهجات الحديثة ، على الأقل فى ميدانى الأصوات والبنية ، إلا وله أصل مباشر أو غير مباشر ، فى العصر الإسلامى المبكر ، بقدر ما نراه فى الخط ، أو فى عبارات المعاصرين من الرواة . وهذا يعنى أن اللهجات فى فترة تمتد أكثر من ١٢٠٠ عام ، لم يظهر فيها تطور ملحوظ فى أية مسألة من تلك المسائل المهمة ، كترك التصرف الإعرابى فى الاسم والفعل . فليس هناك ما يمنع ، بل على العكس من ذلك ، كل شىء يدل على إمكان أن يكون الوضع اللغوى فى القرن الأول الإسلامى ، قد نشأ بطريقة مماثلة قبل ذلك بكثير . وإن العثور على دلائل مادية من هذا العصر القديم، لهو أصعب بكثير من أدلة العصور المتأخرة؛لأنه ليس بين أيدينا من الأخبار اللغوية عن هذا العصر ،شىء خالص لا يشك فى أمر تنقيحه وتهذيبه.

ثم إن ما نستطيع استخلاصه بأنفسنا من القرآن الكريم والشعر العربى ، وما أخبرنا به اللغويون العرب عن لهجات البدو أحياناً ، إذا ما عالجناه بالقدر اللازم من الحرص والحذر ، يكفى لرسم صورة عن اللهجات العربية القديمة ، تذكرنا — كما يقول فوللرز « فى كثير من النقط الجوهرية بلهجات الخطاب العربية ، المعروفة لنا فى العصور المتعاقبة والعصر الحاضر[٣] » .

---

(١) ما يلى لايعرض من تصورى إلا إطاره العام ، ولايمكن فى هذا الحيز الضيق أن يشرح التفاصيل . وإنى لأرجو أن أتناول المشكلة كلها بالتفصيل فى مكان آخر .

(٢) انظر مثلا : مقالات فى علم اللغات السامية لنولدكه BSS ٢/١٤

(٣) فى كتابه : « اللهجات الشعبية واللغة الأدبية » ١٧٧ وإننى أوافق فوللرز على العموم فى كثير من النقط ، غير أننى أختلف معه أساساً فى نظرته إلى العربية ولغة القرآن .

وإذا صدر المرء عن الرأى الحماسى القائل بأن اللهجات العربية القديمة ، تتفق فى كل شىء مع العربية الفصحى ، فإنه يجب عليه بالطبع أن يجتهد فى تأويل النصوص التى لا تلائم هذا الرأى ، أو يحكم بشذوذها . غير أنه إذا حاول أن يستبين الموقف ، دون اللجوء إلى هذا الرأى المبنى على الظن ، فإنه يجب عليه أن ينظر إلى مثل هذه النصوص على اعتبار أنها بقايا لهجات حقيقية ، كانت تعيش إلى جانب العربية[1] .

أما هذه العربية نفسها ، فهى تلك اللغة القديمة الحقيقية ، التى تعود إلى ما قبل التاريخ[2] ، والتى ترفعت عن لهجات الخطاب منذ زمن ، ورويت لنا كابراً عن كابر ، فى نصوص محددة تماماً . هى تلك اللغة التى يمكن أن تعرف بقول الباقلانى : أشعار أهل الجاهلية ، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب . . . كلام الكهان ، وأهل الرجز والسجع ، وغير ذلك من أنواع بلاغتهم ، وصنوف فصاحتهم[3] .

وعلى هذا النحو تنزل اللهجات والعربية ، بحسب قيمة كل منهما ، منزلتين مختلفتين تماماً ، وتمثلان طاقتين لغويتين مختلفتين ، وتعد إحداهما بالنسبة للأخرى بمنزلة العامية ولغة الحياة العامة ، من الفصحى أو اللغة الأدبية على نحو ما . ولكنها ليست كما يزعم « جاير »[4] Geyer « العامية التى يتكلمها السوقة ، بإزاء لغة الخاصة والطبقات الراقية ، والمثقفين ، ولغة الأدب » .

---

(١) يماثل هذا ما كتبه هارتمان عن الموشح ٢١٦ — ٢١٧ وبعضه فى نقد نولدكه .

(٢) هذا التعبير يؤخذ كما هو . ويذهب فيشر إلى جعل لهجة معينة أساساً للعربية القديمة (انظر مجلة ZDMG ٦٦٢/٥٩ — ٦٦٤ سنة ١٩٠٥ وتكلمة ديتريش حسبما أخبر فك فى مجلة ZDMG ١٥٨/١٠٢ سنة ١٩٥٢) وهو صواب كذلك من حيث المبدأ . غير أنه يبدو لى من العسير جداً ، تحديد مكان هذه اللهجة ، بل يكاد تحديد زمانها يكون أمراً مستحيلا ، كما أنه من المحال معرفة متى تم استقلالها عن لهجات الخطاب اليومية ؟ وعلى أية صورة حدث هذا ؟ وفى أى زمان اعترفت بها اللهجات الأخرى ، وصار من اللازم فى ظروف معينة استعمالها لغة فصحى .

(٣) إعجاز القرآن ، على هامش الإتقان للسيوطى (القاهرة ١٣٤٣ هـ) ٣١/١ . ؟

(٤) فى مجلة : Göttingische Gelehrte Anzeigen (سنة ١٩٠٩) ٩/١٦ فى نقده لكتاب فولرز Vollers .

حقاً ، يمكن للمرء بشيء من التأمل أن يقول بالفرق فى طريقة الكلام تبعاً للوضع الاجتماعى للمتكلم ، غير أن هذه التفرقة لا تكون عامة ، وهذا يعنى أن أحد النبلاء ، يمكن أن يتقن اللغة الفصحى ، تماماً كما يتقنها أحد العامة . وكان تعلم هذه اللغة حسب قواعدها ، والتحدث بها ، أمراً راجعاً إلى الاستعداد الطبيعى لالتقاط الحاسة السمعية ، للخصائص التى تفرق اللغة الشعرية عن لغة الحديث اليومى . وهذا الاستعداد يمكن أن يوجد لدى العامة والخاصة على السواء[١] .

وهذه اللغة الفصحى تعد — كما يقول « بريتوريوس[٢] » Practorius لغة فنية خالصة ، وتعلو بما لها من طبيعة مميزة على كل اللهجات . غير أنها إذ تجرى على ألسنة المتحدثين بهذه اللهجات ، فإنها لم تخل من تأثير تلك اللهجات فيها باستمرار ، ولعلها اختلفت من جهة إلى أخرى تبعاً لذلك . غير أن الجهود المنظمة ، والعاملة على طرد القاعدة ، للغويين المتأخرين ، استطاعت طمس هذه الاختلافات طمساً تاماً .

ولنعد مرة أخرى إلى نقطة البداية ، فإنه إذا كان اللغويون العرب فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، لا يزالون يذهبون إلى البدو ليدرسوا لغتهم ، فإن هذا يعنى بالطبع أنهم يبحثون هناك عما يفتقدونه فى المدن . وهو « العربية » . والمقصود بها فى هذه الحالة ، هو لغة الشعر العربى القديم على الأخص ، التى ظلت حية تروى عن هؤلاء البدو أمداً طويلا . غير أن هذا فيما يبدو ، لا يعنى أن تلك « العربية » تساوى لغة التخاطب عند البدو ، فإن اللغويين العرب لم يكترثوا بهذه اللغة الأخيرة ؛ لأنهم كانوا يرمون إلى غرض آخر مختلف ، فلقد كان الشيء الوحيد المستأثر بجهود اللغويين العرب

---

(١) ولا يعارض هذا أن سادة القول : الكاهن والخطيب والشاعر ، من خاصة القوم فى الغالب . ومن المهم جداً ملاحظة ابن جنى — وإن كانت فى سياق مختلف — عن الاستعداد اللغوى الطبيعى عند البدو على الإطلاق . انظر اقتباس المزهر (طبعة القاهرة ١٢٨٢ ﻫ) ٢/٢٤٩ عن الخصائص : « أتراه (أى البدوى) لايحسن بطبعه وقوة نفسه ولطف حسه هذا القدر ؟ » وبعده فى السطر التاسع من أسفل الصفحة : « قوة حس هؤلاء القوم ، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع ، مالا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع » .

(٢) فى مجلة LCBL (سنة ١٨٩٩) ١٤٠٤ وانظر كذلك تاريخ الأدب العربى لبروكلمان GALS I 16 .

دائماً هو العربية الفصحى[١] . وإذا حدث هذا فلا عجب أن يجد اللغويون الإعراب عند البدو حقاً ، ولكن أن يستخلص من ذلك أنه لا وجود للغة بلا إعراب عند البدو على الإطلاق ، فذلك أمر غير مقبول وحجة واهية[٢] .

ومن غير المقبول عندى كذلك ، بناء على كل ما سبق ، أن تكون لغة البدو المشتركة الناشئة فى أماكن مختلفة ، بسبب اجتماع القبائل والعشائر المتباينة فى حياة مشتركة ومجتمعات مغلقة — أساساً خرجت منه عربية القرون المتأخرة الفصحى ، ولا أستطيع الربط بين لهجاتهم وما وضعه النحاة المتأخرون من قواعد العربية .

ويرى « فلك » بعد ذلك أن القرآن الكريم معرب إعراباً كاملا ، ويؤيد كلامه بأمثلة من القرآن ، يراها شواهد مؤكدة على ذلك ، وهى ما يلاحظ فيه من جمل مفرداتها حرة الحركة ، وذلك لا يحدث إلا فى لغة معربة . وإنه لا يشك على الإطلاق ، فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، قد قرأ القرآن الكريم بالإعراب ، ولكن الدليل على ذلك ليس هو حرية حركة المفردات فى داخل الجملة ، وإنما يكمن الدليل فى أن القرآن ليس أقل فى الدرجة من أقوال الشعراء والخطباء والكهان ، وهى أقوال لم تصغ بلهجات الخطاب العامية ، بل صيغت بالعربية الفصحى[٣] .

---

(١) وكذلك الكتب المؤلفة فى « لحن العامة » إنما هى وسيلة إلى غرض هو إثبات الصحة اللغوية ، وليست غرضاً مستقلا ، كما أن هذه الكتب ، لاتروى لنا شيئاً عن لهجة البدو . غير أنه من الجدير بالملاحظة على أية حال ، حديث اللغويين عن « السليقية » ، وهى عبارة عن اللغة «التى يسترسل فيها المتكلم على سليقته من غير تعمد إعراب ، ولاتجنب لحن» (اللسان ١٢/٢٧) ولا يعنى هذا عندى إلا أن العربية بلا إعراب كانت موجودة أحيانا لدى البدو كذلك . وانظر أيضاً (اللسان ١٢/٢٧) : « السليقى من الكلام ما تكلم به البدوى بطبعه ولغته » . ويشير « فلك » إلى هذا الموضع ، غير أنه يفهمه بمعنى آخر .

(٢) ومثل ذلك عندى من النتائج المضللة كذلك ، استشهاد نولدكه (BSS آخر الصفحة الرابعة) برواية سيبويه عن الأعراب ؛ لأن هذا النثر المروى يبدو أنه من « لغة الحياة اليومية العادية » . ويبدو أن هذه الجمل قد صيغت للاختبار ، ثم حملت على من سئل فى هذا الاختبار (انظر مثلا التصريف : مررت بـ ١/١٦٧ س ١٨ الذى اقتبسه نولدكه) .

(٣) لم يخطىء « هارتمان » Hartmann فى مقاله عن الموشح ١/٢١٧ حين تحدث عن « لغة الشعر المقدسة » ، وكذلك يرى جاير (فى المرجع السابق ص ١٨) أنه من المستحيل أن يكون القرآن الكريم ، قد نزل باللهجة الشعبية ، لأسباب مماثلة . وانظر كذلك : « صيغة الوقف فى العربية القديمة » لبركلاند Berkeland ص ١٩ السطر التاسع من أسفل .

وأنا لا أعتقد فى أن حرية الكلمات فى داخل الجملة ، تدل بالتأكيد على وجود الإعراب ، ولنتذكر أنه يوجد عموماً فى كل لغة نظام مألوف من ترتيب الكلمات فى الجملة ، غير أنه يلتزم فى حدود معينة ، فنى أحوال كثيرة لا يرتبط هذا إلا بأهمية كل جزء من أجزاء الجملة على حدة ، فيتحرك بناء على تلك الأهمية فى داخل الجملة[1]. ويمكن للنهايات الإعرابية فى ظروف معينة ، أن تساعد على الفهم السريع للمعنى الذى يفيده السياق والنبر الناتج عن هذا السياق ، غير أنها ليست ضرورية أو فيصلا فى ذلك[2] .

وهكذا لا يصح أيضاً فى هذا العموم ، أن يعزو « فك » إلى وضع الكلمات فى داخل الجملة ، وظيفة إعرابية ، فى مقابل النهايات الإعرابية . صحيح أن اللغة الأدبية ، مع بعض الكلمات والأبنية ، التى تعبر بطريقة إعرابية تختلف عنها مع الإعراب بالحركات (مثل : أبو / أبى / أبا ، ومثل : ون / ين فى نهايات جمع المذكر) ، بدأت تخلط الحالات الإعرابية . غير أن هذا لا يعنى إلا أن اللغة أصبحت ذات حالة إعرابية واحدة غير متغيرة ، ولا تفهم كما لو كانت صيغاً مختلفة فى لغة حية غير متصرفة ، بل ليست إلا صيغة واحدة ثابتة .

وإذا قرأ المرء أو سمع إلى جانب ذلك صيغة إعرابية قديمة فى استعمال خاطىء ، فإن ذلك لا يكون إلا حذلقة صياغية ، نشأت من اعتقاد أن الصيغة ليست حية فى اللهجات ، ولهذا تعد غريبة على الإحساس اللغوى الطبيعى ، ولكنها بنيت على نمط صيغ أدبية معروفة .

---

(١) ومع ذلك تخرج بالطبع تلك الحالات التى لايلتزم فيها الترتيب العادى إلا بسبب الوزن أو القافية . ولا يجوز مطلقاً أن يستخدم الشعر للإشارة إلى الترتيب غير المألوف بالمعنى السابق ، وهذا مبدأ لايمكن أن يؤكد بصورة قاطعة بالنسبة إلى العربية . وكل شروحنا للنحو العربى تتميز بصورة أو بأخرى ، بعدم مراعاة هذا المبدأ ، وإن كان السبب فى ذلك معروفاً بوضوح ، وهو استخدام الشواهد القديمة قدر الإمكان ، وهذه الشواهد ليست إلا شواهد شعرية .

(٢) يصدر المرء فى الحكم على هذه المشكلة بسهولة عن التراث المكتوب الذى يحتوى على علامات ظاهرة ، كالنهايات الإعرابية ، ترغب وتقدر كثيراً . وفى اللغات الميتة لايعتمد المرء فى الحقيقة : إلا على التراث المروى وحده ، غير أنه فى اللغات الحية التى يمكن أن تدرس بالكلام والحديث ، تلعب العوامل السمعية المختلفة دوراً . والخبرات التى يكتسبها المرء ، يجب أن تراعى مع اللغات الميتة ، فى دائرة أكثر اتساعاً من ذى قبل ، عند الحكم على ظروفها وأحوالها .

أما المثال الذى ساقه « فك » للتدليل على أهمية الإعراب ، وهو قوله تعالى : « وإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو القُرْبَى » (سورة النساء ٤ / ٨) ، فإنه ليس مثالا صالحاً ؛ لأن « أولو » ليس من ناحية الصيغة إلا حالة رفع ، فلا غموض إذن فى وظيفته الإعرابية .

وأما المثال الآخر الذى ساقه « فك » فى هذه المناسبة كذلك ، كما ذكره ابن الأثير فى المثل السائر[1] ، وهو قوله تعالى : « إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ » (سورة فاطر ٣٥ / ٢٨) ، فإنه يمكن أن يضبط برفع « الله » ونصب « العلماء » غير أنه ينافى العقل . بيد أن الفهم الصحيح لا يتيسر بترتيب آخر للكلمات ؛ فإنه لا بد من وضع كلمة : « العلماء » فى نهاية الجملة ، إذا أريد الاحتفاظ بالمعنى المقصود ، الذى يجعل النبر على هذه الكلمة ، فإذا جعلت الجملة : « إنما يخشى العلماءُ الله » كانت من قصر الفاعل على المفعول . ووضع الفاعل فى آخر الجملة إنما ينشأ بالضرورة من أصل وضع تركيب « إنما » ؛ إذ المعنى : جزء الناس الذى يخشى الله هو العلماء .

ونعرج فى هذا المقام على استخدام غير المتكلمين بالعربية للعربية ، من الأقوام الذين خضعوا للإسلام ، فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى ؛ فإن « فك » يفسر نطق غير العرب للعربية بلا إعراب ، بأنهم لم يألفوا فى لغاتهم ظاهرة التصرف الإعرابى ، فتركوا الحركات الأخيرة ، لصعوبتها عليهم ؛ غير أن ذلك يفترض قدرة على التجريد ، تعتمد على اطلاع لغوى على بناء المورفيمات العربية الخاصة بذلك ، وهو أمر لم يكن متوفراً لدى هؤلاء .

وأسهل من هذا تفسير هذه الظاهرة ، بسماع تلك الشعوب للعربية فى صورة غير معربة ؛ ولذلك لم يكن أمامهم صور أخرى يحاكونها ، ولم يكن عند هؤلاء قدرة على التفرقة بين العامية والفصحى . ويعد القرآن الكريم هو النموذج الأول والوحيد لفترة طويلة لهذه اللغة الفصحى ، ويعرفه هؤلاء المسلمون الجدد معرفة جيدة ، ويقرءونه على نمط هذه اللغة .

---

(١) طبعة القاهرة ١٣١٢ هـ ، صفحة ١٧/٥



تمهيد

لم يحدث حدث فى تاريخ اللغة العربية أبعد أثراً فى تقرير مصيرها من ظهور الإسلام . ففى ذلك العهد — قبل أكثر من ١٣٠٠ عام — عند ما رتل محمد صلى الله عليه وسلم القرآن على بنى وطنه بلسان عربى مبين ، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد ، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج فى مستقبل هذه اللغة. ولا ينحصر هذا فى الدور الذى لعبته العربية منذ ذلك الوقت فى العالم الإسلامى كافة ، من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الإطلاق ، بل يتجاوزه بمقدار أعظم إلى النتائج التى تركتها غزوات الفتح على أيدى البدو تحت راية الإسلام فى لغتهم . وبذلك صارت العربية لغة الطبقات السائدة الموجِّهة فى دولة سرعان ما امتدت رقعتها — فى أوج اتساعها وانتشارها بعد سنة ٧٠٠ م — من أسبانيا غرباً ، إلى أواسط آسيا نحو المشرق . وقد زحفت العربية مع الفاتحين البدو فاستقرت فى بعض أقاليم الدولة العربية الفتية ، واضطرت إلى الانسحاب بأخرة من بعض آخر ؛ كما كانت هناك مناطق استعاض سكانها الأصليون من العربية إحياء ما بلى من لهجاتهم على مر الزمن ، وأخيراً أخرى بقيت فيها العربية لغة العلم المعتمدة فحسب . ولم يؤثر سقوط الدولة العربية (الأموية) سنة ٧٥٠ م فى مكانة اللغة العربية ؛ بل لقد شهد عصر الازدهار فى أوائل الدولة العباسية أقصى درجات العناية بالقواعد العربية ، ثم شهد ، على أثر ذلك مباشرة ، العصر الذهبى للأدب العربى ؛ كما أن انحلال الدولة العباسية إلى دويلات عديدة مستقلة ، ذلك الانحلال الذى أخذ نهايته فى حوالى سنة ٩٣٥ م ، لم يزعزع من مكانة العربية ، التى ربطت إذ ذاك جميع أقطار المدنية الإسلامية ، على أنها اللغة الأصيلة للعلم والأدب ، برباط جامع وثيق . حقاً لقد رفع العصر السلجوقى بشرقى العالم الإسلامى من شأن اللغة الفارسية الحديثة ، فجعلها اللغة الرسمية ، لغة السياسة الدولية (الديبلوماسية) ، وترجمان الثقافة العالية ، والأدب الرفيع ؛ ولم يعترف بالعربية إلا على أنها لغة الدين والفلسفة الكلامية فحسب ؛ كما أن الأحداث

السياسية قد دفعت مصر إلى أن تتبوأ مكانة الرياسة بين البلدان الناطقة بالضاد بعد الحروب الصليبية وهجوم المغول ؛ وهى مكانة عرف وادى النيل كيف يحتفظ بها إلى هذا اليوم ؛ بيد أن مقام العربية باعتبارها اللغة المعتمدة للعلم والأدب قد بقى حتى هذا العصر الحديث ثابت الأركان ، وطيد الدعائم ؛ ولم يجرؤ إلا بعض دعاة الإصلاح الإسلاميين على توجيه نقدهم اليوم — دون جدوى — إلى عقيدة اللغة العربية الفصحى .

هذه العقيدة التى جعلت من العربية الفصحى نموذجاً مفروضاً ، ومثلا أعلى يقتفيه كل كاتب عربى ، جعلت من العسير بمكان أن نحصل على صورة واضحة للنمو والتطور الذى أصاب العربية ، ككل لغة حية ، فى مدة تربو على ثلاثمائة وألف عام . ولقد تكفلت القواعد التى وضعها النحاة العرب فى جهد لا يعرف الكلل ، وتضحية جديرة بالإعجاب ، بعرض اللغة الفصحى وتصويرها فى جميع مظاهرها ، من ناحية الأصوات ، والصيغ ، وتركيب الجمل ، ومعانى المفردات على صورة محيطة شاملة ؛ بحيث بلغت القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد . ولا تزال القواعد الأساسية المذكورة تعد اللغة العربية لغة متصرفة بمعنى الكلمة ، محافظة على نهايات الإعراب والتصرفات المختلفة ، كالضمة فى حالة رفع الاسم والفعل ، والكسرة فى حالة خفض الاسم ، والفتحة فى حالة نصب الاسم والفعل إلخ . ولما كانت علامات الإعراب هذه قد تلاشت منذ أجيال عديدة فى العالم العربى كله ، سواء على لسان عامة الشعب ، فى القرى والمدن ، أم فى شتى أساليب الكلام الجارى على ألسنة الطبقات المثقفة ، بل فى لهجات البدو أنفسهم ، فقد صار الإعراب هو الفارق الذى يميز عند المثقفين العرب بين العربية الفصحى وجميع القوالب والأساليب المولدة ، حتى اللهجات الدارجة ، واللغات العامية ، بيد أن هذا الإعراب ، أى الطريقة الخاصة التى كان ينطق عرب البادية على مقتضاها ، هى فى ذاتها سطحية ، بحيث لا تكفى وحدها لتكون ميسما مميزاً للغة الفصحى . وليس من النادر أن نجد الإعراب مجرد حلية فارغة يقصد منها إلى إعارة نوع من التعبير ، فى قالب مخالف للفصحى فى جوهره ، مسحة زائفة من الفصحى . وإذن فجوهر القالب اللغوى وحقيقته هو

الذى يميز الطابع الصحيح للعربية الفصحى . ومن هنا يصح أن نقول : إن التحرر من الإعراب قرينة أكيدة على العربية المولدة ، لا العكس ، أى أنه ليست العربية المولدة منحصرة فى التحرر من الإعراب .

لقد احتفظت العربية الفصحى ، فى ظاهرة التصرف الإعرابى ، بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية — باستثناء البابلية القديمة — قبل عصر نموها وازدهارها الأدبى . وقد احتدم النزاع حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابى فى لغة التخاطب الحى . فأشعار عرب البادية — قبل الإسلام وفى عصوره الأولى — ترينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان . كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين العرب كانوا — حتى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى على الأقل — يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم ، تدل على أن التصرف الإعرابى كان فى أوج ازدهاره آنذاك[1] . بل لا نزال حتى اليوم نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الإعراب . أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربى ، وهو القرآن ، قد حافظ أيضاً على غاية التصرف الإعرابى ، فهذا أمر ، وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر ، الذى لا تترك أوزانه مجالا للشك فى إعراب كلماته ، فإن حرية الحركة فى بناء جمل القرآن لا تترك أثراً للشك فى إعرابه كذلك . انظر مثلا سورة فاطر ٣٥ / ٢٨ « إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

وسورة التوبة ٩ / ٣ : « أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُه » : ...
وسورة االبقرة ٢ / ١٢٤ : « وإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ » .
وسورة النساء / ٨ : « وإذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُو القُرْبَى » .

فمثل مواقع الكلمات فى هذه الآيات (كالاستعمال اللاتينى matrem amat filia الأُمَّ تُحِبُّ البِنْتُ) لا يمكن أن يكون إلا فى لغة لا يزال الإعراب فيها حياً صحيحاً . يضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه ، كما فى سورة النحل ١٦ / ١٠٣ : « وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ » . وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن ولغة العرب ، أى قبائل البدو . ولا يمنع ذلك أنه كانت هناك فروق

(١) انظر أمثلة لذلك فى الفصلين السادس والتاسع من هذا الكتاب .

بين لهجة مكة ولهجات البادية ، وبين هذه الأخيرة بعضها مع بعض . فها هي ذي قواعد رسم المصحف تدل على أن مكة قد تحررت من تحقيق الهمز ، كما أن لغة القرآن تختلف اختلافاً غير يسير عن لغة الشعراء ، فهي تعرض ، من حيث هي أثر لغوي، صورة فذة لا يدانيها أثر لغوي في العربية على الإطلاق[1] . ففي

---

(١) على أساس هذا الاختلاف بنى كارل فوللرز K. Vollers في كتابه : Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien, Strassburg 1906 نظريته اللافتة للأنظار ، من أن القرآن كان في بادىء الأمر بلسان محمد ، يعني بلهجة مكة الخالية من ظواهر الإعراب ، وأنه يدين بأسلوبه الذي وصل إلينا ، إلى تنقيح خاضع للقواعد التي اعتمدت في العربية على الأخص من حيث الإعراب . وهذه النظرية التي تناولها نولد كه Nöldeke بنقد يرفض التسليم بها في كتابه : — Neue Beiträge zur semitischcn Sprachwissenschaft, Strassburg 1910 1 — 5 أثار الكلام فيها من جديد باول كاله P. Kahle في كتابه : The Cairo Geniza, London 1947, p. 78 - 84 وإن كان في قالب معتدل . وقد ساق كاله هنا ، وبتفصيل وبسط في مقاله The Qur'an and the Arabiya المنشور في الكتاب التذكاري لتكريم المستشرق « جولدتسيهر » ، ص١٦٣ — ١٨٢ ، عدداً من النصوص والروايات التي تحث المسلمين على مراعاة الإعراب في ترتيل القرآن . نعم لاتدل هذه الروايات على أن القرآن في حياة محمد قرىء في أوساط المسلمين دون إعراب ، — وقد عرف النقاد المسلمون أنها موضوعة مزيفة ، وأبقوها بعيدة عن الكتب المعتمدة — ولكنها تدل على أن ترك الإعراب قد حصل في وقت متأخر ، وأن النحاة رأوا من الضروري أن يعملوا على محاربتها. وقد ساق كاله ، في كتابه السالف الذكر ، نقلا عن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ ه ، في نص عربي يتضمن بعض هذه الروايات مع بيان لهذا النحوي الكوفي الضليع في موضوع بلاغة القرآن . وفي هذا يؤيد الفراء مذهب أهل السنة من أن القرآن نزل بأفصح اللغات ، ويرد على بعض علماء الشعر ، ورواة الأخبار التاريخية عن عرب البادية ، الذين لايريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن في قوالبه اللغوية بل يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البادية ، ثم يختلفون (الكوفيون والبصريون والمدنيون والمكيون) حول أي القبائل أفصح ؟ حسب اختلاف جوار كل منهم لقبيل من العرب ، فيذهب الفراء رداً على جميع هؤلاء إلى أن لغة قريش أفصح أساليب العربية على الإطلاق . وممن ينكر عقيدة الإعجاز اللغوي في القرآن أهل الاعتزال من علماء اللغة . وقد أخذ تفسير الإعجاز القرآني عند المعتزلة مذاهب شتى (انظر : Goldziher, Muh. Srudien 2, 401) كما أن آراء المعتزلة انتشرت انتشاراً بعيداً بين علماء اللغة من أواخر القرن الثاني ، بحيث لم يعد ، كما يرى السني الحافظ إبراهيم الحربي ، المتوفى ٢٨٥ ه ، غير أربعة من نحاة البصريين الذين لايتعلق الشك بثقتهم وصحة مذهبهم (انظر تاريخ بغداد ١٠/٤١٨ وكان الفراء نفسه يميل إلى الاعتزال ، ولكن ذلك لم يمنعه من موافقة مذهب أهل السنة في موضوع إعجاز القرآن كما ذكر . وقد روى عنه أنه أنحى بشدة اللائمة على أبي عبيدة في محاولته تفسير مجاز القرآن من الوجهة اللغوية (تاريخ بغداد ١٣/٢٥٥) . =

القرآن ، لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية ، ينكشف الستار عن عالم فكرى ، تحت شعار التوحيد ، لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة إلا نموذجاً واهياً له ، من حيث ظاهر وسائل الأسلوب ، ومسالك المجاز فى اللفظ والدلالة ، على حين أن هذا الأثر العظيم ، الذى وجد التعبير الموائم لمضمون جديد برُمَّته ، إنما يصور مجهوداً لمحمد صلى الله عليه وسلم جدّ أصيل[1] ، لا ينقص من قيمته أن محمداً نفسه كان يرى أنه وحى إلهى تلقاه فى أوقات الاستغراق الدينى . والاستعمالات القرآنية الخاصة ، التى تحتوى هى أيضاً على مخالفات للقواعد العامة ، تعد فى مستوى مغاير للشذوذ المختلف المراتب ، بالنسبة للتصرف الإعرابى ، فى العربية الفصحى والعربية المولدة . وقد بدأ التطور إلى العربية المولدة حينما انتقلت العربية بعد وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) مباشرة عن طريق الغزوات الكبرى فى العهد الإسلامى الأول ، إلى خارج حدودها القديمة ، فى مواطن لغوية أجنبية .

= وقد عالج Kahle آراء القراء مرة أخرى فى مقاله : The arabic Readers of the Koran (Jurnal of Near Eastern Studies 8, 1947, p. 65-71) .

وأراد أن يعتبر من منكرى إعجاز القرآن اللغوى ، قراء القرآن الأولين فى المدن الإسلامية الكبرى ، الذين رحلوا لمخالطة عرب البادية المخيمين فى جوارهم ، قصداً إلى دراسة رواياتهم عن شعراء البدو ، ووضع قواعد مستنبطة من لغة الشعر لقراءة النص القرآنى على مثالها ، وهو يفترض أن هذه الضرورات العملية هى التى أوجدت الباعث إلى جمع شعر الجاهلية وكتابته فى أوائل العصر الإسلامى . وعلى أساس هذه المادة التى تم جمعها ، وضعت لغة نموذجية ، كان الإعراب من ميزاتها ، ومن ثم أدخل الإعراب فى قراءة القرآن . وانظر فى الرد على هذا الرأى الفاسد لباول كاله : كتابنا فصول فى فقه العربية ٣٣٣ — ٣٣٦ (المترجم) .

(١) هذا على مايعتقده الغربيون من أن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم . ولا تخفى مخالفة هذا لعقيدة الإسلام (النجار) .

(٢)

العلاقات اللغوية

فى عهد الدولة العربية (الأموية)

١١ / ٦٣٢ – ١٣٢ / ٧٥٠

كانت هجرة القبائل العربية ، عقب وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) سنة ٦٣٢/١١ ، إيذاناً بشروق شمس عصر جديد للغة العربية . ففى مدة بضع عشرات من السنين حملت قبائل البادية ، فى غزوات الفتح ، لهجاتها نحو الشمال إلى فلسطين وسورية وبلاد الرافدين حتى جبل طوروس وجبال أرمينية ، ونحو الشرق ، عبر العراق ، إلى إيران ، ونحو الغرب ، عبر شبه جزيرة سيناء ، إلى مصر وشمالى أفريقية ، ولم تكد تمضى مائة عام على وفاة محمد (عليه السلام) حتى امتدت الدولة إلى سفوح البرانس فى المغرب ، وإلى أواسط آسيا على شواطىء نهر الهند فى المشرق ؛ وهذا التغلغل الذى قامت به اللغة العربية ، إلى مناطق كانت تستوطنها لغات أخرى ، لم يكن ليحدث دون تأثير أو تغيير ، وإن اختلفت نتائج هذه العلاقات الجديدة ، حسب اختلاف الأحوال ، فى مظاهرها وظواهرها . ولقد احتفظت كثير من القبائل البدوية فى البلدان المفتوحة كذلك ، بطريقة حياتها البدوية ؛ وحافظت بذلك على سلامة لهجاتها وخلوصها . ولهذا كان لا يزال ممكناً فى أوائل العهد العباسى ، أن يلاقى المرء من جنوبى البرتغال فى الغرب ، إلى خراسان فى الشرق ، قبائل عربية ، وأن يسمع من أفواهها عربية بدوية خالصة ، لا تشوبها هجنة ولا عجمة [١] . ومن جانب آخر لقد أدى عهد الفتح إلى بث روح من القوة فى صميم العربية ، وإلى توحيد لهجات البدو أنفسهم . فعلى غرار البدو من غير العرب ، كقبائل الترك مثلا ، لم تكن لهجات القبائل البدوية بالجزيرة العربية بعيدة الاختلاف من الوجهة اللغوية بحيث لا يمكن التفاهم ، حتى بين القبائل المتباعدة بعضها عن بعض فى السكنى والجوار ؛ إذ إن أغلب الفروق – فيما يظهر – كانت فى الأصوات ، والأبنية ، والمعانى ؛ أو على الأقل هذه هى الفروق التى لفتت

---

(١) انظر الفصلين السادس والتاسع من هذا الكتاب .

أنظار اللغويين العرب، الذين نعتمد على أخبارهم وحدها فى معارفنا عن اللهجات البدوية(١). ومن تلك الفروق — مثلا — : العنعنة، أى النطق المفخم للهمزة(٢)؛ والسكسكة، وشبيهتها الكشكشة، أى إبدال السين أو الشين من الكاف؛ والتلتلة، أى كسر حرف المضارعة؛ [والعجعجة، أى] قلب الياء المشددة جيما فى النسبة [مثلا]؛ وأخيراً الأمثلة التى لا حصر لها من استعمال لفظ عند قبيلة، فى صيغة تخالف صيغته عند أخرى، أو بمعنى يختلف كذلك. فهذه الخصائص اللهجية، قد صُقِلت إلى حد بعيد فى عهد الفتوحات التى وَحَّدت القادرين على حمل السلاح من مختلف القبائل فى سبيل التعاون فى الجهاد. يضاف إلى ذلك أن السياسة الواسعة الأفق التى امتاز بها الخليفة الثانى، عمر العبقرى، المؤسس الحقيقى للدولة الإسلامية الكبرى (حكم ١٣/٦٣٥ — ٢٣/٦٤٤) قامت بقسط لا يستهان به فى سبيل توحيد اللغة، وإنشاء لسان مشترك بين قبائل البدو جميعاً؛ كما حفظت العربية من الاضمحلال والانحلال. فلكى يحفظ عمر شعبه العربى من التلاشى فى جماهير الشعوب المغلوبة، التى تفوقهم بكثرة العدد حرم عليهم أن يمتلكوا الضياع فى الأقاليم الجديدة، أو أن يتخذوها لهم وطناً ومُقاماً؛ كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة فى البلدان المفتوحة، ما عدا سورية التى كانت استعربت إلى حد كبير قبل الإسلام، عن طريق القبائل العربية التى هاجرت إليها(٣)، فأسكنهم فى معسكرات من الخيام، كانت نواة للمدن العظمى فى العالم الإسلامى، التى نشأت فى بضع عشرات من السنين، كالبصرة والكوفة، والفسطاط، وغيرها. وبينما كانت تقيم هنا مختلف القبائل والعشائر فى جوار قريب، اكتسبت أيضاً لهجاتهم قوة وفتوة، ونشأت لغة بدوية مشتركة وضعت الأساس لعربية القرون المتأخرة الفصحى.

حقاً لم يكن ممكناً أن يبقى حد فاصل، بين الفاتحين العرب والمغلوبين على أمرهم من غير العرب، قائماً على الدوام. لقد كانت توجد فى جميع الأقاليم مناطق زراعية، لم يكن لأحد من السكان الأصليين عليها حق قانونى : الضياع

(١) يقدم كثيراً من النصوص: H. Kofler : WZKM (Wiener Zeitscchrift für Kunde des Morgenlandes) Band 47 - 49.

(٢) ليس هذا التعبير مصيباً، لأن العين ليست صوتاً مفخماً (شبتيالر). والصواب أن يقال : أى إبدال الهمزة عيناً (المترجم).

(٣) انظر لفلهاوزن: Wellhausen : a (Skizzen,6,51 ff. b) Reich 83

الملكية للأسر المبعدة من الحكم ؛ الأملاك التى انقرض ملاكها ؛ التركات التى هرب أصحابها أو نفوا ؛ إلى غير ذلك . هذه الضياع والأملاك احتازها ولاة الأمر فى العهد الجديد على صورة إقطاعيات . وهذه الطبقة السائدة ، من الملاك العظام ، كانت على اتصال دائم بالسكان الوطنيين ، مهما كان هؤلاء — من حيث قلة العدد — أضعف من أن يؤثروا أثراً ظاهراً فى تكييف العلاقات اللغوية وتغييرها . بل لقد كانت أكثر من ذلك كثيراً تلك الطائفة التى تلتحق بكل جيش عربى من غير العرب ، من العبيد ، والخدم ، والتجار ، والباعة وغيرهم ، ممن كانوا يقدمون الخدمات المختلفة لسادتهم الجدد ، ويخلقون بذلك مشكلة لغوية غير هينة . ومن هنا نشأت بالضرورة لغة للتفاهم ، لا يمكن أن نصورها بسهولة كافية إذا ضربنا لها مثلا : lingua franca ، أو Pidgin - English أو غيرهما من اللغات المصطنعة لتقريب التفاهم عند الضرورة [١] وقد استعانت لغة التفاهم المذكورة بأبسط وسائل التعبير اللغوى ، فبسَّطت المحصول الصوتى ، وصوغ القوالب اللغوية ، ونظام تركيب الجملة ، ومحيط المفردات ؛ وتنازلت عن التصرف الإعرابى ، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها ، كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية ، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة عن مواقع الكلمات فى الجملة ، للتعبير عن علاقات التركيب . وفى أى صورة كانت تصدر هذه اللغة الجديدة ؟ هذا ما تشير إليه قصة تاجر الدواب ، الذى باع جنود المسلمين دواب رديئة ، فاستنطقه الحجاج ، فأجابه : « شريكاتنا فى هوازها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجى تكون » ؛ أى أن هذه الدواب قد وصلت على ما هى عليه من رداءة من شركائه فى بلادهم بالأهواز والمدائن [٢] . ولم تكن أقل من ذلك عدداً تلك الجماعات غير العربية ، التى وقعت فى الأسر فى أثناء حروب الفتح ، والتى دخلت معسكرات الفاتحين وبيوتهم عبيداً وإماء ، فوجدت نفسها فجأة وسط

---

(١) lingua franca اصطلاح أوربى يقابله فى بلاد الشرق تعبير : اللغة الإفرنجية ، وهى خليط من الكلمات الإيطالية والفرنسية واليونانية وغيرها ، يستعمله المشارقة فى التفاهم مع الأوربيين . و Pidgin - English اصطلاح على لهجة إنجليزية مبسطة محررة من القيود اللغوية ، يجرى التفاهم بها بين الإنجليز والأجانب ، على الأخص فى بلاد الشرق الأقصى . و Pidgin كلمة محرفة عن : business الإنجليزية (التجار) .

(٢) البيان للجاحظ ١/٦٨ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٦٠

جماعة تتحدث العربية ، واضطرت إلى استعمال لسان السادة ولهجتهم . وبهذا عانت العربية على لسان غير العرب من تغييرات هدّدت بالمسخ صورة وقعها وَجَرْسِها ، وطبيعة تكوينها وتركيبها فى الصميم . وتفاصيل هذا التطور غير معلومة لنا ، بسبب انعدام أخبار المعاصرين . بيد أن المؤلفات المتأخرة عن ذلك قد حفظت لنا مقداراً كبيراً من الأخبار عن الأخطاء اللغوية ، التى وإن كان كل منها على التفصيل ليس بذى قيمة خاصة ، إلا أنها فى مجموعها تؤكد نوعاً من الخصائص والسمات بصورة مستفيضة ، بحيث يجوز لنا أن نعتبرها طابعاً مميزاً لهذا التطور . وهكذا نجد أن غير العرب يستبدلون بأصوات عربية معينة ، أخرى أسهل عليهم ، بحيث كان العربى يدرك من ذلك التبديل ما إذا كان الناطق فارسياً أو نبطياً . وقبل كل شىء ، نجد التعارض مع قواعد النحو والتصريف العربى للأسماء والأفعال كثير الذكر فى الأخبار ، دليلا على أن ترك التصرف الإعرابى كان من أول السمات على الخطأ فى طريقة التعبير . هذا ، ولم تكن هناك لغة واحدة بين اللغات التى التقت بها العربية فى عهد الفتح ، كانت محتفظة بنظام تصريفها القديم ؛ ولهذا كان من الشاق العسير على الأجانب الذين اضطروا إذ ذاك إلى استخدام العربية ، أن يتابعوا القواعد والنظم المعقدة للجملة العربية القديمة ؛ فآثروا التصرف بوساطة أساليب التعبير التقريبية ، التى اعتادوها فى لغاتهم الأصلية ، وحذفوا حركات الإعراب الأخيرة . ومن المعلوم أن الروايات العربية تقرن أوائل النحو العربى بأبى الأسود الدؤلى (المتوفى ٦٨٩/٦٩) ، الذى يقال إنه وضع أسس هذا العلم ، إما بدافع من نفسه ؛ أو بأمر من الوالى الأموىّ زياد بن أبيه ؛ أو بإرشاد من الخليفة علىّ نفسه ، لحفظ لغة القرآن من الفساد ، على ألسنة الداخلين حديثاً فى الإسلام[1] . وعلى الرغم من أن هذه الروايات المتفرقة المتضاربة غير تاريخية بالمعنى الصحيح ، فإن فيها ما يشير إلى أن اتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لساناً لهم كان هو الدافع الأول للملاحظات النحوية . . . وإلى أى حد كانت صعوبات التصريف الإعرابى هى الموجّهة لقواعد النحو

---

(١) طبقات ابن سلام ٥ وإرشاد الأريب ٢٨٠/٤ ونزهة الألباء ٣-١٣ والمثل السائر لابن الأثير (١٢٨٢ ﻫ) ٧ . وقد ساق ابن قتيبة فى عيون الأخبار ١٥٨/٢ كلمة منسوبة لأبى الأسود فى اللحن .

الناشئة ؟ هذا ما تدل عليه الاصطلاحات التي ترتب الظواهر اللغوية ترتيباً سطحياً بحتاً بالنظر إلى حركات أواخر الكلمات ، بقطع النظر عن اختلاف وظيفتها النحوية فها هو ذا الخليل بن أحمد (المتوفى ١٦٠ ، أو ١٧٠ هـ) ، أقدم علماء النحو ، الذى أنقذت مصادفة سعيدة[١] اصطلاحاته ، يستعمل الرفع فى الاسم المضموم المنوّن ، وكذلك الخفض فى الاسم المجرور المنوّن ، والنصب فى الاسم المفتوح المنوّن ؛ على حين يسمى بقية الحركات العارية من التنوين فى الأحوال والصيغ المختلفة ، بأسماء الحركات العامة ، أى الضم والكسر والفتح ، كما أنه يسمى بالجر حركة الكسر التى تربط بين آخر الصيغة الفعلية وهمزة الوصل[٢] . ولا يوجد عنده ما يدل على تأثير النظرية القائلة بأن اختلاف حركات الكلمات المتصرفة متوقف على العامل النحوى ، إلا فى التفرقة التى جعلها بين التوقيف ، أى عدم الحركة فى أواخر الحروف وما شاكلها ، والجزم ، أى سكون الفعل المجزوم . وعند تلميذه سيبويه نجد التقسيم الثنائى إلى معرب ومبنى قد انتقل إلى المصطلحات كذلك ، فهو يطلق الرفع والجر والنصب على النهايات الإعرابية التى تتعاور الكلمات المعربة ، ويستخدم الضم والكسر والفتح للحركات وأواخر الكلمات المبنية[٣] . ولكن لا تفرقة عنده ولا عند البصريين المتأخرين[٤] بين الاسم والفعل المرفوعين ، والمنصوبين ، فى تسمية الحركة ؛ والفعل غير التام يسمى المضارع أى المشابه للاسم فى تصرفه ؛ ولا توجد عنده اصطلاحات خاصة لأحوال الاسم ، وتغيرات الفعل ، بَـلْـهَ تصرف الاسم والفعل بوجه عام . وإذن فالإعراب ، أى التعريب أو الاستعراب اللغوى ، بمعنى النطق على طريقة العرب الخلص ، يتجلى فى الدقة التامة فى مراعاة دقائق التصرف الإعرابى .

هذا ، واتخاذ العبيد والجوارى لإدارة المنازل فى العهد الإسلامى المبكر ، يجد ما يشبهه فى الدور الذى لعبه الرقيق من الزنوج[٥] بوجه خاص فى

---

(١) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٣٠ وما بعدها .

(٢) عبارة مفاتيح العلوم (عن الخليل) : والجر ماوقع فى أعجاز الأفعال المجزومة عند استقبال ألف الوصل نحو لم يذهب الرجل اهـ .

(٣) سيبويه (١٣١٦ هـ) ١/٢

(٤) انظر أيضاً مفاتيح العلوم ص ٢٩ .

(٥) انظر فى هذا الموضوع : B, Moritz : Arabien 47

الجاهلية . فالمَثَلُ الذى نجده فى شاعر المعلقات « عنترة » وغيره من أغربة العرب[١] ، أى المنتمين إلى آباء من العرب وأمهات من زنوج أفريقية ، يدل على أن الزنوج سرعان ما يصبغون ألسنتهم بلغة ساداتهم . ولابد أن يكون اختلاف الألسنة فى المدن التجارية ، لكثرة سكانها الأخلاط ، كما فى مكة مثلا ، أقوى من ذلك كثيراً . وتحتوى آية سورة النحل (١٦/١٠٣) ، فى الطور المكى الثالث ، على إشارة عابرة إلى اللغة الأجنبية : « لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ » ،أى الرجل الذى توهمه أعداء محمد معلماً له . ومن أقدم حواريّى الرسول يُعَدّ بلال الحبشى ، أول مؤذن فى الإسلام . وهناك صحابى قديم آخر من صحابة الرسول : صُهَيْب بن سنان ، وهو وإن كان عربى الأصل إلا أنه اختطفه البيزنطيون فى طفولته فربوه ، ولذلك كان ينطق العربية بلكنة بيزنطية[٢] . كما يروى عن معاصر ثالث للرسول : سُحَيْم المشهور بعبد بنى الْحَسْحَاس ، الشاعر المشهور ، أنه كان يرتطن لكنه أجنبية ، ولكن نظراً إلى أنه صار فى عهد مبكر بطل رواية غرامية ، لم تعد التفاصيل التى تخبر عن لكنته النوبية أو الحبشية جديرة بالثقة[٣] . وعلى الرغم من ذلك فقد كان عدد أمثال هؤلاء الأجانب من القلة بحيث لم يكن لهم تأثير فى طابع العربية[٤] . ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى أسرى الحروب فى العهد الأول للفتوحات الإسلامية . فقد كان عدد هؤلاء وفيراً ، وأخذ فى الازدياد ، إذ كانوا يتمتعون بحقوق النسب والمصاهرة ، وكان لهم أن يشتروا أنفسهم ،

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٧٢

(٢) الإصابة لابن حجر (١٣٢٨ هـ) ٢/١٩٥ . ورواية الجاحظ (البيان ١/٣٢) أن صهيباً كان يقول : إنك لهائن ، يريد إنك لخائن ، تشير فقط إلى أن العرب قد لفت نظرهم فى اللهجة الرومية إبدال الخاء هاء .

(٣) الجاحظ (البيان ١/٣٢ وانظر الكامل للمبرد ١٠/٣٦٦) يروى مثلا لذلك قوله : سعرت ، بدلا من شعرت . أغانى ٢٠/٢ ، روى عنه : أهسنت بدلا من أحسنت . وعلى النقيض من ذلك روى عنه ابن قتيبة (الشعر والشعراء ص ٢٤١ وابن جنى فى سر الصناعة كما فى خزانة الأدب ٢/٢٥٧) أحسنك ، بدلا من أحسنت ، أى أنه يصوغ الضمير المتصل للمفرد المتكلم على مثال اللغة الحبشية . انظر فى هذا : Nöldeke, BSSW 21, Anm 2.

(٤) انظر كذلك نطق أحد العبيد السود فى حكاية ذكرها المفضل بن سلمة فى الفاخر (رقم ١٦٣) وفيها كثير من الألفاظ التى تدل على عدم تمكن الأجانب من العربية (شبيتالر) .

ويحرروا رقابهم ، كما كان يعد قربة إلى الله تحريرهم بالإعتاق . وقد تألفت من هؤلاء العَتَقَى أو الموالى، بعد أجيال قليلة، الطبقات الدنيا والوسطى من المجتمع الإسلامى ، وامتلكت العناصر الطامحة من هذه الطبقات زمام اللغة التى تنطقها الطبقة العربية العليا ، على حين بقى السواد الأعظم عند أسلوب لغوى دارج ، ظهرت فيه ، بواسطة ترك التصرف الإعرابى قبل كل شىء، سمات العربية المولدة . ومن هذه اللغة الدارجة فى القرن الأول ، التى أخذت — كما يبدو — بعض الخصائص المحلية فى المدن المختلفة ، نشأت اللهجات المتأخرة فى المدن الإسلامية .

استمر احتكاك العربية بلغات العالم المحيط بها بضعة قرون ، خرجت منها تدريجاً بمحصولها الحالى . فنى بادىء الأمر ، قدمت العربية لأقاليم دولة الخلافة مجرد خيوط واهية فى شبكة تتألف خيوطها الأساسية من التعبيرات المتعارفة لدى السكان الأصليين . وقد كانت قوة تلك الخيوط العربية موقوفة على قوة الجيوش العربية ، والإمدادات اللاحقة بها ؛ كما كانت تتناقص بوجه عام كلما ازداد البعد عن الوطن القديم . وقد هاجرت مع قبائل البدو ، الذين فتحت لهم غزوات الفتح مراعى جديدة لم تكن سعتها وعظمتها فى حسبان ، لهجاتُهم ولحونهم حتى حدود الدولة . وإزاء هذا تمسك السكان الأصليون فى أول الأمر بلهجاتهم البالية . فقد كان الفلاحون ، الذين يسميهم الكتّاب المسلمون بالأنباط [١] ، والذين كانوا يؤلفون فى المنطقة اللغوية الآرامية جمهور السكان الزراع ، ينطقون اللهجات الآرامية . وأمثال هؤلاء النبط كانوا يوجدون فى سورية ، على الرغم من أن هذا الإقليم كان قد شهد هجرة عربية قوية قبل الإسلام ؛ وفى بلاد الرافدين ، وفى الأرض الزراعية الخصيبة من سواد العراق . وكذلك فى المدن لم تتغير العلاقات اللغوية إلا بمقدار الزيادة التى أضافتها العربية الجديدة إلى ما فيها من تعدد الألسنة . وفى أى صورة من البطء أخذت العلاقات تتغير ؟ يدل على ذلك الحقيقة الثابتة ، من أن اللغة اليونانية فى غربى الدولة ، والفارسية فى شرقيها ، ظلتا قرناً كاملا لسان الحكم والإدارة ، وحتى فى المدن الناشئة فى مواضع المعسكرات العربية ، كالبصرة والكوفة ، كان سيل العناصر

---

(١) Nöldeke, ZDMG 25, 124 ff.

الإيرانية من القوة بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان التصدر فى القرن الأول . ففى البصرة كانت أسماء الأمكنة المنسوبة إلى الأشخاص تختتم عادة بمقطع : ــ آن[١] ؛ وهكذا كانت تسمى القطائع الكثيرة بأسماء أصحابها ، مثل: مهلَّبان ، أُمَيَّتان (نسبة إلى أبى أمية) ، جعفران (نسبة إلى أم جعفر) ، عبد الرحمانان ، عُبَيْد اللان ويوجد بين أسماء القنوات الهامة بالبصرة صيغ ، مثل : خالدان ، طلحتان ؛ وأشهر الأمثلة من هذا النوع اسم : رباط عبّادان[٢] . وفى الفرق العسكرية الساسانية التى انضمت إلى العرب ، بقيت الفارسية لغة الخدمة فى الجيش ، على حين كان بعضهم ، ولا سيا الزُّط ، والسّيابجة ، والأنْدغار ، يحملون أسماء قبائلهم الهندية ، التى انتظموا منها فى الجندية[٣] . وكان الفارس منهم يحمل اللقب الفارسى لمرتبته ، وهو : أَسْوَار[٤] ، الذى جمعه العرب على أساورة ، ونسبوا إليه : أَسْوَارِىّ. وفى هذه الأوساط نشأ عبيد الله بن زياد (حوالى ٣٠ ــ ٦٧ هـ) الذى صار فيما بعد والياً على العراق[٥] ، إذ كانت أمه مرجانة (مرجورت[٦]) ــ ويدل الاسم على أن أصلها غير عربى ــ قد تزوجت الفارس شيرويه[٧] : Sheroe ،

---

(١) Grundriss der iranischen Philologie I 2, 176, Nöldeke ZA 12,183

(٢) أخذت هذه الأمثلة من الباب الخاص بتقسيم البصرة فى كتاب البلاذرى ص ٣٤٦ –٣٧٢ وفيه كثير غير ذلك . ومن هنا أيضاً أخذ ياقوت القائمة التى ذكرها فى معجم البلدان ١/٦٤٥ ولايمنع هذا من وجود تسميات عربية محضة مثل : المسمارية (بلاذرى ص ٣٦٤) .

(٣) البلاذرى ص ٣٧٥ وانظر أيضاً : G. Ferrand EI (Enzykl. des Islam) IV, 214 und 1336 وانظر كذلك: Marquart فى المجلة التذكارية لسخاو Ed. Sachau ص ٢٨٥

(٤) فى البهلوية : asvàr وفى الفارسية الحديثة (سفاو) وفى القواميس (أسفار) انظر : P.Horn Grundriss der neupersischen Etymologie 165 Nr 749.

(٥) انظر : Zettersteen EI, IV 1066

(٦) يرجع لفظ مرجان بوساطة اللغة الآرامية (مرجانيتا) إلى اللغة اليونانية انظر : Sachau على المعرب للجواليقى ص ٦٥ .

(٧) Sheroe شيرويه بالعربية أحد الأسماء الكثيرة التى عالجها بالتفصيل Nöldeke فى : Persische Studien I (SWA 16, I) 4 ff, . ومما يدل على معرفة العرب بأن لفظ : شير معناه الأسد ، قول ابن مناذر (المتوفى سنة ١٩٨ هـ) فى رجل اسمه شيرويه : وسمى الليوث بالفارسية (أغانى ١٧/٢٧) . وكان القصر الذى بناه شيرويه المذكور لمرجانة ، يسمى بالفارسية : هزاردار أى ذو الألف باب (بلاذرى ٣٥٩) .

وسمح لها أبوه ، زياد بن أبيه ، أن تحتفظ بطفلها معها ، ولذلك كان عبيد الله ينطق عربية غير فصيحة[1] ، فيقال إنه كان ينطق الهاء بدلا من الحاء ، والكاف بدلا من القاف — كما روى عن مولى لأبيه أيضاً، وهو : « فِيل » الغنى ، أنه كان ينطق الهاء بدل الحاء ، والهمز بدل العين[2] — وأنه (عبيد الله) قال عن الأرض : است الأرض ، وأمر الجنود يوماً فقال لهم : افتحوا (أى سُلُّوا) سيوفكم ؛ مما دعا ابن مفرغ الشاعر أن يسخر منه بقوله :

ويومَ فتحتَ سيفَك من بعيد أَضعتَ وكلُّ أَمْرِك للضَّيَاع

ويروى أن معاوية أوصى زياداً ، الذى كان خطيباً مفوهاً[4] ، أن يصلح من لسان ابنه ؛ وإن كان روى أيضاً أنه عند ما ذكر لمعاوية لحن عبيد الله بمعنى الخطأ فى اللغة ، أجاب بأنه يجد لحنه (على التورية) أظرف[5] .

وحياة ابن مفرغ[6] الآنف الذكر تقدم دليلا آخر على الدور الذى لعبته اللغة الفارسية بالبصرة . ذلك الرجل الذى عَـدّ نفسه — دون حق — من الحميريين ، والذى نسبت إليه تبعة أسطورة « تُبَّع[7] » ، صحب سنة ٥٦ هـ[8]

---

(١) البيان للجاحظ ١/٣٢؛ ٢/٢ ؛ والمعارف لابن قتيبة (طبع ١٣٠٠ هـ) ص ١١٨ ؛ والكامل للمبرد ٣٦٦ .

(٢) البيان للجاحظ ١/٣٣ وعيون الأخبار ٢/١٥٩

(٣) البيان للجاحظ ٢/٢ وعيون الأخبار ١/١٦٥ ويرى صاحب الأغانى(١٧/٦٦) أن الشعر قيل فى أخيه عباد بن زياد وفى أبيه من قصيدة طويلة .

(٤) كانت لخطبته التى افتتح بها ولايته على البصرة شهرة واسعة ، انظر : Wellhausen Das arab. Reich S 77 . وقد ذكر الرواة بعد ذلك اسمه مقترناً بأوائل النحو العربى، نزهة الألباء ١٣ وإرشاد الأريب ٤/٢٨٠ ، كما رويت أخبار جمة عن دقة إحساسه فى الأمور اللغوية . البيان للجاحظ ٢/٥ ؛ ١/٢٦ وعيون الأخبار ٢/١٥٩ وصبح الأعشى ١/١٦٩ والوزراء للجهشيارى (BAHGI) ص ٢٢ ، وإن كانت مثل هذه الأخبار مروية أيضاً عن الحسن البصرى .

(٥) الأمالى للقالى١/٥ والملاحن لابن دريد ٦ والأضداد لابن الأنبارى (القاهرة ١٣٢٥) ص ٢٠٨ ؛ وخزانة الأدب ٢/١٤ وغيرها .

(٦) انظر : A. Ebermann : Die Perser unter den arabischen Dichtern der Umaiyadenzeit OLZ 30, 1149

(٧) الأغانى ١٧/٥٢

(٨) Zambaur, Manuel de gènèalogie 47

عَبّاد بن زياد إلى خراسان ، ولكنه وقع معه فى خصومة ، فأخذ يحقر أسرة زياد منذ ذلك الوقت فى أبشع صورة ، وكانت البصرة جمعاء تتغنى بهجائه . وبعد عناء طويل استطاع عبيد الله بن زياد أن يضع عليه يده . وكما تجمع الروايات[١] ، أمر هذا بجر ذلك الأثيم عقاباً له فى ثياب مهلهلة ، مشدوداً إلى هِرّة وخنزير فى قَرَن ، ليسير فى طرق المدينة (البصرة) على هذا النحو . وقد تجمع خلفه — كما هو المتوقع — صبية الأزقة يصيحون ، ساخرين من حالته المزرية ، وهم يسألونه بالفارسية ، إين جيست : ما هذا ؟ وأنه أجابهم بالفارسية أيضاً : آبْ أَسْت ، نبيذأَسْت ، عُصَارَةِ زبيب أست ، سُمَيَّةُ رُوسْبى[٢] أست ؛ أى هذا ماء ، ونبيذ ، وعصارة زبيب ، وسمية البَغِىُّ (يعنى بها الخنزيرة) .

وكما يشهد البلاذرى[٣] ، كانت توجد فى البصرة جالية إصبهانية يرجع أولها إلى صدر العصر الإسلامى . وزيادة على هذا جمع عبيد الله بن زياد سنة ٥٤ هـ . فرقة من الرماة مكونة من ألفى رجل من بخارى ، وجعل البصرة مقراً لهم[٤] .

ولم يختلف عن ذلك كثيراً أمر العلاقات اللغوية بالكوفة . فقد قامت هذه المدينة فى بقعة كانت تتلاقى فيها اللغات الآرامية ، والفارسية ، والعربية من قديم . كما أن الحيرة الواقعة على مقربة منها ، والتى كانت بها — فى نظر العرب — مقر إمارة اللخميين ، كانت قبل الإسلام مصدر انتشار مسيحية الآراميين ، وثقافة الساسانيين ، بين قبائل البدو فى السهول السورية العربية المجاورة . وقد أخذت الكوفة المؤسسة حديثاً سُنَّة الحيرة ، فسارت على منوالها القديم ، وازدهرت وشيكاً ، على حين تراجعت الحيرة إلى الوراء . وكما كان

(١) الأغانى ١٧/٥٦ والشعر والشعراء ٢١٠ وخزانة الأدب ٢/١٦ وتاريخ الطبرى ٢/١٩٢

(٢) روسى : رويت فى الخزانة ، على حين يذكر فى الروايات الأخرى : روسفيد (بيضاء الوجه) انظر فى هذا : Nöldeke : Das iranische Nationalepos S. 91 Anm. 2 وانظر كذلك : البيان للجاحظ ١/٦١ : ١٨ وفيه «روسبيد» وانظر أيضاً : Rempis, ZDMG 101 (1951), 222. (شبيتالر) .

(٣) ص ٣٦٦ .

(٤) ساق أدلة على تكوين هذه الفرقة : De Goeje BGA V, XVI . وانظر معجم البلدان ١/٥٢٢ وعيون الأخبار ١/١٣٢ .

للبصرة أساورتها ، فقد كانت فى الكوفة بقايا الجيوش الساسانية التى انضمت إلى العرب ، وأخذت تجاهد تحت راية الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وبناء على خبر [١] للمؤرخ الكوفى « مسعر بن كدام [٢] » عقد أربعة آلاف فارس من جندشاهنشاه الذين قاتلوا تحت قيادة رُسْتَمَ فى القادسية ، أماناً مع سعد بن أبى وقّاص، يخوّلهم حق النزول حيث أحبوا ، ومحالفة من أحبوا من العرب ، ويفرض لهم فى العطاء . وقد اختاروا الكوفة مقراً لهم ، وسموا ، باسم نقيبهم « ديلم » : حمراء ديلم [٣] . أما فى سورية ، حيث ساق زياد جماعة منهم بأمر معاوية ، فكانوا يسمون الفرس فقط ، كما أن زياداً نقل آخرين منهم إلى البصرة ، ونظمهم فى صفوف الأساورة .

وكما حصل فى البصرة ، كان يرد على الكوفة أيضاً سيل من التجار والصناع وغيرهم ، سرعان ما كونوا مع أسارى الحرب ، الكثيرى العدد ، ذوى الأصل الفارسى ، أغلبية السكان ، فصارت لغة التفاهم السائدة هى الفارسية . وقد كشف الجاحظ النقاب عن مدى تأثير هذه اللغة فى لغة السادة العرب ، بما أورده من ألفاظ معرّبة فى لهجة الكوفة [٤] . فهو يذكر أن الكوفيين يقولون :خيار، بدلا من قِثّاء ، باذَرُوج ، بدلا من الحَوْك (البقلة الحمقاء ،الرجلة) ، وبِيدِى [٥] ، بدلا من مجذوم . وإذا كانت كل سوق بالكوفة تسمى : وازار ، فإن هذا النطق المطابق للفارسية القديمة

---

(١) البلاذرى ص ٢٨٠ .

(٢) توفى ١٥٢ هـ انظر : المعارف لابن قتيبة (طبع ١٣٠٠ هـ) ص ١٦٥ .

(٣) كانت هذه التسمية سبباً فى الالتباس ببلاد الديلم ، فقد ذكر بعضهم (البلاذرى ص ٢٨٠) أن أساورة الكوفة كانوا يرابطون على حدود الديلم ، وبعد الاستيلاء على قزوين (أى فى سنة ٢٤ هـ) انضموا إلى صفوف المسلمين كما انضم إليهم أساورة البصرة فى مثل هذه الأحوال . أما المدائنى فيرى (البلاذرى أيضاً فى الموضع المذكور) أن جيش رستم الذى انضم إلى سعد بن أبى وقاص ودخل فى الإسلام فى حروب المدائن بعد ماإستولى على جلولاء واستوطن الكوفة ، كان مكوناً من أعقاب أربعة آلاف أسير استرقهم برويز فى حروبه مع الديلم . ونقل البلاذرى عن أحد العلماء أن معنى الحمراء هو « العجم » . ويمكن أن يضاف هذا الموضع إلى المواضع التى جمعها فولرز فى مقالته über Rassefarben in der arabischen Literatur فى : Centenario Michele Amari I 87

(٤) البيان (١/١٠) ، وانظر أيضاً معجم البلدان ٣/٣٣٨ .

(٥) فى القواميس الفارسية : فيذى وفيدى وفيرى ، بلا شواهد .

(على عكس : بازار فى الفارسية الحديثة) يدل على التاريخ البعيد القدم لاستعمال الألفاظ الفارسية . وفى الكوفة أيضاً يعبِّر عن المِسْحاة بلفظ : بالْ. وهى فى الفارسية الحديثة: بِلْ [١] . وكان الناس فى الكوفة يفهمون من كلمة : جَهَارْسُوك — وهى بالفارسية الحديثة : جَهَارْسُو — سوقاً على مقطع طريقين (وتسمى فى البصرة : مُرَبَّعة) .

ولم يقتصر نفوذ اللغة الفارسية على العراق ، حيث برز بطبيعة الحال فى أقوى مظهر ؛ ولكنه كان ملحوظاً كذلك فى الوطن العربى القديم . فقد كانت هناك منذ القديم جاليات تجارية من الفرس فى مدن الثغور فى الجزيرة العربية ، كما جاء فى غزوات الفتح عدد كبير من أسرى الحرب الإيرانيين إلى الحجاز بوجه خاص. والجاحظ أيضاً هو الذى لاحظ [٢] التأثير اللغوى للجالية الفارسية القديمة فى المدينة على ما حولها من البلدان العربية . وطبقاً لما ذكره كان المدنيون يستعملون كلمة : خَرْبُوز الفارسية (المعربة إلى خِرْبِز) بدلا من : بطيخ، ورُوذَق ، بمعنى منتوف الوبرة ، بدلا من سَمِيط ، و : أَشْتَرَنْج ، بدلا من : شَطَرَنْج ، و : مَمْزُوز ، بدلا من : ممصوص ؛ أى هزيل . والأول من هذه الأمثلة اصطلاح تجارى ، على حين يتصل الثانى بالمطبخ ؛ إذ يقول صاحب برهان قاطع [٣] : إن رُود أو رُوَده كاللفظ العربى : سميط [٤] ، كلها بمعنى حيوان (حمل أو طائر) ينتف وبره أو ريشه قبل قليه ، وبعد أن يغمس فى ماء حار لهذا الغرض . واللفظ الثالث :

---

(١) يرى Horn فى Grundriss der neupersischen Phiologie S.59 Nr. 257: أن بيل bêl نشأ من : بال bâl الموجود فى بعض اللهجات ، بطريق الإمالة ، على حين يذكر فى : Grundiss der iranischen Philologie ٢ /٣٣ أن كلا اللفظين مثال للتبادل بين â و ê فى الفارسية الحديثة . وقد فسر لفظ : معبدة فى شرح أشعار الهذليين ص ١٣٥ بلفظ : بال . وهناك أمثلة أخرى كثيرة لتحول ê الفارسية إلى ألف ، وللاختصار أشير إلى كتاب Siddiqi, Pers. Fremdwörter 68 كما تنوب الألف عن ê كذلك فى الألفاظ المستعارة من الآرامية . انظر أسماء الأماكن فى المناطق التى كانت تتكلم الآرامية ، وتنتهى بالنهاية bâ التى تعود إلى الآرامية (t) bê (شبيتالر) .

(٢) البيان ١ /١٠

(٣) انظر فى مادة : رود : Vullers Lexicon perisico - Latnum وفعل : رودان بمعنى : نتف ، لم يزل باقياً فى الفارسية — اليهودية ، انظر : Horn, Grundriss S. 258 Nr. 628

(٤) انظر : سميط فى قاموس Lane .

أَشْتَرَنْج (دون شكل عند الجاحظ) ، يدل على أنهم فى المدينة لم يعبروا عن اللعب المعروف بكلمة : شَطْرَنْج [١] المعربة عن شَتْرنج الفارسية — دخلت الصيغة العربية : شَطْرَنْج ، إلى الفارسية الأدبية الحديثة ، وغلبت تقريباً على كلمة : شَتَرَنْج الفارسية — بل تمسك المدنيون فى هذا المعنى بالنطق السائد عند الدوائر الفارسية بالمدينة : أَشْتَرَنْج . أما أنهم اتخذوا طريقة التعبير الفارسى هنا وهناك ، حتى فى الألفاظ العربية الفصيحة ، فهذا ما يتضح من المثال الرابع : ممزوز ، بدلا من ممصوص ، حيث يستعاض عن الصاد الصعبة النطق على اللسان الفارسى ، بالزاى [٢] عن طريق المماثلة الجزئية مع الميم . وأخبار الجاحظ هذه عن العناصر الفارسية فى اللهجة العربية للمدينة ، تنطبق بالتأكيد على القرن الأول للهجرة ، إذ إنه فى ذلك الوقت وردت كلمة : رُوذَق ، الآنفة — وإن لم يكن فى المدينة — فى البيت التالى لجرير (المتوفى سنة ١١٠ هـ) وهو فى نقائض جرير والفرزدق ص ٨٤٥ س ١٠ :

لا خَيْرَ فى غَضَبِ الْفرَزْدَق بَعْدَما سلخوا عجانك سَلْخَ جلد الرَّوْذَق [١]

ويصدق هذا أيضاً على الشطرنج واصطلاحاته الفارسية على طول الخط ، فقد صاغ العرب مفرداً لكلمة : بياذق (فى الفارسية الحديثة : بياده) التى أخذوها على أنها جمع حسب شعورهم ، فقالوا : بيذق ، تماماً على نمطهم فى صوغ مفرد : فِرْدَوْس ، لفراديس الذى حسبوه جمعاً . وقد استعمل الفرزدق كلمة بيذق فى معناها ، وكان يعرف قاعدة اللعب ، من أن البيذق يتقدم إلى المربع الأخير فيتحول إلى وزير : نقائض جرير والفرزدق صفحة ٧٨٧ سطر ٦ :

---

(١) يضبطه المتزمتون فى اللغة : شطرنج على وزن فعلل ؛ انظر : درة الغواص للحريرى ١٣١ .

(٢) انظر حالات مماثلة فى .H. Schuchardt - Brevier S, 57

(٣) فسر لفظ : روذق فى الشرح مرة بالحمل ثم بالجلد المسلوخ . ولما كان المعنى الثانى غير ظاهر من السياق رجح Bevan الأول ، وصواب التفسير هو : حمل متنوف الصوف بعد غمسه فى الماء الحار ، وانظر أمثلة أخرى للألفاظ والجمل الفارسية ذكرها Bevan فى النقائض : Glossar S. 612

ونحن إذا عَدَّت تميم قَديمها مكانَ النواصِى من وُجُوهِ السَّوابق
منعتُك ميراثَ الملوك وتاجَهم وأنْتَ لدرْعِى بيذق فى البياذق [١]

وكذلك استعمل جرير نفس اللفظ للدلالة على شىء تافه القيمة عن طريق المجاز ، وذلك فى بيت يرمى فيه جِعْثِن ، أخت الفرزدق—مع الإشارة إلى مهر المثل— بأنها لم تأخذ مهراًمعيناًفى عقد النكاح : نقائض ص٨٤٥س ١٥ :

سبعون والوصفاء مهر بناتنا إذ مهر جِعْثِنَ مثل حُرِّ البيدق

كما أن استعمال كلمة : بيدق : أيضاً ، بمعنى رجل قصير القامة [٢] ، يرجع إلى القرن الأول ؛ فقد كان هذا اللفظ يطلق لقباً على مغنٍّ وقارىء مدنى ، زار [٣] فى أواخر حياته الخليفة يزيد بن عبد الملك (حكم ١٠١ — ١٠٥ ﻫ) . وهذا الكشف (عن قدم استعمال لفظ : شطرنج ومتعلقاته حتى القرن الأول) يتفق تماماً — كما يلاحظ بهذه المناسبة — مع قول الفقهاء الإسلاميين إن مسألة تحليل لعب الشطرنج فى الشريعة [٤] كانت موضع البحث لأول مرة فى عهد الطبقة الثانية ، بعد محمد [صلى الله عليه وسلم] ، أى طبقة التابعين . نعم هناك عدد من الأحاديث المروية عن الرسول فى تحريم [٥] اللعب (المذكور) ، ولكن النقاد المسلمين تبينوا عدم صحتها ، ولم يؤخذ واحد منها ضمن المجاميع [٦] المعتمدة .

---

(١) انظر : Gildemeister, ZDMG 28 (1844) 693

(٢) الأغانى ١٢/٢٠ وعبارته : « قال حدثنى محمد الراوية المعروف بالبيدق (بالدال لابالذال) وكان قصيراً فلقب بالبيدق لقصره وكان ينشد هارون أشعار المحدثين وكان أحسن خلق الله إنساناً » . بقى أن يعرف هل هو البيدق الذى زار يزيد بن عبد الملك ؟ ربما كان غيره وإلا فإن هذا عاش فى القرن الثانى . وقد سمى بالبيدق أيضاً أبو بكر بن على الصنهاجى الذى ذكر حديثه عن أستاذه المهدى فى : Lévy - Provencal, Documents inêdits d'histoire Almohade p. 50 - 133 كما ذكر ياقوت أيضاً فى معجم البلدان مكاناً اسمه : « شاهبيدق » فى بيت من الشعر لعبد الله بن أبى عوف الخزاعى المتوفى سنة ٨٦ ﻫ (معجم البلدان ٣/٣٤٤).

(٣) الأغانى ١٣/١٦٣

(٤) أيضاً فى كتاب حياة الحيوان للدميرى (مادة : عقرب) يوجد فصل عن حكم لعب الشطرنج . انظر طبعة القاهرة ١٣٣٠ ﻫ ٢/٢٤٩ : ١٣ (شبيتالر) .

(٥) انظر عيون الأخبار(١/٣٢٣) .

(٦) انظر : كنز العمال للمتقى ٧/٣٣٢ والإصابة (القاهرة ١٣٤٧) ١/٣٨٩ ولسان الميزان ٢/١٦٦ وتمييز الطيب لابن الديبع (القاهرة ١٣٤٧) ١٦٨ وانظر النووى فى ابن الديبع فى الموضع السابق .

وفى مصر ، كانت القبطية هى اللغة التى اصطدمت بها العربية . وقد بقيت لغة الفاتحين هنا أيضاً كما فى العراق — مقصورة بادىء ذى بدء على المعسكرات كالفسطاط قبل كل شىء ، وعلى المناطق التى اختارتها القبائل العربية ، لتكون مراعى لسوامهم . وكان للحقيقة الثابتة ، من أن أغلب المهاجرين العرب قد تجمعوا من قبائل يمنية الأصل ، أثر حاسم فى التطور اللغوى بهذا الإقليم . وقد بقيت اللغة اليونانية بادىء الأمر هى اللغة الرسمية . ولم تدخل العربية فى دواوين الإدارة إلا فى سنة ٨٧ هـ . بيد أنها لم تستو على سوقها حقاً إلا فى أوائل القرن الثانى . وقد ظل الجمهور الأعظم من السكان الوطنيين متمسكاً بالقبطية ، كما أن النسبة المئوية للأقباط فى المدن كانت جِدّ كبيرة . ولكن بينما أثرت الفارسية فى عربية العراق تأثيراً بعيد المدى ، وكثرت فى اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة ، كان أثر القبطية فى اللهجة العربية جد ضئيل[1] . وقد أراد بعض العلماء أن يعزو أسباب ذلك إلى الطابع القبطى القومى[2] ؛ ولكن بقى علينا أن ننظر فيما إذا كان تعذر كشف أثر اللغة القبطية فى لغة الخطاب العربية فى أثناء القرنين الأولين راجعاً إلى طبيعة مصادرنا . فلو أن مصر سعدت بكاتب مثل الجاحظ أولع بتصوير مستوى الطبقات الدنيا والوسطى بين سكان المدن فى القرن الثانى ، ربما ظهر لنا أن العلاقات اللغوية فى الفسطاط القديمة لم تختلف كثيراً عنها فى البصرة والكوفة . حقاً لقد تم تعريب مصر بصورة أسرع وأعمق من العراق ؛ ففى القرن الثانى كانت قبائل عرب الشمال قد هاجرت إليها وفق نظام مرسوم ، كما يبدو أن تكاثر الدخول فى الإسلام قد ازداد بقوة فى نفس الوقت ، بعد أن كان لا يتقدم فى القرن الأول إلا فى حدود معتدلة ، بحيث رجحت كفة العربية فى القرن الثالث ، على حين تراجعت القبطية إلى سهول الريف حتى تلاشت[3] تماماً فى القرن السادس .

والهوة الواسعة التى كانت تفصل بين الطبقة العربية الحاكمة ، والجماهير

---

(١) انظر : K. Vollers, ZDMG 50,633-6 E. Littmann ebd, 56, 681-4, W. Spiegelberg Zf Sem. 4, 61 f, EI II 1076 f.

(٢) انظر : Vollers a, a, O.

(٣) انظر : G. Wiet, EI, Qibt, J. Simon, ZDMG, 90, 44, f.

الغفيرة من رعاياها حتى سقوط الدولة العربية سنة ١٣٢/٧٥٠ ، لم يكن أبعد أثراً فى اقتحامها والتغلب عليها من التسرى واقتناء السادة العرب للسرارى والجوارى ، فإن النظرية التى ترجع إلى عهد الوثنية العربية ، والتى تبيح لمالك الأمة أن يعاشرها معاشرة الأزواج ، قد احتفظ بها الإسلام ، فصار سنة متبعة ، أن تنضم الأسارى من النساء إلى حريم ساداتهن ، وهكذا سرعان ما نشأ ، حتى فى بيوت السادة العظام من العرب ، جيل بين أمهاته كثيرات من غير العربيات . وكان لا بد أن يترك ذلك أثراً بعيد المدى فى العلاقات اللغوية ، فإذا كانت الأجنبيات اعتدن الدخول إلى حرم الدوائر العليا ، وإذا كانت هذه الدوائر العليا تعتمد على غير العرب أيضاً فى خدمتها ورعاية شئونها الدنيا ؛ فلا جرم أن تأخذ الشبيبة الناشئة — تحت تأثير هذه العلاقات — شتى الخصائص اللغوية من لغة التفاهم الدارجة التى كانت غريبة عن العربية .

ولقد كان النسل الناتج من غير الحرائر موسوماً فى نظر المجتمع الراقى بميسم عدم الكفاءة فى المولد ، ولكن الشرع الإسلامى يعدّهم أحراراً ، ويسوّى بينهم وبين إخوتهم من الحرائر فى الملك والميراث . أما أن هؤلاء الأبناء ، غير الأكفاء فى المولد ، على الرغم من انحطاط رتبتهم قد سموا إلى مراتب رفيعة ، لمناقبهم الشخصية ، أو لمواتاة الفرص والأسباب ، فهذا ما يؤيده مثال أبناء سُمَيَّة ، فقد كانت أمهم جارية فارسية [١] أو بيزنطية [٢] الأصل — كما جاء فى الروايات — أهداها سيدها إلى الحارث بن كَلَدة الطبيب . وعندما حاصر محمد (صلى الله عليه وسلم) الطائف فى السنة الثامنة للهجرة ، ووعد [٣] بالحرية كل من ينضم إليه من أهلها ، سواء كان حراً أم عبداً ، قرر أحد أبنائها ، وهو أبو بكرة [٤] نُفَيْع ، أن ينحاز إلى الرسول ، فصار معدوداً من مواليه منذ ذلك الوقت . أما أخوه نافع [٥] فقد ركن إلى الحارث بن كلدة

(١) المعارف ٩٧ ، ومعجم البلدان ٢/٩٥٢ (عن ابن الكلبى) ؛ وانظر أيضاً شعر ابن مفرغ (الأغانى ١٧/٦٥) .

(٢) عوانة (كما ذكره ابن حجر فى الإصابة ٧/٣٤٠)

(٣) ابن هشام ص ٨٧٤ ؛ والواقدى ص ٣٧١ (Wellhausen) ؛ والروض الأنف ٢/٣٠٤

(٤) ابن سعد ج ٧ قسم ١ ص ٨ وما بعدها .

(٥) ابن سعد ج ٧ قسم ١ ص ٤٩ ؛ البلاذرى ص ٣٥٠ ، يحيى بن آدم (طبع ١٣٤٧ هـ) ص ٧٨ .

وبقى عنده ، فاعترف الحارث ببنوته وأعتقه ، كما اعترف أيضاً بنسب أَزْدة[١] بنت سمية . وأزدة هذه تزوجها عتبة بن غَـزْوان مؤسس البصرة . هذا الزواج فتح لإخوتها — كان هناك ثالث لأبى بكرة ونافع ، هو زياد المولود سنة ٨ هـ — طريقاً إلى المجتمع الراقى ، فقد تبعوا أختهم إلى البصرة ، وامتلكوا ضياعاً عظيمة ، ولعبوا دوراً هاماً[٢] بعد ذلك بقليل فى المجتمع . وكما هو معلوم ، رَقِىَ زياد أعلى المناصب . وأخيراً اعترف به الخليفة معاوية بن أبى سفيان أخاً له من أبيه . ولم يكن معاوية ليقدم على ذلك لو لم تكن أبوة أبى سفيان له — على الأقل — أمراً ظاهراً . أما أن سمية كانت عاهراً ، فهذا أمر قد تقرر — على أقل تقدير — فى أبيات ابن مفرغ[٣] ، التى كانت تفقد مغزاها لو أن الإخوة الثلاثة جاءوا من نكاح صحيح .

كذلك يحتاط الغموض أصل أسرة أخرى كبيرة من العهد الأموى : أسرة المهالبة . ويريد أبو عبيدة[٤] الذى كان يتتبع بحرارة جمع كل المثالب عن المجتمع العربى ، أن يعلم أن أبا المهلب كان نساجاً[٥] فارسياً ، وهاجر من جزيرة خارَك Harak فى الخليج الفارسى إلى عُمان ، وهناك انتقل من المجوسية إلى الإسلام ، مغيراً اسمه[٦] إلى أبى صُفْـرَة[٧] ، وصار سائس خيل عثمان بن أبى العاص الثقفى ، الذى هاجر معه أخيراً إلى البصرة . وليكن باقياً

---

(١) المعارف ص ٩٧ .

(٢) البلاذرى ص ٣٤٣ وانظر Wellhausen, Das arab. Reich S. 75 f.

(٣) الشعر والشعراء ص ٢١٣ ؛ الأغانى ١٧/٦٠ ؛ وفيات الأعيان ٣/٣٢٣ ؛ خزانة الأدب ٢/٥١٦ ، وانظر : Nöldeke im Islam 14,132

(٤) ابن رسته (BGA VII 205) ؛ معجم البلدان ٢/٣٨٧

(٥) يسم العرب النساجين وكل ذوى صناعة يدوية بميسم الضعة G, Jacod, Altarabr. Beduinenleben S, 150 f) ، ولقد غالى بعضهم فروى من الأحاديث ما يؤكد ذلك ، ولكنه لم يرو فى المجاميع المعتمدة (انظر : لسان الميزان ١/٤٤٢؛ ٣/١٤٤ ؛ ٤/١٣١؛ ٤/٤٣٩

(٦) سماه أبو عبيدة : بسخرة بن تهبوذان . وكلا الاسمين موجودان فى شعر كعب بن الأشقر كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ٢/٣٨٧ على حين يذكر فى الأغانى (١٣/٦٤) فى نفس البيت : مرداذاء وفسخراء . ويذكر التعليق فى الصفحة المذكورة أن هذين الاسمين لابن أبى صفرة وجده . انظر أيضاً : Marquart, Festschrift E. Sachau S. 287

(٧) مثل هذا التغيير تجده فى : Goldziher, Muh. Studien I, 133 Anm 2 وفى : تاريخ بغداد ٨/٤٨٢ .

بَعْدُ بيان مبلغ هذه الأخبار من الصحة ، فحسبنا نحن فيما يتعلق بوجهة نظرنا ، أن دعوى أن المهالبة يجرى فى عروقهم دم فارسى قد لقيت تصويباً وتأكيداً فى الأبيات التى هجا بها كعب بن الأشقر [١] يزيد بن المهلب . ولا تستطيع تغطيةَ ذلك شجرةُ [٢] النسب الفاخرة ، التى عُنيت الأسرة بتأليفها بعد ذلك .

وفى المدينة برز أبناء الإماء فى النصف الثانى من القرن الأول . فقد كان على زين العابدين (٣٦ — ٩٤ هـ) من حفدة على ، والقاسم بن محمد من حفدة أبى بكر ، وأخيراً الفقيه الضليع سالم بن محمد (المتوفى ١٠٦ هـ) من حفدة عمر ، كان هؤلاء جميعاً غير أكفاء من جهة الولادة ، بيد أنهم لعبوا دوراً قائداً فى المجتمع . وكما يرى الأصمعى ، أسهموا بقسط عظيم — بوساطة مناقبهم الشخصية — فى تغيير [٣] رأى المجتمع المدنى فى أبناء الجوارى . بل لقد أمكن فى ذلك الوقت ، حتى فى أسرة عريقة فى الوثنية ، كأسرة « أبى لهب » الملعون فى القرآن ، أن يفخر [٤] أحد أعقابها من غير الأكفاء : الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب — وكانت جدته حبشية [٥] بانتسابه إلى عبد مناف . وقد ظل بيت الخلافة الأموية أحرص البيوت ، وأطولها أمداً — إلى حد ما — فى الاحتفاظ بِـمَثَـل الجاهلية الأعلى من نقاء الدماء . وها هو ذا مسلمة بن عبد الملك (٦٣ — ١٢٠ هـ) بقى [٦] مبعداً عن عرش الخلافة لأنه من أولاد الجوارى ، نعم لقد ولى عرش الخلافة يزيد الثالث ، وهو ابن جارية صُغدية [٧] من الأسرى ، سنة ١٢٦ هـ ؛ ولكن الفضل فى هذا راجع إلى ثورة نشبت ، كما أنه حصل قبل سقوط الدولة العربية (الأموية) نهائياً بسنوات قليلة .

---

(١) الأغانى ١٣ /٦٤ (أربعة أبيات) ؛ معجم البلدان ٣٨٧/٢ (البيتان الثانى والثالث) مع تغيير كثير . ويوجد البيت الأول أيضاً فى : معجم البلدان ٩٣٣/٣ وفى البلاذرى ص ٤٢٦ مع تغيير كثير أيضاً

(٢) ابن سعد (VII, I, 72) الأغانى ٨/١٨ ؛ المسعودى (تنبيه BGA VIII) ص ٣٢٠ ؛ الإصابة ١٠٨/٤ ؛ الاستيعاب (على هامش ابن حجر) ١٠٩/٤

(٣) عيون الأخبار ٨/٤

(٤) الأغانى ١٧٨/١٤ يضاف إلى هذا : Vollers, Centenario Michele Amari I,88 وقد رجع هذا إلى : الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٤٣ وفتح البارى لابن حجر ٦٢/١١ وغير ذلك .

(٥) الأغانى ٢/١٥ .

(٦) EI, 3, 454

(٧) Wellhausen, Das arab. Reichh 226

بل كذلك الحياة البدوية لم تبق بعيدة عن التأثر بالمؤثرات اللغوية الأجنبية وهذا هو الحجاج يهدى جريراً ، لأول زيارة له بالعراق ، جارية[١] من الرى ، ولدت للشاعر كثيراً من الأولاد ، كما تغنى بها فى أشعاره . وفى وسعنا أن نثق بالرواية التى تحدثنا عن نطقها الملحون ، مهما تكن الجملة التى قيلت على لسانها مخترعة[٢] . وهذا ابن ميادة الذى يراه بعض النقاد آخر من يحتج به من شعراء البادية ، يقدم لنا مثالا آخر فى الجيل التالى لذلك . وقد أهداه الخليفة الوليد بن يزيد (حكم ١٢٥ — ١٢٦ هـ) جارية من طبرستان ، كانت كاملة من جميع الوجوه ، ما عدا نطقها المعيب للعربية ، فقال ابن ميادة فيها :

بأهلى ما أَلَذَّكِ عند نفسى   لو أنك بالكلام تعرِّبينـــا
كأنك ظبيةٌ مضغت أراكا   بوادى الجزع حين تبغمينا[٣]

وفى الثلث الأخير من القرن الأول ، كان قد أخذ نمو العربية المولدة — التى تكونت من العوائد اللغوية الراجعة إلى اللهجة الدارجة فى مناطق العربية القديمة — حدًّا لم تتوقف فيه الأخطاء اللغوية عن الظهور ، حتى فى الدوائر الأولى من المجتمع العربى . لقد صار منذ زمن طويل غير طبيعى أن يتعلم أولاد هذه الدوائر الأولى ، من المحيط الذى هم فيه ، عربية جيدة ، وقد كانت هذه التجديدات تعدّ عند العرب الذين كانوا ذوى إحساس دقيق جداً منذ القدم ، بجمال لغتهم ، خطأً لغوياً (لحناً[٤]) . ولهذا بدأت فى دوائرهم ردود الفعل ضد فساد اللغة ، ونشأ من ذلك فى أواخر القرن الأول (السابع الميلادى) مبدأ « تنقية اللغة العربية » الذى حمل راية المحافظة على نقاء العربية . وهنا أيضاً برهن الأمويون على أنهم حماة المبادىء العربية القديمة . فقد روى أن عبد الملك (حكم ٦٥ — ٨٦ هـ) كان يحذر أبناءه من اللحن ؛ فإن اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى فى الوجه ، وأقبح من التفتيق فى ثوب نفيس[٥] ، ويروى أن هذا الخليفة لم يكن يستعمل[٦] صيغاً ملحونة حتى فى المزاح ؛

(١) الكامل للمبرد ص ٣٠١ .
(٢) البيان للجاحظ ١/٣٣ ؛ ٢/٣
(٣) الأغانى ٢ ١١٢ .
(٤) انظر الملحق فى خاتمة الكتاب .
(٥) البلاذرى (آلورد) ص ٢٦٠ ؛ البيان للجاحظ ٢/٤ ؛ عيون الأخبار ٢/١٥٣ .
(٦) أمالى الزجاجى (طبع ١٣٤٢ هـ) ص ١٤ لما بعدها .

وأنه كان يقدر الدقائق اللغوية حق قدرها ؛ فحينما غيرّ الشاعر الخارجي أبو المنهال عتبان بن وُصَيْلة بيته :

« ومنا أميرُ المؤمنين شبيب » إلى : « ومنا أميرَ المؤمنين شبيب » ، نال على هذا التغيير فى الجواب استحسان الخليفة حتى أطلق سراحه[1] . وعلى الرغم من ذلك فقد روى أنه أهمل [2] تأديب ابنه الوليد (حكم ٨٦ — ٩٦ ﻫ) ولذلك رويت فى أخطائه اللغوية شتى الروايات اللاذعة[3] . وعلى النقيض منه تأدب سليمان بن عبد الملك (حكم ٩٦ — ٩٩ ﻫ) أدباً رفيعاً ؛ وكان يعظم[4] الجمال اللغوى ؛ كما روى عنه أنه قال فى المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ، أحد أشراف قريش ، ساخراً منه : « المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخّم اللحن كما يفخّم نافع بن جبير الإعراب » . وكذلك كان أخوه مسلمة رفيع الثقافة ؛ وكان يكره عمرو بن مسلم ، أخا قتيبة بن مسلم ، لأنه كان يلحن[5] فى كلامه ؛ كما روى أنه كان يمقت السائلين الذين يلحنون[6] فى لغتهم . وكان عمر الثانى (ابن عبد العزيز) (حكم ٩٩ — ١٠١ ﻫ) دقيق الإحســـاس فى شئون اللغة بوجه خاص ؛ وكان لا يطيق أن يسمع فى محيطه خطأً لغوياً أيًّا كان ؛ وكان يصلح ما يعترضه من الأخطاء[7] ، وكان يحب الواضح السهل من العربية حتى فى الشعر .

وكان بعض معاصرى الأمويين — كذلك — يقدّسون آراء مثل آرائهم .

---

(١) ابن خلكان (١٢٩٩ ﻫ) ١/٣٩٩ ؛ الدميرى (١٣٤٨ ﻫ) ٢/٢٦١ وكثيراً ماتساق أبيات هذا الشعر دون تسمية قائله ؛ عيون الأخبار ٢/١٥٥ ؛ إرشاد الأريب ١/٢٥ ؛ المحاسن والمساوىء للبيهقى ص١٤٢ وغير ذلك .

(٢) الموشح ص ٢١٧ .

(٣) البلاذرى ٢٣٥ (آلورد) ؛ المحاسن والأضداد للجاحظ (١٣٢٤ ﻫ) ص ٦ ؛ نقد النثر المنسوب لقدامة ص ١٢٣ ؛ المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٥٤ ؛ الكامل للمبرد ص ١٩٠ ، وانظر القلقشندى ١/١٦٨

(٤) إرشاد الأريب ١/٢٤ ؛ الميمنى : ذيل سمط اللآلى ص ٦٦ .

(٥) البيان للجاحظ ٢/٤ ؛ وفى المغيرة انظر : ابن سعد ٥/١٥٥ ؛ والأغانى ١٥/٤٨ ؛ وفى نافع انظر : تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠ / ٤٠٥

(٦) الخفاجى : طراز المجالس للخفاجى(١٢٨٤ ﻫ) ص ٦٧ .

(٧) إرشاد الأريب ١/٢٥ ؛ البيان للجاحظ ٢/٢ ؛ ٢/١٢٠ ؛ المحاسن والأضداد للجاحظ (١٣٢٤ ﻫ) ص ٦-٧

فقد كان الحجاج والى المشرق لا ينطق عربية ناصعة فحسب[١] ، بل كان يقيم أيضاً وزناً لأن يعبر الناس فى محيطه تعبيراً صحيحاً . ويزعم بعضهم أن كَثِير بن أبى كثير البصرى ، الذى أراد الحجاج إكراهه على عمل يتولاه ، تخلص منه بأن أساء إلى أذن الحجاج بلحن فظيع فى القواعد[٢] . حقاً لقد حمل الكره خصومه السياسيين أن يقولوا عنه إنه ارتكب أخطاء حتى فى القرآن ؛ ولكن هذا حصل فى آية قرأها وهو ساه ، حيث قرأ لفظ : أحب فى سورة التوبة ٢٤/٩ بالرفع بدل النصب : « قُلْ إنْ كانَ آباؤُكم وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْواجُكُمْ وعشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبٌّ إِلَيْكُم مِنَ اللهِ وَرَسُولِه وجِهَادٍ فى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا » . وقد أوقعه فى السهو مجىء[٣] خبر كان بعدها باثنتى عشرة كلمة . وقرأ مرة أخرى فى سورة العاديات ١١/١٠٠ بدل : إنّ ، بكسر الهمزة فى : « إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ » . أنّ بالفتح ، متخلصاً من الغلط بحذف[٤] اللام المزحلقة من الخبر . وكذلك كان سهواً منه حين قرأ[٥] فى سورة السجدة ٢٢/٣٢ : « إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ لَمُنْتَقِمُونَ » بدلا من : « إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ » . ولم يقلّ عن الحجاج فى تعظيم العربية أيضاً عمر بن هبيرة ، الذى كان والياً على العراق (سنة ١٠١ — ١٠٥) ؛ وكان يرى أن من يحسن العربية أعلى من غيره مقاماً فى الجنة[٦] .

ومثل ذلك التعظيم للعربية الخالصة ، نجده لذلك الوقت فى الشعر أيضاً ، فها هو ذا رؤبة (المتوفى سنة ١٤٥ ﻫ) يرى من الضرورى أن يُبْرِزَ فى

(١) انظر البيان للجاحظ ٦٨/١ : ٤/٢ ؛ أمالى الزجاجى ص ١٤ ، وقد قرن الزجاجى فى الموضع المذكور ، بالحجاج الخطيب المشهور : ابن القرية . (انظر هذا فى المعارف لابن قتيبة وابن خلكان ١٤٥/١) على أن كلا من عوانة (الأغانى ٩/٢ طبع دار الكتب) ، والأصمعى (الأغانى ٣/٢ نفس الطبعة) قد أنكرا وجوده التاريخى .

(٢) إرشاد الأديب ٢٥/١ .

(٣) طبقات ابن سلام ص ٦ ؛ نزهة الألباء ص ١٩ ؛ إرشاد الأريب ٢٩٦/٧ ؛ ابن خلكان ١٩٣/٣ . Nöldeke, Geschichte des Qorans, III, 124 .

(٤) عيون الأخبار ١٦٠/٢ ؛ مختصر القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٧٨ .

(٥) البيان للجاحظ ٤/٢ .

(٦) إرشاد الأريب ٢٢/١ .

أرجوزته التى مدح بها بلال بن أبى بردة قاضى البصرة (المتوفى سنة ١٢٠ هـ) أن الممدوح يصحح الإعراب ولا يقع فى الخطأ :

* فُزْتَ بِقِدْحَىْ مُعْرِبٍ لم يَلْحَنِ[1] *

ورؤبة نفسه كان يحب أن يتمدَّح بمقدرته اللغوية ؛ فهو يبرز (ق ٣٥/٢٦) ذكر العناية الدقيقة (التنطّس) التى يبذلها فى نظم كلامه . وهو يشعر (ق ٣٦/٥٤) بتفوقه على خصمه ، أيًّا كان ، فى الدراية وتعاطى الوحشى الغريب من مادة اللغة (عُـقْـمِـى) ؛ وهو يفخر (ق ٤٥/٣٦) بأنه ترك بعض من عارضه من الشعر وراءه مثل الألثغ الذى ينطق لكنة أعجمية ، ولا يعرف فرق الصحيح من الزائف فى العربية :

* أَعْجَمَ لا يعرفُ زَيْغَ الزُّيَّغِ *

وفى أرجوزته التى امتدح بها القاسم بن محمد بن القاسم ، ابن فاتح السند ، أكد (ق ١٣٧/٢٢) أن نحوياً ضليعاً فى العلم يفهم مداخل الكلام (دهىّ العلم والتعبرّ) ، ليس له بُعْـدُ نظره فى اللغة ، مهما أشاح بوجهه غضباً من ذلك :

كيف ترانى أَنتحى فى الدفترِ على قضيبِ الذاهبات الشُّبَّرِ

لا ينظر النحوىُّ فيها نظرِى وإِن لَوَى لَحْيَيه بالتحكُّرِ

وهو دَهِىُّ العلم والتعبرِ[2]

---

(١) رقم ٥٧ ، بيت ١٥٤ (آلورد) .

(٢) يحتاج تأريخ هذه القصيدة إلى شىء من الاستقصاء . فهى — كما يؤخذ من البيت١٤٩ — موجهة إلى من اسمه القاسم ، والمقصود به كما ذكر فى العنوان : القاسم بن محمد بن القاسم . ويرى فيه كل من آلورد ص ٥٢ وكرنـكو EI III 1259 القاسم بن محمد الثقفى الذى فتح الهند فى سنة ٩٤ هـ كما جاء فى الطبرى ١٢٥٦/٢ ، وابن الأثير ٢٢٣/٤ وعلى ماجاء فى الشعر وعنوانه تكون صحة تسمية فاتح الهند : محمد بن القاسم الثقفى ، وهذا ما ذكره مثلا إلياس برشينايا فى تاريخه على أنه فاتح الهند فى السنة المذكورة (F. Baethgen, Fragmente syr. u. arab. Historiker S, 42) ، وقد كان سن هذا عند شروعه فى غزو الهند ١٧ سنة بشهادة أبى اليقظان (المتوفى ١٩٠ هـ) كما ذكره ابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢٢٩/١ ، (وكما فى الأبيات التى استشهد بها فى البلاذرى ص ١٤١ ، وفى ابن الأثير ٢٢٤/٤ ، وهى من قول حمزة بن بيض) . ولما كان فاتح السند المذكور قد قتل سنة ٩٥ هـ فلا بد أن يكون ميلاد ابنه الممدوح حوالى سنة ٩٠ (إذ كان عمر أبيه عند فتح الهند ١٧ سنة كما ذكرنا) فلا يعقل أن يمدحه رؤبة إلا حوالى ١١٠ هـ على الأقل .

وفى مدحه لآخر والٍ أمويّ على خراسان : نصر بن سيار ، يقول رؤبة (ق ١٩/١٩) إنه اختار لمديح نصر ألفاظاً متنخلة ، يتعب النحو فى فهم غرضه منها :

وأَنَا فى تخيرى وجَـدِّى إذا تنخَّلَتُ جِيَاد القَـدِّ
يلتمس النحوىُّ فيها قصدى مَجَّدت نصراً وهو أهل المجد

وعلى النقيض من ذلك يحقر يحيى بن نوفل الحميرى خالدَ بن عبد الله القسرى ، والى العراق ، (١٠٥ — ١٢٠ هـ) فى البيت :

وألحنُ الناسِ كلِّ الناس قاطبةً وكان يُولَعُ بالتَّشْدِيق فى الخطب[١]

وهذا يرجع إلى أن خالداً الضعيف القلب ، فزع فزعاً شديداً ، وطلب جرعة ماء وهو متلجلج ،حينما تلقىسنة ١١٩ هـ ، وهو يخطب ،نبأ قيام الشيعى المغيرة[٢] بن سعيدبثورة فى الكوفة. وقد غالى خصومه فى انتهاز هذا الحدث . ويرى المدائنى[٣] أن خالداً كان حقيقة "لحـنـة" بوجه عام ، وأنه كان يستعين فى خطبه برجل يلقنه ، كما يرميه بالتشديق ، إذ قال ذات يوم : إن كنتم رجبيون (كذا فى البيان والتبيين) ، فإنا رمضانيون[٤] ، ويعده الجاحظ من اللحـانين البلغاء[٥]. ولكن خالداً كان فى حقيقة الأمر خطيباً ممتازاً ؛ إذا انقطع عليه خيط الكلام عرف كيف يحسن الخروج من المأزق[٦] . وبيت ابن نوفل إنما يدل على أنه منذ بداءة القرن الثانى الهجرى لم تعد سلامة التعبير من اللحن أمراً طبيعياً ، حتى عند ذوى المناصب الرفيعة .

ومما كان ذا مقام حاسم فى مستقبل العربية ، أن المجتمع العربى فى عهد الأمويين لم يكن هو وحده الذى يعترف بالعربية على أنها القدوة الرفيعة ، والمثل الأعلى ؛ بل كذلك الدوائر الإسلامية غير العربية (من طبقة الموالى) الملحـة فى التسامى والتعالى ، كانت ، فى سبيل طموحها إلى محاكاة الطبقة السائدة فيما تفعل ، تجارى هذه أيضاً فى الناحية اللغوية ، وتحتضن حركة

(١) البيان للجاحظ ٥٢/١ ، ٤/٢ ؛ وذكره المبرد (الكامل ص ٢٠) لشاعر آخر .

(٢) انظر الطبرى ١٦١٩/٢ ؛ الأشعرى : مقالات : فهرست النوبختى : فرق الشيعة : فهرست ، ميزان الاعتدال ١٩١/٣ ، لسان الميزان ٧٥/٦ — Wellhausen, Das arab. Reich² 204 Anm. 2

(٣) الأغانى ٦٢/١٩ . (٤) البيان للجاحظ ٤/٢ . (٥) البيان للجاحظ ٥/٢ .

(٦) أمالى القالى (الطبعة الثانية) ١١١/١ ؛ عيون الأخبار ٢٥٧/٢ .

تنقية اللغة العربية ، بإعلاء شأن اللغة البدوية الخالصة . وكلما أخذت سلامة اللغة تصير أمراً من أمور التربية والتعليم، قويت آمال غير العرب أن يستبدلوا — بالصبر والدأب — عربية فصحى من عربية اللهجة الدارجة فى محيطهم . وقديماً تملك الحسن البصرى (المتوفى ١١٠ هـ) ، وهو ابن لأحد أسارى الحرب من مدينة مَيْسان ، أزِمّة العربية ، بحيث كان رجال ضليعون ، كأبى عمرو بن العلاء ورؤبة ، لا يجدون غضاضة فى أن يضعوه إلى جانب الحجاج[1]. وكان تلاميذه المجتهدون يكتبون عبارات أستاذهم ، لا لما تحتويه من علم فحسب ، بل لصياغتها اللغوية كذلك[2] . وكثيرة هى الأخبار[3] والروايات التى تطنب فى وصف دقة إحساسه تجاه الأخطاء اللغوية . حقاً لا تُعْرِب قراءته للقرآن عن ذلك الصقل والانسجام الذى تتطلبه حركة « تنقية اللغة العربية» عند نحاة العصر العباسى الأول ؛ فقد كان يقرأ مثلا « الحَمْدُ لِلَّهِ » بكسر الدال بدلا من ضمها ، وبشهادة النحوى المصرى : النحّاس (المتوفى ٣٣٨ هـ) كانت صيغة الحمدلة على هذا النحو خاصة بلهجة تميم[4]، وقد اجتهد الكوفيون فى تأييد هذه القراءة وأختها : « الحَمْدُ لُلِهِ » « بضم لام الله » ، بِسَوْق أمثلة أخرى لتناسب الحركات والإتباع ؛ وعلى النقيض من ذلك البصريون الذين عابوا هذه القراءة — التى هى فضلا عن ذلك قراءة زيد بن على (المتوفى ١٢٢ هـ) ورؤبة — بحجة أنها غير مستعملة إطلاقاً ، وأنها مخالفة للقواعد ، ومصطدمة بالإعراب[5] . ويصف الجاحظ قراءتين للحسن بأنهما خطأ صراح ، إحداهما : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونَ » بدل «الشَّيَاطِينُ» فى سورة الشعراء ٢٦/٢١٠ (ألا يقال ذلك أيضاً فى آية ٢٢١ من نفس السورة ، وفى سورة البقرة ٢ / ١٠٢ ، وفى سورة الأنعام

(١) البيان للجاحظ ١/٦٨ ؛ ٢/٤ .

(٢) نجد مثالا لذلك فى أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٨٠ ؛ وعنه فى الفهرست (طبعة فلوجل) ٤١ ، وانظر أيضاً الكامل للمبرد ص ١٢٠

(٣) البيان للجاحظ ٢/٥ ؛ إرشاد الأريب ١/٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ؛ أمالى القالى ٣/١٤١ ، والبكرى عليه ص ٦٦ . (٤) نزهة الألباء ص ٣٦٤ .

(٥) انظر الإنصاف لابن الأنبارى ص ٥٧ س ٧؛ ص ٣١٠ س ١٠ ؛ص ٣١١ س ١٦ ص ٣١٥ س ٩ ؛ وانظر المحتسب لابن جنى فى سورة الفاتحة ١/٢ ؛ وانظر المختصر لابن خالويه ، (Bibl, Isl. VII) ١/٣ وغير ذلك .

٧١/٦) ، والأخرى : صَادِى ، بدل : صَادْ[1] (سورة ص ١/٣٨) .
وفى الأولى نرى صيغة جديدة : شياطون ، وقد نشأت من توهم أن نون جمع التكسير هى نون جمع التصحيح (المذكر السالم) . أما أن هذه الصيغة الجديدة وردت حقيقة فى الاستعمال اللغوى للقرن الأول ، فهذا ما تؤكده شهادة ثقات قدماء آخرين ، مثل سعيد بن جبير (المتوفى ٩٥ هـ) وطاووس (المتوفى ١٠٦ هـ) ؛ بل كذلك الأعمش نفسه (المتوفى ١٤٨ هـ) . بيد أن شياطون ، ككثير من الصيغ المخالفة للقواعد ، التى وردت فى القراءات الشاذة ، لم تلق قبولا عند النحاة ، بل عابها غالبيتهم[2] وعدوها خطأ صريحاً . وليس كذلك أمر القراءة الثانية : صادى ، التى تدين فى نشأتها إلى نظر تفسيرى محض ، حيث فهمت على أنها أمر من مصدر المادة الثلاثية : ص دى ، ومن هنا لا تتعارض فى صيغتها مع قواعد[3] النحو .

ومن الممكن أن يحيط غير العربى باللغة العربية إحاطة تامة ، بيد أن خصائصه فى التعبير تنم على أنه أجنبى. وهكذا نمت لهجة الفقيه السورى الكبير : مكحول (المتوفى ١١٧ هـ) ، على أن نسبه يمت إلى أحد الأسرى من « كابل » ؛ فقد كان يستعيض[4] من الحاء بالهاء ، ومن القاف بالكاف ، كما أعرب المحدث الثقة الكبير : نافع (المتوفى ١١٧ هـ) ، شيخ الإمام « مالك » — يضع البخارى سلسلة : مالك عن نافع عن ابن عمر فوق كل إسناد — عن أصله الديلمى[5] ، بسبب تعبيره .

بل حتى فى أكثر النواحى اختصاصاً أصيلا بالعرب ، وهو فن الشعر ، كان على العرب أيضاً أن يرضوا بمنافسة الأجانب . وقديماً ، فى النصف الثانى من القرن الأول ، نال رجل غير عربى هو زياد الأعجم (المتوفى حوالى سنة ١٠٠ هـ) من حيث هو شاعر فى بلاط المهلب بن أبى صفرة (المتوفى ٨٢ هـ) فى خراسان ، مجداً وعلوًّا كبيراً . لقد كان فارسى الأصل ؛ ويرجع

---

(١) البيان للجاحظ ٢/٤ .

(٢) المحتسب لابن جنى فى سورة الشعراء ٢٠/٢١٠ ؛ المختصر لابن خالويه ص ١٠٨ ، الكشاف : ص ١٠١١ ، تاج العروس ٥/١٧٢ .

(٣) المحتسب لابن جنى فى سورة ص ٣٨/١ ؛ المختصر لابن خالويه ص ١٢٩ .

(٤) المعارف ص ٢٣٠ ؛ ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ٢/٥٨٥ ؛ تذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٠٢

(٥) تذكرة الحفاظ للذهبى ١/٩٤ ؛ تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/٤١٤ .

لقبه : « الأعجم » إلى لكنته الفارسية ، وضعفه فى نطق العربية . ويصفه أحد خصومه ، وهو المغيرة بن حبناء ، بأنه « علج أعجم » ، وأنه أعجمى لسانه وأنه « ابن زَرْوان[1] » ، والأقوال التى رويت على لسانه[2] تدل على أنه كان يستعيض من العين بالهمز ، ومن الحاء بالهاء ، ومن حروف الإطباق بنظائرها المرققة . وهذه الظواهر فى نطق العربية من السمات الخاصة بالألسنة الفارسية ، مما يحملنا على الركون إلى هذه الروايات الواردة فى هذه النقطة على الأقل وإن كانت أهم هذه الروايات[3] قد حكيت[4] أيضاً عن زياد ، أخى حسان ابن أبى حسان النبطى[5] الذى اشتهر بأعمال السَّقى والرَّىّ فى العراق على عهد الوليد وهشام . ولكيلا يتأثر حسن الجَرْس فى أبيات زياد الأعجم بضعف نطقه ، أهدى إليه المهلب غلاماً يجيد[6] الإلقاء . وما كان ليفعل ذلك لو لم تكن أبيات الشاعر سليمة من حيث النحو والقواعد . وفى الحق إن تركة[7] زياد الشعرية لتدل على أنه كان متمكناً من العربية تمكناً كاملا ؛ ومرثيته للمغيرة بن المهلب (المتوفى ٨٢ هـ[8]) من أشهر المراثى فى الشعر العربى[9] . نعم لقد أخطأ فى قوله (فى مكان آخر) :

إذا قلتُ قد أقبلتْ أدبرتْ   كَمَنْ ليس غادٍ ولا رائحُ

إذ كان يجب أن يقول : كمن ليس غادياً ولا رائحاً . بيد أنه من قبيل التعميم ، الذى لا وجه له من الحق ، أن يقول فيه ابن قتيبة[10] بسبب ذلك :

---

(١) الأغانى ١١/١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) الأغانى ١٤/١٠٣ ؛ البيان للجاحظ ١ /٣٢ ؛ الكامل للمبرد ص ٣٦٦

(٣) الأغانى ١٤/١٠٢ ، وانظر : خزانة الأدب ٤/١٩٣ ففيها الصواب .

(٤) البيان للجاحظ ٢/٣ ؛ المحاسن والأضداد (القاهرة ١٣٢٤ هـ) ص ٧

(٥) انظر فى هذا : Wellhausen, Das arab. Reich S. 157

(٦) الأغانى ١١/١٦٥

(٧) حفظ كتاب الأغانى كثيراً من شعره ، كما توجد طائفة من أشعاره فى كتب التراجم والتاريخ والأدب والمختارات .

(٨) أمالى القالى ٣/٨ — ١١ ؛ وشرح البكرى ٣/٧ فى الموضع نفسه ؛ ويضاف إلى المصادر المذكورة فيه : إرشاد الأريب ٤/٢٢٢

(٩) الأغانى ١٤/١٠٢ .

(١٠) الشعر والشعراء ص ٢٥٩ ,Reckendorf, Syntax S. 97 وقد أخذ سهواً بحكم ابن قتيبة دون تمحيص .

إنه كان كثير اللحن . بل ربما كان أبو الفرج الأصبهانى مصيباً حين يصف[١] عبارته اللغوية بالسلامة من الخطأ : « فصيح الألفاظ » .

وقد وجد مثال زياد الأعجم تكراراً ، بعده بنصف قرن ، فى شخص أبى عطاء السندى ، الذى يأخذ مجرى حياته مَهْيَعاً مطابقاً لمجرى حياة الشاعر القديم بصورة لافتة للأنظار . لقد كان أبو أبى عطاء[٢] عبداً من السند ، لا يكاد ينطق العربية . وعنه أخذ ابنه ، الذى نشأ بالكوفة ، نطقه السقيم ، كما يفعله كثير من الهنود إلى هذا اليوم . كان يبدل الحاء هاء ، والجيم زايا ، والشين سينا[٣] ؛ لكنه كان ذا ملكة فى الشعر لا يستهان بها ؛ حيث حصل وشيكاً بمدائحه على إعجاب معاصريه . وكان أشهر من احتضنه وشد من أزره والى خراسان لبنى أمية : نصر بن سَيَّار (حكم ١٢٠ — ١٣١ هـ) ، الذى كان هو أيضاً على عرق فى الشعر ، وكان يعجب بالشعر الجيد . ولما كانت لهجة « السندى » لا تسمح له أن يلقى الشعر ، فقد استوهب أَحَدَ ممدوحيه ، وهو سليمان بن سُلَيْم بن كيسان الكلبى[٤] ، عبداً حبشياً للإلقاء . وقد بقى لنا الشعر[٥] الذى استوهب سليمانَ به هذا العبد :

أعوزتْنِى الرواة يا بْنَ سُليم ... وأبى أن يُقيم شِعْرِى لِسَانى
وغَلَى بالذى أُجمجم صَدْرِى ... وشكانى لعُجمتى شيطانى[٦]
وازدرتْنِى العيون إذْ كان لونى ... حالكاً مجتوًى من الألوان[٧]
فضربتُ الأُمور ظَهْراً لبطن ... كيف أَحْتَالُ حِيلة للسانى

(١) الأغانى ١٤/١٠٢ .

(٢) الأغانى ١٦/٨١ — ٨٧

(٣) الشعر والشعراء ص ٤٨٢ ؛ الأغانى ١٦ / ٨١ ، ٨٢ ؛ ٨٧ ؛ شرح الحماسة للتبريزى ص ٢٦ ؛ خزانة الأدب ٤/١٧٠ ؛ ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ٢/٥٨٥ وانظر الخبر الذى رواه ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٤٨٢ = الأغانى ١٦/٨٣ = ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ٢/٥٨٥

(٤) كان على رأس القوات السورية فى العراق التى رابطت فى الحيرة تحت ولاية يوسف بن عمر (١٢٠ — ١٢٦ هـ) واشتركت فى قتال زيد بن على (انظر الطبرى ٢/١٧٠٨ ؛ ٢/١٨٣٨)

(٥) الأغانى ١٦/٨٢

(٦) ويروى : وجفانى لعجمتى سلطانى . والظاهر أنه تحريف حادث : انظر : Goldziher Abhandl. z. arab . Philologie I, 13 Anm. 2

(٧) روى : وعدتنى العيون .

وتمنيت أننى كنتُ بالشِّعـ ـر فَصِيحاً ، وبان بعضُ بناتى[١]

ثم أصبحت قد أنخت ركابى عند رَحْب الفِناء والأعطان

فَاكْفنى ما يضيق عنه رُواتى بفصيح من صالحى الغلمانى

يُفْهَم الناس ما أقول من الشعـ ـر فإن البيان قد أعيانى

فاعتمدنى بالشكر يا بن سُليم فى بلادى وسائر البلدان

ستوافِيهم قصائدُ غُـرٌّ فيك سبّاقة بكل لسان

فقديماً جعلتُ شكرى جزاءً كلَّ [٢] ذى نعمة بما أولانى

لم تزل تشترى المحامِدَ قِدْماً بالرَّبيع الغالى من الأثمان

على أن الأمر لم يكن مقتصراً على الفرس والهند فحسب ، بل لقد كان ، حتى بين المحقّرين من الزنوج — حوالى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى — رجال تمكنوا من ناحية العربية تمكناً تاماً ، بحيث سجّلوا لأنفسهم ذكراً ومكانة فى الشعر . فحينما حقّر جرير[٣] — عرضاً من شأن الزنج ، فى قصيدة ، تهكم فيها بالأخطل ، انبرى زنجى للردعليه بقصيدة تغنى فيها بمدح بنى جلدته ، وعدِّ أبطالهم وشعرائهم . وقد أثارت قصيدته إذ ذاك دهشة عظيمة ، وإن طُرِحت بعد ذلك فى زوايا النسيان ، فلم يصل إلينا منها إلا بضعة أبيات[٤] . وحتى اسم صاحبها لم يرد فى صورة ثابتة ؛ فعلى قول المبرد[٥] يسمى : رياح بن سُنَيْح ، وكان مولى لبنى ناجية ، ويقول آخرون إن اسمه — على عكس ذلك — سنيح بن رياح ، (أو صُبَيْحُ بن رَباح[٦]) ؛ ويذكر

---

(١) يؤثر المؤلف : وبان بعض بيانى ، ولاداعى إليه . وربما كان فى البيت قبله : كيف أحتال حيلة لبيانى ، تفادياً للإيطاء مع البيت الأول (النجار) .

(٢) انتصب لفظ : كل ، على أنه مفعول للمصدر وهو : جزاء .

(٣) نقائض جرير والأخطل ؛ نشرها أنطون صالحانى (بيروت ١٩٢٢) ٨٨

(٤) ذكر الجاحظ ١٤ بيتاً منها فى رسالة تفضيل السودان على البيضان (ثلاث رسائل للجاحظ ، طبع فان فلوتن) ص ٨٤ وما بعدها . وانظر أمالى ابن الشجرى ١/١٩٤ (طبع كرنكو) ونقائض جرير والأخطل السالف الذكر .

(٥) الكامل ص ٤١٥ ويوجد فى بعض النسخ كما فى بعض النسخ الخطية رباح بن صبيح .

(٦) كذا فى الجاحظ عند الموضع السالف الذكر . وقرأه فان فلوتن : شيخ بن رباح ، وهى قراءة رديئة . وقرأه صالحانى فى النقائض : سنيح بن رياح ، وذكر فى التعليق بعض الاختلافات وقرأه كرنكو — غلطاً — سفيح بن رباح .

المبرد أنه : فصيح ؛ كما أن أبياته الباقية تدل على أنه كان يفهم كيف يتعاطى فنّ الشعر العربى ولغته ، ويحسن أساليبه . ولكى يحقّر جريراً، مدح فى قصيدته خصمه بكلمات المدح التالية :

إنَّ الفرزدقَ صخرةٌ عادية طَالَتْ ، فليس تَنَالُها الأَوْعَالا[(١)]

وهذا هو البيت الفرد الذى يكثر سوقه من أبيات القصيدة ، وإن كان دون تسميه قائله . وهو يشتمل على تأليف غريب للكلام ، بل معيب عند بعض النقاد . وكان التأليف الطبيعى يقتضى : طَالَتْ الأَوْعَالَ فَلَيْسَ تَنَالُها . بيد أن من شعراء البادية من سمح لنفسه بحرية أجرأ من هذه ، فلا يجوز لأحد أن يرجع هذه الظاهرة إلى أصل الشاعر غير العربى. وقد اشتهر برداءة التأليف مثلا — بيت الفرزدق التالى ، من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل خال الخليفة هشام بن عبد الملك :

وما مِثْلُه فى الناس إلا مملكاً أبو أمه حىٌّ أبوه يقاربه[(٢)]

كذلك يبدو فساد التأليف فى بيت الفرزدق التالى ، من قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك :

إلى مَلِك ما أُمُّه من مُحـارِبٍ أبوه ولا كانت كُلَيبٌ تُصاهِرُه[(٣)]

وقصائد الفرزدق بوجه خاص، بها بعض الأبيات التى كثيراً ما سببت[(٤)] لشارحها عناء كثيراً ، لما يرد فيها من التداخل عن صنعة واختيار .

بل لقد ظهر كذلك فى أواخر القرن الأول فتور فى الإحساس اللغوى القديم عند الشعراء من أصل عربى . حقاً لقد كان الطراز الرفيع من الشعر يجرى على السنن المرسوم ، والتقاليد المرعية ، ليس فقط من حيث الموضوع واختيار المقام والمقال ، بل كذلك فى شكله من حيث الثروة اللفظية وطرق التعبير . بيد أنه على الرغم من ذلك ، كان فى الأول ، يصدر عن طبع صادق ،

(١) أمالى المرتضى ٤ / ١٣٠ ؛ الشنتمرى على سيبويه ٢/٣٥٦ ؛ العمدة لابن رشيق ١/١٧٤ ؛ تاج العروس ٧/٤٢٣

(٢) سقط البيت فى الديوان. وقد أضافه الصاوى فى ص ١٠٨ نقلا عن الأخبار والروايات.

(٣) العينى على هامش الخزانة ١/٥٥٥ ؛ وفى الديوان ٣١٢ وردت الرواية : أبوها وهى أخف تعقيداً .

(٤) يحتوى الأغانى ١٩/١٥ فما بعدها على أمثلة كثيرة من ذلك .

ونبع أصيل ، أما فى ذلك العهد فقد انتشرت الصنعة والتقليد عند المولدين أيمّا انتشار .

وها هو ذا ديوان الشاعر : « الطرماح » ، حافل بالعبارات المنتقاة ، والألفاظ المبهمة . لقد نشأ فى سواد الكوفة ، ويقال عنه : إنه كان يكتب ألفاظ النبيط ، فيعرّبها ، ويدخلها فى شعره[1] . ويعدّ الأصمعى — وحكمه راجح الوزن — الطرماح والكميت من الشعراء المولّدين الذين لا يحتج باستعمالهم اللغوى ؛ ويزعم أنهما استعملا عبارات أغارا عليها من أقوال غيرهما ، دون أن يفهماها فهماً صحيحاً[2]. وهو يقصد « من أقوال غيرهما » رؤبة الراجز ، الذى حكى أنه ، وهو فى فارس عند ممدوحه أبان بن الوليد البجلى[3] ، سأله الطرماح والكميت عن شىء من الغريب ؛ فلما كان بَعْدُ رآه فى شعرهما[4] ولقد كان رؤبة فى مثل هذه المعلومات — بطبيعة الحال — أبا عذرتها ، الذى يسمو فى فهم أسرار اللغة ودقائقها على المستفسِرَيْن بكثير ؛ وحتى لو كانت أقواله مغالىً فيها ، أو كاذبة كما شك[5] فيها بعضهم على غير أساس ؛ فإن حكم الأصمعى جِدّ صحيح ، ويؤيده ديوان الشاعر كل التأييد ، كما ستبينه

---

(١) الموشح ص ٢٠٨

(٢) المرجع السالف ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣) كان أبان عاملا لخالد بن عبد الله القسرى بين ١٠٥ و ١٢٠ هـ (الأغانى ١٩ / ٢٠) وانظر فى سعيه لتخليص خالد من الحبس (الطبرى ٢/١٦٥١ — ١٦٥٤) ووقوعه هو فى الحبس (الأغانى ١٥/١٢٩) ، وكان مقصوداً من الشعراء يجزل لهم العطاء (انظر فهرست الأغانى) . وقد قال فيه رؤبة القصائد رقم ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ فى ديوانه ، انظر مقدمة آلورد فى الديوان المذكور (Sammlungen arabischer Dichter III S. XLVII) ولايلتبس بأبان بن الوليد المشهور بانتصاره على البيزنطيين سنة ٧٥هـ ، فهذا ابن الوليد بن عقبة الذى ولى الكوفة (٢٦ — ٣٠ هـ) انظر : Wellhausen, Skizzen VI S. 115 - 117

(٤) الموشح ص ١٩٢ ؛ الشعر والشعراء ص ٣٧٢ ؛ الأغانى ١٠/ ١٥٦

(٥) انظر : (Krenkow, the Poems of Tufail and Trimmah (GMSXXV) S. XXV u. EI, IV 860

وقد حدد كرنكو ميلاد رؤبة فى دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٢٥٩ بسنة ٦٥ هـ . على ذلك فلا يمكن أن يكون فى عهد انحلال الدولة العربية شاباً فتياً a very young man بل أصغر قليلا من الكميت (المولود سنة ٦٠ هـ) الذى لم يكن تجاوز بعد قمة إنتاجه الأدبى . كذلك لم يقم بين رؤبة والطرماح فارق بعيد من جهة السن. ولا علاقة بين مرتبة رؤبة فى الشعر وعلو مكانته فى شئون اللغة ، فهو هنا من حيث هو بدوى أصيل نسيج وحده .

الأمثلة التالية التى يمكن زيادتها بسهولة : فإذا وصف الطرماح (ق ٨/٣) ثوراً وحشياً فى ليلة ممطرة ، تلفه سحابة مثقلة بالماء (سارية وطفاء) ، وَهَيْفٌ مُبْرِدٌ ، فإنه لا يكاد يُفهم من اللفظين الأخيرين إلا ريح باردة . ولكن لفظ هَيْف ، معناه ريح الجنوب[1] اللافحة الحرارة . ورواية : هَيْفٌ ، المذكورة عند المرزوقى[2] وحده ، وهو يعلق على ذلك بأن الشاعر قد خالف طريقة استعمال غالب البدو . وفى الديوان على العكس من ذلك : هِفٌّ مُبْرِدٌ . وهى رواية ربما جاز لنا أن نرى فيها تغيراً مقصوداً للفظ الأصلى على أنها كذلك لا تدل على معنى مقنع ؛ إذ إن لفظ : هِفّ ، ومعناه فارغ ، يدل على : سحابة غير ممطرة ، وهذا المعنى لا يتناسب أيضاً — مثل ريح الجنوب — مع سياق الكلام . وإذا كان الشارح يفسر الهِفّ بالريح الباردة ، فهو — فيما يظهر — مصيب .

ونسوق — مثالا ثانياً — البيت التالى (ق ١٢/٤١) من قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلب (المتوفى ١٠٢ هـ) :

لأُمّ تَحِـــنُّ به مـــزا ميرُ الأجانب والأشـــامل

وهنا صاغ الشاعر للفظ : شَمْل ، وهى صيغة ثانوية إلى جانب شمأل ، أو بعبارة أخرى — صاغ لجمع شَمْل ، وهو : أشْملُ ، جمعاً جديداً على أشَامِل ، وجعله مجارياً للفظ : أجَانِب ، بحيث نشأ من ذلك ازدواج لفظى غريب . وقد عمد إلى ما هو أعنف من ذلك فى بيت آخر (ق ٢١/٤) اختصر فيه لفظ : تلاميذ إلى : تلام ، بسبب القافية . نعم قد ترد مثل هذه التغييرات اللفظية المتعمدة عند شعراء آخرين أيضاً ، بيد أنها تعدّ — بحق — عند النقاد العرب من قبيل الخطأ[3] .

ولمثل هذه الظواهر كان من المرغوب عنه تماماً اعتماد أشعار الطرماح فى معجم اللغة العربية ، على الأخص بالنظر إلى المفردات التى ينفرد باستعمالها . ولفظ كِرَاض الوارد فى شعره (ق ١٠/٢) أيد المبرد[4] مطابقته لمعنى تعبير

(١) انظر ديوان ذى الرمة ق ٤٤/١ ؛ (والمعاجم العربية : اللسان ؛ التاج ؛ الأساس) Dozys supplement; J.J. hess , Islamica 2, 587

(٢) كتاب الأزمنة والأمكنة (حيدر آباد ١٣٣٢ هـ) ٧٨/٢

(٣) انظر مثلا : نقد الشعر لقدامة ص ٨٦ فما بعدها .

(٤) الكامل ص ٩٥

يوناني — فسره[١] بعضهم ، مراعاة للسياق ، بالرحم ، أو ما يلفظ الرحم من ماء ، أو ماء الفحل . فأي هذه المعاني ينطبق هنا ؟ وهل هو لفظ في لهجة بعينها ، أو لفظ قديم بطل استعماله ، أو وضع جديد ، أو ناشيء عن سوء فهم ؟ هذا ما يعسر بيانه بالتحديد .

ويضع الأصمعي مع الطرماح — كما ذكرنا — الكميت بن زيد الشاعر (حوالى ٦٠ — ١٢٦ هـ) في مرتبة واحدة[٢] . ولد الكميت بالكوفة ، وينسب إلى بني أسد . حقاً لا تدل شجرة نسبه الفاخرة[٣] على خلوص نسبته العربية . ولما كانت دعوى[٤] الأصمعي ، أنه جرمقاني من الموصل ، لا تكاد تكون هواء أو مبنية على غير أساس ، فلا بد من فسح المجال لاحتمال أن أبا أمه كان من السكان الذين نزلوا قديماً بمنطقة الموصل وأقاموا فيها . وأيًّا ما كان ، فقد بقي بعيداً عن البداوة ، وصار من أهل المدن . نعم لا تزال تجري أشعاره على السنن القديم تماماً ، كما أنها تحمل طابع التقاليد المصطنع على جبينها . وهذا ينطبق — قبل كل شيء — على أوصافه التي لا لون لها ، والتي لا تقول شيئاً ، والتي قال فيها ذو الرمة : ما يقدر إنسان أن يقول إنها صواب أو خطأ . وإذا كان الكميت لم يعارض هذه الحقيقة الثابتة ؛ بل لاحظ عليها موضحاً — مبيناً للفرق بينه وبين ناقده — أنه يصف شيئاً لم يره بعينه ، فإن محاولته الدفاع عن نفسه على هذا النحو تدل على أنه رفع[٥] التقليد المحض إلى مرتبة الحذق الفني ، ومع هذا ، فإنه لم يتقيد بِمُثُلِه ونماذجه تقيد العبودية ؛ فقد حبب إليه مثلا أن يعطي النسيب تحولا سلبياً ، حينما يبرز في صورة التأكيد أن قلبه ليس ملكاً للغواني ، ولا يطمح إلى حب النساء ، وان طربه لا يرجع[٦] إلى شوق أو غرام . وهذا يتيح له الفرصة ، حتى في قصائد الرثاء التي يجب بالبداهة أن تكون بمعزل عن التشبيب والغزل ، أن يحشوها بأوصاف من

(١) انظر : تاج العروس ٥/٨٢

(٢) الموشح ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣) الأغاني ١٥/١١٣ ، وعلى ماذكره هناك ١٥/١٢٥ كانت جدتاه من البدو .

(٤) أمالي القالي ١/٩٦ ؛ انظر الاشتقاق لابن دريد ص ٢٦٥ (طبع فستنفلد) ، وفي « الجرامقة » انظر الهمداني (BGAV) ص ٣٥ ؛ تاج العروس ٦/٣٠٥ EI, I, 588 تحت لفظ : Badjarma .

(٥) الأغاني ١٥/١٢٥ ؛ الموشح ص ١٩٥ .

(٦) انظر — قبل كل شيء - الهاشميات ق ٣/١-٣٠

العبارات المألوفة فى النسيب . وهذا خروج على الأساليب عابه[1] عليه — بحق — النقاد العرب . وفى مرة أخرى اختار الكميت للنسيب ، فى قصيدة يمدح بها عبد الرحمن بن عنبسة[2] ، قالب الاستفهام التوبيخى :

أأبكاكَ بالعُرْفِ المنزِلُ   وما أنت والطَّلَلُ المُحوِلُ
وما أنت وَيْكَ ورَسْمُ الديارِ   وسنُّكَ قد قارَبَتْ تكمُلُ[3]

كذلك كان لا يبالى أن يقتبس من القرآن — إلى جانب الأشعار القديمة — لأغراضه ، بحيث استطاع العالم الكوفى : ابن كُناسة (١٢٣ — ٢٠٧هـ) ، الذى اشتغل كثيراً بأشعار الكميت ، أن يضع كتاباً[4] كاملا فى سرقاته بعنوان : (سرقات الكميت من القرآن وغيره) . ولكنه هناك ، حيث لا يعتمد على مصدر ، يبدو تعبيره فقيراً رثاً ، عارياً من كل جمال شعرى . وكثير من شعره يبدو فى صورة نثر منظوم ، تبرز خلال فقره وإقفاره ، التعبيرات الرفيعة من لغة الشعراء ، المقحمة هنا وهناك ، كأنها رقاع جديدة فى ثوب بال ، تَشْدَهُ الأبصار ، وتدهش الأنظار . ويتسق مع هذا اتساقاً تامًّا أن الكميت كان يعد أمية بن أبى الصلت أشعر الشعراء (الأغانى ١٢٢/٤) فهذا التنقل بين السطحية المقفرة ، والصيغة المتنخلة ، قد أسهم كثيراً فى طبع أسلوب الكميت القلق المضطرب بطابع عام غير مرض . وترجح فى هذا الأسلوب كفة العنصر النثرى تماماً ، وحتى الحرية التى يتخذها الكميت أحياناً فى الأمور اللغوية ، هى أيضاً ذات ميسم نثرى ؛ فهو يستعمل مثلا للفظ « ذو » الذى يقتصر وروده عادة على التركيب الإضافى ، فى الجمع المعرف : « الذَّوِين » بمعنى أشراف اليمن[5] ؛ وهو يصوغ لفظ « عُشَار »

---

(١) العمدة (١٣٤٤ هـ) ١٢٢/٢

(٢) انظر : Wüstenfeld, gen. Tabellen U 24

(٣) الأغانى ١٩٣/١٨ ؛ خزانة الأدب ٥٥٨/١ ؛ معجم البلدان ٦٤٧/٣ . وهذا مذهب آخر غير مذهب تحقير الأطلال ورسوم الديار الذى ظهر فى شعر المحدثين (Goldziher, muh. studien I 32 Anm. I)

(٤) انظر الفهرست ص ٧١ (فلوجل) .

(٥) سيبويه ٣٩/٢ (Derenbourg) ؛ خزانة الأدب ٦٧/١ ؛ ٨٦ ؛ شمس العلوم ٣٩ وغير ذلك .

بمعنى لكل عشرة ، على الرغم من أن صيغة «فُعَال» تستعمل[1] عادة فى ألفاظ التقسيم من واحد إلى أربعة فقط (أُحاد ، ثُناء ، ثُلاث ، رُباع) ؛ وهو يستعمل اسم الموصول : « الذى » ، دون صلة ، بمعنى اسم الإشارة :

فَإن أَدَعِ اللواتى من أُناسٍ أضاعُوهنَّ ، لا أَدَعُ الذِّوِينا[2]

ولم يأخذ الناقدون عليه استعماله للألفاظ المهجورة تماماً ، كما هو الحال عند الطرماح ، وإنما انصب النقد على تسامحه فى تعاطى اللغة الدارجة . فمثلا يُخَطِّئه الأصمعى فى البيت الذى قاله فى هجاء يزيد بن خالد بن عبدالله القسرى :

أبرِقْ وأرْعِدْ يايزيـ ـدُ فما وعيدُك لى بضائِرْ[3]

لاستعماله صيغة أفْعَلَ من : بَرَقَ وَرَعَدَ ، مع أن الاستعمال الفصيح لا يعرف إلا صيغة الثلاثى[4] : مجازاً فى التهديد والوعيد . وأخيراً ، أساء الكميت أحياناً فهم التعبيرات البدوية ، لقلة بصره بشئون البدو ؛ فهو مثلا يقول : نار أبى حُباحِب[5] ، فأخطأ فى فهم العبارة المشهورة : « نار

---

(١) انظر الأغانى ١٣/١٤٥ ؛ خزانة الأدب ١/٨٢ ؛ أدب الكاتب (نشر Grünert) ص ٥٩١ وشرح البطليوسى عليه ص ٤٦٧ وشرح الجواليقى ص ٣٩٣ ؛ درة الغواص ص ١٤٨ (نشر Thorbecke) .

(٢) خزانة الأدب ٢/٥٦٠ ومثل هذا الاستعمال يوجد فى العبارة المشهورة : بعد اللتيا والتى . انظر : الميدانى (١٤٣٢ هـ) ١/٨٢ .

(٣) الموشح ١٩٦ ، ١٩٧ ؛ أمالى القالى ١/٩٦ والتنبيه للبكرى ١/٣٠٠ وأدب الكاتب ٤٠٠ وشرح الجواليقى عليه ٢٨٣ وإصلاح المنطق ٢ ، ٥٨ والاشتقاق لابن دريد ٢٦٥ وفصيح ثعلب ٦

(٤) شواهد الفعل الثلاثى فى المعنى المجازى مستفيضة ؛ انظر ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ٤٠٠ ؛ ديوان المتلمس (Vollers VI 15) أما الفعل الرباعى بهذا المعنى فقد جاء فى بيت للمهلهل عده الأصمعى منحولا (الأغانى ٤/١٤٩ ؛ الكامل للمبرد ٦٢٥ ، الموشح ص ١٩٦) وكما فى البيت المنسوب إلى عبد الله بن الحارث السهمى (ابن هشام ص ٢١٦) والذى روى أنه سمى : المبرق بسببه ؛ وفى بيت للزفيان (انظر ديوانه : آلورد VIII 4) ، وللعديل بن الفرخ العجلى معاصر الحجاج (الحماسة ص ٣٤٨) . ونظراً لهذه الشواهد المختلفة يعد كل من أبى عبيدة وأبى عمرو (انظر : إصلاح المنطق ٢ ، ٥٨) وأبى زيد (انظر : أمالى القالى ١/٩٦) صيغة الرباعى ، كصيغة الثلاثى فصيحة .

(٥) شرح الشواهد الكبرى للعينى ٤/٣٦١ ؛ تاج العروس ١/٢٠٠ ؛ خزانة الأدب ٣/٢١٣ (نار أبى الحباحب) .

الحباحب[1]» ، وظن أن لفظ حُباحب ، الذى معناه : اللهب أو دُوَيْبَّة حمراء تشبه اللهب ، اسم رجل عربى بخيل ؛ كما أخطأ فى ذلك أيضاً من تابعه من اللغويين[2].

على أنه ، حتى عند آخر من يحتج بشعره من شعراء البادية : ذى الرمة ، المتوفى حوالى منتصف عام ١١٧ هـ ، توجد هنا وهناك صيغ مولدة . حقاً لقد كانت علاقته بالشعر القديم ، إذ كان بدوياً ، تختلف اختلافاً تاماً عن علاقة الكميت ؛ كما صانته خبرته ودرايته العميقة باللغة والطبيعة العربية من الوقوع فى أخطاء صريحة . بيد أنه — على الرغم من ذلك — قد ظهر أثر العصر الجديد فى لغته أيضاً ؛ فهو مثلا يستعمل[3] فى القصيدة ٢٩/٨٧ ، لفظ : زوجة ، من اللفظ القديم : زوج ؛ وهى صيغة جديدة وردت عند الفرزدق من قبل (ديوانه ٥/٦٠٥) ، ولكنها مرفوضة من الأصمعى[4] ، رعاية للاستعمال القرآنى فيما يبدو . ويخطئ الأصمعى أيضاً استعمال ذى الرمة (قصيدة ١٧/ ١٠ ، ١٣/٢٢) لفظ : أُدْمَانة ، بمعنى بيضاء اللون (ظبية) بحجة أن لفظ الجمع وهو : أُدْمَان (جمع آدم) لا يصح أن تلحقه علامة تأنيث ، ولا يصح غير : أُدْمَاء[5]. وإذا كان علماء آخرون يشيرون إلى أن الوصف على فُعْلان بالمعنى الإفرادى يصح أن تلحقه علامة التأنيث (مثل : خُمْصَان[6] وخمصانة بمعنى : أهيف وهيفاء)، فلا ينطبق ذلك على ما نحن فيه ؛ لأن أُدْمان — كما ذكر — ليس بمفرد — وحقيقة يبدو أن لفظ : أدمانة

---

(١) النابغة : قصيدة ٢١/١ ؛ الأغانى ٥٢/١٢ ؛ القطامى قصيدة ٤٠/١٥ ؛ أبوحية (رواه الجاحظ فى الحيوان ١٥٥/٤ ؛ الميدانى : ٢٣٢/١ ؛ الدميرى (١٣٤٧ هـ) ٣٣٤/١ ؛ أمالى ابن الشجرى ٥٨/٢ : وانظر أيضاً: A. Fischer, Der koran des abu I'Ala' al-ma'arri, Leipzig 1942 S. 58-63

(٢) انظر : Nöldeke Beiträge zur semitischen sprachwissenschaft 118,10.

(٣) أخذت الشواهد المتعلقة بذى الرمة من : The Diwan of Ghailan b. 'Uqbah known as Dhu'r-Rummah ed. by C.H.H. Macartny, Cambridge 1919.

(٤) الموشح ص ١٨٠ ؛ تاج العروس ٥٤/٢

(٥) الاشتقاق لابن دريد ص ٤٤ (وفيه أدمانة غلط) ؛ تاج العروس ١٨١/٨

(٦) ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة ، قصيدة ١٣/١ ؛ وأبى وجزة فى تاج العروس ٢٦٩/١٠

لم يرد فى الشعر القديم[1] ؛ وهذا البيت الذى يساق كثيراً[2] :

إنسانة الحى أَم أُدمانة السُّمُرْ   بالنِّهى رقَّصها لحنٌ من الوتر

والذى ينم[3] فيه أيضاً لفظ : إنسانة ، مؤنث إنسان ، على أنه متأخر ، إنما قيل فى القرن الخامس . وقائله رجل من زعماء بدو المنتفق اسمه : كامل ، كان فى خدمة الوزير السلجوقى : كُنْدُرِى ، سنة ٤٥٠ هـ ، بالبصرة . وقد سمع منه القصيدة التى يقول فى مطلعها[4] هذا البيت ، الباخرزى ، حاجب كندرى .

وكذلك ، فى دائرة التركيب النحوى ، تظهر فى لغة ذى الرمة ، بين حين وآخر ، سمات من غير الفصحى ، مثل حشوه : « إلا » الزائدة فى البيت ١٧ من القصيدة ٢٤ :

حراجيجُ ما تنفكّ إلا مُناخةً   على الخَسْفِ أو نرمى بها بلداً قَفْرًا[5]

ويظهر أنه قصد من ذلك إلى إبراز معنى الحصر فى وضوح[6] . كما أن وضعه لفظ : « لا » جواباً على ترديد السؤال ، بدلا من « بل » فى البيت ٣٠ من القصيدة ٨٧ ، من الاستعمال المولد[7] . وأياً ما كان الأمر فإن هذه الظواهر عنده من النَّادرة بحيث لا يمكن أن تغض من مكانة ذى الرمة ، من حيث إنه من الشعراء المحتج بهم .

---

(١) بل ورد فى شعر لعبيد بن الأبرص فى ديوانه ق ١٩/٤ (شبيتالر)

(٢) انظر تخريج هذا البيت فى فهارس الشواهد : Fischer u . Bräunlich schawahid - Indices 102b II

(٣) ورد لفظ : إنسانة لأول مرة فى شعر المتنبى ؛ انظر تاج العروس ٩٩/٤

(٤) انظر الباخرزى : دمية القصر (١٣٤٩ هـ) ص ٢٧ — ٢٩

(٥) زيادة (إلا) هذا مبنى على خطأ تلفيقى ومقيس على عبارات مثل : أبى إلا (شبيتالر)

(٦) الموشح ص ١٨٢ ؛ ١٨٤ وانظر فى تخريج ذلك على مختلف الوجوه : الإنصاف ص ٧١ فما بعدها ؛ خزانة الأدب ٤٩/٤ فما بعدها ؛ على أن عبارة : ما ينفك إلا ، قد وردت عند بعض المدققين مثل الحريرى (انظر : إرشاد الأريب ١٧٢/٦)

(٧) هكذا يقرر المؤلف محيلا على الكامل ص ٢٦٠ ، بيد أن الأخلق أن يجعل اللحن فى السؤال بلفظ : أم ، التى يطلب بها تعيين أحد الأمرين مع الإيقان بحصول أحدهما . وظاهر الكلام فى البيت المشار إليه أن السؤال عن التصديق بأحد الأمرين أى أن السائلة تجهل حصول واحد منهما ، فكان المقام للفظ : أو ، بدلا من : أم . وعلى هذا فالجواب بلفظ : لا صحيح نظراً إلى قصد السائل لا إلى لفظ السؤال ، لأن لا : مثل : بل ، يجاب بها فى التصديق لا فى التعيين . انظر رغبة الآمل ١٨٣/٤

وها هو ذا الأصمعي الذي عنى[١] كثيراً بهذا الشاعر ملقياً[٢] نظره بصورة خاصة على الظواهر المولّدة، ينتهى إلى تقرير أن ذا الرمة حجة فى شئون اللغة ؛ لأنه بدوى ؛ على الرغم من أن شعره ، ما عدا الدالية (ق ١٧) لا يشبه شعر العرب[٣]. وهذه السمات المولدة ناشئة من إقامة ذى الرمة فى أرض « السواد » الخصيبة، أو كما يقول الأصمعي فى عرض تصويرى[٤]: « إن ذا الرمة قد أكل البقل والمملوح فى حوانيت البقالين حتى بَشِمَ » .

وبينما كان شعر « البلاط » والأحزاب السياسية فى الدولة العربية يتصرف فى الحدود المتعارفة لأشعار البدو ، ويجعل قدوته ومثاله فصحاء الجاهلية الأولين أبدى شعر الغزل ، الذى ازدهر بالحجاز فى أوائل العصر الأموى ، صورة بعيدة عن البداوة من الوجهة اللغوية أيضاً . وممثلو هذا الشعر الغزلى كانوا فى الأعم الأغلب من بيت الملك ، أو من رجال آخرين من ذوى النسب الرفيع ، من الشبيبة الذهبية فى الدولة (jeunesse dorée) التى لم تكن مشبعة بمطمح سياسى أيًّا كان، بل تفضل أن تقضى عيشها ، فى وطن الأسرة القديم ، مستغرقة فى جميع صنوف الملاذ ، التى كان المجتمع الحجازى المرح الخالى من الهموم يبالغ[٥] فى عرضها وتقديمها . وأشعارهم السهلة السائغة انبعثت عن تجارب الحب الخاصة ، والمغامرات التى تحدوها الرقة والظرف . وأهم ممثل لهم هو عمر[٦] بن أبى ربيعة (٦٤٤/٢٣ — ٧١٢/٩٣) الذى يمتاز تعبيره المصقول الطبيعى ، المتأثر تأثراً خفيفاً بلغة الحوار فى أرقى المجتمعات العربية فى عصره ، امتيازاً واضحاً — من حيث

---

(١) كثيراً ما اعتمد صاحب الخزانة (انظر ١/٢٨٤ وغير ذلك) على شرحه لديوان ذى الرمة .

(٢) ممايدخل فى فى المولد استعماله لفظ : إيه (ق ٤٨/٣) ، فالأصمعي يرى وجوب تنوينه (انظر ياقوت: إرشادالأريب٣/١٤ ؛ خزانة الأدب ٤/٢٣٨)،كما اعترض الأصمعي على لفظ دوم بالمعنى المراد فى القصيدة ١/٩٥ ، إذ إن دوم معناه الدوران فى الهواء . انظر قاموس لين٩٣٦

(٣) انظر الأصمعي : فحولة الشعراء (نشر C. Torrey فى :ZDMG 65,503,17)؛ الموشح ص ١٧٠

(٤) الموشح ص ١٨٠ ، انظر أيضاً : الروض الأنف ١/٢١٠

(٥) انظر Wellhausen, Das arab. Reich, 101

(٦) انظر Kratschkowsky, EI III 1057 f,

مادته اللغوية قبل كل شيء — عن عربية البداوة ، الشديدة الأسر ، المفعمة بالقوة .

ويبدو أن نفس دوائر المجتمع الحجازى هذه ، هى التى ظهر فيها لون فنى آخر من شعر الغرام فى أوائل العصر الإسلامى . تلك القصص الغرامية العاطفية التى لعبت دورها بين البدو فى السهول والهضاب ، مثل قصة ليلى والمجنون وغيرهما من أزواج القصص والروايات . ولم يكن مجهولا لدى بعض[1] علماء اللغة من العرب أن هذا « المجنون » شخصية غير تاريخية . ونحن مدينون لابن الكلبى بهذا الخبر ، من أن شاباً أموياً وقع فى عشق ابنة عم له ، فاختار قصة ليلى والمجنون لتكون إطاراً لشعره فى التشبيب . ولكيلا يشيع اسم حبيبته بين الناس . وكذلك تلك القصص المؤثرة ، عن بنى عذرة[2] ، الذين يموتون إذا أحبوا ، تعتبر من مبالغات شعر العاطفة عند البدو (Beduinenromantik) التى لعبت فى المجتمع الإسلامى دوراً كبيراً .

وتمسك الطبقة العليا من العرب بالمحافظة على العربية ، التى كانت — وهى لغة البدو — معرضة دائماً لخطر الفساد والانحلال فى المدن ، بما تحتوى عليه من سكان أخلاط ؛ وظهور « حركة التنقية اللغوية » ، التى كانت تلح باطراد فى تطهير اللغة وتخليصها ؛ وطموح المسلمين الجدد البعيدى الهمة إلى امتلاك ناصية العربية بجميع دقائقها وأسرارها ، كل ذلك قد أوجد الدافع — فى نهاية القرن الأول — إلى دراسة القواعد ، التى كانت تجعل نصب عينها فى أغلب الظن — كما هى الغاية العملية — تحديد الاستعمال اللغوى الصحيح بصورة أساسية ، والتى لم تستطع الابتعاد — بسبب طابعها القياسى — من الأثر الشخصى ، والاشتغال بالتوافه ، كالمماحكات اللفظية وما شابهها . وقديماً روى عن ابن أبى إسحاق الحضرمى القارىء (حوالى ٢٩—١١٧ هـ) أنه وجه[3] إلى الفرزدق نقداً واهياً . وقد حملته دراسته للقرآن على الاشتغال بأمور اللغة . ويقال إنه توسع توسعاً كبيراً فى استعمال القياس اللغوى ، كما أنه كان يلاحظ اللهجات الخاصة[4] ، وكان — فوق ذلك — مولعاً ، لكونه من الموالى ،

---

(١) الأغانى ٢/٢ (طبع دار الكتب)

(٢) انظر : Levi Della Vida, EI IV 1071 f

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٦ (نشر Hell) .

(٤) تجد أمثلة لذلك فى : طبقات ابن سلام ص ٧ ؛ الفهرست ص ٤٢ ؛ المحتسب لابن جنى فى سورة البقرة ٢/٣٥

بالعثور على شيء فى لغة البدو بتناوله بالنقد والتصحيح . ولما وقع الفرزدق فى « الإقواء » الذى لم تسلم منه لغة الجاهليين أنفسهم[١] ، حيث ضم القافية بدلا من كسرها فى البيت :

علىٰ عمائمنا تُلْقَى وأرحلُنا ‏ ‏ ‏ ‏ علىٰ زواحفَ تُزْجَى مُخُّها رِيرُ

أى ذ ائب ، تعامى ابن أبى إسحاق — عمداً — عن هذا الإقواء ، ورواه كما لو أن الفرزدق قال : رِيرِ بالكسر ، وأنه خالف بذلك قواعد العربية . ولهذا غيّر الفرزدق قافية البيت إلى : على زواحف نزجيها محاسيرِ [٢]. وقد روى البيت على هذه الصورة الصحيحة ؛ فى الديوان[٣] . وقد ثأر الفرزدق لنفسه من ناقده بالبيت المشهور :

فلو كان عبدُ الله مولًى هجوتُه ‏ ‏ ‏ ‏ ولكنّ عبدَ الله مولَى مواليا

بيد أنه سرعان ما أرشد[٤] الفرزدق إلى أن الصواب يتعين أن يكون مَوْلَى مَوَالٍ . وكذلك لم تقف شهوة التمحيص عند ابن أبى إسحاق أمام الشعراء الأولين . فقد رأى فى بيت النابغة (نشر آلورد ق ١١/١٧) :

فبتُّ كأنّى ساورتنى ضئيلةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ من الرُّقش فى أنيابها السمُّ ناقعُ[٥]

أنه يجب أن يكون فى غير الضرورة[٦] : ناقعاً . وعلى عكس ذلك بلغت

---

(١) انظر ديوان النابغة ، قصيدة ٣/٧ ؛ ١٨ ؛ ٩/٢٠ ؛ ٥/٢٦ ؛ وانظر الأغانى ١٦٤/٩ ، وديوان امرىء القيس (طبع السندوبى) ص ١٣٦ ، ١٣٧ ؛ ص ١٤٦ س ٧ وديوان الفرزدق (طبع الصاوى) ص ١٧٢ س ٧ ؛ ص ١٨٢ س ٤ ، ٧ ص ١٨٤ س ٣ ص ١٩٣ س ٦ ص ٨٧٤ س ١٧

(٢) طبقات ابن سلام ص ٧ ؛ وفى الرواية المساوقة عند المرزبانى فى الموشح ص ١٠٠ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء ص٢٥ أن ابن أبى إسحاق أخذ على الفرزدق الإقواء فحسب ، وفى رواية أخرى أن الذى عاب الإقواء على الفرزدق هو عنبسة بن معدان ، انظر المرزبانى فى الموضع المذكور .

(٣) طبع الصاوى (القاهرة ١٣٥٤ هـ) ص ٢٦٣

(٤) طبقات ابن سلام ص ٧ ؛ سيبويه ٥٣/٢ ، ويوجد مثل ذلك فى شعر عنترة ق ٨/٢٦ (نشر آلورد) وفى بيت ٣٧ من مرثية مالك بن الريب (ذيل الأمالى ص ١٣٧) وغير ذلك

(٥) انظر : Reckendorf, Arabische Syntax, S. 97, Anm, 2

(٦) انظر سيبويه ٢٢٣/٢ والمواضع التى ذكرها فيشر فى فهارس الشواهد ص ١٤٠ وأضف إليها شرح شواهد المغنى ٢٧٦

سخرية خصومه منه أن أخذوا عليه أنه ، مع كل نقده لتحقيق الصواب ، لم تكن لغته على ما ينبغى [١] .

وقد أخذت مثل هذه الاعتراضات تفقد ، شيئاً فشيئاً ، طابع الاختيار ، والرأى العارض ، كلما تقدمت العناية باللغة ، فصارت منهجاً للنظر فى القواعد . وقد فسح أبو عمرو بن العلاء (حوالى ٧٠ — ١٥٤ ﻫ) المشهور فى اللغة شهرته فى قراءة القرآن ، مجالا فى نقده للنظر فى القواعد ، ولم يتورع حتى عن تصحيح متن القرآن ؛ فقد غير فى [٢] سورة طه ٢٠/٦٣ : إِنْ (أو إِنَّ) هذان ، إلى : إنَّ هذين [٣] ورتب ترتيباً نحوياً سليماً [٤] فى تغييره آية سورة المنافقين ٦٣/١٠ : وأكنْ ، بالجزم ، إلى : وأكونَ بالفتح ، بل حتى الظاهرة الصوتية المحضة ، كالانتقال من الواو المضمومة إلى الهمزة المضمومة ، لم يرد أن يعتدّها ، فقرأ سورة ٧٧/١١ : وُقِّتَتْ ، بدلا من : أُقِّتَتْ [٥] . وإذا كان يجترىء على مثل هذا التغيير فى صلب الكتاب الكريم ، فهو أجدر ألا يـــتراجع نقده بالضرورة ، إزاء النصوص الدنيوية ؛ فقد أخذ على الشاعر : ابن قيس الرقيات (حوالى ٨٥ ﻫ) أنه ألحق بضمير المفرد المتكلم الهاء فى مثل : إِخْوَتِيَه ، بدلا من : إِخْوَتِى (فى قصيدته رقم ٤٠ نشر رودوكاناكس) للقافية على الرغم من ورد ذلك فى القرآن [٦] أيضاً . كما أن

---

(١) ياقوت : إرشاد الأريب ٢/٣٧١ ؛ غاية النهاية لابن الجزرى ١/٤١٠ .

(٢) لم يغير أبو عمرو ، وإنما هى قراءة رواها عن الثقات وكذلك فيما نسب إليه بعد ؛ وإذا كان قد روى عن بعض القراء تخطئته ، فلتعارض الروايات وترجيح بعض القراء لبعضها دون الآخر . وانظر كتب القراءات والتفسير فى ذلك (النجار) .

(٣) عالج ابن يعيش هذا الموضوع بتفصيل فى شرح المفصل ص ٤٤٧ .

(٤) انظر : Fleischer, Beiträge zur arab. sprachkunde VII 82

(٥) المقنع للدانى ص ١٢٢ ، وفيه أيضاً بعض ما اختص به أبو عمرو من القراءات ، على أنه لم يسلم من الاعتراض ، وقد لحن المبرد قراءتين له (نزهة الألباء ص ٣٦٤) ، إحداهما : عادا لولى بالإدغام بدلا من : عادا الأولى ؛ سورة ٥٣/٥٠ ؛ والأخرى : يؤده (سورة آل عمران ٣/٧٥) بتسكين الهاء انظر التيسير للدانى فى الآية المذكورة) . ولاوجه للمبرد فى التخطئة ، لما ذكرنا من صحة الرواية عند أبى عمرو ، والمبرد إنما يحكم قواعد النحو التى صحت عنده . ولاشك أن العربية أوسع من نحو المبرد (النجار) .

(٦) انظر : Rhodokanakis فى مقدمته للديوان ، ص ٦١ ؛ الموشح ص ١٨٧ ؛ نولدكه : تاريخ القرآن ٣/١٩٩

تلميذاً لأبى عمرو ، هو يونس بن حبيب الفارسى (حوالى ٩٠ — ١٨٢ هـ) ، اعترض على هذا الشاعر أيضاً بأنه استعمل لفظ : يَالَغَانِ (ق ٦١/٢٩) وهو لهجة خاصة فى : يَوْلَغَانِ ، وادعى أنه لا يجوز إلا هذا الأخير فقط.[1] وقد أدى هذا الاعتراض إلى تغيير النص إلى : يَوْلَغان ويُولَغان ، على المعلوم والمجهول ، وأبعد بذلك كل اعتراض . ورواية المجهول للتخفيف غلبت على الرواية الأصلية فى نسخ الديوان المتناقلة ، وسادت هذه الرواية فى القرن الثالث ، حتى إن ثعلباً (المتوفى سنة ٢٩١ هـ) ساق البيت على هذا التغيير ، شاهداً على : يولغ مبنياً للمجهول بمعنى : أولغه صاحبه ، أى حمله على أن يلغ[2] ، وإن لم يسمّ الشاعر . وهذا المثال يبين مدى ذلك الدور الذى كان يلعبه تصحيح النحاة فى تاريخ رواية الأشعار العربية القديمة ، وإن كان فى أحوال أخرى — وهى أغلب الأحوال — لم يكتب للنقد شىء من الانتصار ، مثلما أخذ على « كُثَيِّر » أنه استعمل[3] فى بيت[4] ، بدلا من : ترأم بالهمز ، وهى الصيغة الفصيحة : تَرَمِ ، بالتسهيل ، وهى لهجة الحجاز ؛ بيد أن الصيغة المنتقدة هى التى غلبت ، لتحصنها بالقافية .

---

(١) الأغانى ٥/٨٧

(٢) فصيح ثعلب ص ٣ وملاحظات Barth عليه .

(٣) الموشح ص ١٤٦

(٤) انظر الديوان (نشرة Peres) ١١٠/٧

(٣)

عربية الدولة ، ولغة الشعب
فى أوائل العصر العباسى
١٣٢/٧٥٠ — ١٧٠/٧٨٦

لم تهو العربية فى هوة السقوط الذى حاق بالدولة العربية ، على الرغم من أن جزيرة العرب وسورية بالذات ، أى الإقليمين الوحيدين اللذين لم يكن اللسان العربى فيهما قلة تجاه ألسنة أصيلة الديار ، هما اللتان أصابهما هذا الانقلاب السياسى بشدة وطأته فى الصميم . ولماذا لم تنزل عن المسرح ، مع طبقة السادة العرب الذين كانوا ، حتى ذلك الوقت ، لا يزالون ممسكين بزمام القيادة والتوجيه ، لغتهم كذلك ؟ ربما كان من أسباب ذلك أن لغة القرآن قد صارت فى شعور كل مسلم ، أياً كانت لغته الأصلية ، جزءاً لا ينفصل من حقيقة الإسلام ، حتى إن الفرس الذين باشروا الحكم إذ ذاك ، لم يكونوا يستطيعون التفكير فى رفع إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة . بل حتى فى فارس ، كان يجب أن يمضى قرن بَعْدُ لتحتفل اللغة الحديثة للأدب الفارسى ببعث حياتها . هذا إلى أن الأسرة الجديدة أخذت تبرز الطابع الدينى لسلطانها بوجه خاص ، وصارت تعلن أنها وريثة السلطان الإلهى الذى أسسه محمد (صلى الله عليه وسلم) . بيد أنه كان من العوامل الحاسمة أن الطبقات المتميزة فى المجتمع الإسلامى الأوسط ، إنما أحرزت رقيها الاجتماعى منذ أجيال بمجاراتها لغوياً للطبقة السائدة العليا ، إذ أخذت عنها مثلها الأعلى فى الثقافة العربية لا لغاية قصيرة الأمد ، بل تمسكت بها أيضاً ، بعد أن حقق لها سقوط الدولة الأموية المساواة الكاملة للعنصر العربى . بل حتى الشعوبيون الذين ادعوا تفوق الشعوب غير العربية ، لم يستطيعوا أن ينقصوا شيئاً من مكانة العربية وقيامها مثلا أعلى . وهكذا شهد العصر العباسى الأول ، فى مدارس النحاة بالبصرة والكوفة ، الباكورة الأولى للعلم العربى كما رأى فى نحو الفارسى « سيبويه » ، (المتوفى حوالى ١٨٠ / ٧٩) أول وضع شامل لقواعد العربية ، لم تغير الأجيال المتاخره شيئاً من أسسه

وقواعده ، وإن وسعته توسعياً مختلف النواحى ، أو غيرت من صوره وقوالبه . وكتاب سيبويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال اللغوى عند عرب البادية دون استثناء . فهو يرجع دائماً فى شئون الاستعمال اللغوى إلى « العرب » مع إشارته هنا وهناك إلى الفروق اللهجية من غير أن يحيد فى ذلك عن ترجيح كفة اللسان الحجازى[1] ، بأنه « الأول والأقدم » ، وغالباً يكتفى فى ذلك بعبارات عامة ، مثل : « العرب الذين تُرْضَى عربيتهم[2] » أو : « العرب الموثوق بعربيتهم[3] » أو : « عربى أثق بعربيته[4] » وهى عبارة حملها بعض المتأخرين غلطاً على أبى زيد الأنصارى (المتوفى ٢١٥ هـ[5]) ، أو ببساطة : « العرب الموثوق بهم[6] » ؛ أو أخيراً « فصحاء العرب[7] » أو ما أشبه ذلك . كذلك لا يسوق فى شواهده شاعراً محدثاً قط ، على الرغم من أنه لم يكن يقيس — بحال — لغة الشعراء بمقياس أصحاب « حركة التنقية » المترددين المتخوفين ؛ فهو يستشهد بعدى بن زيد وأبى دواد ، اللذين لم يَرْوِ عربُ البادية أشعارهما ، بشهادة الأصمعى ، لانحراف لهجتهما عن لغة نجد[8] . وهو يستشهد — على النقيض من أكثر علماء اللغة[9] — بأمية بن أبى الصلت وغيره من الحنفاء ، وهو يعتمد — خلافاً للأصمعى[10] — الكميت والطرماح فى الاحتجاج بشعرهما . وهو يستشهد بزياد الأعجم وأ[illegible] ندى ، كما يترك مجال القول أحياناً لمعاصرين قدماء ، مثا[illegible] ؛ لكن لا لشاعر محدث البتة . ذلك أنه إذا كان

.

، وانظر ، ٢/٤٢٤ .

. ،

، ، ٢/٢٦٤ .

: ١ ؛ ١/٣٨١ : ١٥ ؛ ٢/٢٩٠ : ٤

، ؛ ٢/١٦٧ : ١٢ ؛ ٢/١٩٩

، ١٨ وانظر كذلك ٢/٥٢ : ٤

قد استشهد مرة[1] ببيت زَوَّره — فيما يقال — أبو يحيى اللاحقى (أبان بن عبد الحميد) أو ابن المقفع ، بقصد التعمية على النحوى العظيم[2] ، فلا يعدو الأمر — مهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة ، أن يكون من قبيل السهو . وفى بيت آخر ، يوجد حقاً فى متن الكتاب بأيدينا : « لرجل من بنى سَلول مولّـد[3] » . ولكن هذه الجملة من وضع مخرج الكتاب ؛ فقد ثبت لدينا بصورة أكيدة أن سيبويه ساق جميع شواهده دون تسمية الشعراء[4] وذلك الرأى يجد تأييداً له فيما أضيف إلى الجملة السابقة وهو : « ويقال وضعه النحويون[5] » ، فصريح أن هذه الزيادة لا يمكن أن تكون من قول المؤلف . أما الرواية التى تقول أخيراً إن سيبويه اعتبر شعر بشار حجة خوفاً من سلاطة لسانه . فإن الكتاب نفسه يدحضها ، حيث نبحث عبثاً عن اسم بشار فلا نجد له ذكراً ؛ وفوق هذا فإن رواية أخرى — مساوقة لهذه — تضع اسم « الأخفش » النحوى بدلا من « سيبويه[6] » .

كان البدو يعدون حجة لا يعتورها الشك فى جميع مسائل اللغة . وكم خلاف بين علماء اللغة حول التفسير الصائب لبيت من الشعر ، أو حول صحة تعبير من التعبيرات ، رفعه حكم بدوى حاضر عرضاً . وحسبنا أن نذكر الحوار الخلافى ، الذى دار بين سيبويه والكسائى ، فى مجلس الوزير « يحيى بن خالد البرمكى » فى مسألة : « كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور » هل يقال بعد ذلك : « فإذا هو هى » أو : « فإذا هو إياها[7] » . وفى ذلك الوقت كان البدو يجدون مدخلا إلى بيوت السادة ، من حيث هم حجج اللغة . ولا تزال بأيدينا أسماء « فصحاء الأعراب » الذين دفعتهم الضرورة — تحت إهمال العباسيين — من أوطانهم اللاهثة المتوجعة ، ليقدموا معارفهم اللغوية

---

(١) ١/٥٨ .

(٢) خزانة الأدب ٣/٤٥٦ .

(٣) ١/٤١٦ س ٦

(٤) خزانة الأدب ١/١٧٨ س ٢٦

(٥) ١/٤٣٤ .

(٦) الأغانى ٣/٢١٠ .

(٧) انظر : A. Fisecher فى الكتاب التذكارى لتكريم E. G. Browne (A Volume of Oriental Studies) ص ١٥٠ — ٢٥٦ وكذلك : تاريخ بغداد ١٢/١٠٥

إلى السادة الجدد[1] . وقد كان أبلغ آيات التقريظ التى توسم بها لغة أحد المثقفين ، أنه ينطق كما ينطق البدوى ، وتلك الطريقة الكلامية الخالية من كل تفكير ، والتى يتحرر فيها المتكلم من علامات الإعراب ، وتصاريف القواعد جرياً على السليقة ، بحيث يستطيع السامع أن يفهم غرضه دون لبس ، لم تكن بَعْدُ — فى القرن الثانى — أمراً طبيعياً (على النقيض من التعبير الرفيع المكتسب بالدُّرْبة والتلقّى) ؛ بل كانت تعدّ تهاوناً وإهمالا[2] . وقد كانت مثل هذه السلامة اللغوية تؤثر مثلا عن أبى سعيد المعلم (المتوفى سنة ١٦٩ هـ) الذى جعله[3] المنصور (١٣٦ هـ) مؤدباً للخليفة اللاحق « المهدى » ، والذى جعله[4] المهدى بعد ذلك معلما لابنه وخلفه « الهادى » ، وكانت تؤثر[5] أيضاً عن اللغوى المشهور « أبى زيد الأنصارى » (المتوفى سنة ٢١٥ هـ) . كذلك الراويان البصريان : خالد بن الحارث (١٢٠ — ١٨٦ هـ)[6] ، وبشر بن المفضل (المتوفى ١٨٦/١٨٧ هـ)[7] ، روى أنهما كانا ينطقان لهجة سليمة لاشية فيها[8] ، كما يروى عن جرير بن حزم (٨٥ — ١٧٠ هـ) فى مبالغة بليغة ، أنه كان ينطق عربية أفصح من عربية « مَعَدّ »[9] . أما أن هؤلاء الرجال ، باستثناء أبى سعيد المعلم وحده ، كانوا يعيشون بالبصرة ، فلم يأت ذلك مصادفة ولا اعتباطاً ، فإن البصريين الذين كانوا يفاخرون[10] بمدرستهم

---

(١) الفهرست ص ٤٣ س ٢٧ .

(٢) انظر فى تفسير كلمة السليقة عن الليث فى المعاجم (Lane ص ١٤١١) وانظر : طبقات ابن سلام ص ٥ س ١٦

(٣) تاريخ بغداد ٣/٣٥٣ ؛ المعارف (طبع ١٣٠٠ هـ) ص ١٨٥ ومابعدها .

(٤) ابن سعد ٧ / ٢ ص ٧١

(٥) البيان للجاحظ ٢/٥ س ١٤ ؛ وانظر أيضا ١/٦٨ س ٢٩ . وهو ينقل فى المكان الثانى عن « أبى العاص ... ويريد به — فيما يظهر — ابن عبد الوهاب الثقفى المتوفى ١٩٤ هـ ، الذى اشتهر بكتابة رسالة فى البخل (البخلاء للجاحظ : طبع van Vloten ص ١٦٦ — ١٨٢) . وللوقوف على أخبار أسرته ، انظر الأغانى ١٧/١٢ . هذا وقد كان للملاحظات النظرية مقام لايستهان به فى لغة أبى زيد ، فقد كان يراعى « القياس » والإجماع وما أشبه ذلك . انظر : نوادر أبى زيد ص ٦٧ فما بعدها .

(٦) تذكرة الحفاظ ١ / ٢٨٤ ؛ تهذيب التهذيب ٣/٨٢ .

(٧) تهذيب التهذيب ١/٤٥٨ فما بعدها .

(٨) بيان الجاحظ ٢/٥ س ١٣ .

(٢) تهذيب التهذيب ٢/٧٠ س ١٦ .

(٣) انظر مثلا : تاريخ بغداد ٢/١٧٧ س ٥ .

النحوية ، وينافرون بكتاب « سيبويه » ومعجم « الخليل » ، كانوا يبرزون بحق — فى عصبيتهم المحلية طبعاً — وهم مفعمون بالفخر ، أسماء أمثال أصحابهم هؤلاء الذين امتازوا بفصاحة خاصة فى اللغة .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد بدأت أيضاً مرحلة جديدة فى تاريخ اللغة العربية مع خلافة العباسيين ببغداد سنة ٧٥٠/١٣٢ . لقد كانت الأسرة القديمة جِدّ قريبة إلى أهل البادية ، بحيث كانت تملك مدخلا مباشراً إلى عالم تفكيرهم ؛ وكانت تنطق بلسانهم ، وتحسن فهم أشعارهم . حقاً لقد كان العباسيون أيضاً يتمدحون بأصلهم العربى ، ويرفعون نسب سلالتهم إلى العباس ، عم الرسول عليه السلام ، بيد أنهم بعدوا عن حياة البدو بعداً كبيراً ، كما لم يفعل أموى أيـًّا كان . وكانت الدوائر الإسلامية الجديدة ، غير العربية الأصل ، التى وصلت إلى الحكم فى ذلك العهد ، تشعر أقل من ذلك بالصلة النفسية الداخلية بحياة العرب وطبيعتهم ، فهم لم ينشئوا فى الخيام ، ولم يذوقوا طعماً لتلك الخشونة والحاجة التى تعرفها حياة البداوة ، كما لم ينفذوا إلى عالم البدو الثرى الغنى بكنوزه وقيمه الخلقية والعادية والفنية ، على الرغم من كل ضيق فى وجهة النظر ، ومرمى الفكر . بل لقد عمرت الدوائر الإسلامية الجديدة تلك المدن العظيمة السريعة الازدهار ، فى دولة عالمية ؛ وأسهموا فى إقامة صرح حضارة ، نشأت تحت شعار الإسلام فى أرض الشرق الأوسط المحررة من السلطان الروحى للقساوسة ، ومن النظام الإقطاعى الذى كان سائداً بها من قبل ، فهم لم يكونوا يستطيعون — حتى ولو استخدموا العربية — أن ينطقوا كما كان البدو ينطقون ؛ بل صبوا أفكاراً حديثة فى قوالب اللغة القديمة ، وملأوها على هذا النحو بمادة جديدة . وما كان اعتباطاً أن يأتى فى طليعة الأدب العربى لذلك العهد ، عصر المحدثين فى أول الدولة العباسية اثنان من الفرس : ابن المقفع ، وبشار بن برد . وعلى الرغم من قوة نزوعهما إلى الشعوبية ، لم يفكر واحد منهما فى استخدام لغته الأصلية ، وإقامة وزن لها من الوجهة الأدبية ، بل اعتمدا على اللغة العربية .

وقد أخذ ابن المقفع « الفصاحة » فى البصرة عن أبى الجاموس[١] ، وهو

---

(١) الفهرست ص ٦٧ .

بدوى كان فى خدمة والى البصرة فيما بعد (١٣٣ — ١٣٧هـ) سليمان بن على أحد أعمام الخليفة . ولقد ملك ابن المقفع ناصية العربية ، بحيث استطاع أن يترجم كتباً عدة من الأدب البهلوى ترجمة مثالية . وتراجمه لأخبار الملوك : « خذاى نامه »[١] وكتاب أنظمة الملك : « أيين نامه[٢] » وقصة مزدك[٣] . وحياة بُرْزُويه[٤] ورسالة تَنْسَر[٥] ، قربت للمثقفين فى جميع الأقطار الإسلامية أشخاص أساطير البطولة الإيرانية وتاريخ الساسانيين ، كما جعلتهم على بصيرة بروح فارس وطبيعة حياتها قبل الإسلام . وكذلك الترجمة التى عملها بعنوان : « كليلة ودمنة » لخرافات الحيوان التى ألفها بَيْدَبَا (بِدْبَىْ Bidbai) ، جعلت هذه التحفة الأدبية العالمية التى يرجع أصلها إلى « مرآة لأمراء الهند » سهلة سائغة فى عالم الناطقين بالضاد ، كما بلغت مكانة مرموقة لانتشارها فى الشرق والغرب بالترجمة والتهذيب ، فى العربية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرية ، واليونانية . وأخيراً عمد ابن المقفع ، الذى دخل الإسلام عن غير اعتقاد ، إلى أن نقل فى سلسلة من رسائله التثقيفية ، حكمة الشرق العملية الخلقية المستخلصة من تجارب الحياة التى لا تعترف بمبادىء مرسومة للعادات والتقاليد ، ولا يخدعها الوهم والخيال عن حقائق الناس ، والتى تعلمّ فى برود وواقعية جافة — دون اكتراث لما جاء فى الأديان السماوية من مبادىء وفروض خليقة وأدبية — كيف يسلك المرء ، إذا أراد أن يعيش فى العالم بعيداً عن المضار ، محظيًّا بالسعادة . وكذلك بلغت تلك الرسائل نجاحاً عظيما ، سواء من حيث موضوعاتها التى تملقت دوائر الثقافة الرفيعة فى المدن بسبب تساهلها الدينى ، أم من حيث أسلوبها الشائق البديع . نعم لم يعدم المؤلف ، حتى بعد وفاته المبكرة (سنة ١٤٢ هـ) خصوماً كانوا — كالخليفة المهدى — يعدُّونه رأس الزندقة كلها[٦] . على أنه بعد إبعاد ضرر المانية (الزندقة) خرست ألسنة المعارضة تدريجاً ، ولم يكن فقط رجل مثل البرمكى يحيى بن خالد

---

(١) A. Christensen, L' Iran sous les Sasanides (1936) p. 54

(٢) المرجع السالف ص : 56 .

(٣) المرجع السالف ص : 63 .

(٤) المرجع السالف ص : 418 ، 424 ، 434

(٥) المرجع السالف ص : 58 ، 325

(٦) أمالى المرتضى (القاهرة ١٩٠٧) ١/٩٣ فما بعدها وغير ذلك .

(حوالى ١٠٢ — ١٩٠ هـ) الذى قدره حق قدره[1] ، بل حتى الأصمعى المحافظ (المتوفى ٢١٣ هـ) يروى أنه كان يعجب بيتيمته[2] . وفى أيام الجاحظ (المتوفى ٢٥٦ هـ) كان يدرس كل كاتب ناشئ كتبه[3] ومنذ ذلك العهد سمق مجد ابن المقفع غير مزعزع ، وعد من البلغاء اللامعين فى العالم العربى ، بيد أن اللغة التى كتب بها ابن المقفع ليست هى العربية القديمة ؛ فبموازنة هذه بتلك نجد لغة ابن المقفع سوية ؛ شفافة مبسطة حسب أغراضها ؛ وبدلا من الثروة الفياضة فى الكلمات البدوية القديمة ، التى تجمع التنوع المتعدد الألوان لعالم الظواهر ، مع حشد من السمات الخاصة ، التى تصور مثلا فروق الحيوان والأعمار ، والأجناس ، والألوان ، والصفات ، والخصال البارزة ، خاصة ؛ كما تحتوى على قائمة خاصة من المفردات لأصوات الحيوانات ؛ تكتفى لغة ابن المقفع — إلى حد بعيد — بالتعبيرات العامة ، وتؤثر تصوير الخصائص البارزة بعبارات مقاربة . كما يعرب أيضاً استعماله اللغوى فى دائرة تركيب الألفاظ وصياغتها ، عن طموحه الدائم إلى التبسيط الموائم للغرض ، فكثير من صيغ الأسماء الغريبة فى العربية القديمة يقل عنده أو ينعدم تماماً ؛ وأخيراً نجد تركيبه النحوى كذلك واضحاً شفافاً ، وهو يتجنب كذلك عبارات التعجب والاستغاثة القصيرة المتعددة الدلالة فى صيغها الاسمية والحرفية ، ويتفادى تصفيف الكلام ، والتداخل العسير الفهم ، وما شاكل ذلك مما يستفيض فى لغة البدو . وربما بلغنا إقناعاً بما نقول إذا وازنا بين لغة ابن المقفع والنثر الأصلى البدوى القديم ، كما ورد فى أيام العرب ، أو كما جاء فى الحكم والأمثال .

والتغييرات التى تبدو فى نثر ابن المقفع ، بالنسبة للعربية القديمة ، وجدت نظيرها تماماً — فى نطاق دائرة الشعر — فى لغة معاصره « بشار بن برد » (حوالى ٩٥ — ١٦٧ هـ) ، على الرغم من أن قوة الرواية ، وتقليد القدماء فى هذا الميدان بالذات ، كانا يقفان عقبة فى طريق كل تطور فى الأسلوب . وكان بشار كابن المقفع فارسى الأصل ؛ وكان يعد مانياً مقنّعاً . نشأ فى

---

(١) إرشاد الأريب ٦/٢٦٨ س ١١ .

(٢) ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ١/٢٦٧ س ١٢ .

(٣) ذم أخلاق الكتاب (ثلاث رسائل للجاحظ ، نشر فنكل) ص ٤٢ س ١٥ .

البصرة ، وكان بصيراً باللغة القديمة بصراً مؤسساً ، بحيث أدرك لتوّه عدم أصالة بيت مدسوس على الأعشى (رقم ٢/١٣)[١] . ولما علم أن الأمير سلم بن قتيبة الباهلى (كان والياً على البصرة ومات ١٤٩ هـ[٢]) محب للفن الشعرى على طريقة القدماء ، وأنه كان يعد نفسه بصيراً بالغريب ، تغنى بشار بمدحه فى أرجوزة ، ملأها بالنادر المتنخل من الألفاظ[٣] . وحينما أنكر عليه عقبة بن رؤبة حق الحكم فى الرجز ، برهن هو على أنه يعرف أيضاً طراز الرجز. حق المعرفة[٤]. كما حقر أحد البدو فى هجاء أصيل الأسلوب ، لأن هذا لم يطمئن إلى أنه ذو ملكة فى الشعر[٥] لأنه مولى . وإذا كان بشار قد قال الشعر على طراز الأقدمين عن قصد ، فإن أشعاره تحمل طابع الصنعة والتعلم على جبينها ؛ على أنه لم يكن يبالى إلا نادراً بالقصد إلى المحاكاة والتقليد ؛ فإذا ما تنازل عن ذلك وجدنا أسلوبه يعرض تلك الأناقة الواضحة ، والبيان الناصع الشفاف ، الذى نجده فى نثر ابن المقفع . سمات أساسية تبدو جلية فى تعبيره ، سواء فى اختيار الألفاظ ، أم فى تركيب الجمل ، أم فى تفضيل الأوزان القصيرة الخفيفة . وفى شعر الارتجال يمعن بشار فى التحرر من الشعر القديم ، حتى يستعمل أحياناً عبارات شعبية[٦] ، ورطانة نبطية[٧] ؛ وكان بشار يستعمل المزدوج والمخمس[٨] فى الهزل ، وفى تحقير الشعرالقديم ؛ فهو يقحم مثلا فى آحد أبياته — لتحقير نبطى قلد أسلوبه فى النطق على ما يظهر الكلمات التالية :

---

(١) الأغانى ١٤٣/٣ فما بعدها .

(٢) Zambaur, Manuel 40, ، تهذيب التهذيب ١٣٤/٤ .

(٣) الأغانى ١٩٠/٣ . وقد قيل فى سلم أيضاً القصيدة المذكورة فى ص ١٠٠ من كتاب المختار من شعر بشار « طبع بدر الدين » كما ذكره الأشناندانى فى : « معانى الشعر » ص ٤٠ .

(٤) الأغانى ١٧٤/٣ — ١٧٧ ؛ وانظر المختار ص ٢٧٥ ؛ بيان الجاحظ ٢٣/١ ؛العمدة ١٣٦/١ . ولفظ : طراز (الأغانى ١٧٦/٣) يمكن أن يضاف إلى الألفاظ التى جمعها جولدتسيهر فى : Abhandlungen I , 129 ff. والتى تدل على تشبيه الشعر بالنسيج .

(٥) الأغانى ١٦٦/٣ س ٩ .

(٦) مثل استعمال لفظ : « قارورة » أى زجاجة بمعنى : « المرأة » فى بيت له (الأغانى١٩٠/٣) ، وقد ساق ابن‌حجر هذا البيت فى‌فتح البارى ٤٥١/١٠ شاهداً على‌حديث البخارى : أدب ؛ مسلم : فضائل ؛ الطيالسى : مسند ؛ حيث ورد هذا الاستعمال المجازى .

(٧) انظر : المعرب للجواليقى ص ٦٧ س ٤ ؛ تاج العروس ٣٢٨/٧ .

(٨) العمدة ١٢٠/١ ؛ بيان الجاحظ ١ / ٢٣ ، يسميه صاحب منثور ومزدوج .

لا دَهْـل مـن جَمَـلا

أى لا خوف من الجمل[١] .

وهذا التطور فى الأسلوب ، الذى نستطيع ملاحظته عند ابن المقفع وبشار ، آذن بشروق عهد جديد فى تاريخ اللغة العربية ، دعا إليه الانتقال من حياة البداوة إلى حضارة المدن ، وتغلغل غير العرب ، فى ميادين الأدب . وذلك الطابع الوحشى للعربية القديمة بثروتها الفياضة فى الألفاظ والقوالب ، تراجع فى ذلك العهد أمام أسلوب متأنق مهذب ، لا يسبب استواؤه وسهولته صعوبات ذات بال للأفهام . وهذه اللغة السهلة ، المتدفقة ، الواضحة ، سرعان ما احتذاها المثقفون جميعاً واستعملوها فى الأدب فى العالم الإسلامى ، دون تمييز بين أصل وجنس ، ولا بين لغة أصلية ولهجة وطنية خاصة . وبما أن الشعوب والأقوام فى المدن العظمى للدولة كانت أخلاطاً متعددة الألوان يموج بعضها فى بعض ، لم تستطع الدوائر العربية أن تتخلص من تأثيرها بصفة دائمة ؛ بيد أن كل هذا الانسجام والاستواء فى القوالب والأساليب ، وذلك الاطراد السطحى فى موافقة القواعد ، لم يكن ليستطيع أن يخدعنا عن أن القالب الداخلى ، والأسلوب الحقيقى للغة الدولة الجديدة ، كان يحمل سمات مولدة . وإلى أى مدى كانت الطبيعة العربية لا تزال مرهفة الإحساس إزاء كل عجمة أو رطانة؟ هذا ما يشير إليه ذلك الخبر المستفيض الرواية عن محاورة جدلية بين أبى عمرو بن العلاء (حوالى ٧٠ — ١٥٤ هـ) وعمرو بن عبيد مؤسس الاعتزال (٨٠ — ١٤٤ هـ) حول نظام الجزاء الإلهى : فحينما قال هذا (عمرو بن عبيد) : إن الله منجز وعده ووعيده ، قال له أبو عمرو لائماً : أنت أعجم ! لا أقول إنك أعجم اللسان ، ولكنك أعجم القلب ! وعلّمه ، مشيراً إلى بيت عامر بن الطفيل (ق ٢/٦) :

---

(١) المعرب للجواليقى ٦٧ ؛ على أنه نسب البيت نفسه فى ص ١٣٤ إلى سراقة الباهلى الذى اشتهر بين سنة ٦٠ — ٧٠ هـ . وفعل دهل أو دحل بالفتح بمعنى خاف ، ورد فى إحدى الروايات (تاج العروس ٧ /٣١٩ ؛ وفى رواية أخرى : كنز العمال ٢/٢٩٨ ، ورد بدلا من ذلك : « خاف » . وانظر فى ذلك أيضا : « دحال » فى شعر ذى الرمة . وقارن Nöldeke, ZA 33 (1921) 179, 2 (شبيتالر) .

وإنِّىَ إن أوعدتُـه أو وعدتُـه لمخلفُ إيعادى ومنجزُ موعدى

أن العرب لا تعد خلف الإيعاد ذمًّا وتعده مدحاً ، على عكس الوعد[١]. ومع هذا فقدكان عمرو بن عبيد خطيباً ممتازاً لا يزال كثير من أقواله باقياً[٢] .

ومثال آخر من ذلك النقد ، حصل مع من ليس أقل من ابن المقفع ، الذى عد عليه الأصمعى من الخطأ الفاحش تعريفه لفظى : بعض وكل[٣] حيث قال : « العلم كثير ، ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » ، لأن إبهام معنى (بعض) الذى لا يرتفع أيضاً بإضافته إلى المعرفة [« بعض العرب » معناه جماعة من العرب أياً كانوا] يمنع من تعيينه بأداة التعريف ؛ وكذلك لفظ « كل » ، القسيم لبعض ، لم يرد معرفاً فى العربية القديمة بحال[٤]. وهذا — فى الحق — لم يمنع الإدراك الفكرى المحض أن يبتدع فيما بعد لفظى (البعض) بمعنى الجزء أو الجزئى ، و (الكل) بمعنى الجميع أو المجموع . وهذا التعبير العديم الحياة ، حاول[٥] النحوى ابن دُرُسْتَـوَيه (٢٥٨ — ٣٤٧ هـ) فى : « الرد على ابن خالويه فى الكل والبعض » أن يصححه . وأخيراً استشهد بعضهم لتصحيحه بأبيات مصنوعة كما يظهر[٦] .

بعد هذه الأمثلة لا نكاد نعدل عن شاكلة الصواب ، إذا نحن أولنا بنفس الطريقة الرواية القائلة بأن أحد البدو عد على الخليفة المنصور (حكم ١٣٦ — ١٥٨ هـ) فى جلسة واحدة ، ثلاثة أخطاء لغوية ، حتى وإن لم ينقل إلينا نص هذه الأخطاء[٧] . ذلك أن المنصور ، كأكثر العباسيين ، لم يكن

---

(١) عيون الأخبار ٢/١٤٢ س ٩ ؛ يتيمة الدهر ١/٤٦٤ س ١١ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٢٩٦ س ١٩ ؛ تهذيب التهذيب ٨/٧١ ؛ لسان الميزان ٥/٣٧٩ ؛ مقالات الأشعرى ص ١٤٨ هامش .

(٢) انظر مثلا فى عيون الأخبار لابن قتيبة .

(٣) تاج العروس ٥/٨ ؛ ٨/١٠٠ ؛ كذلك فى المزهر ٢/١٠٥ عن كتاب ليس لابن خالويه

(٤) الصواب تغيير لفظ « كل » فى بيت امرىء القيس إلى كل بفتح الكاف ، كما قرره : Reckendorf فى : Arab. Syntax, S. 157 Anm. 1

(٥) الفهرست ٩٤ ، وفى تاج العروس ٥/٨ أبيات قيلت فى السخرية منه لذلك . كما أن رأى ابن خالويه ذكر فى المزهر فى المكان السالف (٢/١٠٥) .

(٦) شرح درة الغواص للخفاجى (استانبول ١٢٩٩) ص ٧٠ .

(٧) إرشاد الأريب ١/٢٣ س ٦ .

خالص العروبة ؛ إذ كانت أمه من البربر ؛ كما يجوز لنا أن نظن انه كان يتكلم الفارسية[١] . ولكنه كان رجلا واسع الثقافة ، وكان خطيباً لامعاً ؛ وقد جمعت أقواله فى كتاب خاص كان جد مشهور عند النساخين فى أيام الجاحظ[٢] . وإذا كان قد وقع فى خطأ مرة فى أثناء تلاوة القرآن[٣] ، فإنه لا يظن بحال أنه كان يقع فى أغلاط فاحشة فى القواعد ، وإنما كان يستعمل فقط عبارات تجرح الإحساس اللغوى الطبيعى لرجل من البدو .

وككل علم قياسى لم يسلم النحو العربى دائماً من خطر الاستبداد بالحياة الواقعية ، وإكراهها فى وضع قواعده . وعلماء اللغة لم يتفقوا دائماً فى وجهة نظرهم نحو الاستعمال اللغوى الصحيح ؛ وقد انضم إلى ذلك أيضاً الخلاف المدرسى بين البصريين والكوفيين ، ولم يكن من السهل بالكوفة ملاقاة العرب الرحّل من وسط الجزيرة وشرقيها ، وسؤالهم ، كما كان ذلك متيسراً لأهل البصرة . ولذلك اعتمد العلماء فى الكوفة بحكم الضرورة على أشباه المتوطنين من القبائل فى سواد الكوفة ، الذين لم يُرد علماء اللغة بالبصرة الاعتراف بلغتهم على أنها أصل للاحتجاج[٤] . وكانت لعلماء البصرة مذاهب معتمدة فى القياس النحوى تختلف عن مذاهب الكوفيين ، كما سلك كل قبيل فى تفسير الظواهر اللغوية فى الغالب مسلكاً مختلفاً . لهذا نجد أبا محمد اليزيدى (١٣٨ — ٢٠٢ ه) مؤدب المأمون الذى كان شديد العصبية لمدرسة البصرة يسخر فى قصيدة[٥] هجا فيها الكسائى الكوفى مؤدب الأمين ، من علماء أفسدوا النحو وأزروا به ، وهم بين أغتم لا يحسن الكلام ، ووضيع ذى مراء وذى لكنة ، خسيس الأصل والنسب ؛ أحدثوا فى النحو قياساً فاسداً لا يغنى شيئاً . وسيظلون فى مبادىء النحو ، لا يتجاوزون أبجديته ولو عُمّروا أعمار عاد . أما الكسائى فهو فى النحو ليس من الأئمة ، ومن أتاه دون علم به يبغى عنده العلم فهو كالعطشان قصد إلى سراب فى البيداء :

---

(١) عيون الأخبار ٢٠٨/١ .

(٢) بيان الجاحظ ١٥٤/٢ س ٢٩ .

(٣) إرشاد الأريب ٢٣/١ س ١٠ .

(٤) أخبار النحويين للسيرافى ص ٩٠ (طبع كرنكو) ؛ الفهرست ص ٨٦ س ١٥ ؛ نزهة الألباء ص ٢٦٣ .

(٥) أخبار النحويين للسيرافى ص ٤٠ فما بعدها (طبع كرنكو) .

وقل لمن يطلب علماً ألا ... نادِ بأعلى شَرَفٍ نـاد
يا ضيعةَ النحو ، به مُغربٌ ... عنقاءُ أودت ذاتُ إصعاد
أفسده قوم وأزْرَوْا به ... مِنْ بين أغتامٍ وأوغاد
ذوى مراءٍ وذوى لكنة ... لئامِ آباءٍ وأجداد
لهم قياس أحدثوه همُ ... قياسُ سَوْء غيرُ منقاد
فهم من النحو ، ولو عُمِّرُوا ... أعمارَ عاد ، فى أبى جاد
أما الكسائى فذاك امرؤ ... فى النحوِ حارٍ غير مرداد[1]
وهو لمن يأتيه جهلا به ... مثلُ سراب البيد للصّادى

كما يبث شكواه وغضبه على رواة الكوفيين فى شعر آخر [2] :

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه ... على لغى أشياخ قُطْرُبُّل
فكلهم يعمل فى نقض ما ... به يصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائىَّ وأشياعه ... يرقوْن فى النحو إلى أسفل

ومن هذا يتبين أنه منذ بدء العصر العباسى أخذ العيب باللحن ينتشر — بحق أو دون حق — لوسم خصم بأنه غير مثقف ، وللحط من شأنه فى أعين معاصريه . ومما يذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال ، حكم يونس بن حبيب (حوالى ٩٥ — ١٨٣ هـ[3]) ، الذى ينقل سيبويه كثيراً عنه ، على حماد الراوية (حوالى ٩٥ — ١٥٥ هـ[4]) ، جامع المعلقات الذى كثر الطعن فيه ، وصيغة ذلك الحكم كما يلى : «كان يكذب ، ويلحن ، ويكسر[5] » ، (أى لا يقيم وزن العروض) . وكذلك يروى أن معاصر حماد : مروان بن أبى

---

(١) كذا فى أخبار النحويين وهو خطأ . ولعل صوابه : « مرتاد » (المترجم) .
(٢) نزهة الألباء ص ١٠٨ ؛ إرشاد الأريب ٧/ ٢٩٠ ؛ بغية الوعاة ص ٣٣٦ .
(٣) الفهرست ص ٦٣ .
(٤) إرشاد الأريب ٤ /١٣٧ .
(٥) طبقات ابن سلام ١٥ (طبعة Hell) ومفعول « يكسر » هو : « الشعر » (انظر بيت أبان بن عبد الحميد فى الأغانى بولاق ٢٠/٧٤ والموشح للمرزبانى ٢٧٨) أو « البيت » (انظر المعارف لابن قتيبة ٢٧٠ وإرشاد الأريب ٢/٤٢٦) .

حفصة (١٠٥ — ١٨١ هـ[١])، ووصفه بأنه لحنة لحانة، مما حمل حماداً على أن يبين له عذره فى ذلك حيث قال (أى حماد): «يا أخى إنى رجل أكلم العامة فأتكلم بكلامها[٢]». وفى رواية أخرى أن الكميت الشاعر رفض أن يملى أشعاره على حماد لأنه خشى لحنه[٣]. ويقول صاحب الفهرست أيضاً إن حماداً كان كثيراً ما يلحن[٤]. وعلى النقيض من ذلك لا ينكر خصم حماد اللدود، المفضل الضبى (المتوفى ١٦٨ هـ) أن حماداً كان ذا دراية ممتازة باللغة، ولكنه أساء استعمالها، حيث وضع — فى حذق ومهارة — أبياتاً على نسق القدماء، ففسدت بدسه رواية الشعر القديم فى كل زمان[٥]. فإذا أضفنا إلى هذا جميل رأى أبى عمرو بن العلاء فى حماد — كما روى ذلك عنه[٦] — فلن نشك فى أن الروايات التى تزعم أنه كان لحاناً إنما نشأت من التأثر بالخصومة واللدد، وأن كلمات يونس تعبر عن قصد البصريين السيىء فى خصومهم الكوفيين[٧].

وإلى جانب حماد يوضع كوفى آخر، هو جَنَّاد بن واصل، فى مرتبة واحدة. وكان يونس لا يعد كليهما شيئاً[٨]. ويحمِّلهما بصرى آخر، وهو التوَّزى (المتوفى ٢٣٨ هـ[٩]) تبعة تصحيف الروايات الكوفية[١٠]. وإذا نسب

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/١٤٥ س ٢١ .

(٢) الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٧١ .

(٣) الموشح ص ١٩٥ .

(٤) الفهرست ص ١٣٤ وعبارته : وكان حماد ربما لحن فى الشىء إلخ .

(٥) الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٨٩ ؛ وعبارته : ولكنه (حماداً) رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق إلخ . وفى صدر هذه الرواية يقول المفضل الضبى : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً إلخ . ووردت الرواية أيضاً فى إرشاد الأريب ٧/١٧١

(٦) الأغانى (طبع دار الكتب) ٦/٧٣ .

(٧) على أن الكوفيين كانوا يطعنون من جانبهم أيضا فى البصريين بتهمة اللحن . فقد صنع بعضهم مثلا على يونس بن حبيب البصرى هذه الجملة العامية : هاتى ذيك الماء من ذاك الجرة . (إرشاد الأريب ١/٥١ ؛ المزهر ١/١٢٢) .

(٨) الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٢٨٣ .

(٩) الفهرست ص ٨٥ (والثورى تحريف عن : التوزى) ؛ أخبار النحويين للسيرافى ص ٨٥ ؛ نزهة الألباء ص ٢٣٢ ؛ معجم البلدان ١/٨٩٤ .

(١٠) إرشاد الأريب ٢/٤٢٦ (وقد صحف أيضا إلى : الثورى) .

إلى مَجنَّاد اللحن[١] فقد يجوز أن يكون هذا الطعن لا وجه له ، تماماً كما هو الرأى فى حماد . أما أن علماء الكوفة أيضاً كانوا يعنون — على النقيض من ذلك — بمسائل سلامة اللغة وصحتها ، فهذا ما يبدو للعيان من شعر الهجاء الذى قيل فى حفص بن أبى وَدَّة ، الذى كان يعد من أصحاب حماد الراوية ، ونسبت إليه معه تهمة الزندقة لسوء سلوكه ، وحرية رأيه[٢] . وكان حفص طعن فى شعر المرقش[٣] ورماه باللحن ، فسخر به من أجل ذلك شاعر كوفى [تختلف الروايات فيه ، هل هو شريكه فى التحلل والزندقة : حماد عجرد (المتوفى ١٦١ هـ) ، أو مساور الوراق ، أو البَرْدَخْت[٤]] بالأبيات التالية :

[لقد كان فى عينيك يا حفص شاغل ... وأنف كثَيل العود عما تتبَّع]
تتبعت لحناً فى كلام مرقش ... وخلقــك مبنى على اللحن أجمع
فعينــاك إقــواء وأنفــك مكفأ ... ووجهــك إيطــاء فأنت المرقع

وقد شبه الشاعر عيوب مهجوه الخلقية بالعبارات المصطلح عليها فى العروض العربى : الإقواء (وهو اختلاف القوافى بالكسر والضم) ، والإكفاء (وهو اختلاف حروف القافية) ، والإيطاء (وهو تكرار لفظ القافية فى الشعر الواحد) كما قابل بين المرقِّش ، أى المحسِّن ، فوصفه بالمرقَّع ، أى المشوه بالرقع . وقوله : فعيناك إقواء ، أى فيهما حَوَل ؛ وأنفك مكفأ ، أى معوج ؛ ووجهك إيطاء ، أى موطأ مفرطح ؛ وأنت المرقع ، أى المدنس المشوه .

---

(١) الفهرست ص ١٣٥ ؛ إرشاد الأريب ٢/٤٢٥

(٢) ذكر فى قائمة الزنادقة عن الجاحظ ، وقدساقها المرتضى فى : الأمالى ١/٩٠ ؛ والأغانى (طبع بولاق) ١٦/١٤٨ (مع تحريف ودة إلى وردة) ؛ وابن حجر فى : لسان الميزان ٢/٣٢١ (مع تحريف ودة إلى : بردة) .

(٣) المراد — فيما يظهر — المرقش الأصغر ، الذى يعده ابن أبى إسحق الحضرمى أشعر شعراء الجاهلية (طبقات الجمحى ص ١٦) ، لاعمه المتفق معه فى اللقب . وفى المفضليات طائفة من أشعارهما رقم ٤٥ — ٥٩ والملحق رقم ٣ .

(٤) انظر : الموشح ص ٢٦ ؛ الأغانى ١٣/٨٧ ؛ ١٦/١٦٨ ؛ بيان الجاحظ : ٢/٣ ؛ الشعر والشعراء ص ٤٤٨ .

أما أن الطعن باللحن كان يوجه أيضاً إلى دوائر علماء الفقه ، فهذا ما يدل عليه مثال كوفى ثالث ، هو أبو حنيفة (٨٠ — ١٥٠ ه) ، فقد حكى عنه الجاحظ [١] تعبيراً جاء فيه خطأ شنيع ، حيث قال : [ولو ضرب رأسه] بأبا قبيس ، بدلا من : بأبى قبيس . وكيف جازت دعوى أن هذا الإمام العظيم لم ينطق صحيحاً ؟ هذا ما تكشفه الرواية المساوقة [٢] ، التى اقترن فيها ذلك التعبير نفسه بالخبر التالى : كان أبو حنيفة طلب النحو فى أول أمره ، فذهب يقيس فلما أخذ يصوغ جمعاً لكلب على كلوب (بدلا من كلاب) ، قياساً على : قلب وقلوب ، تبين له أنه لن يصل فى ذلك إلى شىء ، فعدل عن النحو ولم يكن له علم به . ومن الواضح البين أن هذا الخبر الذى يرجع إلى الحنبلى الكبير : إبراهيم الحربى (١٩٨ — ٢٨٥ ه [٣]) قد اخترع بدافع العصبية من قبل الخصوم المحافظين الذين أرادوا الغض من شأن مبدأ القياس فى دائرة اللغة أيضاً . ومما يذكر بهذه المناسبة أن النحوى الكوفى : ابن فارس (المتوفى ٣٩٥ ه [٤]) رأى أنه يمكن التماس تصويب لأبى حنيفة ، دون طعن فى صحة الخبر المذكور ، بأن تكون صيغة : بأبا قبيس ، جارية على لهجة خاصة تقصر أبا (على أن أصله : أبَوٌ [٥]) . وقد تلقى معسكر الأحناف هذا الإيضاح المفتعل بشغف ، وافتتح به أحد الأشياع المتعصبين لهذه المدرسة [٦] : الملك المعظم شرف الدين الأيوبى (٥٧٦ — ٦٢٤ ه [٧]) ، رسالته : « السهم المصيب ، فى الرد على الخطيب » ، التى اجتهد بها فى دفع جميع المغامز التى أثارها الخطيب فى تاريخ بغداد حول صورة أبى حنيفة [٨] .

---

(١) بيان الجاحظ ٢/٢ س ١٧ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٣٢/١٣ .

(٣) الفهرست ٣٢٣ ؛ تاريخ بغداد ٢٧/٦ ؛ طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٥٠

(٤) دائرة المعارف الإسلامية EI, II, 400

(٥) معجم البلدان ١٠٢/١ ؛ وذكر دون عزو فى : الإنصاف لابن الأنبارى ص ٧ ؛ وحياة الحيوان (طبع ١٣٤٧ ه) ٢٠٦/١ ؛ والعينى ١٣٨/١ وغير ذلك .

(٦) ابن خلكان (طبع ١٢٩٩ ه) ١٢٣/٢ .

(٧) دائرة المعارف الإسلامية EI III 646

(٨) حاجى خليفة (طبع ١٣١٠ ه) ٣٨/٢ ؛ وقد نشرت الرسالة المذكورة بعنوان : « الرد على أبى بكر الخطيب البغدادى فى القاهرة سنة ١٩٣٢/١٣٥١ على صورة =

وقد عقب الخطيب[١] على خبر إبراهيم الحربى المشار إليه آنفاً ، فذكر أن أبا حنيفة لحّن القراءة المشهورة : « تُـرْزَقَـانِـهِ » فى سورة يوسف ١٢/٣٧ ، مصوباً ضم الهاء[٢] بدلا من كسرها ؛ هذا وقد أثبت سيبويه[٣] صيغاً مثل : بهُ ، وبدَارهُ إلخ ، على أنها لهجة حجازية حتى فى قراءة القرآن . ومن المحتمل جداً أنَ أبَـا حنيفة كان يرجحها ، قياساً على : لهُ ومنهُ إلخ . أما أن يستنبط من هذا أنه يلحن الصيغ الجارية : بِـهِ وما شاكلها ، فهذا ما دعا إلى تحامل خصومه عليه بلا شك . على أن الملك المعظم لم ينكر أيضاً فى رسالته صحة نسبة التعبير المذكور إلى إمامه ، بل اكتفى بحمله على محمل حسن[٤] حين فسر اللحن فى ضوء كتاب « الملاحن » لابن دريد ، بأنه الرمز والتعريض ، متابعاً فى ذلك غيره من العلماء .

وأجدر بالتصديق دعوى أن قاضى واسط : أبا شيبة إبراهيم بن عثمان[٥] (المتوفى ١٦٩ هـ) — وهو إيرانى الأصل[٦] ، ولا يلتبس بأبى شيبة الواسطى[٧] الذى كان عربياً صميما — كان لحاناً معروفاً ؛ فإن خلطه بين صيغ الفعل ، وقوله مثلا : أن نَـقُـمْ ؛ بدلا من : أن نقوم[٨] ، كان خروجاً على العربية أشد من الخلط فى الإعراب عَدّه رَقَـبة بن مَصْقلة : (المتوفى ١٢٩ هـ) المشهور ببلاغته ، من كبائر الذنوب[٩] . وهل وقع أيضاً معاصره :

= ملحق ثان لتاريخ بغداد ، بعد أن تركت الترجمة المذكورة فى التاريخ ١٣ / ٣٢٣ — ٤٥٤ لأبى حنيفة أثراً سيئا فى نفوس معتنقى مذهبه .

(١) تاريخ بغداد ١٣ / ٣٣٢ .

(٢) ضمت نون : ترزقانه ، أيضا على سبيل التحريف فى طبعة التاريخ بالقاهرة .

(٣) ٢/٢٩٤ ؛ انظر أيضا : Nöldeke : Gesch. d. Qorâns III 138 F

(٤) انظر الرسالة السالفة ص ٤٩ .

(٥) طبقات ابن سعد ٦/٢٦٧ ؛ تاريخ بغداد ٦/١١١ ؛ تهذيب التهذيب ١/١٤٤ ؛ ميزان الأعتدال ١/٢٣ .

(٦) اسم جده خواستى .

(٧) انظر فى ترجمة هذا : تهذيب التهذيب ٦/١٣٦ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٩٨ .

(٨) بيان الجاحظ ٢/٥ .

(٩) أدب الكتاب ص ١٣٢ ؛ وفى رقبة ، انظر : المعارف ٢٠٥ ؛ تهذيب التهذيب ٣/٢٨٦ ؛ تاج العروس ١/٢٧٥ .

شبيب بن شيبة[١] (المتوفى ١٦٤ هـ) ، بحضرة بلال بن أبى بردة (المتوفى ١٢٠ هـ) ، لحن شنيع مثله[٢] ؟ هذا ما يشك فيه ، لأنه كان عربياً ، وأحد خطباء قبيله المفوّهين[٣] . ومن غير المحتمل كذلك ادعاء أن خالد بن صفوان[٤] — وهو من رهط شبيب المذكور — الذى اشتهر بمنادمة السفاح ، وبملكته فى الخطابة ، وحضور بديهته فى المزاح ، قد أرشده إلى الصواب بلالُ بن أبى بردة ، بسبب اللحن ، حتى وإن أضيف إلى ذلك أن هذا كان باعثاً له أن يتعلم الإعراب فى المسجد[٥] ؛ إذ لا يمكننا أن نخفى تشككنا فى أن الغرض من ذلك هو وسم الخطيب المشهور بميسم التلمذة فى مدرسة البصرة. وأقرب من هذا إلى الصحة أن لحن شبيب ينحصر فى أنه كان يضع التعبير أحياناً فى غير موضعه ؛ كما روى أنه استعمل مرة عبارة : ما بين لابتيها ، التى تقال فى المدينة المنورة فحسب ، مريداً به البصرة — وإن يكن هذا التجوز القريب ، بتعميم التعبير المذكور المأثور عن الرسول [صلى الله عليه وسلم[٦]] ، المشهور لدى كل مسلم ، قد اعترف به البلغاء المتأخرون[٧] ويقال أيضاً إنه استعمل لفظ : محبنطىء ، الذى معناه المنتفخ البطن ، فى معنى من تورّمت أنفه غضباً[٨] .

وفى غير العراق ، كان الاشتغال بالعربية حقاً جد ضئيل . فبينما كانت فى البصرة والكوفة مدرستان خاصتان بالنحو ، وحذت حذوهما بعد ذلك

---

(١) تاريخ بغداد ٢٧٤/٩ ميزان الاعتدال ١ / ٤٤١ ؛ تهذيب التهذيب ٣٠٧/٤ .

(٢) عيون الأخبار ١٥٩/٢ .

(٣) بيان الجاحظ ١ / ١٣٤ ؛ ويوجد كثير من أقواله فى عيون الأخبار لابن قتيبة وأمالى القالى وغيرهما . ومن آبائه عمرو بن الأهتم خطيب تميم عند النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ويؤخذ من هجاء قاله فيه قيس بن عاصم (الأغانى ١٥٧/١٢) أن أم الأهتم أبيه كانت أمة غير عربية من الحيرة .

(٤) بيان الجاحظ ١٣٠/١ ؛ المعارف ص ٢٠٦ .

(٥) الكامل ٢٥٣ ؛ ابن خلكان ٤٣٥/١ .

(٦) البخارى : فضائل المدينة ؛ كنز العمال ١٥٣/٧ .

(٧) انظر الأساس للزمخشرى والمغرب للمطرزى وغير ذلك .

(٨) إرشاد الأريب ٣٧٢/٢ ، وعنه : المزهر ٢٢٢/٢ وعن المزهر تاج العروس ٤٧٤/١ ؛ وانظر معجم البلدان ٣٣٥/٤ .

بغداد بمدرستها التى نزعت إلى الجمع والتوفيق بين المدرستين ، لم تقم بالمدينة — مثلا — علوم اللغة على أساس وطيد[١] . وها هو ذا الأصمعى الذى نزل فى أواسط القرن الثانى ضيفاً على الهاشمى جعفر بن سليمان[٢] بالمدينة ، يقول إنه لم يسمع هناك قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة[٣] . وقد أنشد الأخبارى المدنى : عيسى بن يزيد بن دأب (المتوفى ١٧٠ هـ)[٤] بيتاً على أنه لأعشى همدان (ق ٦) :

مـــن دعا لى غُـزيلى   أربح اللهْ تجـــــارتُـه

فزعم أن شاعراً فصيحاً — مثل الأعشى المذكور — يحذف الألف التى قبل الهاء فى الله ، ويسكن الهاء[٥] ، ويرفع : تجارته ، وهو منصوب ؛ وقد جر على نفسه بذلك لوم الأصمعى — بحق — وتقريعه[٦] ؛ وطعن فيه الأصمعى أيضاً بأنه يضع الشعر [هناك دأبية أخرى مثل هذه فى أشعار الهذليين رقم ١٧١[٧]] وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه إلى العرب . وفى الحق تدل

---

(١) لايعرف كثير عن نحوى كان بالمدينة ، يحمل الاسم الفارسى : بشكست ، وقتل فى حرب الخارجى : طالب الحق سنة ١٣٠ هـ انظر الأغانى ١/١٤٤ ؛ ٢٠/١٠٨ .

(٢) كان والياً على المدينة (١٤٦ — ١٥٠ هـ ثم ١٦١ — ١٦٦ هـ) ؛ انظر : المعارف ص ١٩٠ ؛ Wuestenfeld Geneal. Tbellen W 25 وانظر معجم الأسرات الحاكمة لزامباور ٢٤ وكان الأصمعى يتردد عليه كثيراً انظر : عيون الأخبار ٣/٢٤ ؛ ٣/٢٠١ ؛ ٤/٨٠ وأمالى القالى ١/٢٥٣ ؛ ٢/١٦٤ ؛ ٢/٦٦ ونوادر القالى ١٨٤ .

(٣) إرشاد الأديب ٦/١١٠ عن مراتب النحويين لأبى الطيب (المتوفى ٣٥١ هـ . انظر بغية الوعاة ٣١٧) .

(٤) بيان الجاحظ ١ / ١٢٤ ؛ المعارف ص ١٨٢ ؛ تاريخ بغداد ١١ /١٤٨ .

(٥) رأى قطرب (المتوفى ٢٠٦ هـ) فى هذه الصيغة الناشئة من حذف الألف ، صيغة إضافية سائغة فى التعبير (أمالى ابن الشجرى ٢/١٦) والبيت الذى استشهد به طعن فيه أبوحاتم بأنه من صنعة قطرب (انظر : الكامل ص ٣٣ ؛ خزانة الأدب ٤/٣٤٣) ؛ كما يوجد شاهد ثالث على ذلك فى خزانة الأدب ٤/٣٣٥ ؛ وقد عولج الموضوع بتفصيل فى الخزانة أيضا ٤/٣٤١— ٣٤٣ ؛ وقد أباح لنفسه الباخرزى (دمية القصر ص ١٧٥) هذا الاستعمال أيضا فى القافية . وانظر أيضاً Nöldeke, zur Grammatik 9/5 (شبيتالر) .

(٦) يكمل كل من الأغانى ٦/٥٦ ، الموشح ص ١٩١ رواية ياقوت فى الإرشاد ؛ وانظر فحولة الشعراء للأصمعى C. Torrey ZDMG, 65, 491

(٧) انظر : Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten I, 130

نماذج محادثات ابن دأب مع الخليفة موسى الهادى ، الذى كان عيسى جليسه فى آخر سنى حياته ، على أنه لم يكن يلقى بالا لا للصدق التاريخى فى الموضوع ، ولا للدقة المطلوبة فى اللفظ بل لمجرد أخبار السمر[1] . ويقول خلف الأحمر (المتوفى ١٨٠ هـ)[2] شيخ الأصمعى : إن كلا من ابن دأب وابن شَوْكر السندى[3] آفة[4] الرواية فى المشرق والمغرب . وفى الوصف التصويرى[5] الذى قاله خلف عمن يروى لابن دأب وابن شوكر ، دون اهتمام بالإسناد ، توجد ملاحظة تلقى ضوءاً كبيراً على ما نحن بصدده ؛ إذ إن هؤلاء الرواة كانوا يستعملون صيغة : قالت ستى ، مما يسفر عن الطابع المولد فى أسلوبهم اللغوى .

ويجوز لنا بما تقدم أن نفترض أن اللغة العربية فى المدينة لم تحظ بعناية خاصة ، وأن الدوائر المثقفة لم تتمسك بتعاليم القواعد ومبادئها . وقد وجد الأصمعى[6] من الغرابة بمكان أن يصدر لحن من مالك بن أنس (حوالى ٩٠ — ١٧٩ هـ) الذى كان هو يوقره توقيراً كبيراً ؛ إذ قال مثلا : أيٌّ مطراً ، بدلا من : أى مطر . ولكن عبثاً أراد أن يحبب إليه أن يصلح من لغته ؛ فإن مالكاً لم يقتصر على الاستشهاد بأن أستاذه ربيعة بن أبى[7] عبد الرحمن — هو الفقيه المدنى (المتوفى ١٣٦ هـ) المعروف باسم : ربيعة الرأى[8] — كان يخلط فى الإعراب ، إذ كان يقول : بخيراً بدل : بخير ؛

---

(١) مروج الذهب (طبع ١٣٤٦ هـ) ٢٥٨/٢ ؛ إرشاد الأريب ١٠٦/٦ ؛ الجهشيارى (BAHG) ص ٢٠٥ ؛ وكتاب التاج المنسوب للجاحظ (نشر أحمد زكى) ص ١١٦ .

(٢) إرشاد الأريب ١٧٩/٤ .

(٣) سماه ياقوت (إرشاد ١٠٩/٦) الشوكرى من الكوفة ؛ وسماه خلف فى شعر له : بسبب الضرورة شوكراً ، وعقب عليه ياقوت برواية عن عمر بن شبة قال : شوكر شاعر بالبصرة يضع الأخبار والأشعار ، ومن هنا سماه شوكراً — غلطاً — كل من الذهبى فى ميزان الاعتدال ٤٥٢/١ ؛ وابن حجر فى لسان الميزان ١٥٨/٣ .

(٤) انظر تاريخ بغداد ١٥٢/١ ؛ لسان الميزان ٤٠٩/٤ ؛ تهذيب التهذيب ١٥٣/٩ .

(٥) إرشاد الأريب ١٠٩/٦ : « إنما يروى لهؤلاء من يقول قالت ستى ويدعو ربه ويسبح بالحصى ويحلف بحيث المصحف ويدع حدثنا وأخبرنا ويقول أكلنا وشربنا » .

(٦) أدب الكتاب ص ١٣٣ .

(٧) سقط لفظ : أبى فى الموضع المشار إليه .

(٨) أطلق هذه التسمية عليه — بادىء ذى بدء — خصومه العراقيون تصغيراً من شأنه=

ولكنه علل رفضه أيضاً بسبب أبعد مدى، حيث تمثل بحكمة لزاهد لم يسمّه[1] : أعربنا فى كلامنا فما نلحن ، ولحنّا فى أعمالنا فما نعرب . هذا التحقير من شأن الثقافة الظاهرية ، الذى يتفق مع عزوف مالك عن العلوم الدنيوية[2] ، أسهم بقسط غير ضئيل فى أن النحو وعلم اللغة لم يجدا بالمدينة تربة خصيبة ، وحتى فى قراءات القرآن المدنية يلاحظ نوع من التساهل فى القواعد النحوية . فهذا نافع (المتوفى سنة ١٦٩ هـ[3]) يقرأ فى سورة الأعراف ١٠/٧ وسورة الحجر ٢٠/١٥ : معائش ، بالهمز بدل : معايش ، فعامل لفظ المفرد : معيشة ، كما لو كان على وزن فعيلة . وكون الصيغ المشتقة غامضة بحيث يتلاشى الإحساس بأصلها ، أمر يتكرر دون انقطاع فى تاريخ اللغة العربية[4] . على أن النحاة قد رفضوا دائماً الاعتراف بمثل هذه الصيغ الجديدة ؛ فهذا سيبويه [5] يحكم على : مصائب ، بدلا من مصاوب (جمع مصيبة) بأنه خطأ . ورجال تنقية اللغة المتزمتون تمسكوا دائماً بذلك المبدأ ، فأبقوا الواو والياء فى صيغة الجمع على حالها فى الأجوف [6] . على أنه فى الاستعمال اللغوى قد ظهرت بكثرة مستفيضة صيغ جديدة مهموزة[7] بحيث رأى بعض

= (تاريخ بغداد ٤٢٣/٨). كما أن وصفه بالعى فى أغلب تراجمه : المعارف ص٢٤٩ ؛ الفهرست ص ٢٨٥ ؛ ابن خلكان ٣٢٥/١ وغير ذلك يرجع إلى حكاية مخترعة ، أساسها تصرفه فى القول كل متصرف مع الإسهاب والإطناب. والباعث إلى ذلك ملل المستمعين كما تجد ذلك منسوباً إلى الفضل الرقاشى (الأغانى ٣٥/١٥ ؛ تاريخ بغداد ٣٤٥/١٢ ؛ الموشح ص ٢٩٨)

(١) نسب الجاحظ (بيان ١٠٣/١) هذه الحكمة لإبراهيم بن أدهم (المتوفى ١٦١ هـ) ، وكررها دون تسمية قائلها ٥/٢ ورويت فى تعبير مختلف عند ابن قتيبة فى عيون الأخبار ١٥٩/٢ ؛ وانظر أيضاً Goldziher ZDMG 26. 776 Anm. 4 وانظر أيضاً : J. Weiss, ZDMG 64,371

(٢) يظهر أن هذه المرحلة فى حياة مالك كانت عابرة ، وأنه فى وقت متأخر عن ذلك كان يحث على تعلم الإعراب ودراسة القواعد، وقد روى القلقشندى عنه حكماً وأقوالا فى مدح الإعراب : صبح الأعشى ١٦٨/١ وانظر كتابى عن محمد بن إسحاق ص ٣١ .

(٣) ميزان الاعتدال ٢٢٧/٣ .

(٤) انظر فى توليد أصول جديدة فى العربية A. Meg فى بحثه المنشور فى كتاب تكريم المستشرق : نولدكه ، ص ٢٤٩ ؛ وقد صيغ فى اللهجة الدارجة من لفظ معيشة ، فعل تمعش ، أى اكتسب معاشه ، انظر : Dozy ٦٠٢/٢ب .

(٥) الكتاب (بولاق) ٣٦٧/٢ س ٠٩ ...

(٦) المفصل للزمخشرى ، الباب ٧١٧ (نشر Broch ص ١٨٣).

(٧) انظر تصريح ثعلب (المتوفى ٢٩١ هـ) فى تاج العروس ٥٨٧/٣ .

البعيدى النظر ، من علماء اللغة ، ضرورة الاعتراف[١] على الأقل بمصائب ومنائر ، بعدّهما شاذين قياساً ، وإن كانا مطردين فى الاستعمال جمعين لمصيبة ومنارة . ولم يعدم القارىء المدنى أصواتاً أخذت عليه عدم بصره بالقواعد[٢] بسبب صيغة : معائش ؛ وكانت نتيجة ذلك النقد[٣] أن اعتمدت الصيغة الفصيحة : معايش ، فى قراءتى قالون وورش عن نافع المدرجتين فى القراءات السبع المعتمدة ، بحيث لا يوجد ، إلا فى إشارات متفرقة فى كتب النحو واللغة ، ما يذكر بقراءة نافع[٤] .

هذا التساهل الذى ظهر عند مالك ونافع تجاه القواعد ، لم يكن من النادر ظهوره أيضاً خارج المدينة فى صفوف المحافظين . ففى كل مكان ، ولا سيما بين المحدّثين ، وجد رجال كان الاشتغال بالقواعد فى نظرهم عبثاً ، إن لم يكن مضيعة للوقت جد مفسدة . وقد كان معوّلهم فى الاشتغال بالحديث الشريف على الموضوع ؛ أما الصيغة والقالب فقد كانا فى المحل الثانى . حقاً يزعم الجاحظ[٥] أن الكوفى أبا معمر (عبد الله بن سخبرة[٦]) ، الذى عاش فى أواسط القرن الأول ، كان يجيز كل رواية على الصورة التى سمعها عليها ، بكل ما فيها من خطأ ؛ بيد أن هذا الخبر ، الذى يرجع مسائل لم تحدث إلا فى عصر متأخر إلى أوائل عصر الرواية ، لا يستحق الوثوق به ؛ فإن مثل هذه الدقائق لا ينتظر حصولها فى أواخر القرن الأول ؛ وإن نسبت[٧] مثل هذه الدقة فى رواية الحديث إلى البصرى ابن سيرين (حوالى ٣٣–١١٠هـ) ؛

---

(١) انظر المعاجم اللغوية فى مادتى : ص و ب ؛ ن و ر وكتاب :
Wright, Grammar I, 227

(٢) انظر ابن الأثير فى المثل السائر ص٩ ؛ ابن يعيش ص ١٤٣٤ ؛ تاج العروس ٤/٣٢٨ .

(٣) لم يكن ذلك نتيجة النقد المشار إليه ، بل كل من قراءتى معائش بالهمز ومعايش دون همز ، راجع إلى روايات عن نافع .

(٤) التصريف للمازنى (ذكره ابن الأثير فى المثل السائر ص ٩) ؛ ابن خالويه فى مختصر فى شواذ القرآن ص ٤٢ حيث ذكر أنها قراءة خارجة (بن مصعب) عن نافع والأعرج ؛ تاج العروس ٤/٣٢٨ ؛ ويشير إلى عدم عناية قراءة مكة بالقواعد تاريخ بغداد ٣/٢٥٣ .

(٥) بيان الجاحظ ٢/٢ .

(٦) تهذيب التهذيب ٥ / ٣٢٠ .

(٧) إرشاد الأريب ١/٢٠ .

كذلك ليس جديراً بالتصديق الخبرُ الذى ينسب إلى الشعبى (حوالى ١٩ — ١١٠ هـ) أنه أجاز فيما روى من الحديث دون إعراب أن يحلّى بالإعراب[١] ، أى أن يحول الحديث الذى روى باللغة الدارجة إلى أسلوب عربى فصيح . وأجدر من ذلك بالقبول أن الشعبى كان أحب إليه أن يقرأ فيسقط من أن يقرأ فيلحن[٢] ، بل إنه كذلك لم يكن يلحن حتى فى المزاح[٣] وأنه كان يستصوب اشتغال الموالى بالنحو والقواعد ، لأن فساد اللغة ، بدأ صدوره منهم[٤] . وكذلك البصرى أيوب السختيانى (٦٨ — ١٣١ هـ) روى أنه كان إذا لحن فى حرف قال أستغفر الله كأنما عد اللحن ذنباً اقترفه[٥] . كما روى أنه أوصى بتعلم النحو فإن تعلمه يرفع الوضيع وإهماله يضع الشريف[٦] . ومثل هذه الآراء تتفق تماماً مع ترجمة سيد الفتيان[٧] الذى تجلى نبل مذهبه فى لغته المختارة المتنخلة كذلك . ولكن بعد أن توطدت أسس المدارس النحوية فى العصر العباسى الأول ، على نظام دقيق ، ونمت حركة التعليم والتعلم نمواً مطرداً ، أمكن تكوين رأى حول مسألة : هل تجب مراعاة مقتضيات سلامة اللغة فى رواية الحديث ، وإلى أى حد يتعين ذلك ؟ وهكذا نسمع أن المحدث الكبير : الأعمش (٦٠ — ١٤٧ هـ) الكوفى لم يكن يبالغ فى تجنب اللحن فحسب[٨] ، بل كان كذلك يصحح كل رواية ملحونة بحجة أن الرسول [صلى الله عليه وسلم] لم يكن ليلحن[٩] . وكذلك أوصى الدمشقى

---

(١) إرشاد الأريب ١/٢٦ .

(٢) إرشاد الأريب ١/٢٦ .

(٣) أمالى الزجاجى ص ١٤ (طبع ١٣٢٤هـ) .

(٤) الكامل ص ٢٦٤ ؛ بيان الجاحظ ١/١٧٦ .

(٥) أدب الكتاب ص ١٢٩ ؛ إرشاد الأريب ١/٢٠ .

(٦) بيان الجاحظ ٢/٥ .

(٧) ابن سعد جـ ٧ قسم ٢ ص ١٤ .

(٨) العجلى (المتوفى ٢٦١ هـ مؤلف كتاب الجرح والتعديل ، انظر : تذكرة الحفاظ ٢/١٢٧) كما نقله عنه ابن حجر فى تهذيب التهذيب ٤/٢٢٣ .

(٩) إرشاد الأريب ١/٢٠ .

سعيد بن عبد العزيز التنوخي (٩٠ — ١٦٧ هـ)[١] بمحو كل لحن من الحديث[٢] كما أن البصرى حماد بن سلمة (المتوفى ١٦٧ هـ)[٣] ، الذى كان يعد أفصح من عبد الوارث بن سعيد (١٠٢ — ١٨٠ هـ)[٤] ، وقد كان هذا الأخير مضرب المثل فى الفصاحة ، كان يتشدد مع تلاميذه فى التحرز من اللحن فى الحديث ، حيث كان يغالى بقوله : من لحن فى حديثى فقد كذب على[٥] . ويروى أنه كان يشبه من يكتب الحديث ولا يعرف النحو بالحمار عليه مخلاته ولا شعير فيها[٦] . ويعد من تلاميذه « سيبويه » . وتذكر الرواية[٧] أن السبب الذى حمل هذا الأخير على دراسة النحو هو أنه كان يستملى على حماد فقال حماد يوماً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحد من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء[٨] ، فقرأ غلطاً ليس أبو الدرداء[٩]

وفى الجيل التالى لهذا أقام — مثلا — الكوفى عبد الله بن إدريس الأودى[١٠] (حوالى ١١٥ — ١٩٢ هـ) وزناً لسلامة اللغة ؛ لقد كان يفضّ درسه إذا لحن واحد من تلاميذه[١١] . ويروى أن معاصره وهب بن جرير (المتوفى ٢٠٦ هـ)

---

(١) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ١٧١ ؛ تذكرة الحفاظ ١/٢٠٣ ؛ ميزان الاعتدال ١/٣٨٦ ؛ تهذيب التهذيب ٤/٥٩ ؛ غاية النهاية ١/٣٠٧ .

(٢) إرشاد الأريب ١/٢٥ .

(٣) المعارف ص ٢٥٢ .

(٤) تذكرة الحفاظ ٢/٢٣٧ ؛ ميزان الاعتدال ٢/١٦٠ ؛ تهذيب التهذيب ٦/٤٤١ .

(٥) أخبار النحويين البصريين ص ٤٣ ؛ نزهة الألباء ص ٥٠ ؛ إرشاد الأريب ٤/١٣٥ .

(٦) إرشاد الأريب ١/٢٦ .

(٧) أخبار النحويين ص ٤٣ ؛ نزهة الألباء ص ٧٢ ؛ إرشاد الأريب ٤/١٣٥ ؛ محيط المحيط ص ١٩٣٦ ؛ انظر أيضاً المعارف ص ٢٥٢ .

(٨) كذا فى أخبار النحويين ؛ وفى النزهة ليس أحد ؛ وفى ياقوت : مامن أحد من أصحابى إلا ولو شئت لأخذت عليه . انظر ابن حجر فى الإصابة ٣/٢٥٣ ؛ كنز العمال ٦/١٨١ .

(٩) انظر فى ليس بمعنى أداة الاستثناء سيبويه ١/٣٢٨ (Derenbourg) ؛ Fleicher. Kleine Schriften I, 147 .

وانظر كذلك :

Reckendorf, Die synt. Verhältnisse S. 106; Arab. Syntax S. 512

وجاءت ليس مع رفع المستثنى خطأ فى رواية واحدة فى كنز العمال ، وما عدا ذلك بلفظ : غير وإلا .

(١٠) انظر : تاريخ بغداد ٩/٤١٥ — ٤٢٣ وكتابى عن محمد بن إسحاق ٣١ هامش ٣٧ .

(١١) تاريخ بغداد ٩/٤١٩ .

(١٢) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٥١ .

كان يحثّ على تعلم النحو[١] ، كما أن آخرين كانوا يطلبون — أحياناً على الأقل — معرفة ما يعرض لهم من غريب الحديث عند علماء اللغة : ولما حضر الشاعر ابن مناذر ، الذى سنلتقى به مرة أخرى فيما يلى ، مجالس سفيان بن عيينة[٢] (١٠٧ — ١٩٨ هـ) فى مكة بين عامى ١٨٧ و ١٩٨ هـ ، كان ذلك المحدث الرفيع المكانة يسأل مستمعه عن معانى بعض حديث النبى [صلى الله عليه وسلم] فيخبره بها[٣] . على أن سفيان لم يكن ذا دراية كبيرة باللغة القديمة — كان هو نفسه يشكو انحطاط مستوى الأدب فى دوائر أضرابه فى الفن[٤] — وإلا لما عد[٥] لفظ : ملصق ، الذى معناه : ملحق ، هو لفظ كثيراً ما يستعمل فى تحقير أدعياء النسب ، مرادفاً لحليف ، أى معتمد على الحلف .

وعلى النقيض من ذلك لم تهتم غالبية المحدثين أصلا بالنحو ، بل كان منهم من يلحن فى الكلام . فقد روى أن هشيم بن بشير[٦] ، الذى كان فى رأى مالك ، المحدث الوحيد الذى يعتد به فى العراق ، كان لحاناً كبيراً وقد ذكر شاهداً على ذلك[٧] أنه قرأ على الخليفة المأمون الحديث[٨] : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سِدَادٌ من عوز ففتح سين « سداد » غلطاً . على أن هذا ليس لحناً فظيعاً بوجه خاص ، لأنه وإن كان

---

(١) إرشاد الأريب ١/٢٢ .

(٢) ابن سعد ٥ / ٣٦٤ ؛ تاريخ بغداد ٩/١٧٤ .

(٣) الأغانى ١٧/٩ ، عن المبرد .

(٤) الأغانى ٣/٢٢٥ (طبع دار الكتب) [والعبارة المروية عنه فى هذا الموضع : عهدى بأصحاب الحديث وهم أحسن الناس أدباً ، وصبرنا عليهم حتّى أشبهناهم فصرنا كما قال الشاعر :

وما أنا إلا كالزمـــان إذا صحـــا صحوت وإن ماق الزمان أموق

والمتبادر من هذا أنه يشكو من فساد الناس لا من فساد اللغة والأدب بالمعنى الخاص] .

(٥) مسلم : فضائل الصحابة (إرشاد السارى للقسطلانى ٩/٣٨٩ على الهامش) . وفى لفظ ملصق انظر معاجم اللغة .

(٦) المعارف ص ٢٥٣ ؛ الفهرست ص ٣١٨ ؛ تاريخ بغداد ١٤/٨٥ .

(٧) الأغانى ١٥/٢٠ ، ٢٣ (وعنه باختصار ياقوت فى إرشاد الأريب ٧/٢١٧) ؛ نزهة الألباء ص ١١١ ؛ درة الغواص ص ١٠٥ ؛ وذكره ابن خلكان (١٢٩٩ هـ) ٣/٧٠ والمزهر ٢/١٨٧ وديوان المعانى ١/٩ .

(٨) انظر كنز العمال ٨/٢٤١ ؛ ٨/٢٤٤ .

سداد بكسر السين قد ثبت أنه على وزن فِعال المستعمل فى أسماء الآلات بحسب الأصل ، فإن لفظ : سداد بالفتح — الذى هو فى الأصل مصدر من سد بمعنى أصاب الصواب — قد اعتمد صحته أيضاً[1] بعض الكوفيين ، كابن الأعرابى ، الذى انضم إليه ابن قتيبة[2] ، وابن السكيت[3] . وعلى النقيض من ذلك كان من الاستعمال الدارج قول هشيم : يَوْنِس ، بفتح الياء وكسر النون[4] بدلا من ضمها[5] . ولما كان لفظ يونس قريناً فى صيغته للفظ يوسف ، فمن المظنون أن هشيما كان يقول أيضاً : يَوْسِف بفتح الياء وكسر السين ، وأنه كان يرى فيه مقياساً للفظ : يَوْنِس ، كما هو الحال فى اللغة الآرامية . ومثل هشيم أيضاً كان وكيع بن الجراح[6] (حوالى ١٢٩ — ١٩٧ هـ) معاصره ، يلحن فى الكلام . فبشهادة تلميذه ابن المدينى (الذى كان يقيم وزناً لسلامة اللغة كما سنراه) كان وكيع يقول مثلا : عَيْشَة ، بدلا من : عائشة[7] ، وهى صيغة منتشرة اليوم فى العربية الدارجة[8] . وقد ثبتت هذه اللهجة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بالنسب إليها فى صيغة : العَيْشى[9] ، وهى نسبة اشتهر بها أعقاب « عائشة بنت طلحة[10] » ، مثل البصرى عبيد الله بن محمد[11] (المتوفى ٢٢٨ هـ) وابنه عبد الرحمن[12] (المتوفى ٢٢٧ هـ) ، وقد عرف أيضاً بفساد أسلوبه فى التعبير إسماعيل بن أبى خالد الكوفى (المتوفى ١٤٦ هـ) ، فقد روى

---

(١) انظر : شرح درة الغواص للخفاجى (١٢٩٩ هـ) ص ١٥٠ والمعاجم.
(٢) أدب الكاتب ص ٥٧٠ (نشر Grünert) .
(٣) تهذيب إصلاح المنطق ١/١٨٢ .
(٤) بيان الجاحظ ٢/٥
(٥) انظر الزمخشرى فى الكشاف : سورة يوسف ١٢/٤ وهو لا يعترف إلا بالضم .
(٦) المعارف ص ٢٥٤ ؛ الفهرست ٣١٧ ؛ تاريخ بغداد ١٣/٤٩٦ — ٥١٢
(٧) تذكرة الحفاظ ١/٢٨٣ ؛ ميزان الاعتدال ٣/٢٧٠ ويصحح .
(٨) انظر مثلا : Spitta. Gramm. S. 228
(٩) انظر : الأنساب للسمعانى ٤٠٤ أ ؛ ٣٧٩ ب .
(١٠) دائرة المعارف الإسلامية EI, I.229 ؛ والبيت الذى روى فى المعرب للجواليقى ص٤٥ ، والذى تسمى بمقتضاه : عيشة ، مصنوع .
(١١) تاريخ بغداد ١٠/٣١٤ .
(١٢) تاريخ بغداد ١٠/٢٥٩

مثلا أنه قال : عن أبوه ؛ حقاً لقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يعمل طحاناً ، هذا إلى أن أباه كان فارسياً يدعى : هُرْمُز[١] . ومن بين الإخوة الخمسة من أسرة المحدثين الكوفية ، أسرة أبى أيوب الطنافسى ، كان واحد فقط ينطق دون لحن[٢] . ويضيف الجاحظ[٣] . إلى هذه الأمثلة من مخالفة القواعد فى دوائر المحدّثين ، اثنين آخرين : عبد الأعلى بن عبد الأعلى السامى[٤] البصرى (المتوفى ١٨٩ هـ) ؛ وتلميذ غير معروف — فيما عدا ذلك — للبصرى هشام بن حسان[٥] (المتوفى ١٤٧ هـ) ، يدعى : مهدى بن مهلهل ، وكان هذا يرى سلامته فى الوقوف على الكلمات لعدم بصره بالإعراب .

وربما جاز لنا أن نلاحظ هنا ، مقدماً ، أن حالة المحدثين فى العصر التالى بقيت أيضاً غير متحدة . فقد ظل بعد ، كما كان قبل ، مبدأ الأداء الحرفى لمادة الحديث المروية عن المحدّث ، فى نزاع مع مقتضيات سلامة اللغة . فكان الناقد العظيم : على بن المدينى[٦] (المتوفى ٢٣٤ هـ) يصحح فقط ما يعرض لألفاظ الرسول من اللحن ، بحجة أن محمداً [صلى الله عليه وسلم] لم يكن ليلحن[٧] . وكان ابن الطبرى فى مصر (١٧٥ — ٢٤٨ هـ) يصحح كل خطأ فى الحديث[٨] . وكان النسائى ، أحد الجماع الستة الصحاح (المتوفى ٣٠٣ هـ) يترك كل تعبير يجد وجهاً من التصحيح على أنه لهجة خاصة ، ولا يصحح إلا اللحن الصراح[٩] . وكانوا يعتمدون فى تصحيحهم على الاستشهاد بأحاديث مصنوعة ، يظهر فيها الرسول تارة ، أو أحد صحابته تارة أخرى ،

---

(١) تهذيب التهذيب ١/٢٩١ ، ١٢/٨٢ .

(٢) ميزان الاعتدال ٣/٩٩ ؛ تهذيب التهذيب ٩/٣٢٨ .

(٣) بيان الجاحظ ٢/٥ .

(٤) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٤٥ ؛ تهذيب التهذيب ٦/٩٦ .

(٥) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٣٢ ؛ تهذيب التهذيب ١١/٣٤ .

(٦) تاريخ بغداد ١١/٤٥٨ وانظر كتابى عن محمد بن إسحاق ١٧ هامش ٢٠ .

(٧) المزهر ٢/٢٤٦ عن مراتب النحويين لأبى الطيب .

(٨) تهذيب التهذيب ١/٤٠ .

(٩) معجم البلدان ٤/٧٧٧ .

أو أحد كبار الصالحين من الأوائل فى بعض الأحيان ، على أنه داع مدافع عن سلامة اللغة[١] . وفى إحدى هذه الروايات — مثلا — روى أن النبى [صلى الله عليه وسلم] سمع رجلا يلحن فى القرآن فقال : أرشدوا أخاكم[٢] . وقد أذاع هذه الرواية الفقيه المدنى : أبو الزناد (٦٦ — ١٣٠ هـ) — يثنى ابن سعد[٣] على سلامة تعبيره ، وبصره بالعربية —؛ وهى وإن كانت ترجع أولا إلى قراءة القرآن فحسب ، فإنه يفهم بذلك من قريب الاحتجاج بها على شرعية تصحيح الخطأ اللغوى بوجه عام . ويأتى إلى جانب هذا عدد من الأقوال الموضوعة على الرسول [صلى الله عليه وسلم] . من ذلك رواية أن الرسول افتخر بفصاحته ، مثل : أنا أفصح العربْ[٤] ، أو : أنا أفصح من نطق بالضاد[٥] ، أو : أنا من قريش ونشأت فى بنى سعد فأنى لى اللحن[٦] . كذلك قيلت على لسان عمر[٧] أقوال تحث على تعلم العربية[٨] واللحن والفرائض[٩] ، أو تعلم السنن والفرائض واللحن ، أو أخيراً النحو والسنن والفرائض[١٠] . كما زعم بعضهم أنه قال للرماة الذين لم يحسنوا الرمى فأرادوا الدفاع عن أنفسهم قائلين : نحن متعلمين : إن لحنكم أفظع من خطئكم فى

---

(١) جمع أبو على المالكى (المتوفى ٤٣٨) طائفة من هذه الأخبار فى كتابه : التمهيد . وقد كشف Kahle مخطوطة من هذا الكتاب فى مجموعة . Chester Beatty وساق أهم هذه الأخبار فى الكتاب التذكارى لتكريم المستشرق : جولدزيهر (١٦٣ — ١٨٢) ، وناقشها فى مقاله بالكتاب المذكور كما سبق فى التعليق على مقدمة هذا الكتاب .

(٢) كنز العمال ١/١٥١ ؛ المزهر ٢/٢٤٦ ، ويزيد : فقد ضل .

(٣) ذكره ابن حجر فى التهذيب ٥/٢٠٥ .

(٤) المزهر ١/١٢٦ .

(٥) المزهر فى الموضع السالف؛ انظر فيشر ZDMG 59. 837

(٦) المزهر ٢/٢٤٦ ، وبتوسع فى كنز العمال ٦/١٠١ ؛ الخصائص الكبرى للسيوطى (طبع حيدر آباد ١٣١٩هـ) ١/٦٣ .

(٧) توجد مجموعة من ذلك فى كنز العمال ٥/٢٢٨ .

(٨) كنز العمال فى الموضع السالف رقم ٤٧٤٠؛ صبح الأعشى ١/١٦٨ ، ويروى مثل ذلك فى أمالى الزجاجى (١٣٢٤ هـ) ص ١١٩ منسوباً إلى شعبة .

(٩) كنز العمال فى الموضع السالف رقم ٤٧٤٤.

(١٠) بيان الجاحظ ٢/٥ و « النحو» هنا تحريف « اللحن » انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى هامش ١٩ (المترجم) .

الرمى[١] . وروى عنه أيضاً أنه أخذ على رجل وضعه الضاد موضع الظاء[٢] ، وأنه نصح أبا موسى الأشعرى أن يقنّع[٣] كاتبه سوطاً حيث لحن فكتب : من أبو موسى . وبسبب الالتباس بعمر بن عبد العزيز ، نسب بعضهم إلى عمر بن الخطاب أنه أدب أولاده بسبب اللحن[٤] . كما يريد آخرون أن يعلموا أن عمر حرّم على عبد الله بن مسعود الذى أقرأ أحد الناس آية سورة يوسف ١٢/٣٥ « عتّى حين » بدلا من : « حتى حين » ، أن يدخل[٥] فى متن القرآن مثل هذه الخصائص من لسانه الهذلى . وعلى النقيض من ذلك جعل بعضهم أيضاً ابن مسعود بالذات ، لكونه مشهور الدراية بالقرآن ، يروى أقوالا عن الرسول ، مثل : أعربوا القرآن[٦] ، أو : جوّدوا القرآن[٧] . كما زعموا أنه كان يسترشد[٨] برأى القارئ الكوفى : زر بن حبيش (قتل فى معركة دير الجماجم سنة ٨٢ هـ) فى أمور اللغة . بيد أن هذا الاتجاه نحو « تنقية اللغة » لم يستطع أيضاً فى ذلك العهد أن يثبت ويسود ؛ فقد كانت هذه المسألة عند جل المحدثين غير ذات بال ؛ كما أن مبدأ الاعتماد فى الحديث أولا وبالذات على الموضوع، أدى بسهولة إلى نتيجة جد سيئة بالنظر إلى الحكم على الخطأ النحوى . وقد صاغ واحد منهم : هلال بن العلاء الرقى[٩] (١٨٤ — ٢٨٠ هـ) فى تعبير شعرى فكرة أن خشية الله أفضل من الإعراب وقد أراد تلميذ للشاعر هو الفقيه الحنبلى : النجاد[١٠] (٢٥٣ — ٣٤٨ هـ) أن يتنافس معه من جديد لسوء

---

(١) كنز العمال ٥/٢٢٨ .

(٢) ذيل الأمالى ص ١٤٢ والتنبيه للبكرى وكنز العمال ٥/٢٢٨

(٣) البلاذرى ص ٣٤٦ ؛ أدب الكتاب ص ١٢٩ ؛ المزهر ٢/٢٤٦ ؛ بيان الجاحظ ٢/٤ ، ذكر حسين بن الحر بدلا من أبى موسى .

(٤) إرشاد الأريب ١/٢٠ .

(٥) كنز العمال ١/٢٨٤ ؛ ابن جنى [المحتسب] كما ذكره : Bergsträsser, Nichtkanonische KoranlesaretnS.42 ؛ الكشاف فى الآية المذكورة ، ، وانظر نولدكه فى تاريخ القرآن ٣/٦٨ .

(٦) كنز العمال ١/١٥١ .

(٧) الإتقان للسيوطى ص ٢٠٥ .

(٨) ابن سعد ج ٦ ص ٧١ ؛ غاية النهاية ١/٢٩٤ .

(٩) ميزان الاعتدال ٣/٢٦١ ؛ تهذيب التهذيب ١١/٨٣ ؛ معجم البلدان ٢/٨٠٤ ؛ إرشاد الأريب ٧/٢٥٥ ، وقد ذكر الذهبى نماذج من رواياته المرفوضة فى لسان الميزان ٢/٢١٤ فى ترجمة أبيه : العلاء بن هلال .

(١٠) تاريخ بغداد ٤/١٨٩ ؛ طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ص ٢٩٣ .

الأثر الذى تركه فى نفوس تلاميذه بمخالفته للعربية[١] . وعلى هذا يتضح أنه ، حتى عند بعض كبار المحدّثين ، كان إهمال اللغة ظاهراً ، دون أن يؤثر ذلك فى شهرتهم ؛ فإن صدق الناقد العظيم : ابن عدى[٢] (٢٧٧ — ٣٦٥هـ) كان ثابتاً لا يتزعزع عند معاصريه ، على الرغم من لحنه[٣] . كذلك بعض الإشارات المذكورة — عرضاً — فى مصادرنا تنم على أن اللغة السليمة من الخطأ فى دوائر المحدثين لم تكن بحال أمراً ضرورياً . فقد ذكر مثلا أن حفص بن عمر الحوضى (المتوفى ٢٢٥ هـ) من رجال البخارى كان أعرابياً فصيحاً[٤] ؛ كما يذكر أن الوضّاع المشهور : غلام خليل (المتوفى ٢٧٥ هـ) كان يتحرى الإعراب[٥] ؛ وكما رأى الحاكم الأصغر (المتوفى ٤٠٥ هـ) جديراً بالذكر أن شيخه : ابن الأخرم (٢٥٠ — ٣٤٤ هـ) كان يتشدد فى التحرز من اللحن فى كلامه[٦] .

على أن اللحن لم ينشأ على ألسنة غير المثقفين فحسب ، بل كذلك أيضاً أولئك الذين كانوا يجتهدون أن ينطقوا نطقاً صحيحاً ، دون أن يتمكنوا من النحو فى واقع الأمر ، لم يكن من النادر أن يصطدموا بقواعد النحو فى صيغهم التى يبالغون فى تصحيحها وتنقيحها ، بناء على أقيسة خاطئة . ولما كانت صيغ المقصور والممدود قد اختلطت فى اللغة الدارجة ، فقد اجتهد النحاة فى استيعاب القوائم ، حسب الإمكان ، لمجموعتى النوعين جميعاً ؛ كما توجد مؤلفات كثيرة فى هذا الموضوع[٧] . ورغبة فى صحة النطق ، استعمل أنصاف المثقفين كثيراً صيغة الممدود أيضاً فى كلمات مقصورة . فعلى شهادة الجاحظ[٨]

---

(١) تاريخ بغداد ٤/١٩١ ، وقد ساق رواية ذكر فيها شعر أستاذه هلال المذكور ؛ وانظر جولدزيهر : ZDMG 26, 780

(٢) انظر : كتابى محمد بن إسحاق ص ٢١ .

(٣) تذكرة الحفاظ ٣ / ١٤٣ .

(٤) تهذيب التهذيب ٢/٤٠٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٥/٨٠ .

(٦) تذكرة الحفاظ ٣/٧٧ .

(٧) انظر مثلا : كشف الظنون ، تحت عنوان كتاب المقصور والممدود . وانظر مقدمة تحقيقنا لكتاب « الممدود والمقصور » للوشاء (المترجم) .

(٨) بيان الجاحظ ٢/٣ .

روى أن يوسف بن خالد التيمى[1] ، المعاصر لعمرو بن عبيد (المتوفى ١٤٤ هـ) كان يقول : قفاء ، بدل : قفا ، صيغة من صيغ الحذلقة ، ولكنها وجدت بعد ذلك أيضاً اعترافاً وتصويباً[2] . واللحنان الآخران ، اللذان نسبهما الجاحظ إلى يوسف المذكور ، من طبيعة أخرى ؛ فأحدهما ، وهو أنه استعمل المضارع يشج ، بكسر الشين بدل الضم ، يعد من الأحوال غير القليلة التى تضطرب فيها حركة المضارع[3] ؛ على حين أن الآخر ، وهو صوغ أفعل التفضيل : أحمر ، أى أشد حمرة ؛ أو بعبارة أخرى ، صوغ أفعل التفضيل من أسماء الألوان ، يستحق شيئاً من التأمل ؛ فأسماء الألوان ، والعيوب الجسمية — فى ذاتها — لا تقبل التفضيل ؛ ولهذا منع البصريون — بحق — استعمال أفعل التفضيل وصيغ التعجب منها ، مع الحكم على ما جاء من ذلك بالشذوذ[4] ؛ على حين أن الكوفيين لم يكن عندهم مانع من الاعتراف[5] بصحة الاستعمال اللغوى المتأخر ومساواته للأصل فى الصحة . ولكن الشاهدين اللذين ساقهما الكوفيون من الشواهد المصنوعة . فواحد منها يروى على ثلاثة أوجه ؛ وهو بيت تهكم فيه قائله بشريف أبى أن ينحر للفقراء فى الشتاء :

فأنت أبيضهم سِربالَ طبّاخ

أما أنه نسب — بغير حق — إلى طرفة[6] ، فقد قرره[7] ابن الكلبى . كذلك نسب — بغير حق — إلى رؤبة ، الشاهد الآخر :

أبيض من أخت بنى إباض

---

(١) هكذا ذكر فى الطبعة القاهرية المحرفة (١٣١١ هـ) . والظاهر أنه : السمتى الفقيه المشهور الذى عاش بالبصرة ١٢٠ — ١٨٩هـ وأدخل المذهب الحنفى فى البصرة . ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ٤٧ ، ميزان الاعتدال ٣/٣٢٩ ؛ تهذيب التهذيب ١١/٤١١—٤١٣ ؛ الجواهر المضية ٢/٢٢٧ .

(٢) ابن جنى فى : تاج العروس ١٠/٢٩٩ .

(٣) عد أصحاب المعاجم — فى وقت متأخر — يشج بالكسر فصيحاً مثل الضم .

(٤) انظر المفصل فى الموضوع المذكور .

(٥) انظر : الإنصاف ص ٦٨ — ٧٠ ؛ ابن يعيش ص ١٠٤٦ ؛ خزانة الأدب ٣/٤٨١ ؛ وعلى النقيض من ذلك لايوجد شاهد فى البيت : أبيض من آل أبى عتيق ، فهو وصف لاتفضيل فيه وهو من قول الزبير بن العوام (عيون الأخبار ٣/٩٥) .

(٦) نشر Seligsohn Suppl. VII

(٧) خزانة الأدب ٣/٤٨٤ .

وهو لا يوجد فى ديوانه[١] . ولا يصح أيضاً أن نجرى مع « نولدكه »[٢] فى الاستشهاد بآية[٣] سورة الإسراء ٧٢/١٧ : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ؛ إذ إنه لا تفضيل فيه ، بل معناه : أن الأعمى فى الدنيا هو فى الآخرة أعمى أيضاً ، بل أضل عن الطريق . نعم يروى أن أبا عمرو بن العـلاء كان يرى أن معناه هو أكثر عمى ، كما يروى أنه كان يفرق فى لفظ أعمى بين صيغتى الوصفية والتفضيل بأن الأول يقرأ بالإمالة ، والثانى دون إمالة[٤] . ولـكن معنى العمى لا يتأتى فيه التفضيل إلا فى حالة استعماله مجازاً فى الضلال ونحوه . أما استعمال : أضل سبيلا على صورة التفضيل فلا يدل بالضرورة على التفضيل فى قرينه فى الآية : أعمى .

ثم يدور الـكلام بعد ذلك حول بعض أبيات ظن فيها — بغير حق — استعمال اسم التفضيل فى الألوان . فمثلا قال الأحدب السعدى ، أحد اللصوص فى مختتم القرن الأول :

لمـا دعانى السمهرى أجبتـه   بأبيض من ماء الحديد صقيل[٥]

ولا تفضيل هنا كذلك . ويشبه هذا أيضاً بيت للعديل بن الفرخ العجلى ، معاصر الحجاج[٦] ، كما يشبهه بيت فى حماسة أبى تمام[٧] ، ينسب إلى الشاعر : أبى الأبيض العبسى الذى قيل إنه توفى فى عهد هشام بن عبد الملك (حكم ١٠٥-١٢٠ هـ) كذلك لا تفضيل فى البيت الذى قاله عبد الله بن الزبير سنة ٧٥ هـ :

[هما خطتا خسف نجاؤك منهما]   ركوبك حوليا من الثلج أشهبا[٨]

---

(١) انظر ديوانه ق ٥٠/٤ (أهلورت) ، خزانة الأدب ٤٨٢/٣ .

(٢) Zur Grammatik des classischen Araabisch, Wien 1896. S.16

(٣) عالج هذه الآية الشريفة المرتضى فى أماليه ٥٩/١ (القاهرة ١٩٠٧) .

(٤) أمالى المرتضى ٦٤/١ ؛ الكشاف فى الآية المذكورة .

(٥) الأغانى ٧٧/٢١ عن أخبار اللصوص للسكرى ؛ ونسبه البحترى ، وهو غير دقيق فى نسبة الشعر ، إلى زيد الخيل الطائى ، المتوفى ١٠ هـ ، فى حماسته رقم ٢٠٧ (مع تغيير طفيف : ولما دعانى الحيبرى) .

(٦) انظر الأغانى ١٢/٢٠ .

(٧) ٢٣١ (Freitag) .

(٨) الأغانى ٤٢/١٣ ؛ الكامل ص ٢١٧ ، ص ٦٦٦ ؛ أدب الكاتب ص ٢٠٤ ؛=

وأقدم ما يوثق به من استعمال صيغة التفضيل فى الألوان ، هو ما نجده فى الحديث[1] عن نهر الكوثر فى الفردوس : « ماؤه أبيض من اللبن » .

مثل هذه الأخطاء اللغوية التى ذكرناها فى هذا الباب ، تعد الأخبار الوحيدة عن اللغة الدارجة بين المثقفين فى العصر العباسى الأول . وعلى النقيض من ذلك لا نكاد نعلم شيئاً عن لغة الطبقات الوسطى والدنيا فى المدن والأقاليم . بيد أننا لا نكاد نخطئ شاكلة الصواب ، إذا افترضنا أن اللهجات الوطنية القديمة كانت سائدة فى الوديان والسهول فى كل مكان : اللاتينية الشعبية فى شبه جزيرة إيبيريا ؛ ولهجات البربر فى شمالى أفريقية ، والقبطية فى مصر ، واللهجات الآرامية فى سورية وبلاد الرافدين . على أنه ، حتى فى المدن ، لم تكن الكلمة العليا للعربية إذ ذاك فى مكان ما بعد . ففى مدن العراق كانت الفارسية سائدة بين الطبقات الدنيا إلى مدى بعيد ، بحيث كان الأصمعى يَعُدّ أمارة على ضعة الشخص أن يتكلم بالفارسية[2] فى مصر عربى . والأصمعى نفسه ، الذى كان يحسن[3] الفارسية ، أمكن أن يعتمد على فهم السامعين حينما فسر[4] لفظ : « قصب» فى معلقة عنترة (ق ٢١ / ٣٧) بكلمة : ناى ، أى مزمار ؛ أو إذا سمى كُثَيِّرًا صاحب كُرْبَج[5] ، أى صاحب دكان. ومعرفة الفارسية ، التى كانت تظهر هنا أو هناك فقط عند العرب فى القرن

=خزانة الأدب ١٧٥/٣ ، وضبطه هنا بضم الثاء جمع أثلج أى نشط وهو غير ظاهر ، بل المراد — فيما يظهر — الثلج المعروف ، بقرينة الأبيات فى السياق ، إذ المراد أنه إذا هرب إلى خراسان فسيقيم هناك فى الثلج والبرد القارس الحولى (النجار) .

(١) البخارى : الرقائق ؛ وذكر الترمذى فى تفسير الحديث المذكور الثلج ، بدلا من اللبن ، وأغلب النصوص بها النص الصحيح : أشد بياضاً من الثلج ؛ انظر المراجع فى : Wensinck I. 241 b ، كنز العمال ٢٢١/٧ ، ٢٧٤ .

(٢) الكامل ص ٢٣٩ .

(٣) الأغانى ١٣٠/٤ .

(٤) الكامل ص ٥٠٢ ؛ وقد استعمل بشار كلمة : ناى . انظر المختار من شعر بشار ص ١١٤ ، وعرف الأعشى لفظ : نايْرم انظر الديوان نشر : Geyer رقم ٧/١٥٥ .

(٥) فحولة الشعراء (نشر Ch. Torrey ZDMG 65 وانظر الموشح ص ١٤٦) وجاء لفظ كربج فى البيان والتبيين ٦٣/٢ ، وفى المعرب للجواليقى ص ١٢٧ ؛ كما ذكر سيبويه لفظ : قربق أو كربق . انظر تاج العروس ٥٦/٧ وفيه بيت منسوب إلى ابن قحفان . انظر أيضاً لسان العرب ١٩٨/١٢ والبكرى ٧٣٧/— ٤ (شبيتالر) .

الأول [١] ، صارت غير نادرة فى صفوفهم لذلك العهد . وهكذا ، يؤخذ من خبر [٢] عن الطبيب « سَرْجويه » Sorgoe الذى لم يكن ينطق عربية سليمة ، وكان لهذا يخاطب الشريف محمد بن عبد الوهاب الثقفى ومن اجتمع لديه من الأعيان بالفارسية ، أن دوائر أشراف العرب بالبصرة ، على عهد المهدى وهارون الرشيد [كان محمد بن عبد الوهاب المذكور ابناً لعبد الوهاب الثقفى (١١٠ — ١٩٤ هـ) [٣] من أعقاب الحكم بن أبى العاص الذى شارك مشاركة فعالة فى فتح فارس [٤]] كانت تفهم الفارسية . ومن الشواهد أيضاً على أن إجادة اللغتين كانت أمراً شائعاً ، ما نجده من ألقاب فارسية لمن يسمون — فيما عدا ذلك — بأسماء عربية محضة . وهكذا كان الشاعر المعاصر لجرير : على ابن خليل من قبيلة ضبة ، يلقب بالـبَرْدَخْت [٥] ، أى الفارغ من العمل . وبه سميت صحراء البردخت [٦] ، وهى سهل فسيح عند الكوفة . كذلك المحدث البصرى : يزيد بن أبى يزيد [٧] (المتوفى ١٣٠هـ) يدين لغيرته بلقب : الرِّشك [٨] من رشك ، بكسر الراء وفتحها فى الفارسية . ولما كان هذا مساحاً للحقول وحاسباً أريباً صار [٩] لفظ : الرشك — فيما يروى — وصفاً فى لهجة البصرة بمعنى : قَسَّام . وبعد ذلك بنصف قرن ، تندر البصريون فأطلقوا اللفظ الفارسى : « كَخشينْشار » [١٠] الذى معناه طير الماء ؛ على أحد المحدثين . على حين كان العالم اللغوى الضليع : أبو عبيدة (المتوفى ٢١٠ هـ) يلقب استهزاء بلقب : سُبُّخت [١١] . ولما اعتنق الإسلام ، سنة ١٩٠ هـ ، وزير المأمون فيما

---

(١) مثل المغيرة بن شعبة ، انظر : Wellhausen. Das arab. Reich 73

(٢) انظر الأغانى ١٧/١٩ .

(٣) انظر : ميزان الاعتدال ٢/١٦١ ؛ تهذيب التهذيب ٦/٤٤٩ ؛ الأغانى ١٨/٢ .

(٤) انظر Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten VI, S, III

(٥) الشعر والشعراء ص ٤٤٧ .

(٦) معجم البلدان ٣/٣٧٠ .

(٧) ابن سعد ج ٧ قسم ٢ ص ١٣ .

(٨) انظر ابن حبان فى التهذيب لابن حجر ١١/٣٧٢ ؛ السمعانى ص ورقة ٢٥٣ أ .

(٩) انظر الترمذى فى كتاب الصوم ؛ السمعانى ص ورقة ٤٣٢ أ .

(١٠) الأغانى ١٧/١٧ .

(١١) ذكر هذا اللفظ فى بيت لابن مناذر ؛ انظر بيان الجاحظ ٢/٤٣ ؛ الأغانى ١٧/١٩ وذكر فى تاج العروس ١/٥٥٠ ؛ وفى تعليق على هامش تاج العروس أنه مأخوذ من اللفظ الفارسى : =

بعد : الفضل بن سهل ذو الرياستين ، ولزم الفراش وهو محموم ، زاره الطبيب : جبريل بن بُختيشوع ، فوجد فى يده القرآن . وقد رأى الراوى ، الذى سجل هذا المنظر [١] ، من الطبيعى أن الزائر سأل مريضه باللغة الفارسية : تشُون بِينِى نامهِ إيزاد : كيف تجد كتاب الله ؟ وأنه تلقى الجواب بنفس اللغة : خُش فتشوُن كليله فدِمْنه : حَسَنٌ مثل كليلة ودمنة .

= سبوخت أى منبوذ، بيد أن وزن الشعر يرفض ذلك لصراحة تضعيف الباء فيه وانظر كذلك : الفهرست ٥٣/٢٠ .

(١) انظر ابن القفطى نشر : Lippert

(٤)

اللغة العربية فى عصر هارون

(١٧٠ / ٧٨٦ – ١٩٣ / ٨٠٩)

بعد أن استقرت فى الظاهر أسس دولة الخلافة ببغداد على أيدى مؤسس حكم الأسرة : السفاح (حكم ١٣٢ / ٧٥٠ – ١٣٦ / ٧٥٤) وأخيه وخليفته المنصور على وجه الخصوص (حكم ١٣٦ / ٧٥٤ – ١٥٨ / ٧٧٥) ، بحيث استطاع الخليفة الثالث : المهدى (حكم ١٥٨ / ٧٧٥ – ١٦٩ /٧٨٥) أن يباشر ضغطه دون هوادة على عقيدة التثنية (الزندقة) المهددة لوحدة الدولة ، متمماً بذلك عمل سالفيه من وجهة السياسة الداخلية ، بلغت الدولة ذروة سلطانها ، بعد خلافة الهادى القصيرة الأمد ، فى ظل هارون الرشيد (١٧٠ / ٧٨٦ – ١٩٣ / ٨٠٩) . لقد قدم لها ثراؤها العريض الذى كان يعتمد على غلات أخصب مناطق الشرق كافة ، وسائل ازدهار الثقافة والحضارة . ولقد كان الخليفة ظلا ظليلا ، وسيداً جواداً على الشعراء والعلماء والموسيقيين . ولقد أخذت علوم العربية فى عهده نهضة جديدة اقترنت بأسماء الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد والفراء والكسائى . وعند هؤلاء الرجال جميعاً كانت لغة البدو هى القدوة المثلى ، والنموذج الرفيع ؛ وبذلك كانوا دائماً فى خلاف شديد مع اللهجة الدارجة بين سواد الشعب العريض. وأبو زيد بالذات ، الذى كان ينطق كما ينطق الأعرابى ، أدى التزامه الفصحى فى حديثه مع العوام فى وقت مبكر ، إلى نكات من المزاح مشتملة على موازنات بين صوابه المتنخل المصفى ، وطريقة التعبير الفاحشة المعوجة عند معاصريه [١] وعلى النقيض من ذلك ، كان من قبيل تعصب البصريين على الكوفيين ما أُخذ على الفراء العظيم (١٤٤ – ٢٠٧ هـ) أنه لحن بمحضر هارون[٢] وأنه اعتذر

---

(١) تاريخ بغداد ٩/٧٨ .

(٢) ابن خلكان ٣/١٩٤ .

من ذلك بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالإعراب عند أهل البادية . وأقل من ذلك جدارة بالتصديق الخبر القائل : إن أبا عبيدة (المتوفى ٢١٠هـ) تلقى نصيحة من أبيه ، إذا كتب كتاباً أن يجعل فيه لحناً لتزول عنه حرفة الصواب[١] . بل لقد كان محبباً إلى الخليفة أن يجالس النحاة ، وكان يقدر سلامة اللغة حق قدرها . وقديماً روى أنه خاطب زبيدة زوجه فقال لها : ياأم نهر[٢] ، بدلا من أم جعفر ، كنيتها الصحيحة . وكانت زبيدة ، حفيدة المنصور ، امرأة عاقلة مثقفة[٣] ، وكانت على قدم من البلاغة بحيث بقى خطابها للمأمون ، عند دخوله بغداد ، عالقاً بذاكرة الأجيال التالية عهداً طويلا[٤] . بيد أنه لم يكن معروفاً لديها أن اسم العَلَم : جعفر ، منقول ، وأنه مرادف للنهر . على أن هارون نفسه لم يرض من الأصمعى أن يستعمل فى خطابه إياه تعبيراً مهجوراً غريباً : ما لاقتنى بعدك أرض ، أى لم تمسكنى[٥] وقد تعرض أبو يوسف (١١٣ — ١٨٢هـ) أعظم قضاة الدولة — كان أول من حمل لقب قاضى القضاة — لتخطئة الأصمعى فى تفسير المعنى الغامض فى تلك القاعدة الفقهية التى صاغها الشعبى : لا تعقل العاقلة عبداً ، بمعنى أن العاقلة ، أى الأسرة ، ليست مسئولة عن دية عبد يُقتل ؛ حيث أراد أبو يوسف أن يفسره بأنه لادية على العاقلة إذا ارتكب عبد لها جناية قتل . فرد عليه الأصمعى بأنه كان يجب حينئذ أن يقال : لا تعقل عاقلة عن عبد[٧] . فى مثل هذا الجو ازدهرت إلى جانب المعارف الحقيقية ، شدة الذكاء وسعة الحيلة ، ولطف المدخل، وشهوة الغَلَب . وإذا كان هارون كما فى إحدى الروايات —

---

(١) أدب الكتاب للصولى ص ١٣١ والظاهر أن صواب العبارة : خرقة الصواب ، أى حمقه

(٢) صبح الأعشى ١/١٦٨ .

(٣) أخبار النحويين للسيرافى ص ٦٤ .

(٤) انظر رأى الجاحظ فى الموشح للمرزبانى ص ٣٥٣ .

(٥) تاريخ بغداد ١٤/٤٣٣ .

(٦) أخبار النحويين للسيرافى ص ٦٣ ؛ نزهة الألباء ١٦٣ ، والروايات المساوقة فى : أدب الكتاب ص ٩٩ ؛ تاريخ بغداد ١٤/٩ ؛ ابن خلكان ١/٥١٧ ؛ تاج العروس ٧/١٥، تجعل بدلا من لاقت ، ألاقت الرباعى .

(٧) أدب الكاتب ١٥/٢٢٤ والجواليقى عليه (طبع القدسى ١٣٥٠ هـ) ص ٨٠ .

كان يفرق بين : أنا قاتلُ غلامِك على سبيل الإضافة ، بمعنى لقد قتلت غلامك وأنا قاتلٌ غلامَكَ بالتنوين ، على معنى سأقتل غلامك؛ فهذا يعتمد على نوع من الدقة كان الاستعمال اللغوى الواقعى كثيراً ما يطرحه وراءه ظهرياً[١] . كذلك التمييز الذى ينم على حدة ذكاء، والذى روى على لسان الكسائى الذائع الشهرة ، سواء لأنه نحوى ضليع ، أم لأنه قارئ من القراء المعتدّ بهم ، حيث فرق بين : أنت طالق ، طالق ، طالق ، وبين أنت طالق وطالق وطالق[٢] أو ما شاكل ذلك ؛ فمثل هذا ليس مأخوذاً من اللغة الواقعية الحية . وأحياناً كانت مثل هذه اللوذعية فى علوم اللغة لا تصحح خطأ الرواية ، وإنما تصحح القائل نفسه ؛ بمعنى أنها تقول على لسانه ما لم يقله . فمثلا حينما مدح الفرزدق حسين بن الأصرم قاتل الجون الكندى لأنه حرم على نفسه تناول اللحم والخمر حتى يقتله ، فقال :

غداة أَحَلَّت لابن أصرم طعنةً حسينٍ عبيطاتُ السدائف والخمر

بنصب طعنة ورفع عبيطات ؛ لم يعجب الكسائى هذا القلب والتبادل بين الفاعل والمفعول ، فغير البيت :

غداة أحلت لابن أصرم طعنةٌ حسين عبيطاتِ السدائف والخمر

وعلى هذه الصورة المغيرة يوجد البيت اليوم فى الديوان الذى بأيدينا[٣] . هذا إلى أن الرواة الكوفيون يروون أن الذى حمل الكسائى أيضاً على تعلم النحو هو تعبيره باللحن ، إذ قال : قد عَيِيت ، بمعنى تعبت ، وكان ينبغى أن يقول : قد أعييت ، لأن عَيِ الثلاثى من : عى بالأمر[٤] لم يقدر على إتمامه . ومع هذا فلم يخل الأمر من خصومات بين العلماء ؛ إذ كان من الطبيعى أن أحداً من علماء اللغة هؤلاء لم يحصل على دراية كاملة بالعربية ، حتى ولا بمعنى أنه كان محيطاً بكل الثروة اللفظية الحية ، التى كانت مستعملة إذ ذاك فى البادية .

---

(١) إرشاد الأريب ١٨٧/٥ وانظر سيبويه ٧١/١ .

(٢) تاريخ بغداد ٤٠٦/١١ .

(٣) ديوان الفرزدق ص ٣١٧ ، وانظر الكامل للمبرد ص ٢٠٩ وانظر مصادر أخرى فى فهارس الشواهد ٩٥ ب .

(٤) تاريخ بغداد ٤٠٤/١١ ؛ نزهة الألباء ص ٨٢ ؛ إرشاد الأريب ١٨٤/٥ .

ولما زار العلامة الكبير : أبو عبيدة ، أم الهيثم[١] ، التي عرفت بأنها أعرابية فصيحة بليغة الكلام ، وصفت له مرضها بكلمات لم تكن معروفة عنده ، حتى سألته في دهشة عما إذا كان للناس لغتان ينطقونهما[٢] . وفي هذه الظروف لم يقم النزاع حول مسائل الاستعمال اللغوى الصحيح فحسب ، بل كذلك حول من يرجع إليه في ذلك . وهكذا حدث في الجيل التالي لهذا أن ابن الأعرابي الكوفي (حوالى ١٥٠ — ٢٣١ هـ) لم يشأ أن يعتد لا بالأصمعي ولا بأبي عبيدة ؛ وهما من هما في مرتبة العلم التي تسمو على مرتبته بكثير . ولكنه استطاع مثلا أن يشير إلى أن الرجال الذين يأخذ عنهم من البدو كثيراً ما أعطوه بياناً يتعارض مع آراء الأصمعي[٣] ؛ أو يشير إلى أن أبا عبيدة روى : شِلت الحجر (من مادة : ش ى ل) أي رفعته ، وشلت يداه[٤] ؛ أي أصيبتا بالشلل ؛ على حين أن الصواب يجب أن يكون : شُلت بالحجر (من مادة : ش و ل) و : شلت يداه بفتح الشين . بيد أن علم ابن الأعرابي نفسه لم يكن راسخاً بحال. فقد أكدى بصورة مزرية حينما طلب إليه أن يشرح كلمات غريبة في شعر الطرماح[٥] ؛ كما قرأ : قتلى كذا ، بالذال المعجمة ، بدلا من قتلى كداء ، في بيت للمغني المشهور : ابن أبي سنة ، الذي غير ابن الأعرابي اسمه أيضاً إلى : ابن أبي شبة ؛ وحاول أن ينقذ نفسه[٦] من هذا الخطأ الشنيع بتفسير : قتلى كذا ، تفسيراً غير مقبول بأن معناه عدد كبير من القتلى . كذلك لم يفهم مرمى الشاعر في الكلمات :

[ولا عيب فينا غير عرق لمعشر   كرام] وأنا لا نخط على النمل

أي أننا لا نخط على النمل ، بمعنى القروح (والمراد أننا لسنا مجوساً نتزوج أخواتنا) . وفي ذلك رمز إلى عادة فارسية ، هي أن يطلب إلى غلام ناتج من زواج الإخوة أن يخط على القروح على سبيل التعويذ والسحر . وقد تخلص

---

(١) الفهرست ص ٧٠ .
(٢) تاج العروس ٢/٢٦٠ .
(٣) إرشاد الأريب ٧/٥ .
(٤) هكذا روى أبو عبيدة في بيت لورقاء بن زهير ؛ انظر النقائض ص ٣٨٤ .
(٥) الأغاني ١٠/١٥٦ .
(٦) الأغاني ٤/٩٢ ؛ معجم البلدان ٤/٢٣٨ .

ابن الأعرابي ببيان حائر ففسره بأن الشاعر يقول : نحن لا نحط (من حط ، لا نخط من خط) على جماعات النمل لنسلبها زادها[١] . كذلك لم تكن معارفه عن الأنساب على ما ينبغي[٢] كما أن آراءه اللغوية المتهاوية يعبر عنها أصدق تعبير رأيه العجيب في تعاقب الضاد والظاء في سعة الكلام[٣] .

وقد بقي لنا مصنف في لحن العامة يحمل اسم الكسائي[٤] ، وهو — إن صحت نسبته — يعد أقدم الآثار الأدبية لحركة « تنقية اللغة العربية » . ويذكر هذا المصنف في مقدمته أنه من عمل الكسائي لهارون الرشيد[٥] . ويحتوي في ١٠٢ فقرة على ملاحظات متفرقة جمع بعضها إلى بعض حول الاستعمال اللغوي الصحيح . وتبدأ كلها بكلمة : تقول (أي الصواب كيت وكيت) ، وقد تبدأ في بعض الأحيان بكلمة : لا تقول ، مع ذكر الصيغة المستعملة عند العامة . وكثيراً ما يستشهد بذكر مواضع من القرآن أو أبيات الشعر . على أن نسبة هذا المصنف لم تسم عن شك أيا كان . أما أنه لا يوجد منه غير مخطوطين اثنين حديثي الكتابة ، متقاربين تقارباً كبيراً[٦] ، فقد يكون ذلك من قبيل المصادفة والاتفاق ، كما هو الحال بالنظر إلى أن صاحب الفهرست لا يعرف هو ولا غيره من كتب التراجم التي بأيدينا مثل هذا المصنف للكسائي. ولكن أحق من ذلك بأن يلفت النظر ، هو أن الراوي الوحيد الذي ذكر اسمه في الكتاب ، هو البصري المعروف : أبو زيد الأنصاري (حوالى ١٢٥— ٢١٥هـ)

---

(١) نزهة الألباء ص ٢١١ ؛ إرشاد الأريب ٧/٧ . وانظر في معنى البيت : أدب الكاتب ص ٢٢ ، والبطليوسي عليه ص ٢٩٠ ، والجواليقي عليه ص ١٢٠ ، وتاج العروس ١٤٦/٨ .

(٢) الأغاني ١٠٠/١١ .

(٣) ابن خلكان ٢٩٩/٢ .

(٤) نشر أولا عن نسخة خطية حديثة رديئة كثيرة الأغلاط (برلين ؛ أهلورت ٧١٠٣) ، وناشره بروكلمان : المجلة الأشورية عدد ١٣ ص ٢٩ — ٤٦ ؛ ثم نشرها عبد العزيز الميمني في : ثلاث رسائل ، بالقاهرة ١٣٤٤ هـ ؛ ص ١٩ — ٦٨ على أساس نسخة خطية حديثة أيضا في بومباي ، ولكنها أحسن من الأولى كثيراً . ويرجع إليها في الاستشهاد . وانظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوي (المترجم) .

(٥) مطلعه : هذا كتاب ماتلحن فيه العامة مما وضعه علي بن حمزة الكسائي للرشيد .

(٦) يتضح هذا من اتفاقهما في الأغلاط فمثلا نشرة بروكلمان ٧/٣٤ ؛ ١/٣٥ ؛ ٧/٤٣ = نشرة الميمني ٥/٢٨ ؛ ٩/٢٩ ؛ ١١/٢٩ ؛ ٥/٤٨ (سقط هذا الهامش من ترجمة النجار . المترجم) .

الرجل الذى عاش طويلا بعد الكسائى المتوفى فى سن الثمانين أو التسعين. ومع هذا فإن أهم من ذلك تلك الأحوال ، التى لا يتفق ما ينقل فيها من الآراء فى هذا المصنف ، مع ما هو معروف فى معاجم اللغة العربية على أنه رأى الكسائى . فمثلا يخطئ المصنف المذكور : نقم بكسر القاف ، (رقم ٣) ؛ ويصوب : وددت (رقم ١٩) ؛ كما يفرق (رقم ٨٧) بين : قبسته النار ، أى أعطيته ناراً ، وأقبسته العلم ، أى علمته ؛ وكذلك (رقم ١٠٢) بين : نما ، الواوى بمعنى زاد (المال) ، ونمى اليائى بمعنى احمرّ (الخضاب) واسودّ . وعند الجوهرى وغيره من أصحاب المعاجم — على النقيض من هذا — أن الكسائى ارتضى نقم بكسر القاف ، ووددت بفتح الدال ؛ وأنه فسر الرباعى : أقبس بالمعنيين جميعاً : أعطى النار ، وعلم ، على الحقيقة والمجاز ؛ وقال عن : نما الواوى ، إنها صيغة مفردة سمعها من اثنين فقط من بنى سليم . نعم قد يكون هذا التضارب ناشئاً أيضاً من أخطاء الرواية أو بسبب تنقيح الأصل ؛ بيد أنه إذا لم يكن هناك دليل قاطع على صحة النسبة ، فقد بقى من المشكوك فيه ما إذا كان هذا المصنف يحمل اسم الكسائى بحق [1]

ومهما يكن من أمر فى صحة نسبة المصنف المذكور فى لحن العامة للكسائى ، فما لا شك فيه أن حركة « تنقية اللغة العربية » على عهد هارون الرشيد قد نضجت نضجاً تاماً . وهنا كان الأصمعى قبل كل شىء هو الذى لم يكتف بجمع الثروة اللغوية عند البدو وترتيبها فحسب ، بل شرع كذلك فى تقعيد الاستعمال اللغوى الدقيق للكلمات ، بتعريفات غاية فى الدقة . ولا ريب أنه كان فى ذلك كثيراً ما يخالف المعانى والاستعمالات التى ترد فى كلام البدو ؛ ودعوى ابن الأعرابى أنه وجد فى ألف حالة ، سمع فيها من البدو ، تلك الصيغ التى ذكر الأصمعى أنها خطأ ، ليست غير ذات أساس ؛ على الرغم مما يبدو من أن ابن الأعرابى كان يريد أن ينقذ موقفه ، إذ إنه حينما كان لا يزال مؤدباً فى بيت سعيد بن سلم بن قتيبة [2] (المتوفى ٢١٧ هـ) ، أثبت عليه الأصمعى فى

---

(١) انظر فى صحة نسبة الكتاب إلى الكسائى ودفع تلك الشبه ماقلناه فى كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ١٠١ — ١٠٩ (المترجم) .

(٢) ابن خلكان ٢/١٨١ .

حضرة تلميذه خطأ فى تفسير بيت[١] . ولـكن آخرين من علماء اللغة ، غير ابن الأعرابى ، خالفوا الأصمعى أيضاً فى أقواله . وقد أنحى البطليوسى بشدة اللائمة على ابن قتيبة ، لأنه احتضن مذهب الأصمعى المتطرف فى « تنقية اللغة » دون أن يعنى بمذاهب الثقات الآخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض فحسب[٢] .

وهذه المقتضيات التى يتطلبها مبدأ « تنقية اللغة » ، قد احتذاها الشعر الرفيع فى جميع العصور كما هو الأعم الأغلب ، فمثلا أشعار أبى نواس (١٣٠– ١٩٩ ﻫ) أهم شاعر على الإطلاق فى عصر هارون ، خالصة من اللحن اللغوى خلوصاً عجيباً . وما عدّه نقاده المشبعون بروح التشكك خطأ ، هو فى الغالب نوع من الحرية الشعرية ، أو ضرورة الوزن ، كما نجده عند أسلافه من الشعراء .

وهكذا ، تدين مثلا الصيغ المختلفة التصريف : سنونٌ وبنونٌ ، التى استعملها بالتنوين ، بدلا من الإعراب بالحروف [٣] ، إلى الرغبة فى إعارة هذه الأسماء الثنائية (المبنى) تمكناً من الأصالة ، كما أنها وردت — بعيدة عن القافية — فى أشعار العصر الأموى[٤] . وزيادة على ذلك ليس من الشاذ العادم النظير أن يستعمل الشاعر فى ضرورة القافية ، جمع المذكر السالم بكسر النون بدل فتحها[٥] . وإذا كان أبو نواس فى قوله فى مدح الأمين :

ياخير من كان ومن يكون إلا النبى الطاهر الميمون[٦]

---

(١) أمالى المرتضى : ١٨١/٢ .

(٢) انظر الاقتضاب ص ٦/١٠٦ ؛ ٩/١٠٨ ؛ ١٠/١٠٩ ؛ ٧/١١٠ ؛ ١٣/١٢٨ ؛ ٣/١٣٢ ؛ ٨/١٥٩ ؛ ٨/٢١٦ ؛ ١٦/٢١٨ ؛ ١٦/٢٢٣

(٣) الخمريات رقم ٦٢ (أهلورت) ؛ انظر : الشعر والشعراء ص ٥٢٠ .

(٤) انظر المصادر فى : (Nöldeke, NBSS 126 (Neue Beitraege zur semitischen Sprachwissenschaft)

(٥) ساق المبرد فى الكامل ص ٢٩٢ ثلاثة أمثلة لذلك من شعر الفرزدق وسحيم (الأصمعيات رقم ٦/٧٦ ، ويوجد هذا البيت أيضاً فى شعر لجرير ، ديوان ٥٧٧) وذى الإصبع (المفضليات ٢١/٣١) وانظر ابن يعيش ص ٦١٣ ، وخزانة الأدب ٤١١/٣ .

(٦) انظر : المثل السائر (١٢٨٢ ﻫ) ص ١١ .

قد خالف قواعد العربية ، من وجوب نصب المستثنى من كلام تام موجب ، فإن هناك شواهد قديمة أيضاً[١] على مثل هذه الحرية الشعرية . كذلك فى البيت :

فليت ما أنت واطٍ من الثرى لِىَ رَمْسا[٢]

نصب معمولى : ليت[٣] ، وهو استعمالى قَبَلِىّ خاص ، ورد فى رجز العجاج[٤] (المتوفى ٩٧ هـ) وفى شعر الهذلى عبد الله بن مسلم[٥] (فى أوائل القرن الثانى) ؛ وترك الهمز فى واط ، بدلا من واطئ أمر معتاد .

وأكثر من ذلك لفتاً للأنظار ، ترك الإعراب ، واستعمال صيغ دارجة فى مثل : محدِّثَه بدلا من محدِّثةٍ[٦] ؛ ويأتلكْ ، على الوقف بسكون الكاف ، بدلا من فتحها فى الخطاب[٧] . وأخيراً من المستغرب البيت[٨] :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

---

(١) انظر نولدكه : Zur Grammatik S. 43

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥١٩ .

(٣) لاوجود للنصب المزعوم فى المعمولين هنا (المترجم) .

(٤) انظر الموشح ص ٢١٧ ويفهم من عبارة فك أن نصب ليت للجزأين ، وإن كان ظاهرة قديمة ، فإنه تطور حادث . غير أننى أرى أنه تركيب أصيل بكل تأكيد وقد ذكر ذلك فليشر Kl. Schriften I 486 (561) وتابعه بروكلمان GvG I 137;II 30 فإنليت زيداً قائماً (المفصل ١٣٩) ناشىء من رأيت زيداً قائماً وفى اللهجات الحديثة « ريت » منه وإن كان نولدكه BsS ٣/١٢ يراها تطوراً حديثاً من ليت ، ولا أوافقه على تعليله . وقد بقيت الظاهرة القديمة فى بعض الأشعار مثل : ليت القسى كلها أرجلا Freytag, Prov. Arab ٧٧/٢٣ ويعزى إلى تميم ، ويبدو ذلك صواباً ؛ إذ تبقّى الظاهرة القديمة أحياناً فى بعض اللهجات . والمعتاد فى العربية رفع الخبر بسبب القياس على إن ولعل بكل تأكيد (شبيتالر) .

(٥) ديوان هذيل رقم ٢٤٧/٤ وفى الشاعر انظر : تهذيب التهذيب ٢٨/٦ .

(٦) الشعر والشعراء ص ٥١٩ ، وقد صحح فى الديوان ص ٨٩ .

(٧) ذيل الأمالى ص ٤٧ .

(٨) الديوان ص ١٠/٢٤٣ الخمريات رقم ٣/٧ (أهلورت) ؛ وانظر : درة الغواص ص ٤٦ ؛ المثل السائر ص ١٠ ؛ الميدانى (١٣٤٢) ٧١/١ ؛ الكشكول (١٢٨٨) ص٢٦٣ ؛ فهارس الشواهد ٢١ ب/١٥

لأنه كما فى قواعد النحو الأولية ، لا تستعمل فُعلى مؤنث أفعل التفضيل إلا معرفة ، إلا فى حالة ما إذا صار اسما مثل : دنيا[١] ، أو أخذ معنى خاصاً ، مثل : أخرى . كذلك من اللحن قوله :

ونشوةٍ سُقِطتُ منها فى يدى

لأن سُقط فى يده ، بمعنى حار أو ندم ، ملازم للمجهول ، وهو فعل غير شخصى ؛ لأن سَقَطَ غير متعد[٢] . فلا يسند إلى الضمير .

وعلى النقيض من ذلك ترد عند شعراء الطبقة الثانية أحياناً أخطاء صريحة فى قواعد النحو فهذا هو الشاعر الشيعى : السيد الحميرى (١٠٥ — ١٧٣ هـ) يقول شاهداً على ما نقول[٣] :

أحُوكُ ولا أقوى ولست بلاحن وكم قائل للشعر يُقوى ويلحن

وتؤيده فى ذلك الروايات التى بأيدينا ؛ فهاهو ذا أحد شعراء بلاط الرشيد ، وهو العمانى [يدين بهذا اللقب لزيارة له إلى عمان ، أو لسبب غير ذلك ، لكنه على كل حال ليس من هذا الإقليم المشهور بفساد عربيته[٤]] ينشد بيتى الرجز التاليين فى وصف حصان :

كأن أذنيه إذا تشوّفا قادمةً أو قلماً محرفا

وهو خطأ سرعان ما صححه الخليفة ، حيث اقترح[٥] عليه وضع : تخال مكان : كأن .

---

(١) على العكس من « حسنى » التى وردت منكرة فى قراءة شاذة فى قوله تعالى « وقولوا للناس حسنى » (البقرة ٢/٨٣) والقراءة المتواترة « حسناً » على المصدر

(٢) الميدانى (١٣٤٢) ١/٣٠٢ .

(٣) الموشح ص ١٤ ، وانظر فى هذا جولد زيهر :
Abhandl. zur arab. Philologie I. 132

(٤) توجد تفسيرات مختلفة عند ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ص ٤٧٥ ؛ الأغانى ١٧/٧٨ ، ٨١ ؛ تاريخ بغداد ٥/٢٧٠ .

(٥) الكامل ص ٥١٣ ؛ أدب الكتاب ص ٨٦ ؛ ويريد بعض الكوفيين أن يستشهد بهذا على جواز نصب معمولى كأن ، انظر خزانة الأدب ٤/٢٩٢ — ٢٩٤ ، وتوجد شواهد أخرى فى فهارس الشواهد لفيشر ص ١٥٧ .

وفى القصيدة التى أنشدها إبراهيم الموصلى (١٢٥ — ١٨٥ هـ) متغنياً بجلوس هارون على عرش الخلافة ، تجد هذا البيت (الأغانى ٥/٤١) :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما وَلِى هارون أشرق نورها

فقال : وَلِى ، بالإشباع ، بدل : ولى بفتح الياء .

وشاعر آخر نابه الذكر فى هذا العصر : مسلم بن الوليد (المتوفى ٢٠٨ هـ) يفتخر بأنه ابتدع للفظ : يزيد ، جمع تكسير : أيا زيد ، فجعله ذلك هدفاً لنقد أبى نواس[١] . وأخيراً : فى شعر ابن سيّابة (المتوفى ٢١٣ هـ) ، الذى وإن كان لا يقاس بالشعراء السالفى الذكر ، فقد انتشرت أشعاره ، بتلحين إبراهيم الموصلى إياها ، وتغنيه بها ، نجده يقول : أبو سْحاق ، بحذف همزة إسحاق[٢] ، وهى خطوة أولى نحو التسمية المتأخرة بوسحاق .

واللحن فى أشعار القصور ، أقل منه فى أشعار الفرص والمناسبات ، كما نراه فى أشعار البصرة لمختتم القرن الثانى . فهذا أبان اللاحقى يتهكم بالمحاولات الشعرية لأبى النضير الذى كان يخرّج المغنيات من الجوارى بالبصرة ، وكان يعد أظرف الناس بها ؛ يقول أبان :

يَكْسِر الشعر وإن عاتبته . فى مَجَالِسٍ ، قال هذا فى اللغة[٣]

أى أنه كان متأثراً بخصائص لهجات خاصة ، وأبو النضير يستعمل مثلا الصيغة الغريبة : فإياك بأن يعلم[٤] ، يجزم المضارع على خلاف القاعدة . ولو بقى لنا كثير من أشعاره ، التى تحتسب فى الطبقة الوسطى ، لأمكن العثور فيها على لحن أكثر وأوسع .

---

(١) الموشح ص ٢٩٠ ، ولا يوجد البيت المشار إليه : رأى المهلب أو بأس الأيازيد ، فى الديوان (نشر دى غويه) .

(٢) الأغانى ٥/٩.

(٣) الأغانى ٢٠/٧٤ .

(٤) الأغانى ١٠/١٠١ س ١٣ ، والبيت الذى قال فيه ذلك : فإياك بأن يعلم وإياك وإياك ، كما فى الأغانى ، والظاهر أن الواو موضوعة غلطاً من الناسخ ، ولعل الصواب :

فإياك بأن يعلـــــم إيـــاك وإياك

وإذن فلا لحن فى كلامه (النجار) .

وفى محيط أدباء البصرة التى التقينا فيها بمثل ابن مناذر ، يعد أيضاً محمد بن يسير [١] ؛ رجلا وضيع النسب ، فتحت له قريحته فى الشعر مدخلا إلى قصور المجتمع الرفيع . وقد حمله عدم التسامى فى الطموح على الزهادة فى أن يضع فنه فى خدمة الخليفة أو كبار رجال الدولة مكتفياً بحياة طفيلية [٢] فى شعار الخمر على نفقة بعض الأثرياء الذين خصهم بالمديح . وقد كانت أشعاره الخفيفة المترقصة ، التى تغنى فيها ، وهو مضطرب المزاج ، بصغائر الأحداث من خواطر أيامه الرتيبة ، محببة إلى الناس دهراً طويلا . بيد أنها قد عرضت من الوجهة اللغوية سلسلة من السمات المولدة الطابع مثل سقوط الهمزة ، لا فى الصيغ الدارجة فحسب مثل : حِرْامه ، بدلا من : حِرْأمّه [٣] ، بل كذلك فى مثل : قراة ، بدلا من قراءة [٤] ، كما أدخل نوعاً من تقصير الحركة الذى اشتهر فى اللهجات المتأخرة [٥] ، بجمعه لفظ : « شاهين » بمعنى صقر ، على : شواهن [٦] بدلا من شواهين [٧] . وفى البيت :

ولو قَنِعتُ أتانى الرزق فى دَعَةٍ   إن القنوع الغنى لا كثرة المال

خلط بين : قَنَعَ ، بفتح النون ، من مصدر القُنوع بمعنى السؤال والتذلل ، وقَنِعَ بكسر النون من مصدر القناعة ، بمعنى الرضا [٨] . وخطأ شنيع استعماله فى الدعاء المضارع الخبرى الواقعى : يرحمنا [٩] ، بدلا من ماضى الدعاء :

---

(١) انظر الأغانى ١٢/١٢٩ — ١٤١ ، حيث سمى الشاعر غلطا : محمد بن بشير ، انظر تاج العروس ٣/٦٢٧ س ٩ ، وانظر مراجع أخرى فى : فهارس الشواهد لفيشر ٣٠٢ تعليقا على ١٤٩ب/١٩ .

(٢) يتحدث هو نفسه عن تطفله فى الأغانى ١٢/١٤١ .

(٣) بيان الجاحظ ٢/١٢٣ وقد ذكر نولدكه شواهد قديمة على ذلك فى :
Zur Grammatik S. 9

(٤) الأغانى ١٢/١٣٣ .

(٥) انظر دائرة المعارف الإسلامية : EI I 416

(٦) الأغانى ١٢/١٣٥ .

(٧) أو شياهين ، انظر الفرزدق ص ٤٠٥ .

(٨) الموشح ص ٢٩٩ ؛ البطليوسى ص ١٨٠ ؛ على أن بعض اللغويين ذكر أن الأول من الأضداد . انظر القاموس فى المادة (النجار) .

(٩) الكامل ص ٢٣٣ ؛ الأغانى ١٢/١٣٧ ؛ المحاسن للبيهقى ص ٣٨١ بيان الجاحظ ٢/١٠٢ .

رحمنا (أى عسى أن يرحمنا) . فإذا أضفنا إلى هذا كله ذلك العدد الجم من الدخيل الفارسى ، حصلنا على صورة من التعبير الشعرى ابتعدت كثيراً عن الشعر الفصيح فى الصدر الأول .

وإذا جاز لنا أن نثق بالروايات التى بأيدينا ، كان عصر هارون هو العصر الذى وجدت فيه لغة الشعب للمرة الأولى مساغاً فى التعبير الأدبى ، فكما فى قصة جِدّ معروفة ، يروى أن هارون بعد أن قضى على البرامكة ، منع الناس أن يبكوا القتلى فى مراث تشيد بذكرهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى ابن خالد بكت سيدها القتيل فى قصيدة نظمتها باللسان الشعبى ، تختم أبياتها بقولها : ياموالبا [1] !

بيد أن حظ هذه الأسطورة من الصحة ضئيل ، مثل التأويل الذى حاكه بعضهم ، فى أن أول من نظم أغانى المواليا ، هم عبيد من واسط كانوا يتغنون بها فى أثناء العمل . حقاً لقد وجدت فى سائر العالم العربى بحور غنائية شعبية ، غير أنه ليس من الممكن تحديد مبدأ الفنون السبعة المولدة زمانياً ومكانياً على وجه الدقة . فجميع هذه الأغانى يناسبها شعر الأدوار الذى تتحد قافية كل دور فيه ، وإن اختلفت قوافى الأدوار بعضها مع بعض ؛ على حين أن الشعر العربى لا يعرف منذ البداية إلا القافية الواحدة فى القصيدة كلها . بيد أنه قد نظمت فى العصر العباسى أغانى من شعر الأدوار (المزدوجات) بلغة الكتابة الفصحى أيضاً . وعصر هارون — بالذات — هو العصر الذى لدينا منه شواهد أكيدة على نقل هذه القوالب الشعبية إلى الشعر الفنى —وأبسط هذه القوالب هو مايسمى « المزدوِجة » ، وهو قالب شعرى ، يؤلف فيه بيتان قصيران — من الرجز غالباً — متحداً القافية ، وحدة خاصة أو دوراً مستقلا . وقد نظم أبو العتاهية (حوالى ١٣٠ — ٢١٠ هـ) فى هذا القالب أرجوزته : « ذات الأمثال » ، وهى قصيدة تهذيبية أخلاقية . روى أنها تشتمل على أربعة آلاف حكمة ومَثَل؛ ولم يصل إلينا منها إلا جزء صغير [2] .

---

(١) انظر سفينة الملك لشهاب الدين ص ٣٨٠ ؛ محمد بن شنب فى دائرة المعارف الإسلامية : EI III 484

(٢) ديوان (بيروت ١٩١٤) ص ٣٤٦ — ٣٤٨.

واختار أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، معاصر أبى العتاهية ، نفس القالب (المطابق للمثنوى الفارسى تمام المطابقة) عند ماصاغ للبرامكة أدب المسامرة ، الفارسى ، الهندى ، فى شعر عربى ، مثل : كليلة ودمنة ، وأسطورة بدّها ، وحياة أنوشروان وأردشير ، وقصة مَزْدَك . وتبدأ ترجمته لكليلة ودمنة بالأبيات[١] :

هـذا كتابُ أدبٍ ومحنه وهو الذى يدعى كليله دِمْنه
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْدُ وهو كتابٌ وضعته الهندُ

وشاعر ثالث من ذلك العهد ، هو بشر بن المعتمر المعتزلى (المتوفى ٢١٠ ﻫ) الذى زج به هارون فى الحبس بعض الوقت لتشيعه فهذا وإن نظم على النمط المألوف من وحدة القافية[٢] قصيدتيه اللتين قالها فى الفلسفة الطبيعية ، وأشاد فيهما بحكمة الله المتجلية فى الطبيعة ، قد استخدم أيضاً إلى جانب ذلك — كما تشير إليه نصوص متفرقة — قالب المزدوج[٣] . وأقدم من ذلك —بحق— النظم الفلكى التعليمى الذى أنشأه محمد بن إبراهيم الفزارى ، مخرج كتاب « السند هند » الذى اشتهر إذ ذاك ببغداد سنة ١٥٤ ﻫ . وأبوه هو إبراهيم ابن حبيب الذى يروى أنه أول من صنع الأسطُرلاب فى الإسلام[٤]. ونظمه التعليمى الذى لم يرو لنا منه إلا الأبيات الأربعة الأولى فقط[٥] ، هو من قبيل المزدوج الذى تتألف أدواره من ثلاثة أبيات متحدة القافية من الرجز . وأسوأ حالا مما ذكرنا ، إثبات أقدم الأمثلة لشعر الموشحات ؛ فإن « المخمسة » المنسوبة إلى أبى نواس [اثناعشر دوراً كل منها خمسة مصاريع ، الأربعة الأولى منها متحدة القافية ؛ أما الخامس فهو على قافية أخرى تدور فى المصراع الخامس من كل دور ، على مثال : أ أ أ أ ، ب ب ب ب أ

(١) الأغانى ٣٠/٧٣.
(٢) حيوان الجاحظ : ٦/٩٢— ٩٧.
(٣) الانتصار لخياط ص ١٣٤ ؛ حيوان الجاحظ ٦/١٥٥ ؛ ثمار القلوب ١/٥١٣
(٤) انظر الفهرست ص ١١٨.
(٥) الوافى بالوفيات ١/٣٣٦.

ج ج ج ج أ الخ] لا تكاد تثبت صحتها[١]. بيد أن هناك ميمية[٢] تترجح صحة نسبتها إلى حماد الراوية (٩٥ — ١٥٥ هـ) وهي تشتمل على قافية مصرعة في داخل البيت ، ثم قافية متحدة في جميع الأبيات[٣] :

خلافَ الحلول بتلك الطلول وسَحْبَ الذيول بذاك المقام

وكذلك الحال في البيتين التاليين ترتبط الفقر الثلاث الأولى من كل بيت فيها بقافية داخلية وتقدم مثالا قديماً آخر لهذه « المقطعة » قصيدة لِسَلْم الخاسر ، قالها في مدح الخليفة الهادى (حكم ١٦٩ — ١٧٠ هـ) وهي تبدأ :

موسى المطر [غيث بكر ثم انهمر]

وتتألف من سبعة عشر بيتاً كلها من قافية الراء على هذا النمط[٤] . وسلم المذكور كانت تلميذاً لبشار بن برد ، مقتفياً لأثره[٥]. وليس ثمة داع إلى الشك في الخبر القائل إن بشاراً أيضاً حاول نظم المزدوجة والموشح .

وربما يرجع إلى القرن الثاني أيضاً تاريخ الدوبيت أو الرباعي ، الذي تتحد مصاريعه في القافية ماعدا المصراع الثالث . فهذا القالب الذي لعب فيما بعد دوراً عظيماً في الشعر الفارسي ، يقرن أيضاً ببشار بن برد ؛ إذ روى أنه قال في بائعة طيور كان يشتري منها الخل ، هذا الرباعي[٦] الخالي — فيما يظهر — من الإعراب في أواخره :

ربابْ ربّةُ البيت تصب الخلّ في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

---

(١) توجد المخمسة المذكورة في حياة الحيوان للدميري ١/١٢٤ (طبع ١٣٤٧) ، ويظهر أنها هي نفس المخمسة التي نسبت إلى أبي نواس في دائرة المعارف الإسلامية EI, Suppl. 194 a

(٢) الأغاني ٥/٢٨

(٣) تشتمل المقامة الثانية عشرة للحريري على قصيدة بمثل ذلك التصريع .

(٤) العمدة ١/١٢٣ .

(٥) الأغاني ٢١/١١٠ .

(٦) الموشح ص ٢٤٩ ، ودون تسمية القائل في : إرشاد الأريب ٦/١٦٥ وفيه : سبع دجاجات .

وإن كان يجوز لنا أن نشك فى صحة نسبة ذلك إلى بشار . ومثل هذا يقال أيضاً فى أغنية باللسان الشعبى ، يقال إن إبراهيم الموصلى (١٢٥ — ١٨٨ ﻫ) تغنى بها فى سكره وهى بعد صياغتها بالفصحى :

أناجئتُ من طُرُق موصِلٍ　　أحمل قُلَّلَ خَمْرِيا
من شارَبَ المــلوك　　فلا بد من سُكْرِيا[1]

وقد ساق ابن خرداذبه هذه الأغنية؛ ليفسر بها نسبة إبراهيم إلى الموصل ، بيد أن أبا الفرج الذى ندين له بالخبر المذكور يعارض بشدة فى صحة هذا التفسير[2] .

هذا ، ونحن فى حقيقة الأمر لانكاد نعرف شيئاً عن العربية التى كان يتكلمها الناس فى أواخر القرن الثانى . ويصادف فقط أن نعرف من إحدى القصص المروية عن محمد بن مناذر (المتوفى ١٩٨ ﻫ) أنه كان يقال فى مكة للإناء بُرْمَة، وللغرفة العالية: عُلِّيَّة ، إذ كان يقال لها بالبصرة : قِدْر ، وغرفة . وهذا الشاعر[3] الذى أصله من عدن[4] ، والذى يعد من شعراء عصر هارون ، جمع علماً كثيراً بشئون اللغة فى البصرة ؛ وكان فى بادئ أمره متألها متنسكاً زاهداً على طريقة الأوائل من المعتزلة . ولكنه وضع نفسه فى موضع غير مقبول ، لدى الدوائر التى كان يختلط بها ، بقصة غرامه بأحد أبناء أسرة نبيلة من ثقيف ، وصار من رجال المجتمع المعروف بحرية الفكر (الزنادقة) الذين لايقدسون شيئاً . ويروى أنه صب الحبر ليلا فى أماكن العبادة ، حتى تلطخت جباه المصلين به عند حضورهم لصلاة الفجر ؛ واضطر أخيراً إلى مغادرة البصرة مهاجراً إلى مكة ، حيث مات بها سنة ١٩٨ ﻫ . وقد ذكرنا أن سفيان بن عيينة نفسه ، وغيره من المحدّثين ، كانوا يرجعون إليه فى أمور اللغة . ويقال إنه ذكر ملاحظته فى تسمية القدر والغرفة عند

(١) رواها الأغانى ٥/١٥٧ باختلاف يسير .
(٢) الأغانى فى الموضع السالف .
(٣) انظر فيما يأتى الأغانى ١٧/٩ — ٣٠ .
(٤) انظر صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٥٣ .

البصريين والمكيين ، دفاعاً عن رجحان كفة البصرة على مكة فى اللغة بذكر مثالين يطابق فيهما استعمال البصريين لغة القرآن[١] . أما أن أهل مكة كانوا يستعملون بدل اللفظ العربى الأصيل : غرفة : اللفظ الآرامى الأصل : عُلّيّة ، فقد أثبته أيضاً ابن دريد[٢]. كذلك يؤيد استعمال المكيين لفظ : برمة ، بدلا من : قدر ، وورد ذلك اللفظ بكثيرة فى أقوال المحدّثين[٣] ، وإن كان يقال فى هذا ، أولا ، إن لفظ : برمة ، يستعمل أيضاً فى معنى أخص مما ذكر ، وهو المادة التى تعمل منها القدر[٤] ، وثانياً ، لفظ قدر لم يكن مجهولا تماماً بالحجاز كذلك[٥].

---

(١) انظر بيان الجاحظ ١/٩ .

(٢) انظر : Wüstenfeld, Handbuch 35

(٣) انظر الشواهد فى : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف لفنسنك ١/١٧٦.

(٤) الأغانى ٤/١٥٢ ؛ وهناك موضع ذكره الهمدانى ص ١٢١ يسمى : معدن البرام .

(٥) ابن هشام ص ٦٨٣ ؛ الأزرقى ص ٤٤٩ .

(٥)

العربية المولدة

كان من أثر المقام المسيطر الذى أخذه مبدأ « تنقية العربية » فى التربية اللغوية للمجتمع العربى ، أن صارت عربية البدو تعد القدوة المثلى ، والمثل الأعلى من جميع الوجوه ؛ وأن احتذاها المثقفون فى الكلام الشفوى ، والتحرير الكتابى جميعاً . حقاً لقد أثر اختلاف الأحوال ، ولاسيما الانتقال إلى حضارة المدن ، أثراً غير يسير فى اللغة أيضاً ، كما يبدو فى اختلاف لغة الأدب فى شعر المحدثين فى أوائل العصر العباسى ، كشعر بشار وأبى العتاهية وابن الأحنف ، اختلافاً كبيراً من حيث صوغ القوالب ، وتركيب الجمل ، والثروة اللفظية ، وطرق التعبير ، عن لغة شعراء البادية . ولكن عربية الدولة هذه احتفظت باالتصرف الإعرابى ، وبقواعد الإعراب والتصريف احتفاظاً تاماً ، ولم تزل من حيث بناؤها الحقيقى ، على الرغم ، من بعض السمات المولدة ، تعد من اللغة الفصحى . وعلى النقيض من ذلك كانت اللغة الدارجة التى كانت تتفاهم بها الطبقات الوسطى والدنيا من سكان المدن ، منذ نشوئها فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى ، تعد عربية مولدة فى نظر التاريخ اللغوى . وقد أخذت هذه العربية المولدة تكتسب مناطق جديدة بسبب التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التى أحدثها سقوط الدولة (الأموية) العربية ، وقد بقى المجتمع الراقى بعيداً عن التأثر بها تأثراً يؤبه له حتى القرن الثالث (التاسع الميلادى) ؛ كما أن الأوساط الأدبية كانت أبعد عن نطاق التأثر بها كذلك . أما اليهود والنصارى بالمشرق ، الذين كانوا يعيشون فى جو من التراث الأدبى ، يختلف تماماً عن محيط العالم الإسلامى من حولهم ؛ فقد ظلوا طويلا دون أن يكون لهم نصيب من الثقافة الإسلامية . ولذلك لم يستخدموا ، لأول عهدهم بالكتابة العربية ، تلك العربية الفصحى ، بل اللغة الدارجة فى عصرهم .ومن هنا كانت الآثار المسيحية العربية الأولى ، التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى ، ذات أهمية كبيرة كذلك

لتاريخ اللغة العربية ؛ إذ فيها نجد نصوص العربية المولدة لأول مرة فى صورة متماسكة .

ولم يكن للنصارى واليهود ، الخاضعين لسلطان الإسلام بالمشرق ، حظ من المثل الثقافى الأعلى للعربية . وقد ألفوا ، من حيث إنهم ذوو أديان نص القرآن على حقها من التسامح والحماية ، جماعات دينية فى الدولة الإسلامية ذات استقلال ثقافى ، وإدارات خاصة بشئونهم ، وقوانين مقصورة عليهم ، كما كانوا يحيون حياة اجتماعية واقتصادية خاصة بهم . وعلى عكس ذلك كانوا يشاركون جيرانهم المسلمين فى لغتهم الدارجة . وتلك الخصائص القليلة فى مادتهم اللغوية وطرائق تعبيرهم ، إنما نشأت من طبيعة الموضوعات التى التى يعالجونها ، بحيث لاتقوى على تكوين لهجة يهودية ، أو مسيحية — عربية خاصة . نعم كان يهود المدينة على عهد محمد [صلى الله عليه وسلم] ينطقون لهجة تختلف كثيراً عن لغة السكان الآخرين بالمدينة ؛ بحيث لم تكن مفهومة لهم . فقد روى عن عبد الله بن عتيق أنه كان يرطن باليهودية[1]. بيد أن هذه اللهجة ، التى كانت مقصورة على الاستخدام الشفوى [كان يهود المدينة يستخدمون فى شعرهم دائماً لغة الشعر البدوى] قد اختفت تماماً بطردهم من شبه الجزيرة . وعلى النقيض من ذلك نصارى البدو من العرب ، فهؤلاء يبدو أنهم لم يتميزوا أصلا فى لهجتهم عن الوثنيين من قبائلهم وإلا لما لقى الأخطل النصرانى اعترافاً بأنه شاعر فصيح معتد به . وزيادة على هذا فقد سارعوا بالدخول فى الإسلام ، بحيث لم يبق أثر مما قد يكون للهجتهم من خصائص لغوية .

وهذه العربية التى نجدها فى الأدب اليهودى والنصرانى فى القرون الوسطى ، إنما نشأت من الاستعمال اللغوى عند طوائف اليهود والنصارى خارج الجزيرة العربية ، الذين لاصلة لهم بالبادية وعربيتها ، بل استخدموا منذ البدء العربية المولدة الدارجة ، التى نشأت من حياة العرب ومخالطتهم للشعوب

---

(١) ابن سعد : ج ٢ قسم ١ ص ٦٦ . وانظر الواقدى ١٧٠ . « تراطن » توجد فى شعر لعلقمة ٢٦/١٣ (أهلورت) . « إياكم ومراطنة الأعاجم » فى كنز العمال ١٨٤/٢ وعند شاعر من القرن الخامس فى نفح الطيب ٨٦٤/١ .

التى أخضعوها ، فصارت لغة التخاطب والتفاهم ، والتى تتميز — رغم اختلافها فيما بينها بسبب الاختلاف المحلى والاجتماعى — تميزاً واضحاً عن العربية الفصحى بطائفة من السمات والخصائص المشتركة بينها فى المادة الصوتية ، وصوغ القوالب ، وتركيب الجمل ، والقواعد النحوية والثروة اللفظية ؛ وطرائق التعبير . فمادتها الصوتية تشير إلى طابع معين من التيسير والتسهيل ، ويتعلق بهذا حذف الهمز [١] الذى استفاض فى العصر الجاهلى فى لهجة الحجازيين [٢] وأخذ فى العربية المولدة صورة واسعة ذات أثر واضح فى صوغ القوالب . كما يتعلق بهذا أيضاً تغيير حرف الضاد ؛ وهذا الصوت الذى هو فى أصله الحرف المطبق القسيم للدال ، خاص بالعربية ، بحيث يسمى العرب [٣] فى أحد الأحاديث المشهورة : الناطقين بالضاد ؛ ويكثر إبداله بغيره من الأصوات على ألسنة غير العرب ؛ فيكثر بوجه خاص إبداله بالظاء التى هى الحرف المطبق القسيم للثاء المهموسة [٤] ، وهى صعبة النطق كذلك على غير اللسان العربى . وقد روى الجاحظ [٥] قصة البصرى الذى سمى جاريته : ظمياء ، بيد أنه كان ينطق : ضمياء ؛ وقرن بذلك خبراً يفيد أن نصر بن سيار ، آخر ولاة الأمويين فى خراسان ، نصح الموالى أن يسموا خدمهم بأسماء يستطيعون أن يلفظوا بها . وهذه التغييرات الصوتية ازدادت على مر القرون . وكم ذا حاول النحاة أن يعالجوها ، ويساعدوا على التحرز منها ؛ فها هو ذا الحريرى يحشد فى المقامة السادسة والأربعين مجموعة من الألفاظ الظائية ؛ وفى القرن السابع يؤلف ابن مالك قصيدة تعليمية كتب هو شرحها ، وعالج فيها الفرق بين الضاد والظاء [٦] وعلى هذين يعتمد السيوطى فيما كتبه

---

(١) كتب فى هذا الموضوع أطروحته للدكتوراه G. Weil سنة ١٩٠٥.

(٢) انظر نولدكه فى تاريخ القرآن ٣/٤٢ — ٥١.

(٣) انظر فيشر فى : ZDMG 59, 837

(٤) هذا وهم من المؤلف إذ لا وجود فى العربية لهذا القسيم المفخم للثاء (المترجم).

(٥) بيان الجاحظ ٢/٢.

(٦) اسمها : « الاعتضاد فى الفرق بين الظاء والضاد » وقد نشرها فى العراق حسين تورال وطه محسن سنة ١٩٧٢ وانظر مقدمة تحقيقيا لكتاب « زينة الفضلاء فى الفرق بين الضاد والظاء » لابن الأنبارى (المترجم).

فى هذا الموضوع [١] وكما ذكر على القارى [٢] ينطق أكثر السوريين وبعض المغاربة الضاد مثل الظاء . ثم ساق إلى جانب نطقها الأصلى كالدال المفخمة ، كثيراً من صور الإبدال المختلفة لهذا الصوت العصى على النطق ، فمن الناس من ينطقها كالدال ، وغيرهم كالطاء ، وآخرون يومئون إليها بالظاء ؛ ثم يذكر بعد هذا أن بعض الناس ينطقها دالا مفخمة ، وبعضهم ينطقها دالا عادية . وأخيراً ينطقها بعضهم لاماً مفخمة ؛ ومن بين جميع هذه هذه الصور ، يكثر نطقها اليوم دالا مفخمة ، وعلى هذا الأساس صورت كتابتها بالحروف اللاتينية . ويبدو أن أبدالها بالدال كان من خصائص النبطية فقد روى أن زامر هارون الرشيد : برصوما Barsauma [يدل اسمه على أصله الآرامى] المنتمى إلى الطبقات الدنيا من سكان سواد الكوفة [٣] ، كان يقول : أبيد ، بدل : أبيض [٤] . ويكثر فى النصوص اليهودية والنصرانية إبدال الضاد ظاء [٥] .

وهناك تغيير صوتى آخر يعترضنا كثيراً فى العربية المولدة ، وهو يتعلق بالسين والصاد ؛ فى العربية القديمة نجد بالفعل صيغاً مزدوجة ، مثل : صراط ، وسراط ، وصويق وسويق ، وغير ذلك . وفى لهجة بلعنبر ، أحد أفخاذ تميم ، يكاد يوجد هذا التغيير باطراد إذا جاء بعد السين أحد الحروف الأربعة التالية : ط ، ق ، غ ، خ [٦] ولو بفاصل . وقد ذهب متأخرو النحاة إلى تعميم جواز ذلك التغير الصوتى بالشرط المذكورة [٧] . وعلى الرغم

---

(١) المزهر ٢/١٨٠ — ١٨٤ .

(٢) المنح الفكرية (القاهرة ١٣٠٨) ص ٣١ ، ٣٤ .

(٣) الأغانى ٥/٢٢٧ .

(٤) الأغانى ٦/١٦٤ .

(٥) انظر شرح سفر التكوين لعلى بن سليمان ، نشرة B, Skoss ص ٧٩ ؛ G. Graf, Der Sprachgebrauch der ältesten chrsitlich - arabischen Literatur S. 6

(٦) روى ذلك قطرب كما ذكره الصحاح وتاج العروس فى مادة : ص دغ ، وفى ابن خلكان ٣/٧٣ وانظر الفهرست ص ٦٣ حيث ذكر الصويق بدلا من السويق فى لغة عمرو بن تميم ، وورد لفظ الصوق بدلا من السوق فى بيت لرغيب بن قيس العنبرى رواه المرزبانى فى الموشح ص ٣٣ وغير ذلك .

(٧) انظر المفصل للزمخشرى (الباب ٩٦٥) وابن يعيش عليه .

من ذلك فقد احتفظت بعض النصوص الشعبية فى مثل هذه الأحوال بنطق أصلى واحد ؛ مثل استعمال موسى بن ميمون وغيره من المؤلفين اليهود باطراد : س ق ل ، بدلا من صقل ، المستعملة فى الفصحى[١] ؛ كما استعملوا الصاد بدلا من السين فى أحوال لم تتوفر فيها الشروط السالفة ، مثل : صُرْم: بدلا من سُرْم[٢] ؛ صَنَام بدلا من سَنَام[٣]. واللفظ الشعبى : مَصَالِح : القوات المرابطة على الحدود ، وكذلك مفرده وهو : مَصْلَحِىّ : الجندى المرابط على الحدود ، نشأ من ربط شعبى لغوى بين لفظ : مسلحة ، ولفظ : مصلحة[٤] أى مطلب أو منفعة . وعلى عكس ذلك سميت ضاحية بغداد : صَمَالُو [وسميت كذلك باسم أسرى الحرب من مدينة صمالو من أعمال قاليقلا ، وقد أنزلهم هارون الرشيد سنة ١٦٣ هـ بهذه الضاحية] وهى فى لسان العامة : سمالو[٥] وقد عارض النضر بن شميل (حوالى ١٢٣—٢٠٣ هـ) الرأى القائل بأن السين تقع أحياناً موقع الصاد[٦] ؛ على حين رُوِى عن الزجاج النحوى (المتوفى ٣٢١ هـ) المعروف بحرية رأيه فى الاشتقاق[٧] ، أنه كان يرى جواز إبدال كل من الحرفين بالآخر[٨] .

والطبيعة الحقيقية للعربية المولدة ، والفرق الخاص الذى يميزها تجاه العربية الفصحى ، إنما يقوم على تغير فى تكوينها بعد ترك التصرف الإعرابى

---

(١) Friedlaender, Der Sprachgebrauch der Maimonides 1,57
وانظر : اللهجة العربية فى عمان وزنجبار تأليف Reinhardt ص ٢٢٦ و : Vollers . ZDMG 49, 493

(٢) المثل السائر ص ١٠٧ .

(٣) جامع الألفاظ للفاسى ص ٤٧٣ ، وهناك أمثلة أخرى فى الكتاب السابق ذكره تأليف : G. Graf ص ٦

(٤) معجم البلدان ٢١٩/٣ وذكره المقدسى ص ٣١ بمعنى : رجال المكس على الحدود . وعبارته : صاحب ربع مصلحة ومسلحة .

(٥) البلاذرى ص ١٧٠ (اقرأ صمالو بدل ضمالو) ، كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ٦٧٠/٢ ؛ ٤١٦/٣ ، وانظر أيضا : Sachau, Vom Klosterbuch 9

(٦) نزهة الألباء ص ١١٥ ؛ درة الغواص ١٥ ؛ ابن خلكان ٧٢/٣.

(٧) انظر فى هذا : الموازنة لحمزة الإصفهانى ، كما ذكره ياقوت فى إرشاد الأريب ٥٥/١ المزهر ٢٠٦/١ .

(٨) شرح الدرة للخفاجى ص ٣٣ .

من أماراته الظاهرة . وبهذا نهجت العربية المولدة منهجاً اجتازته جميع اللغات السامية الأخرى قبل ذلك بكثير . وهذا لا يدل على أن ذلك التطور يرجع إلى أسباب عربية داخلية بحتة ؛ فإن الحقيقة الثابتة من أن التصرف الإعرابى عاش قروناً طويلة فى لغة البادية ، ولا يزال ماثلا فى بعض بقاياها إلى هذا اليوم ، تدل بوضوح على خلاف ذلك الاحتمال . بل أقرب من هذا أن نلتمس سبب هذه الظاهرة فى أن لهجات تلك الشعوب ، التى اتخذت لغة السادة العرب لسانا لها — نتيجة للفتوحات العربية — كانت من النوع التحليلى الذى ترك فيه الإعراب بالعلامات كثيراً أو قليلا . ومهما يكن من أمر ، فإنا نرى فى مصادرنا ، إلى جانب التعبير الخاطىء فى الأصوات العربية ، إهمال حالات الإعراب ، وتصريف الأفعال ، أمارة بارزة للغة العربية على لسان غير العرب من سكان الدولة جميعاً . وهذا لا يمنع أن العربية قد أخذت فى الأقاليم المتعددة صوراً مختلفة ، وأنها كانت فى المناطق الآرامية ذات جرس يختلف عنها فى فارس ، وفى مصر ، وغيرها من شمالى أفريقية . ولكن هذه الخصائص المحلية أمكن تفاديها ببعض قوالب التعبير الجديدة ، كان لها فى عربية الدولة ، وبعد ذلك فى العربية المولدة ، الوظائف النحوية التى كانت للإعراب فى العربية الفصحى . ومن قوالب التعبير المذكورة مثلا ، التجديد فى علاقات مواقع الكلمات ؛ إذ إن ترك الإعراب فى أواخر الكلم يجعل من المتعذر تمييز الفاعل (إلا إذا كان فى صورة ضمير يتميز بصيغته) فى آخر الجملة ، أو بعد المفعول ، فبدلا من ذلك يجد المفعول المباشر فى الجملة الفعلية مكانه الطبيعى بعد الفعل مباشرة ، على حين يتقدم الفاعل إلى مطلع الجملة قبل الفعل ، بينما يتميز المجرور — كما فى اللغة الفصيحة — بتقدم الاسم المضاف أو بحرف الجر . ويجوز وضع الفعل اللازم فى صدر الجملة ، كما يجوز أن يتبعه مفعول غير مباشر ، وتختم الجملة بالفاعل . وحتى فى الأفعال المتعدية لايوجد فى الترتيب القديم سبب للالتباس إذا كان المفعول ضميراً متصلا (مثل : أكلونى البراغيث) . وعلى الرغم من ذلك كثيراً ما يؤدى تقديم الفاعل إلى اضطراب فى الجملة القديمة ، بحيث لم يكن من النادر أن نجد منذ القرن الثالث خروجاً على الترتيب القديم حتى عند خيرة الكتاب فهذا هو ابن قتيبة مثلا ، نراه فى جمل مثل : فلان قال ، يضع الفاعل قبل الفعل

أحياناً دون قصر ولا تأكيد[1] . أما أن الوظيفة النحوية ، فى الإحساس اللغوى الحى ، قد صارت موقوفة على علاقات مواضع الكلمات ، لا على إعرابها إذا كان ذلك الإعراب موجوداً ، فهذا ما نراه من أن الخلط بين علامات الإعراب كان يعد طابعاً مميزاً لطريقة التعبير الشعبى . وهاهو ذا الجاحظ يذكر الأمثلة التالية نماذج للكلام الملحون[2] : ذهبتْ إلى أبو زيدْ (بدل : ذهبتُ إلى أبى زيدٍ) ورأيتْ أبو عمرو ، ومكره أخاكْ لابطلْ ، وإذا عَزْ أخاك فَهُنْ . وقد ظهر اختلاط علامات الإعراب إلى حد بعيد فى النصوص النصرانية العربية للقرن الثالث[3] فى مثل : لايستطيع أحداً ، أو : لايستطيعْ أحدٌ من الناس أمرٌ مثلُ هذا ؛ وفى المثنى وجمع المذكر السالم يغلب النصب والجر على الرفع تقريباً ، مثل : ويقومون البنين ، ومثل : يَدَيك خلقتانى ويداك (!) ضربتانى ، بدلا من : خلقتنى يداك وضربتنى يداك .

وقد أثر اختلاف ترتيب الكلمات فى علاقات المطابقة كذلك ؛ ففى اللغة الفصحى يقع الفعل فى الجملة الفعلية مفرد الصيغة ، ويطابق الفاعل التالى له ، بشروط معينة ، فى التذكير والتأنيث ؛ وفى الحالة النادرة — فقط — وهى تقدم الفاعل على الفعل ، يتطابقان أيضاً فى العدد . وعلى النقيض من ذلك فى العربية المولدة ، التى تميل إلى بدء الجملة الفعلية بالفعل ، لايندر تحقيق المطابقة الكاملة أيضاً إذا تقدم الفعل[4] كما يظهر ذلك فى الأمثلة السابقة .

وبانحلال الإعراب ، اضمحلت أيضاً الفروق التى كانت قائمة فى العربية الفصحى بين أحوال الإعراب الثلاثة للاسم ، وبين ماينصرف وما لا ينصرف . ويتجلى ذلك بوضوح فى أن صيغتى المثنى وجمع المذكر السالم فى حالة الإطلاق قد غلبت على صيغتيهما فى حالة الإضافة . وقد وجدت قديماً فى النصوص النصرانية

---

(١) انظر مثلا : عيون الأخبار ١/١١ س ١٥ ص ٢٣ س ١٤ ص ٢٥ س ١٥ ص ٢٩ س ١٦ وغير ذلك ، وإن كان الترتيب الطبيعى هو السائد عنده .

(٢) بيان الجاحظ ١/٦٨ ، وانظر فى المثلين المذكورين الميدانى (١٣٤٢ هـ) ٢/٢٤٤ ، ١/٢٠

(٣) أخذت الأمثلة التالية من مجموعة فى كتاب : G.Graf, Der Sprachgebrauch der ältesten christlich - arabischen Lieratur S 22 ff.

(٤) توجد أمثلة أخرى فى الكتاب المذكور ص ٣٥

العربية صيغ متفرقة مثل : مدبرين الأرض ، أو : سامعين الناموس (هذا إلى جانب التعبير الصحيح : عاملى الناموس[١]) وهو تعبير أصبح سائداً فى اللهجات الحديثة[٢] . والتنوين ، من حيث إنه علامة على التنكير ، لا يزال ماثلا فى بعض البقايا فقط ، لاسيما فى العبارات الظرفية التى حصل فيها توسع كبير ، مثل : أوّلاً ؛ أما فيما عدا ذلك فإن الاسم بطبيعته منكر ، ما لم يكن علماً ، أو منادى ، أو معيناً بالإضافة إلى اسم ظاهر أو مضمر ، على حين يعبر عن التعريف بواسطة الأداة ، بصورة أوسع من العربية القديمة ؛ إذ تدخل أداة التعريف الآن على ألفاظ : كل وبعض وغير[٣] ، فى مثل : (الحيوانات) الغير ناطقة[٤] ، وفى التراكيب العددية ، مثل : الثلاثة[٥] الأثواب ، أو ، : الاثنى عشر . وكان أيضاً من أثر ترك الإعراب فى أواخر الكلمات أن قامت وسائل أخرى مقام الإعراب ، فى حالة ماإذا لم يكف الترتيب الوضعى للكلمات فى ذلك ، فإدخال لام الجر على المفعول به[٦] ، بصورة مقصورة على أحوال خاصة فى اللغة الفصحى ، قد لجأت إليه أقدم النصوص النصرانية العربية فى سورية وفلسطين ، بوجه خاص ، إذا تقدم المفعول على الفعل ، أو لم يجيء عقبه مباشرة ، نحو : وَلِيَ لم يعرفوا[٧] وكذلك يمكن أن يجر المضاف إليه — كما فى العربية القديمة[٨] — بحروف

---

(١) G. Graf فى الكتاب السابق ص ٢٥ ، وانظر أيضا بحث : A. Müller فى دراسة النصوص والاستعمال اللغوى لكتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة : SMA 1884 S. 892 (Sitzungsberichte d. Beyer. Akademie d. Wissenschaften, München)

(٢) انظر مثلا قواعد العامية المصرية تأليف : شبتابلك ، ص ١٤٩

(٣) فى كل وبعض انظر ص ٦٨ من هذا الكتاب ؛ والغير ينقده الحريرى فى درة الغواص ص ٤٣ ؛ وقد استعمله الدينورى فى المجالسة (كما ذكره ابن حجر فى لسان الميزان ١٣٩/٦) فى عبارة : من مالى أو من مال الغير .

(٤) ابن أبى أصيبعة ٦٩/١ ؛ A. Müller فى الكتاب السالف من ٩٢٠

(٥) عابه الحريرى فى درة الغراص ص ٩٤ . وليس هذا التركيب بدلا وإنما هو قياس على التعبير المنكر : « ثلاثة الأثواب » وهو تركيب إضافى كما يتضح من ضبط اللغويين العرب له (شبيتالر) .

(٦) انظر : A. Fischer. Die Aufloesung der akkusativ rektion des transitiven Verbes durch li, BVSGW 62 1910,S. 161 - 188

(٧) G. Graf فى الكتاب السالف ص ٤٢ .

(٨) انظر : Reckendorf Arab. Syntax الفقرة ١٣٧/٣

الجر ، وعلى الأخص بحرف الجر : من .

والانتقال من النوع اللغوى التركيبى ، إلى النوع التحليلى ، يتجلى فى الفعل فى العربية المولدة ، فصيغ المضارع ، قبل كل شىء تتحد كلها فى النصوص النصرانية العربية القديمة[١] . وفعل الدعاء اختفى بالكلية تقريباً فى الجمل الأصلية ، وصار يعبر عنه (كفعل الأمر فى بعض الأحيان) بالفعل الخبرى الواقعى المشير إلى التأدب فى الخطاب فى نفس الوقت ، حيث يفهم طابعه الطلبى من سياق الكلام[٢] . كذلك تلعب صيغ الفعل فى الجملة الفرعية دوراً فاقد الأهمية ؛ إذ زال الفرق بين الجمل الخبرية ؛ والجمل الإنشائية ، ونشأت — من جانب آخر — عبارات كثيرة جديدة يستعان بها على تصوير الأزمنة المختلفة لمعانى الحدث الفعلى ؛ فالمستقبل مثلا كثيراً مايعبر عما يقع فيه من أحداث لازمة بلفظ : عتيدٌ أن ، على حين تؤْثر الترجمة العربية للإنجيل التعبير بلفظ : مزمع أن ؛ ؛ إذا لم تعبر عن ذلك بلفظ : شانه (شأنه) أن[٣] . أما معانى الإرادة والرغبة ، والإمكان ، والاستطاعة ، والتكليف ، والوجوب ، فإنها يعبر عنها بشتى العبارات ، فيعبر (على بن سليمان) الفاسى القارى[٤] فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، عن معنى الإمكان بالألفاظ : جاز ، احتمل ، استطاع ، مع المضارع . وعن معنى الإرادة بالألفاظ : أراد ، طلب ، اشتهى ، مع المضارع ، وغير ذلك ، على حين يعبر عن الضرورى بلفظ : وجب ومضارعه . وفى النصوص النصرانية يوجد — إلى جانب أراد مع المضارع : وافقه ، سَرَّه ، كلاهما للتعبير عن الرغبة . ولفظ : كان مع المضارع يستعمل فى كثير من النصوص النصرانية للتعبير عن التكليف والإيجاب ؛ والتعبير : رجع وفعل ، بمعنى فعل ثانياً ؛ عاد وفعل ، بمعنى كرر الفعل ، على حين أن : عاد ، فى حالة النفى ، تفيد أنه لم يفعل بعد . واحتفظت الجملة

---

(١) G. Graf فى الكتاب السالف ص ٣٠ .

(٢) A.Müller فى الكتاب السابق ص ٩٠٦ ؛ وينقد الحريرى هذا النوع من التعبير فى درة الغواص ص ١١٦ وانظر : Fleischer, Beitraege 8

(٣) كل هذه الأمثلة فى المراجع الألمانية المذكورة .

(٤) انظر : شرح سفر التكوين ص ١٤٨ نشر : Skoss

الشرطية ، من بين الجمل الفرعية بصورتها القديمة ، على حين اختفت الجمل الحالية ، التى لم تعد تتميز عن الجمل الأصلية بعد تقديم الفاعل فى مطلع الكلام ، وحل محلها جمل مقيدة للزمن تربطها روابط حرفية أو اسمية مختلفة. ويستعمل مترجم الإنجيل : من حيث ، بمعنى : فى حالة . وفى حياة القديسين فى القرن الثالث ، كثر استعمال : فيما ، بمعنى : بينما ؛ وإلى هذا يضاف الاستعمال الثالث : عندما ؛ ولإفادة معنى السببية يوجد لفظ : بأن ، وفى معنى : منذ: من حين ، وبدلا من حتى : إلى حين ؛ كما أن اسم الموصول (الذى) تحول أخيراً إلى الصيغة الجامدة فى جميع الأحوال ، وهى : اللّى ؛ وكانت نتيجة ذلك كثرة مخالفة جملة الصلة لقواعد المطابقة المعتمدة فى اللغة الفصحى ، فى نصوص كُتّاب النصارى واليهود[١].

ومهما اختلفت الأمثلة التى ذكرناها حتى الآن فى تفصيلها ، فإنها تشترك جميعاً فى أنه عوضاً عن نظام التصريف الكامل النمو مع قواعد إعرابه وتصريفه، جدّت حالة لغوية بسّط فيها التصريف ، وصوّرت فيها علاقات التركيب بين الألفاظ المؤلفة لجملة واحدة — فى أغلب الأحوال — بوساطة وسائل ظاهرية ، مثل مواقع الكلمات، وترتيبها، والاستعانة على تغييرات الحدث بالجمل الموضحة ، وتعديل الجمل ، وكثرة المترادفات .

هذا وإن ترك التصرف الإعرابى والخلط بين علامات الإعراب ، وعدم التفريق بين صيغ الأفعال ، لم يكن هوالسبب فى هذا التطور اللغوى، وإنما هو من عوارضه وظواهره التى لفتت — من قبل — أنظار أقدم علماء المسلمين بصورة قوية ، بحيث تحمل ملاحظاتهم فى هذا السبيل على اعتقاد أن طريقة التعبير الشعبى إنما ترجع إلى مخالفة الإعراب فحسب . أما أن هذا النوع من الملاحظة الشديدة الصلة بالقواعد النحوية ، وبمبدأ تنقية اللغة الناشىء عنها ، هو ذو صفحة واحدة فقط ، فهذا ما تدل عليه النصوص النصرانية العربية ، أو اليهودية العربية ، التى ترجع قيمتها من الوجهة اللغوية التاريخية، إلى أنها تعين على متابعة اللهجات الشعبية الحديثة حتى ظهور الأسلوب االتحليلى للغة ، فى وقت كانت الآداب العربيـة ، المكتوبة بأقلام المؤلفين المسلمين ، لاتزال فى أسلوبها اللغوى ، مليئة بالمثل العليا للعربية الفصحى .

---

(١) كل هذه الأمثلة وغيرها توجد فى كتاب G. Graf السابق ذكره .

(٦)

العلاقات اللغوية فى عصر المـأمون

وعقيدة الاعتزال الرسمية

١٩٨/٨١٣ – ٢٣٥/٨٥٠

ذلك الازدهار العظيم الذى سطع نوره مع حكم هارون ، استمر مطرداً فى ظل الخلفاء الثلاثة الذين توالوا من بعده ؛ بل لقد ظل منشور الأعلام حتى أواسط القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى .

وعلى الرغم من أن اضمحلال السلطان فى الجانب الغربى للدولة ، الذى بدأ فى عصر هارون ، قد بقى متواصلا فى ظل المأمون (حكم ١٩٨/٨١٣ – ٢١٨ - ٨٣٣) وامتد إلى مناطق فارس العظيمة الأهمية من ناحية الخراج والضرائب ؛ فقد نهضت الحياة الثقافية على عهد المأمون بوجه خاص فى مختلف النواحى من الشعر ، وعلوم اللغة ، والدين ، والكلام، وتعاطى الثقافة الهلّينية الشرقية ، نهضة تسوّغ تسمية هذه المرحلة: العصر الذهبى للأدب العربى .

أما أننا أوسع دراية – إلى حد كبير – بالعلاقات اللغوية لأواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، والنصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بالقياس إلى الأزمنة المتقدمة على ذلك ، فهذا مانحن مدينون به – قبل كل شىء – لكتب الجاحظ (حوالى ١٦٥ – ٢٥٥ هـ) . هذا الأديب المنتمى إلى البصرة ، والناشىء فى مدرسة الاعتزال بهذه المدينة ، وَجّه ملاحظته القوية، وملكة انتباهه الراسخة ، فى أسلوبه الخصيب الأفكار المتعدد النواحى ، إلى شتى الظواهر فى الحياة اللغوية : وأفاض الكلام عن ذلك فى بحوثه وكتبه التى صنفها فى مختلف الموضوعات ، ولاسيما كتابه عن الفصاحة والبلاغة : كتاب البيان والتبيين[١] .

---

(١) يعتمد المؤلف على النسخة المطبوعة بالقاهرة فى جزأين ١٣١١ هـ .

والجاحظ ينتبه أيضاً إلى لغة الأطفال، مثل : واوّاو بمعنى « كلب »[١] وماما بمعنى : شاة أو خروف[٢]؛ وهو يحكى أن النبطى المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة ، وإن تكلم العربية المعروفة ، وكان لفظه متخيراً ، ومعناه شريفاً ، يعرف السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطى . وكذلك إذا تكلم الخراسانى ، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز ، فإنك تعرفه ، مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه . ويستطيع الحاكية من الناس أن يحكى نطق الأهوازى والخراسانى والزنجى والسندى حتى تجده كأنه أطبع منه[٣] . والنبطى القُحّ يجعل الزاى سيناً والعين همزة[٤] ؛ والصقلبى يجعل الذال المعجمة دالا[٥] ؛ والهندى يجعل الجيم زاياً[٦] . وقد كان خلط الأصوات على هذا المنوال معيناً لاينضب للتسلية والفكاهة. ويحكى الجاحظ متندّراً، كثيراً من القصص عن التغييرات الفكاهية التى كانت تنشأ من ذلك[٧] . كما يتنبه الجاحظ أيضاً إلى ازدواج اللغات ؛ فالعربية والفارسية تختلفان ، فإذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ؛ وقد استثنى من ذلك أحد القصاص ، وهو موسى بن سيار الأسوارى ، الذى يصفه بأنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيجلس العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية ، من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين[٨]. وذكر الجاحظ أمثلة لاستعمال الكلمات والعبارات الفارسية فى الشعر العربى ؛ فهذا شاعر يتحدث عن : الكافِرْ كُوبات ،وهى آلة من آلات الحرب أشبه

---

(١) بيان الجاحظ ١/٢٩ . (عن هيثم بن على المتوفى ٢٠٧ هـ) .
(٢) حيوان الجاحظ ٥/٨٩ .
(٣) بيان الجاحظ ١/٣١ .
(٤) بيان الجاحظ ١/٣٢ .
(٥) بيان الجاحظ ١/٣٣
(٦) بيان الجاحظ ١/٣٢ ؛ ويؤخذ مما ذكره فى ١/٣٣ س ٨ أن الهندى يجعل الجيم ذالا ، والشين سيناً أيضاً .
(٧) بيان الجاحظ ٢/٢
(٨) بيان الجاحظ ١/١٣٩ ، وانظر : Goldziher, Muh. Studien, 162

بالمرزبّة، فى أيدى رجال ليست لغتهم لغته[١]. ولا يقتصر العُمانى الشاعر فى مدحته لهارون الرشيد على استعمال لفظ : كَرْد ، بمعنى عنق من اللفظ الفارسى كَرْدَن[٢] ، بل يقول زيادة على ذلك :

آلى يذوق الدهرَ آبَ سَرْدِ

أى حلف لايشرب الماء البارد أبداً[٣]. ومن الخليط اللغوى — بمعنى الكلمة — قصيدة للأسود بن أبى كريمة ، اختلطت فيها الجمل العربية بالفارسية[٤] ، فإذا قرنا بهذه الأمثلة ، الجملة الفارسية التى ذكرها الجاحظ فى كتاب البخلاء[٥] ، تجلى لنا بوضوح أن الجاحظ كان يفهم الفارسية . وعلى الرغم من ذلك لم يعن الجاحظ باللغات الأجنبية لذاتها [نشأ الاهتمام باللغات الأجنبية لذاتها فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ؛ ففى ذلك القرن ألف ابن الجراح المتوفى ٣٩١ هـ أول كتاب نعرفه فى اللغة الفارسية[٦]]وإنما اقتصر الجاحظ على ملاحظة أن كثيراً من أصوات اللغات الأجنبية ، وعلى الأخص لهجة خوزستان ، لايصوره الخط العربى ، وأن على سواحل البحر من أسياف فارس ناساً كثيراً كلامهم شبيه بالصفير[٧]. ويكرر فى موضع آخر حكاية عن شاهد عيان يصف مجتمعاً من الزنوج قام خطيبهم على ماعلا من الأرض وتكلم ،وهو يشبّه حوارهم بالدمدمة والهمهمة[٨]. ومن ناحية أخرى يوجه الجاحظ عناية فائقة إلى الأخطاء الخاصة فى التعبير ، مثل لثغة اللسان ،

---

(١) بيان الجاحظ ١/٦١ ، وفى معنى : كافركوبات ، انظر تفسير الطبرى ، فى فهرست الألفاظ اللغوية .

(٢) ورد لفظ : كرد فى بيت يذكر كثيراً وهو للفرزدق مشهور ، ديوان ص ٢١٠ ؛ انظر : أدب الكاتب ص ٥٢٧ ؛ الاقتضاب ص ٤١٨ ؛ ويستفاد من استعمال هذا اللفظ على هذه الصورة أن من أخذه ، ظن أن النون فى آخر الكلمة : كردن ، مثل التنوين فى العربية .

(٣) بيان الجاحظ ١/٦١ س ١٠ .

(٤) بيان الجاحظ ١/٦١ س ١٩ — ٢٣ ، ويوجد مثال آخر فى معرب الجواليقى ص ٩ ، ٧٩ ؛ ٩٥ وانظر كذلك مجلة : ZDMG. 33, 213 Anm. 2

(٥) ص ٢٤ س ١٧ مع ملاحظات فان فلوتن .

(٦) الفهرست ص ٨٦ س ١٤ .

(٧) بيان الجاحظ ١/١٦ س ٢٦ .

(٨) الفهرست ص ٢٨ .

ولكنته وما شابه ذلك من عجز عن تصحيح مخارج الحروف ؛ ويذكر أبيات أبى رمادة الذى طلق زوجته خشية أن تجيئه بولد ألثغ [١] . وكثيراً ما تبدل السين ثاء ، والراء غيناً [٢] ، ويلى ذلك إبدال الراء ظاء ، ثم ذالا ، وأسوأ الوجوه إبدالها ياء [٣] . وينطق بعض الناس بدلا من اللام ياء ، وآخرون كافاً [٤] . كما أن بعض الناس لايستطيع نطق القاف فينطق بدلها طاء [٥] . ومثالا لاجتماع لثغتين ذكر الجاحظ شوشى صاحب عبد الله ابن خالد الأموى ، إذ كان يجعل كلا من اللام والراء ياء [٦] . وعقد الجاحظ فصلا طويلا [٧] خاصاً بمؤسس مذهب الاعتزال : واصل بن عطاء ، الذى كان لايحسن نطق الراء ، فكان يتجنب فى مهارة وحذق جميع الكلمات التى تشتمل عليها .

ويعالج الجاحظ أسماء عيوب اللسان : فالتمتام هو الذى يتتعتع لسانه فى التاء والفأفاء الذى يتتعتع لسانه فى الفاء [٨] . واللّفّة ، ومصدرها اللّفَف ، والوصف :

---

(١) بيان الجاحظ ٢٦/١ س ١٥ ؛ عيون الأخبار ٤ ص ٧ ، وذكر : زياد ، بدلا من ابى رمادة ؛ ؛ وفى استحسان اللثغة الخفيفة واستملاحها انظر البيان ٦٢/١س ٢٦ ، طبقات ابن سلام ص ١٩ س ١٨ ؛ نقد الشعر ص ٦٩ ؛ الأغانى ١٨ / ١٩٢ ؛ وانظر الرمادى فى ابن خلكان ٥٣٥/٣ ، وانظر : Mez ص ٣٣٨

(٢) بيان الجاحظ ٨/٢ س ١٣ ، وكان ينطق الغين بدلا من الراء ، ابن السراج النحوى المتوفى ٣١٦ هـ كما ذكر ذلك ابن خلكان ٣١٩/٢ . وفى تاريخ بغداد ١١٩/١٢ رواية عن كيفية علاج ابن المنجم من لثغة كانت بلسانه ، ومنها يستفاد أن اللثغة هى تعويض صوت بصوت آخر . فقد كان شعبة مثلا ينطق الثاء بدلا من التاء ؛ انظر سنن أبى داود ١٩٤/٢ (طبع ١٣٤٥هـ)

(٣) بيان الجاحظ ١٧/١ س ٦ — ١٩ .

(٤) فى الموضع السالف س ٣ .

(٥) بيان الجاحظ ١٧/١ س ١ — ٣ ، وأشهر الأمثلة لذلك يقدمه العلوى إبراهيم بن إسماعيل الذى سمى بسبب هذه اللثغة : طباطبا . انظر ابن خلكان ٧٠/١ فى ترجمة حفيده أبى القاسم ابن طباطبا أمير العلويين فى مصر المتوفى ٣٤٥ هـ .

(٦) بيان الجاحظ ١٧/١ س ٢٣ ، ويقدم مثالا آخر لاجتماع لثغتين ، ابن أبى البغل الذى كان يجعل الراء غينا والكاف همزة ، والذى عمل لأجله أبو الحسن بن طباطبا ، المتوفى ٣٢٢ هـ قصيدة لاتحتوى على الراء ولا الكاف . انظر : إرشاد الأريب ٢٨٥/٦ — ٢٨٩ .

(٧) بيان الجاحظ ٨/١ س ١٦ .

(٨) بيان الجاحظ ١٨/١ س ١٢ — ٢٠ ؛ انظر الكامل للمبرد ص ٣٦٣ س ١ — ٦ ، ٣٦٤ س ٢ ؛ رؤبة ص ٥٥ ؛ إرشاد الأدريب ٧٧/١ ؛ الأغانى ٤١٢/١ ، طبع دار الكتب .

السَّفّ ، هي أن يدخل الرجل بعض كلامه في بعض [١] . كما يسوق أيضاً ؛ شاهداً على الجلجة [٢] ويذكر أن الحُبسة هي ثقل الكلام على اللسان [٣] ، وقد استعمل القرآن لفظ : عُقدة ، في معنى قريب من هذا ، في آية سورة طه ٢٠/٢٧ ، أي في الحبسة التي كان يقاسيها موسى في نطقه [٤]. ويحدد الجاحظ : اللكنة ، بأن يدخل الرجل بعض حروف العجم في حروف العرب وتجذب لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول ، أي التغيير الذي يطرأ على الأصوات العربية في لسان غير عربي [٥] ؛ وهي على ذلك تتحد أحياناً مع اللثغة أي إبدال حرف عربي بحرف آخر . والنحنحة والسعلة من لوازم العجز في البيان [٦] ؛ وأخيراً الحكلة ، وهي نقصان آلة المنطق ، وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانية إلا بالاستدلال ؛ أو بعبارة أخرى هي كلام الإنسان في خفوت لا يبين ؛ وهي كذلك كلام الحيوانات العجماء دون صوت ، مثل النملة التي فهم سليمان كلامها ، كما جاء في القرآن [٧] . وقد استهل الجاحظ كلامه عن البيان والبلاغة بتفصيل أحوال العجز عن التعبير : العي [٨] . وفي مكان آخر يسوق جملا عسيرة النطق ليحقق تعويد اللسان على الذرابة والمرونة ، مثل البيت :

وقبرُ حرب بمكان قفر ... وليس قربَ قبرِ حرب قبرُ

الذي لا يستطيع أحد أن ينشده ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج [٩] . وهو يتكلم عن أن بعض أنواع من الربط بين الأصوات

---

(١) بيان الجاحظ ١/٢٠ عن أبي عبيدة ، والكامل في الموضع السابق .

(٢) بيان الجاحظ ١/١٩ ، وذكر ابن دريد في الاشتقاق ص ٢٣٩ س ١٦ ، لفظ اللجلاج ، لقباً على بعض الناس .

(٣) بيان الجاحظ ١/١٩ س ٥ .

(٤) بيان الجاحظ ١/١٨ س ٣ — ١٢ .

(٥) بيان الجاحظ ١/١٩ ، ٣٣ ، ٦٩ ، ويوجد مثال لذلك في الأغاني ١٣/١٥٨ .

(٦) بيان الجاحظ ١/١٩ .

(٧) بيان الجاحظ ١/١٩ ؛ الحيوان ٤/٣ ، ٧ .

٨ بيان الجاحظ ١/٢-٤

(٩) بيان الجاحظ ١/٢٩ ؛ المسعودي (١٣٤٦ هـ) ١/٣٣٠ ؛ الدميري (١٣٤٨هـ) ٢/٢٥٢ ؛ وقد اعتمد علماء البلاغة في عصر متأخر على هذا الشعر للاستشهاد به على تنافر الحروف . وهو مشهور . وانظر المستطرف للإبشيهي (١٣٥٢ هـ) ١/٤٠ .

لا ترد فى العربية[١] ، وهى ظاهرة يسميها علماء القواعد بالتنافر ، ويتخذونها وسيلة للتعرف بها على الألفاظ الأجنبية[٢].

ومن النفاسة بمكان ، ماذكره الجاحظ عن اللهجات ، واللغات الخاصة ، وألسنة الحرف والمهن . فهو يبين أن كل مصر يتكلم على لغة من نزل به من العرب[٣] ، ويذكر أمثلة لفرق مابين مكة والبصرة فى الاستعمال اللغوى . وفى كتابه : البخلاء ، يسوق الجاحظ وصفاً حياً للدوائر الأدبية فى البصرة ، حوالى سنة ٢٠٠ ه ؛ كما يعرض صورة ، غاية فى الدقة من الوجهة اللغوية ، لأسلوب المحادثة بالبصرة فى ذلك العهد[٤] . ويعطينا هذا الكتاب نفسه ، فى الفصل الذى عقده لرئيس طائفة المتسولين بالبصرة : خالد بن يزيد ، المعروف بخالويه[٥] ، نظرة فى رموز المحتالين[٦] ؛ فكلمة : مُخَطْرانى ، تعبر عن المحتال الذى يوهم أنه مؤذن من خراسان ، ويتظاهر بأن بابك أمر بقطع لسانه[٧] . وفى موضع آخر يسوق خطبة[٨] فى أدب المائدة ، ويعلق عليها بشرح عدد من التعبيرات التى يعبر بها عن مختلف العادات السيئة عند الأكل . وقد يستطرد أيضاً بذكر بعض القصص عن الملاّحين ، مع ذكر تعبيرات من لغة مهنتهم[٩] ؛ كما يتفكه بالطبيب الذى يعبر عن الأمور

---

(١) بيان الجاحظ ١/٣١ س ٦ .

(٢) المزهر (١٣٢٥ ه) ١/١٦٠ ؛ وانظر ابن دريد فى :
A. Siddiqi, The Allahabad University Studies, vol. VI Arts' Section (1930) 677

(٣) بيان الجاحظ ١ ص ٩ س ٢١ .

(٤) انظر : فان فلوتن فى مقدمته لهذا الكتاب ص ٣ .

(٥) انظر ص ٤٧ — ٥٦ (فان فلوتن) .

(٦) هناك قائمة مماثلة فى المحاسن للبيهقى ٦٢٤ — ٦٢٧ وانظر فى ذلك : Schwally, ZA 27, 28 - 42 وسيأتى الحديث عن قصيدة أبى دلف الخزرجى .

(٧) ص ٥٤ من الكتاب المذكور ؛ وبعد ذلك بمائتى عام ، وضع أولئك المحتالون الروم موضع بابك ؛ انظر اليتيمة ٣/١٧٨ فى تفسير كلمة : مخطر ، أسفل الصحيفة .

(٨) ص ٧١ مع ملاحظات فان فلوتن .

(٩) بيان الجاحظ ١/٢١٢ س ١٢ — ١٧ ، وتوجد بعض تعبيرات الملاحين أيضاً فى حكاية أبى القاسم ١٠٧ Mez ؛ وفى المستطرف (١٣٥٢ه) ٢/٢٤٥ .

المعتادة بمصطلحات فنية ، ويسمى البحح المصحوب بالمخاط ، باللفظ اليونانى الدخيل : بلغم [١] .

وعظيم الفائدة — بوجه خاص — ماذكره الجاحظ عن : الإعراب . فهو يعد من أجل المتع أن يستمع المرء إلى حديث الأعراب الفصحاء العقلاء أو إلى محاضرة العلماء البلغاء [٢] . ويحث على رواية نوادر الأعراب مع إعرابها ومخارج ألفاظها [٣] . وهذا يدل على أن الإعراب فى عصره كان لايزال حياً على ألسنة البدو الخلص . وعلى النقيض من ذلك ، ينعت بمخالفة الأسلوب ، ومسخ الصورة حكاية نوادر العوام ، وملح الحشوة والطغام ، بالإعراب الكامل ، والألفاظ المتخيرة [٤] ؛ إذ إن هؤلاء الطغام من التجار وسواد الشعب ينطقون عربية حافلة باللحن ؛ وعنهم يأخذ الأجانب كالأنباط والفرس ؛ والأعرابى القح لايفهم هذه الرطانة ؛ ومتى وجد النحاة أعرابياً يفهمها بهرجوه ولم يسمعوا منه ؛ لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة ، وتنقص البيان [٥] . ويذكر الجاحظ أن أن أسوأ اللحن هو لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة ، وبقرب مجامع الأسواق [٦] . ويقول الجاحظ إن أول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتى ، بدلا من : عصاى ؛ على حين أن أول لحن ظهر بالعراق هو ماقيل فى الأذان : حَيٌّ على الفلاح [٧] . ويسوق الجاحظ — فى باب خاص — مجموعة كبيرة

---

(١) بيان الجاحظ ٢/٤ س ٢٣ ؛ وتختلف عن ذلك رواية كتاب المحاسن والأضداد ص٩ (فان فلوتن) الذى نسب — دون حق — إلى الجاحظ .

(٢) بيان الجاحظ ١/٦٢ س ٥ — ٨ .

(٣) بيان الجاحظ ١/٦٢ س ١٤ .

(٤) بيان الجاحظ ١/٦٢ س ١٦ — ١٩ ؛ الحيوان ٣/١٢ . وبنفس الطريقة يعلل كذلك ابن قتيبة فى عيون الأخبار (نشر بروكلمان ٩/٧) لترك الإعراب والهمز عند حكاية مثل هذه النوادر . وانظر كذلك مذهب قدامة بن جعفر فى أول الباب الثامن من هذا الكتاب (شبيتالر) .

(٥) بيان الجاحظ ١/٦٧ فما بعدها .

(٦) بيان الجاحظ ١/٦٢ س ٢١ .

(٧) بيان الجاحظ ٢/٥ س ٤ ؛ واللحن فى كسر الياء والصواب الفتح .

من اللحن المختلف الأنواع[١] . وكون هذه الأنواع خليطاً يشتمل على شتى الألوان والأحوال ، من تعسر مخارج الحروف ، إلى المخالفات الشنيعة لقواعد النحو والتصريف ، إلى التساهل فى اختيار الألفاظ ، إلى الخروج على الأساليب ، لا يغير كثيراً مما قلناه ، لأنه ، حتى إذا أمكن ترتيب استطراداته ، التى قصد بها إلى جلب انتباه القارىء ، على أى صورة من الترتيب ، فإن جميع ملاحظاته[٢] تدل عموماً على أنه قسمها – متأثراً بروح عصره تأثراً سطحياً بحتاً – حسب الفروق التى كانت قائمة بين الأسلوب الصحيح والأسلوب الخاطىء فى صورة الكتابة .

وإلى جانب الطبقات المحلية، والاجتماعية ، وجدت طبقة أخرى أبرز الجاحظ ذكر خصائصها اللغوية فى مواضع مختلفة ؛ إنهم أولئك الذين يولعون بالتنوق والمبالغة فى مضاهاة كلام البدو باستعمال لغة متصنعة مستكرهة ؛ وهذا الشذوذ يطلق عليه الجاحظ اصطلاحات فنية كثيرة ، يفهم منها أنها راجعة إلى نوع من التعبير الجهير المفخم الحافل بحروف الحلق . فالتقعير نوع من التعبير كأنما يستخرج من قعر بئر[٣] ؛ والتقعيب ، الذى يكاد يكون مرادفاً له ، نوع من التعبير يأخذ فيه الفم صورة القعب[٤] والتفخيم يصور تأكيد التعبير والتنصيص عليه ؛ وكلتا التشدق والتشادق، مأخوذتان من كلمة : شدق ، بمعنى زاوية الفم، ومعناهما التكلم مع اتساع زاوية الفم، وكانا يستعملان فى الأصل تعبيراً متعارفاً ، على سبيل المجاز ، عن البلاغة ، دون معنى آخر من العيوب[٥] ، ولكنه نقل بعد ذلك إلى التصنع فى الكلام الذى يحتمل من الأعراب وحدهم[٦] . وقد نسب إلى الرسول [صلى الله عليه وسلم] تنبؤه بأن الثرثارين المتشدقين المتفيهقين أبعد الناس مجالس منه

(١) بيان الجاحظ ٢/٢ – ٥ .

(٢) انظر إرشاد الأريب ١/٢١ .

(٣) انظر لقعر البئر Bräunlich, Well 43

(٤) ساق الجاحظ شواهد من الشعر على ذلك ، فى البيان ٢/٤ س ١٤ – ١٦ .

(٥) بيان الجاحظ ١/٥٢ ص ٣ – ١٤ .

(٦) بيان الجاحظ ١/٢١ س ١٠ ص ١٠٧ س ٨ ؛ انظر أيضاً Dozy فى المادة .

يوم القيامة[١] ، كما نسب إليه : إياى والتشادق . وقد ذكر الجاحظ كلتا الروايتين فيما اختاره من أحاديث الرسول [صلى الله عليه وسلم][٢] ، وساق مثلا لهذا (التشادق) الرسالة المشهورة التى يقال إن يحيى بن يعمر كتبها على لسان يزيد بن المهلب إلى الحجاج ، والتى تشتمل على الكلمه الشعرية العالية : عُرْعُرة ، أى ذروة الجبل ، وحضيض ، أى سفح الجبل ، وغير ذلك من غريب ألفاظ البدو ؛ كما ذكر قولا عجيباً ليحيى بن يعمر ، إذ حكم بين رجل وامرأته[٣] . بيد أن النموذج الحق لهذا الأسلوب المتقعر هو شخصية الأسطورة المشهورة عن أبى علقمة[٤] ، الذى لم يصل إلينا شىء ثابت عن أطوار حياته . وقد اقترنت باسمه حكايات جمة ، جمعت فى وقت متأخر فى كتاب خاص[٥] . وفيها يذكر — عادة — كيف أنه كان يعبر بعبارات طنّانة عن شئون مبتذلة تافهة ، على حين يكون المخاطب غالباً رجلا بسيطاً ساذجاً من سواد الشعب ، لايكاد يفهم مما يقول شيئاً ؛ فإذا كان كان المخاطب رجلا ماكراً ذا ثقافة ، رد عليه بمثل ما أعطاه[٦] ؛ ومن هذا المحصول الكثير التداول أخذ الجاحظ قصتين فى كتابه : البيان[٧] .

على أنه لم يكن مجرد اختيار كلمات الأعراب الغريبة هو الذى كان

---

(١) الترمذى فى كتاب البر ، والمواضع المختلفة فى :

Wensinck. Concordance I, 290

وفى : أدب الكاتب ص ١٥ ؛ الكامل ص ٣ ؛ أمالى القالى ٢/٢٩٥ ؛ تاريخ بغداد ٤/٦٣ ؛ المجازات النبوية للرضى ص ١١٨ ؛ كنز العمال ٢/١١٤ .

(٢) بيان الجاحظ ١/١٥٩ فما بعدها . وانظر المجازات النبوية للشريف الرضى (بغداد ١٣٢٨هـ) والمجتنى لابن دريد ١٢ — ٢٧ ، وكذلك A. Fischer, ZDMG 61, 433

(٣) بيان الجاحظ ١/١٤٢ س ٩ — ٢٢ ، وانظر : أدب الكاتب ص ١٤ ؛ الكامل ص ٤٤ ؛ نزهة الألباء ص ٢١ ؛ تاج العروس ٣/٦٢٤ .

(٤) انظر : إرشاد الأريب ٥/٧٢ — ٧٧ ؛ بغية الوعاة ص ٣٢٥ .

(٥) يسمى نوادر أبى علقمة : الفهرست ص ٤٣٥ .

(٦) انظر — زيادة على ياقوت فى الموضع السابق — عيون الأخبار ٢/١٦٢ ؛ ١٦٣ ؛ المحاسن والأضداد المنسوبة للجاحظ ص ١٤ ؛ العقد الفريد ١/٣١١ (١٣١٦ هـ) .

(٧) بيان الجاحظ ١/٢٤٢ فما بعدها . وأولى هاتين القصتين تروى كذلك عن عيسى بن عمر الثقفى المشهور بالتقعر أيضاً (انظر فى ذلك Fück, ZDMG 90 (1936) 629) فى وفيات الأعيان (القاهرة ١٣١٠ هـ) ١/٣٩٤ والمزهر (القاهرة ١٢٨٢ هـ) ١/٩٣ ولسان العرب (كأكأ) ١/١٣١ (شبيتالر).

يعطى لغة الحضريين مسحة من النفاسة وعلو القيمة فحسب ، بل لقد كان استعمال الإعراب والتصريف الكاملين — فى خارج المحيط العلمى — يعد كذلك تقعراً وتشدقاً ، على عهد الجاحظ . وهذا يفهم ضمناً من تنبيهه — الذى ذكر آنفاً — إلى ضرورة رواية نوادر الأعراب بالإعراب الكامل . بيد أنه يؤخذ نصاً من الكلمات التى يسوّغ بها طابع كتابه : البخلاء[1] ؛ حيث يذكر أنه تصنع اللحن ، وكون جملا مخالفة للنحو ، واستعمل صيغاً للكلمات على خلاف القواعد ، وتنازل عن الإعراب ، كل ذلك مناسبة للموضوع ، إلاإذا حكى كلاماً لسهل بن هارون البخيل المتشدد المتقعر ،أو أمثاله . وهو يصور مثلا البخيل : محمد بن أبى مؤمّل ، بأنه رجل صاحب تقعير وتفخيم وتشديق وهمز وجزم[2] .

وكلما ندرت اللغة الفصيحة — إذ ذاك — بين الطبقات المثقفة ، ازداد الاستياء من كل خروج لغوى على لسان أولئك الذين لم يعودوا متمكنين فى الحقيقة من العربية القديمة ، بل يتصنعونها فحسب[3] . وكثيراً ما سخر الناس من اللحن الذى حكاه الجاحظ[4] عن المتكلم : بشر بن غياث المريسى (المتوفى ٢١٨ هـ) أحد تلاميذ أبى يوسف ، حينما قال : [قضى الله لكم الحوايج] على أحسن الوجوه وأهنؤها ، بدلا من : وأهنئها ، حيث أخطأ فى حركة الإعراب ، وإن نطق الهمزة التى حذفت فعلا فى لغة الشعب : وقد حمل ذلك اللحن الشاعر الظريف : قاسم التمّار ، على إبداء الملاحظة الخبيثة من أنه قال هكذا وفاقاً لقول ابن هرمة فى همزيته المشهورة :

إن سُلَيمى والله يكلؤُها ضنّت بشيء ما كان يرزؤُها

والأشعار على قافية الهمزة — مالم تكن همزة الممدود — جد نادرة . والأمثلة القليلة من ذلك النوع ، تبدو فيها الصنعة كثيراً أو قليلا . وفى

---

(١) ص ٤٢ س ٦ — ١٠ (فان فلوتن) .
(٢) ص ١٠٢ س ١٢ .
(٣) بيان الجاحظ ١/٦٢ س ٢٠ .
(٤) بيان الجاحظ ٢/٣ ؛ عيون الأخبار ٢/١٥٧ ؛ المحاسن المنسوبة للجاحظ ص ٨ ؛ تاريخ بغداد ٧/٥٧ .

الفهرست ص ٢٤٢ س ١٢ (طبع الرحمانية) ، حيث عقد فصلا خاصاً للقصائد المهموزات ، ذكر مع قصيدة ابن هرمة[١] قصيدة همزية أخرى فقط لحفص الأموى[٢] ، أو على رواية أخرى لأبى صعصعة العامرى ، على رَوِىّ تلألأ. ويوجد من هذه القافية أيضاً قصيدتان لأبى حزام العكلى الذى لمع نجمه حوالى سنة ١٦٠ هـ ، قال إحداهما فى مدح وزير المهدى : معاوية بن عبيد الله الأشعرى ، على روى : مَحْجُؤَهْ ، وهى حافلة بالألفاظ القديمة المهجورة ، حتى يعدها النقاد المتأخرون مثالا مخيفاً للوحشى المتنافر من من الأساليب[٣] ؛ والثانية قصيدة لغوية تعليمية على روى : آؤُهْ [٤] ؛ وعدتها ٢٢ بيتاً ، تحتوى على ٨٠ كلمة مهموزة :

ومثال آخر يرينا كيف يُلْقِى رجال ، تهذّب إحساسهم اللغوى ، وزناً للدقائق أيضاً فى المسامرة والمحاورة . هاهو ذا على بن الجهم ، المتوفى سنة ٢٤٩ هـ ، أحد رجال حاشية المتوكل، يعتذر من تبكيره فى الانصراف عن جماعة كان يجالسها بالكلمات: إنه بلغنى شىء وأظننى مأزوراً فى قعودى : وبهذا خف فى نظر المبرد (٢١٠ — ٢٨٥ هـ) الذى كان حاضراً إذ ذاك ؛ لأن مأزوراً ، بدل : موزوراً ، أى آثماً ، إنما يجوز استعماله على سبيل الاتباع والمزاوجة للفظ : مأجور ، فحسب[٥] ؛ كما روى فيما نسب إلى الرسول [صلى الله عليه وسلم] أنه قال للنساء اللائى جلسن فى انتظار الجنازة : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » . فإذا استعمل وحده قيل : موزور ، فقط[٦].

---

(١) وتم على ميله للتفنن قصيدته : المعطلة ، أى التى لا تشتمل على حرف معجم ؛ انظر الأغانى ٤/١٠٦ .

(٢) انظر : إرشاد الأريب ٤/١١٥ .

(٣) نقد الشعر ص ٦٥ ، وذكره المرزبانى فى الموشح ص ٣٥٤ .

(٤) انظر :
W. Ahlwardt, Sammlungen alter arabiseher Dichter I S. 75 Nr. 1

(٥) انظر فى مثل هذا الاتباع : Brockelmann, Z. Sem. 5,6 ff وانظر أيضاً كتاب الأمثال لأبى عكرمة الضبى ٢٧ — ٢٩ بتحقيقنا (المترجم) .

(٦) ابن ماجه : باب ما جاء فى اتباع النساء الجنائز .

(٧) الموشح ص ٣٤٥ ؛ انظر أيضاً درة الغواص ، ص ٥٢ ؛ الشهاب الخفاجى على الدرة ص ٨٢ =

والصورة التى يرسمها الجاحظ للعلاقات اللغوية فى عصره ، يمكن إكمال بعض خطوطها المتفرقة ، بوساطة روايات أخرى وصلت إلينا . فكون لغة الأعراب لم تزل بعدُ — كما كانت من قبل — تعد النموذج الذى لا يُدْرَك لكمال الفصاحة ، يقربه إلينا — بأوضح تصوير — مثال اللغوى: لغدة الأصبهانى ، المعاصر لأبى حنيفة الدينورى المتوفى ٢٨٢ هـ . فهو يدين بمعارفه اللغوية ، التى لفت بها الأنظار فى بغداد ، لمخالطته للأعراب الذين نزلوا بأصبهان فى خدمة محمد بن يحيى بن أبان ، ونصبوا خيامهم فى رحابه . فقد ألح فى سؤالهم عن جميع ما غمض عليه فى كتابات أبى زيد وأبى عبيدة والأصمعى ، التى حفظها عن ظهر قلب فى صباه ، واكتسب بذلك علماً غزيراً ، لم يضارعه فيه أحد بالعراق[١] .

بيد أن لغة الأعراب ، أيضاً ، يبدو أنها ، فى سبيل تطورها وانتشارها الطبيعى ، قد ظهرت عليها تجديدات مختلفة فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، كان أصحاب « تنقية اللغة » يحسون بعدم جوازها . وهاهو ذا العالم اللغوى البصرى : أبو الفضل الرياشى ، الذى مات عن ثمانين عاماً تقريباً ، عند استيلاء الثوار من الزنج على البصرة سنة ٢٥٧ هـ ، يروى أن ينسب تقدم مدرسته البصرية على منافستها الكوفية إلى أن البصريين أخذوا اللغة عن البدو الخلص حَرَشَة الضِّباب ، وأكله اليرابيع ، على حين استمد الكوفيون لغتهم من أنصاف الأعراب من أهل السواد وأصحاب الكواميخ ، وأكلة الشواريز[٢] أى أصحاب المشهيات كالخل ونحوه ، واللبن الرائب .

ويقدم لنا مثالا من هذا النوع رجل من حفدة جرير ، هو عمارة بن عقيل لقد عاش فى سهول البصرة . وكان يعد لدى علماء هذه المدينة حجة ثبتاً فى أمور اللغة ، وقرأ عليه المبرد أشعار جرير[٣] . ولا يندر أن يظهر شاهداً فى

= وانظر : Rescher, ZA 23, 45 f. ويوجد أيضاً لفظ موزور مقروناً إلى : مأجور ، عند المبرد فى الكامل ص ٧٠٣ س ١٢ .

(١) إرشاد الأريب ٣/٨٢ .

(٢) أخبار النحويين البصريين ص ٩٠ ؛ الفهرست ص ٨٦ ؛ نزهة الألباء ص ٢٦٣ .

(٣) انظر مثلا : الكامل ص ٢٢ .

نقائض جرير والفرزدق . وعلى الرغم من ذلك فقد كان يجمع لفظ : ريح (من : رِوْح) على أرياح . واضطر بهذا أبو حاتم السجستانى (المتوفى ٢٤٨ هـ) أن يعلّمه أن الصواب : أرواح[١] . كذلك كان يستعمل بدلا من اسم الجمع : خيل ، صيغة الجمع : خيول[٢] ؛ ويستعمل لفظ : ابن ، كما لو كانت همزته همزة قطع ثابتة ؛ على حين كان يحذف همزة المد فى لفظ : الدّهناء[٣] ؛ وقرأ آية سورة يس ٣٦/٤٠ : سابقُ النهارَ[٤] ، بحذف التنوين ونصب النهار بدلا من سابقٌ النهارَ (القراءة الصحيحة : ولا الليلُ سابقُ النهارِ ، بالإضافة) كما قرأ آية سورة النمل ٢٧/٨١ وآية سورة الروم ٣٠/٥٣ : بهادِ العُمْىَ[٥] بالنصب بدلا من : بهادِ العُمْىَ (القراءة بالإضافة) . فهذه ثلاثة أحوال تدل على تراخ فى التمكن اللغوى — من حيث استعمال التنوين وإهماله — داع إلى التفكير .

وأكثر ما كان يطابق المثل الأعلى . فى نظر النحاة العرب إبان القرن الثالث هى لغة الشعر الرفيع . وشعر أبى تمام (حوالى ١٩٠ — ٢٣١ هـ) ، قبل كل شىء ، يمتاز باستواء وانسجام فاقد النظير ؛ وفى الحشد من المطاعن الكثيرة العدد ، التى تعرض لها الشاعر ، فى حياته وبعد وفاته المبكرة ، لا نكاد نجد مأخذاً عليه من ناحية اللحن . وقد لَفِتَ نظره مرة ، مع الاحتجاج بالنحوى الكوفى : ابن السكيت (المتوفى حوالى ٢٤٥ هـ) ، إلى أنه ينبغى أن يقول : شَجٍ ، بدلا من : شَجِىّ ؛ ولكنه سرعان ما تخلص محتجاً — فى يسر — ببيت لأبى الأسود[٦] . وكان أبو تمام يعانى حُبْسة تعوق حرية تعبيره ،

(١) الأغانى ٢٠/١٨٥ س ٢٤ ؛ ص ١٨٧ س ٢٢ ؛ وقد اعترض الحريرى أيضاً على أرياح فى الدرة ص ٤٠ ، ودافع الشهاب الخفاجى جرياً على عادته عنها ص ٦٦ ، مع نقله رواية تنسب هذه الصيغة إلى لهجة بنى أسد .

(٢) الكامل للمبرد ، ص ٩٤ .

(٣) صفة جزيرة العرب ص ١٧٢ س ٢٣ ؛ وفى نفس الشعر المذكور ، استعمل لفظ : عامة بالتخفيف للضرورة .

(٤) الكامل للمبرد ص ١٤٣ ؛ إرشاد الأريب ٥/٢٧ ؛ نزهة الألباء ص ٢٩٦ ؛ المحتسب لابن جنى فى الآية ؛ ابن خالويه فى الآية ؛ خزانة الأدب ٤/٥٥٥ .

(٥) انظر البديع لابن خالويه ص ٩٢ .

(٦) الاقتضاب ص ١٩٧ فما بعدها ، حيث ساق بيتاً آخر مشتملا على لفظ : شجى بالتشديد لأبى دواد الأيادى .

بيد أن هذا لم يؤثر فى أسلوبه . ولما بلغ خصم له من عدم اللياقة مبلغاً سمح له بأن يسخر منه ، مشيراً إلى هذه العاهة الخِلْقية ، لم يره أبو تمام أهلا للرد عليه[١] . والذى يأخذه عليه نقاده هو ميله إلى الأصالة والغوص ، الذى لا يندر أن يسمو عنده إلى مستوى الغريب المهجور ، أو ينحدر إلى مستوى السوقى المبتذل ، فيطبع أسلوبه بطابع المتعمل المصنوع . ومن هنا كانت سماتٍ وخصائصَ راجعةً إلى الأسلوب ، تلك التى اتجه إليها النقد الصادر عن تذوق الجمال بوجه خاص[٢] . فقد أخذت عليه شدة جرأته فى الاستعارة ؛ مثل جعله الأعمار المبكرة فى الانتهاء ، تنضج قبل نضج التين والعنب[٣] ؛ ومثل حديثه عن الخطوب يكاد يُصْرَع منها الدهر[٤] ؛ وعن مشيب الفؤاد[٥] وعن ماء الملام الذى أسقيه[٦] . وتجديد آخر اصطدم بالرفض ، هو اقتضابه فى بعض القصائد[٧] ؛ فمثلا تبدأ مرثيته للقائد محمد بن حميد الطوسى [رأى أبو دلف الذى يعد حجة فى الحكم عليها ، إذ كان قائداً وشاعراً ، أن هذه المرثية تشعر من قيلت فيه حياة خالدة[٨]] بدءاً غير طبيعى بالكلمات :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر

كذلك كان فرط ولوع الشاعر بالجناس فى شتى صوره مدعاة إلى مآخذ كثيرة[٩] . وآخرون من النقاد يعيبون عليه[١٠] أنه استعمل كثيراً من الكلام البغيض ، والغريب المستكره من لهجات البدو مثل : الأَجْفَلَى ، أى

---

(١) العمدة ١/٧٠ .

(٢) انظر الموشح ص ٣٠٣ — ٣٢٩ ، وقد نقل أجزاء كثيرة عن ابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦) فى محاسن شعر أبى تمام ومساوئه .

(٣) الموشح ص ٣٠٨ ؛ ٣٢٢ ؛ ٣٢٣ .

(٤) الموشح ص ٣٢٢ .

(٥) الموشح ص ٣٢٦ .

(٦) الموشح ص ٣٢٣ .

(٧) الموشح ص ٣٠٥ س ٣ — ١٠ .

(٨) خزانة الأدب ١/١٧٢ .

(٩) الموشح ص ٣١٠ .

(١٠) الموشح ٣٠٨ .

الجميع[1] ؛ وضده النَّقَرَى ، أى الأفراد . ولما كان يحتسب نفسه من قبيلة طيئ ، لم يكن غريباً أن يجئ فى شعره ألفاظ من لهجتها ، مثل : سَدِك ، أى حريص مولع بالشئ[2] ؛ ومثل الاستعمال الخالص بها ، وهو وضع : ذو ، موضع : الذى[3] ؛ وكذلك صيغة : أطأدت ، التى عدها ابن الأثير[4] عليه خطأ يبدو أنها صيغة إضافية ترجع إلى لهجة خاصة ، بدلا من صيغة : اتطدت ، المتوقعة ، أى صيغة الافتعال من : وطد .

وعلى حين يحاول الشعر الرفيع ، كما فى قصائد الأعياد والمناسبات العظيمة ، أن يقترب من المُثُل العليا للكمال اللغوى ، تبدو أشعار الفرص والمصادفة أشد تأثراً باللغة الدارجة . فمثلا توجد فى أشعار ابن زينب المراكبي الذى اشتهر فى عهدى المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) والمعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) ، أحوال مثل : بَقِى ، بإشباع كسرة القاف ، بدلا من فتح الياء ؛ و : هُو ، بإشباع الضمة ، بدلا من فتح الواو ؛ والمُهَنَّا بتخفيف الهمزة وإشباع الفتحة ، بدلا من : المهنأ ، والاستعمال الشعبي المحض : حِرْها[5] . وكذلك الجمّاز البصرى الذى كان يُخشى كثيراً لبذاءة لسانه ، يقول فى بيت يهجو به عبد الصمد بن المعذّل (المتوفى ٢٤٠ هـ) هُو ، بإشباع الضمة ، بدلا من فتح الواو[6] . وفى شعر آخر يعامل فعل : قرأ ، على أنه يائى ، ويصوغ منه صيغاً مثل : تقرّى ، تقرّيت ، وقِراة[7] . كما أن مهجوّه ، وهو أيضاً هجّاء كبير ، استعمل أيضاً فى رده عليه : هُو ، بالإشباع أيضاً[8] . وفى شعر آخر سمى

---

(١) وهذا هو الاسم الوحيد على وزن : أفعلى ؛ انظر سيبويه ٢/٣٤٥ (ط : ديرنبورج).

(٢) الموشح ص ٣١٧ ، وورد لفظ : سدك فى شعر الأعرج الطائى ، انظر أمالى القالى ص ٣٠٨ . كذا يذكر فك . والصواب كما فى الأمالى : سويد بن عدى بن عمرو بن سلسلة الطائى المعنى . والبيت بلا نسبة فى اللسان والتاج مادة : سدك (شبيتالر) .

(٣) انظر الكامل ص ٥٦٤ ، ومن الغريب استعماله أيضاً لفظ : الذ ، بدلا من : الذى ، انظر : الموشح ص ٣١٠ .

(٤) المثل السائر ص ١٠ . وفى ديوانه ٢٧٧ مكانها : « اعتدلت » (شبيتالر) .

(٥) الأغانى ٢١/٢٤٧ ؛ ١١/٩٨ .

(٦) الأغانى ١٢/٦١ ؛ ١٥/٦٢ .

(٧) الأمالى للقالى ٣/٤٧ .

(٨) الأغانى ١٢/٦٢ .

المدينة التى ينتمى إليها : البَصِرَة ، بكسر الصاد ، وقد عده المبرد عليه لحناً[١] وهذه الصيغ ، التى هى أصل: باسُّورا Bassota الغربية ، قد دحضها أيضاً ابن قتيبة[٢] ، وإن أجاز نسبة : البصرى ، بكسر الباء . وعلى العكس من ذلك يعد من قبيل الرخصة الشعرية ، جعلُ عبد الصمد اسم العلم : زُهْشُم[٣] ، ممنوعاً من الصرف . نعم يسمح البصريون ، وفى طليعتهم سيبويه والمبرد[٤] ، بمعاملة الممنوع من الصرف معاملة المنصرف لضرورة الشعر ؛ ولكن العكس كثر كذلك منذ وقت مبكر ، بحيث لم يقر الكوفيون وحدهم للشعراء بهذه الحرية فى ضرورة الشعر ، بل كذلك كثير من البصريين[٥] . واستعمل الحسن بن وهب الكاتب ، الذى لعب دوراً هاماً فى وزارة ابن الزيات (٢٢٥-٢٣٣ هـ) ، الفعل المضارع مرفوعاً بعد : أنْ ، مرتين فى قصيدة من أشعار المناسبات[٦] ؛ وعلى النقيض من ذلك كانت رسائله معنياً فيها بتجويد الأسلوب ، بحيث جمعت وأخرجت فى كتاب[٧] .

مثل هذه الأخطاء التى ذكرناها آنفاً ، ظهرت فى شعر المناسبات لمختتم القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى . وعلى النقيض من ذلك صارت اللغة الدارجة على ألسنة المثقفين فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى تبتعد بصورة مطردة من النموذج الفصيح . والملاحظات التى يذكرها الجاحظ أحياناً تدل على أن مراعاة الدقة فى الإعراب تعد من الحذلقة ، وأن المحادثة السليمة

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٣٤٦ .

(٢) أدب الكاتب ص ٤٥٧ (نشر : Grünert)

(٣) الموشح ص ٣٤٦ .

(٤) انظر المفصل للزمخشرى (الباب الثامن عشر) وابن يعيش عليه ص ٨١ .

(٥) انظر الإنصاف ص ٣٠٥ فما بعدها ؛ خزانة الأدب ٧١/١ فما بعدها .

(٦) عيون الأخبار ٣٢/٤ ؛ وقوله : أن يجئ بالإشباع ورد أيضاً فى شعر شبيب بن البرصاء من عصر عبد الملك . انظر الأغانى ٩٥/١١ (وإن كان يصح روايته بالمجهول) ، كما ورد أيضاً فى شعر الجاهلى : عوف بن الأحوص من شعراء المفضليات (قصيدة رقم ٣٦ بيت ٩) ، وساق قدامة بيتين دون تسمية قائلهما ، ولا يعلم العصر الذى قيلا فيه (ص ٤٥ س ٢) نقد الشعر : بأن أسى ؛ وفى معجم البلدان ٧٤٨/٤ (أن يدرى ، و : بأن يفديك) وانظر أيضاً : Nöldeke Z. Grammatik الفقرة ٥٨ .

(٧) الفهرست ص ١٧٧ .

الخالية من اللحن كانت تنتظر فقط من الأعراب الذين ينطقون عربية خالصة ، أو من بلغاء العلماء . وبطبيعة الحال كانت هناك فروق كذلك فى لغة المحادثة ، وفقاً لثقافة المتكلم . وقديماً ، فى عهد المأمون (حكم ١٩٨ — ٢١٨ هـ) ، يبدو أنه لم يكن من النادر ، أن يستعمل رجال فى مناصب رئيسية جملا وتراكيب مخالفة للنحو تماماً فى معاملاتهم الشفوية والكتابية . فقد روى أن ميمون ابن إبراهيم ، كاتب إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، ارتكب فى رسالة إلى المأمون هذا الخطأ الشنيع : وهذا المال مالا يجب على فلان . فخط المأمون على : « مالا » ووقع بخطه فى حاشية الكتاب : أتكاتبنى بلحن يا إسحاق ! . فاشتد ذلك عليه وأنب كاتبه . نعم صحح النحوى ابن قادم (المتوفى ٢١٥ هـ) الذى كان حاضراً هذا التعبير ، جاعلا « مالا » منصوباً على التمييز ، ولكن ميمونا رأى من الخير له تعلم النحو[١] . وكذلك روى عن إسحاق بن إبراهيم المصعبى المذكور ، الذى كان يشغل منصباً هاماً ، إذ كان حاكماً لمدينة بغداد من سنة ٢١٤ حتى مات سنة ٢٣٥هـ [٢] ، أنه اضطر بسبب لحن وقع منه فى حضرة المأمون أن يتعلم[٣] القواعد على النحوى هشام بن معاوية (المتوفى ٢٠٩ هـ) . كما روى أيضاً[٤] أن أحمد بن أبى خالد[٥] (المتوفى ٢١٠ هـ) أول وزراء المأمون ، الذى كان يشاد بذكره[٦] لحسن خطه ، قرأ كثيراً من الكلمات فى رسالة قراءة محرفة لا يفهم لها معنى . وقصة أخرى[٧] تخبر عن كاتب [قيل إنه الفضل بن مروان الذى تولى وزارة المعتصم من ٢١٨ — ٢٢١هـ ، أو خلفه ابن شاذى[٨]] قرأ رسالة على الخليفة ، ولم يستطع تفسير

---

(١) أدب الكتاب ص ١٢٩ ؛ إرشاد الأريب ٧/١٥ ؛ بغية الوعاة ص ٥٨ ؛ صبح الأعشى ١/١٧٠ .

(٢) Zambaur, Manuel 198 . وانظر فى حسن تنظيمه للبريد ومعرفة الأخبار كتاب التاج المنسوب للجاحظ ص ١٧٠ ، وكتاب المحاسن للبيهقى ص ١٥٤ .

(٣) إرشاد الأريب ٧/٢٥٤ .

(٤) شرح أدب الكاتب للجواليقى ص ٥١ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية EI I 199

(٦) الفهرست ص ١١ ؛ أدب الكتاب ص ٤٥ .

(٧) أدب الكاتب ص ٧ .

(٨) شرح أدب الكتاب للجواليقى ص ٤٩ فما بعدها ؛ خزانة الأدب ١/٢١٥ فما بعدها .

الجملة: مُطِرنا مطراً كثر منه الكلأ ؛ لأن لفظ الكلأ كان غير معروف له . وفى الحق لقد كان الفضل بن مروان من رجال الإدارة الممتازين ، بيد أنه لم يكن ذا ثقافة عميقة[١] . وكون الخليفة المعتصم ، على النقيض من أخيه المأمون ، لم يكن مثقفاً ، أمر مشهور ؛ فقد كان يشعر بكره شديد فى صباه للتعليم ، ولم يصل إلى حذق يؤبه له فى القراءة والكتابة[٢] . وترسم القصة التالية[٣] الصورة التى كان يصوره بها الخلف من بعده ؛ فقد أمر يوماً أشناس العبد التركى القيم على السلاح أن يحضر له كلباً للصيد ، ولكنه رده عليه ، لأنه كان به عرج ، فكتب إليه أشناس الأبيات المضطربة التالية :

الكلب أخذت جيد مكسور رجل جبت
رد جيد كما كلب كنت أخذت

فأجابه الخليفة أيضاً بالأبيات المتهافتة :

الكلب كان يعرج يوم الذى به بعثت
لو كان جاء مجبر أجبر رجل كلب أنت

وقد حصل الأتراك مثل أشناس منذ عهد المعتصم — بكونهم من كبار رجال الجيش ، وحرس الخليفة الخاص — على نفوذ مطرد النمو فى سياسة دولة الخلافة ، ولم يكن هؤلاء الرجال متحلين بثقافة علمية ، كما لم يكن لديهم آنذاك اهتمام أصلا بالطموح إلى الأدب. ولم يسجل شذوذاً عن العموم إلا الفتح بن خاقان[٤] أحد أبناء الأتراك . لقد نشأ حي الفكر ، حاد الذهن ، عاقلا أريباً ، فاسترعى انتباه المعتصم إليه وهو غلام ، وانتظم بعد ذلك فى خدمة القصر ، وتمتع بنفوذ عظيم فى شئون الدولة ؛ إذ كان مؤتمناً ومستشاراً للمتوكل الذى قتل معه سنة ٢٤٧ هـ . وكان واسع الثقافة ، وأمر على بن يحيى ابن المنجم فأنشأ له مكتبة عظيمة ، وكان يكثر من دعوة الأعراب والنحاة

(١) الفهرست ص ١٨٤ .
(٢) تاريخ بغداد ٣/٣٤٣ .
(٣) المحاسن للبيهقى ص ٤٥٥ .
(٤) انظر الفهرست ص ١٦٩ ؛ إرشاد الأريب ٦/١١٦ — ١٢٤ .

إليه ، كما حاول هو أيضاً تعاطى الشعر . وكان يشغل العلماء ببعض الأعمال الأدبية فيصدرونها باسمه . وجمع له محمد بن حبيب (المتوفى ٢٤٥ هـ) كتابه عن قبائل العرب[١] . كما وجه إليه الجاحظ رسالته عن الأتراك[٢] . وكذلك وَصْفه للآداب المتبعة فى قصور العباسيين (أخلاق الملوك) ألف بتكليف منه بعنوان : كتاب التاج ، وإن لم يكن مؤلفه الجاحظ الذى نشر الكتاب باسمه[٣] ، بل محمد بن الحارث الثعلبى ؛ فنحن نعرف عالماً بهذا الاسم ، كان من حاشية الفتح ، وألف له مصنفاً يسمى : أخلاق الملوك[٤] . وفيما عدا ذلك كان قواد الأتراك الأجراء لا يمتون فى الأعم الأغلب بصلة إلى الثقافة أصلا ؛ كما أسهموا فى خفض المستوى اللغوى فى دوائر القصور . وببلوغهم مناصب السلطان يبدأ فى تاريخ العربية عصر الانحلال .

---

(١) الفهرست ص ١٥٥ .

(٢) نشرها فان فلوتن فى : Triae Opuscula S. 1-56 1930

(٣) نشره أحمد زكى باشا بالقاهرة سنة ١٩١٤ م .

(٤) الفهرست ص ٢١٢ (الثعلبى) ، ويذكر الفهرست ص ١٧٠ فى الكتب المنسوبة إلى الفتح بن خاقان ، كتاب اختلاف الملوك . والظاهر أنه تحريف عن كتاب أخلاق الملوك ، الذى عمله ابن الحارث المذكور ، وذكر Flügel لقب محمد بن الحارث : التغلبى ، بدلا من الثعلبى .

(٧)

العربية تصير لغة الأدب الفصحى

فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى – التاسع الميلادى

وهذا عهد لم يكد يبلغ قرناً من الزمان ، امتد من وقت رجوع الخليفة المتوكل إلى مذهب أهل السنة المحافظين سنة ٢٣٥ / ٨٤٩ ، إلى مبدأ قيام الحكم العسكرى على يد أمير الأمراء : ابن رائق ، (سنة ٣٢٤/٩٣٦) ؛ ذلك الحكم الذى انتزع من يد الخليفة البقية الباقية من الاستقلال ، وطبع دولته بطابع الانحلال إلى دويلات تزيد على العشر . ولقد رأى ذلك العهد الانحلال المطرد الحلقات ، المتصل الخطوات فى دولة الخلافة التى ازدهرت أعظم ازدهار فى ظل المأمون والمعتصم . لقد أعلن انفصالَه واستقلالَه إقليمٌ تلو إقليم ، فلم يعد يؤدى الأموال إلى بغداد . ولقد نالت هذه الخسارة من الخلفاء نيلا أشد وقعاً ، وأسوأ أثراً ، حينما اضطرتهم محاولتهم تأكيد سلطانهم إلى بذل الجهود الحربية التى لم يكونوا لها أكفاء على طول الأمد من الناحية المالية . وقد اشترى المعتصم – فعلا – كثيراً من عبيد السلاح ، وألف منهم قواته المحاربة . وأكثر القواد الأتراك الذين كانوا لا يقتصرون على رياسة هؤلاء الأجراء الأجانب فحسب ، بل يحملون أيضاً أعباء أجورهم وتدبيرها ، سرعان ما اكتسبوا نفوذاً عظيما فى السياسة ، حتى أدى ذلك أخيراً إلى إنشاء الحكم العسكرى . وبالانحلال السياسى والاقتصادى ، انحط مستوى الثقافة العامة . والنزعة السُّنية المحافظة التى حددت اتجاه السياسة الثقافية لذلك العصر الانقلابى ، تبين أنها أضعف من إيقاف ذلك الانحلاك . وكانت نتيجة ذلك أن خسرت العربية فى هذه المرحلة الزمنية من مساحة أرضها ؛ على حين انتشرت الأساليب اللغوية المولدة ، متغلغلة فى أرق الأوساط .

والعمدة فى الشهادة على انحطاط المستوى العام للثقافة فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى هو أبرز الأدباء الممثلين للتجديد السنى : ابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦ هـ) الذى يشكو كثيراً فى كتبه من هذه الظاهرة ، والذى

تُعنى كتبه بأن تهيئ للكتّاب ، أى القائمين على الخدمة فى الدواوين والشئون المدنية ، فى قالب واضح سهل المتناول ، تلك العدة من المعارف الإيجابية التى لا غنى لهم عنها فى القيام بأعمالهم . وفى مقدمات تلك الكتب التى كان لها صدى بعيد وأثر عميق ، يصف ابن قتيبة فى تصوير قريب ، الضرورات الملحة فى هذا السبيل : ليس لدى الملوك مال للجهود الثقافية ، ولا يجد العلماء (المحافظون) عوناً من قبلهم ؛ وفى أوساط المجتمع الراقى ذهبت حركة الاعتزال بكل إجلال للنزعة السنية المحافظة . أما أن المعتزلة قد أحيوا العلوم القديمة ، أعنى ذلك التراث العقلى للعصر القديم ، فهذا لا يعد شيئاً فى نظر ابن قتيبة ؛ إذ لا يعد من علائم الثقافة المتنخلة الخاصة عنده أن يتعاطى المرء شيئاً من المنطق أو جانباً من علم الفلك . نعم هو لا ينكر إنكاراً تاماً جهود المعتزلة فى النحو، وشرح الأشعار، وتفسير القرآن، ولكن بقدر رفقه بهم فى هذه الناحية ، اشتدت شكواه من أن المعتزلة جعلوا دراسة القرآن والحديث وأحكام الشريعة فى المرتبة الثانية . وقد وصف الجهل المنشور لواؤه ، حتى فى أرقى الأوساط ، بالتاريخ والأنساب ؛ فالقرشيون لا يعرفون كيفية قرابتهم إلى الرسول ، والأشراف يجهلون شجرة أنسابهم . والأمراء من الفرس لا يعرفون تاريخ أسلافهم . وعلى النقيض من ذلك يَدّعِى حديثو العهد بالنعمة والمناصب الرفيعة، انتسابهم إلى رجال انقرضت أسرهم منذ زمان طويل. وليس الحال بأحسن من ذلك فى المعارف الخاصة ؛ فعلى أحسن الفروض نجد الرجل مغلّباً فى فنه الذى اختص به . كما أنه ليست له ثقافة عامة . ومن يستطع أن ينشد أبياتاً من الشعر يعد عالماً ؛ ولا يعرف الكاتب مطمحاً أسمى من أن يكتب خطاً جميلا .

هذا إلى انحطاط المستوى العام للثقافة اللغوية الذى امتد إلى كتاب الدولة ووزرائها ، والذى ألف ابن قتيبة كتابه كتابه : أدب الكاتب[1]. لعلاجه وكفاحه. وهو كتاب يعلمنا كيف ينبغى للمسلم المثقف فى القرن الثالث أن يعبر عن أفكاره بالنطق والكتابة ، ويبين لنا قبل كل شئ الأخطاء التى يجب عليه أن يتجنبها . وفى هذا يباشر ابن قتيبة بحوثه — على خلاف الجاحظ — بدقة تحفل

---

(١) نشره : Gruenert فى ليدن سنة ١٩٠١ م .

بالصغائر . ولئن فقدت آراؤه وبحوثه المفصلة ذلك الظرف المتوثب الخفيف الروح ، الذى يجعل استطرادات الجاحظ أخاذة ساحرة ، إنه ليفيدنا بفضل أسلوبه المتعمق الجزل ، كثيراً من التفاصيل عن الاستعمال اللغوى فى عصره ، على الرغم من أنه على العموم ليس من عادته أن يسمى الأسلوب أو القالب الذى يتنقصه تسمية واضحة . وهو فى ذلك ، كما يشير شارحه البطليوسى ، ينصب نفسه محامياً عن مبدأ « تنقية اللغة العربية » المتطرف . والأصمعى على الأخص عمدة من يحتج بهم من الرجال ؛ وهو لا يحيد عن آرائه إلا فى أحوال نادرة كما أنه ينقل فى غير موضع كتاب الديباجة لأبى عبيدة[1] . والأبواب من ص ٥٣٤ مأخوذة من كتاب المعانى لابن السكيت[2] مما جر عليه لوم البطليوسى ونقده[3] . ولا تنقص الكتاب أيضاً صور من الجمع والخلط — لا يعتمد عليها — بين أنظار المدرستين : البصرية والكوفية[4] كما لا ينقصه كثير من السهو[5] والتضارب[6] . بيد أن هذه المعايب لا تغض كثيراً من قيمة كتابه ؛ فهو باق أحد الكتب الأساسية الأولى لمبدأ التنقية اللغوية ، ولا يزال يدرس فى العالم العربى حتى اليوم بعناية واجتهاد ، لغزارة مادته .

---

(١) انظر : الاقتضاب ص ١٤٠ — ١٤٢ .

(٢) انظر الاقتضاب ص ٢٤٣ س ١٥ ؛ ص ٢٥٧ س ١ ؛ ص ٢٦٥ س ١٥ .

(٣) الاقتضاب ١٧٤ ، وانظر ص ٢٥٥ ؛ ٢٥٧ .

(٤) الاقتضاب ص ١٧١ س ٥ ؛ ص ١٧٣ س ٢ .

(٥) الاقتضاب ص ١٠٧ س ٣ ؛ ١٣٩ س ١٣ ؛ ١٤١ أسفل ؛ ١٤٨ س ١ ، ١٥٣ س١ ١٦٢ س ٩ ؛ ١٧٨ س ٦ ؛ ١٨٢ أسفل ؛ ١٨٣ أسفل ؛ ١٩٩ س ٨ ؛ ٢٣٠ س ٩ ، ١٥ ؛ ٢٣٠ ؛ ٢٣٥ س ١٠ ؛ ٢٧٠ س ٢ ، ١١ ؛ ص ٢٧٣ س ٢ ؛ ٢٧٩ س ١٤ .

(٦) الاقتضاب ص ١٢٣ س ١٢ ؛ ١٢٧ أسفل؛ ١٣٣ س ٦؛ ١٥٠ س٨ ؛ ١٥٤ س ٣ ؛ ١٧٥ أسفل ؛ ١٧٦ س ٢ ، ٨ ، ١٨ ؛ ١٧٧ س ١١ ، ١٦ ؛ ١٧٨ س ٢ ؛ ١٨١ س ١٦ ، ١٩ ؛ ١٨٢ س ٣ ؛ ١٨٣ س ١٠ ، ١٣ ؛ ١٨٤ س ٣، ١٩ ؛ ١٨٧ س ٣ ، ١٠ ، ٢٠ ؛ ١٨٨ س ١٠ ؛ ١٨٩ س ٨ ، ١٢ ، ١٥ ؛ ١٩٠ س ٣ ، ٩ ؛ ١٩٢ س ١٢ ، ٢١ ؛ ١٩٤ س ٢ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٨ ؛ ١٩٥ س ٣ ؛ ١٩٦ س ١٨ ؛ ٢٠١ س ١٥ ؛ ٢٠٤ س ٨ ؛ ٢٠٥ س ١٠ ؛ ٢٠٦ س ٤ ؛ ٢٠٧ س ١٧ ؛ ٢١٠ س ٤ ، ٢١١ س ١ ، ١٠ ، ٢١٢ س ٢ ؛ ٢١٤ س ١ ، ٨ ؛ ٢٢٣ أسفل ، ٢٢٦ س ٣ ؛ ٢٢٧ س ٨ ؛ ٢٢٩ س ١٣ ؛ ٢٣٠ س ٩ ؛ ٢٣١ س ٦ ؛ ٢٦٦ أسفل ؛ ٢٦٧ س ٤ ، ١٢ ، ١٥ .

وهكذا يحتوى القسم الأول من كتابه ، وهو « كتاب المعرفة[١] » فى الستة والخمسين باباً التى يشتمل عليها ، على مادة غنية لمعرفة الثروة اللفظية ، وفى ذلك نقف على تغير المعانى التى طرأت على بعض الألفاظ إلى القرن الثالث ؛ فمثلا يستعمل الناس لفظ : مأتم ، بمعنى الاجتماع على المصيبة ؛ وليس هذا معناه الأصلى ، وإنما هو النساء يجتمعن فى الخير والشر[٢] ؛ ومثل لفظ : الفَىْء معناه الظل مطلقاً ، لا ظل ما بعد الظهر كما هو الأصل[٣] ؛ ومثل لفظ : المَلّة ، يستعمل فى الخبز ، وكان معناه الرماد الحار الذى يخبز فيه[٤] ؛ ومثل : تنزّه ، يستعمل بمعنى ذهب إلى البساتين ، وكان معناه ابتعد عن الماء والزراعة[٥] ولم يعد يفرق أحد تقريباً بين الآل والسراب[٦] ، ولا بين الفقير والمسكين[٧] ولا بين الأعرابى ، أى البدوى (وإن عاش فى الحضر) والعربى ، أى واحد العرب وإن كان غير بدوى[٨] . ويلقى بعض الضوء أيضاً على الاستعمال اللغوى فى القرن الثالث ، تلك التعبيرات التى يشرح بها ابن قتيبة بعض الألفاظ الفصيحة ؛ فكثيراً ما يستعمل فى تفسير أسماء النباتات العربية القديمة (ص١٠١ — ١٠٥) ألفاظاً فارسية بمعناها . كذلك يبين الباب الذى عقده للكلمات الأعجمية فى كلام العرب (ص ٥٢٦ — ٥٣٣) إلى أى حد حفلت اللغة الدارجة فى القرن الثالث الهجرى بالعناصر الفارسية . وأكثر إفادة (فى هذا المضمار) القسم الثالث الأساسى ، وهو كتاب تقويم اللسان (ص ٣٣٣ — ٤٦٠) بما اشتمل عليه من طوائف من الكلمات التى يعدها المتزمتون اللغويون من قبيل اللحن أو الردئ[٩] . وفى هذا يرتب ابن قتيبة الأحوال المختلفة الظروف ، الناشئة من صورة الكتابة بين الصحيح والخطأ ، ترتيباً شكلياً خالصاً ،

(١) ص ٢١ — ٢٣٣ .
(٢) ص ٢٤ .
(٣) ص ٢٧ س ١ .
(٤) ص ٣٨ س ٦ .
(٥) ص ٣٩ س ١١ .
(٦) ص ٢٨ س ٨ .
(٧) ص ٣٥ س ١ .
(٨) ص ٤٠ س ٦ .
(٩) كثير من مادة هذا الكتاب ملخص من كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت بلفظه انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ١٦١ — ١٦٢ (المترجم) .

بحيث إن الأحوال التى ترجع إلى مجموعات مختلفة من جهة التكوين الصوتى ، والصيغ والقوالب ، والعمل النحوى ، تضم بعضها إلى بعض دون فرق بينها . فهو يرى من ناحية الصوت أن إسقاط الهمزة ، أو تحويل ما فاؤه همزة من الأفعال إلى مافاؤه واو ، أو ما لامه همزة إلى ما لامه واو أو ياء ؛ كل هذا يؤدى إلى نشوء صيغ وقوالب جديدة معيبة عند المعنيين بتنقية اللغة . ومن ناحية القوالب والصيغ يذكر ما تُشَدّده العوام وما تخففه أو العكس، مثل الياء فى آخر الكلمة ، وإبدال فعاليل بفعالل فى جمع الرباعى ، وغير ذلك . والصيغ المخترعة مثل: أَخْيَر وأشر، بدلا من: خير وشر، واطّراح الفرق المعنوى بين اسم المرّة : فَعلة، واسم الهيئة : فِعلة؛ وما يضم والعامة تكسره، أو يكسر والعامة تفتحه أو تضمه ، إلى غير ذلك . ويعرض كتاب الأبنية (ص ٤٦٠ — ٥٥١) نظرة عامة فى صيغ الأسماء والأفعال ، إذ يعقد فيه بعد تحديد كل نوع سلسلة من الأبواب ، يبحث فيها هذه الصيغ ، مرتبة فى طبقاتها المعنوية ، ويعقد فى ذلك باباً خاصاً بالحروف ، يعرض فيه ما يتعدى بحرفين ، والأحوال التى يستعمل فيها حرف مكان آخر ، وتعاور الأفعال اللازمة والمتعدية (ص ٥٣٤ — ٥٥١ الخ) .

ولا يعرج ابن قتيبة فى كتبه الأخرى على مسائل اللغة والتربية اللغوية إلا عرضاً . ففى كتابه : عيون الأخبار ، يعقد لمسألة التعبير الصحيح والخاطئ ؛ باباً خاصاً (باب الإعراب واللحن ٢ / ١٥٥ — ١٦٠) يحتوى بدون ترتيب منهجى على حكم وأشعار فى الإشادة باللغة الصحيحة الفصيحة ، والحث على دراسة القواعد والنحو ، كما يشتمل على قصص وأمثلة للحن المختلف الأنواع ، مثل : الخطأ فى النطق ، والمخالفة الفاحشة للقاعدة النحوية ، والتراكيب العددية المغلوطة ، ومخالفة الصواب فى قراءة القرآن ، وبعض المفارقات الناشئة من سوء الفهم لاصطلاحات النحو ، وعقب ذلك مباشرة (١٦١/٢ — ١٦٦) يذكر ابن قتيبة نماذج من الأسلوب الدقيق (التشادق) ، واستعمال المهجور الغريب من مادة اللغة . وفى كتابه : الشعراء[١] ، يناقش بالتفصيل ما أخذ على أبى نواس من اللحن .

---

(١) الشعر والشعراء Liber poesis 516, 7–530, 9

هذا على أن المطالب التى فرضها ابن قتيبة لمراعاة صحة اللغة وسلامتها لم يؤدها معاصروه على وجه الدقة ، بل لقد اصطدم هو نفسه هنا وهناك فى مؤلفاته مع قواعده ، وحتى الشعر الرفيع فى عصره لم يف بكل مطالب مبدأ « تنقية اللغة » ؛ فإن لغة البحترى (حوالى ٢٠٤ — ٢٨٤ هـ) ، لم تعد من حيث فصاحتها مساوية للغة معاصره السابق عليه بقليل ، وابن قبيلته أيضاً : أبى تمام . حقاً إنها لمبالغة حاقدة ، إذا وسمه ابن أبى طاهر[١] (٢٠٤ — ٢٨٠هـ) فى شعر يهجوه به ، بأنه : لاحن جاهل[٢] ؛ لا سيما وقد قيل عن هذا الخصم إنه كان عامياً كثير التصحيف ، وإنه أنشد شعراً واحداً فلحن فى بضعة عشر موضعاً منه[٣] . وأرجح من هذا وزناً ، أن أحد المعجبين بالشاعر ، وهو الوزير أبو الفضل بن العميد ، يسلِّم أنه تعرض له أخطاء ، وأن فى شعره الكسر والإحالة واللحن[٤] ؛ وقد استعمل مثلا : نَسِيه[٥] ، بإشباع الياء بدلا من فتحها ، بسبب القافية ، ووضع صيغة المرفوع : مُثْنٍ ، بدلا من صيغة المنصوب : مثنياً ، فى البيت :

يامادح الفتح ويا آمله   لست امرءًا خاب ولا مثن كذب[٦]

كما قال : مساعيك ، بالإشباع ، بدلا من نصب الياء فى البيت :

ولو أنصف الحساد يوماً تأملوا   مساعيك هل كانت بغيرك أليقا[٧]

واستعماله لفظ : طَلْحات[٨] ، بسكون اللام بدلا من فتحها ، فى جمع طلحة ، يمكن الاعتذار منه — على أسوأ الاحتمالات — برخصة الشعر . وقد

---

(١) هو مؤلف كتاب : أخبار بغداد ويعرف بابن طيفور (الفهرست ص ٢٠٩) . وقد أخرج جزءاً منه مع ترجمته إلى الألمانية : H. Keller

(٢) الموشح ص ٣٣٣ .

(٣) الفهرست ص ٢٠٩ .

(٤) الكشف عن مساوى المتنبى . للصاحب بن عباد (القاهرة ١٣٤٩) ص ٨ .

(٥) فى الموضع السالف ص ٩ س ١ .

(٦) الموشح : ص ٣٣٣ س ١٤ .

(٧) الموشح ص ٣٣٣ س ١٦ .

(٨) خزانة الأدب ٣/٣٩٤ .

حملت المماحكات وضيق العطن خصومه على أن عَـدُّوا عليه بعض تعبيرات أخرى من اللحن ، مثل التهافت فى مطلع إحدى القصائد :

محل على القاطول أخلق داثره[1]

فإذا كان داثراً فكيف يخلق؟ على أنه لا جرم كان يُـعَـنّـى نفسه فى سبيل صحة اللغة وسلامتها ، كما كان يلقى أشعاره فى تصنع وإعجاب بنفسه[2] .

وشاعر آخر لم يكن أقل شهرة فى هذا العصر ، وهو ابن الرومى (٢٢١— حوالى ٢٨٣ هـ) يعتذر فى قصيدة له من أخطاء لغوية زلقت من قلمه فى رسالة كتبها إلى صديق[3] . كما أن أحمد بن المدبر ، الذى كان يتقلد إدارة الأموال فى دمشق حوالى سنة ٢٤٠ هـ ، ثم نقل إلى مثل هذا العمل بمصر سنة ٢٤٧ هـ[4] ، ذكر فى قصيدة واحدة لفظ : رَضِـى ، بإشباع الـكسرة بدلا من : رَضِـىَ بفتح الياء ، ورفع المضارع ثلاث مرات بعد أداة النصب[5] (أن) .

ومن المفيد هنا على وجه الخصوص ، حالة على بن محمد الحِـمّـانى العلوى[6] . لقد كان حفيداً لجعفر الصادق ، وابنا لمحمد الديباجة ، الذى دعا لنفسه بالخلافة فى مكة سنة ٢٠٠ هـ ؛ بيد أنه غـُلِـبَ على أمره ، وحمل إلى بغداد ، ثم مات بعد ذلك بقليل فى منفاه بخراسان . وعلى بن محمد نشأ بالكوفة فى حى بنى حِـمّـان — ومن هنا نسبته —[7] ، ونصب فى وقت متأخر نقيباً للأشراف

---

(١) الموشح ص ٣٣٧ س ١٨ .

(٢) انظر عرض أبى الفرج وتصويره فى الأغانى ١٨/١٧٣ ؛ وذكره ياقوت فى إرشاد الأريب ٦/٤٠٤ .

(٣) أدب الكتاب ص ١٣٣ .

(٤) انظر لدوره فى هذا المنصب C. H. Becker, Beitraege zur Geschichte Aegyptens II 142-148, 154-161 (Strassburg 1903)

(٥) الموشح ص ٣٤٩ ؛ أما أن ابن المدبر أرسل بهذه القصيدة إلى ديك الجن الشاعر ، المتوفى (كما فى ابن خلكان ١/٥٢٥) سنة ٢٣٥ هـ ، على حين كان ابن المدبر المذكور والياً لابن طولون على دمشق ، فهذا لا يتأتى ، لأن ابن طولون لم يستول على سورية إلا سنة ٢٦٤ هـ .

(٦) المسعودى ٧/٣٣٦ — ٣٤٢ .

(٧) كذلك فى البصرة نسب من سكن فى حى بنى حمان وإن لم يكن منهم ، إليهم ؛ انظر معجم البلدان ٢/٣٣٠ .

العلويين . ولقد كان من الشعر على عرق ؛ وكثيراً ما تخطر له خواطر جيدة ؛ وكان يبكى قتلى بيته فى أبيات مؤثرة ، حتى عده بعض الشيعة المتحمسين أشعر شعراء قرنه ؛ بيد أنه لم يتلق دراسة منتظمة فى النحو ؛ وكان يستحيي ، وهو كبير السن ، أن يسأل غيره ؛ ولهذا وجدت فى شعره أخطاء شنيعة ، كما يقول فى محيا جميل :

[فى وجه ذاك أخاطيط مسوَّدة] وفى مضاحك هذا الدر منثور

فالوجه أن يكون : منثوراً[١] . وله شعر آخر[٢] ، ادعاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لنفسه ، يقول فيه :

* أرقت وما ليل المضام بنائم * فيستعمل صيغة مفعول الرباعى ، المستعملة فى اللغة الدارجة ، بدلا من مفعول الثلاثى : مَضِيم .

وكان حال اللغة الدارجة أسوأ من ذلك كثيراً . . وقد كان لابد أن أن ينحط مستواها إذ كان عوام الأتراك هم أصحاب الكلمة فى القصر . فقد وصل الأمر أخيراً إلى أن صار الوزير نفسه يتكلم اللغة الدارجة : روى أن إسماعيل بن بلبل ، الذى ولى الوزارة فى حكم المعتضد (من سنة ٢٦٥ - ٢٧٧هـ) قال فى أحد المجالس : قد كان أُنْفِى ، بضم الهمزة ، بدلا من : قد كان نُفِى وقد أضاف خصمه ابن ثوابه إلى كلامه : فى الخرء ، بصوت غير مسموع ، كما لو كان قد قال : قد كان أنفى فى الخُرْء[٣] ؛ وجلب على نفسه بذلك ازدياد كره الوزير إياه . واستعمال صيغة الرباعى بدلا من صيغة الثلاثى ظاهرة مألوفة فى اللغة الدارجة ، بحيث لم يزل البصريون والكوفيون ، منذ عهد الأصمعى وقطرب ، يعالجون دائماً موضوع فعلت وأفعلت[٤] .

---

(١) الموشح ص ٣٤٦ وهو يجوز أن يكون خبراً تعلق به الجار والمجرور ، والدر مبتدأ . كما يجوز أن يكون (منثور) خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير : « وهو منثور » .

(٢) الموشح ص ٣٥٦ .

(٣) إرشاد الأريب ٢/٣٩ .

(٤) انظر الفهرست فى أخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم فى الفنون الثلاثة من المقالة الثانية ، كما يعالج ابن قتيبة هذا الموضوع فى أدب الكاتب ٣٩٨ — ٤٠٠ (وانظر الاقتضاب ١٩٣ — ١٩٥ وشرح الجواليقى (٢٨١ — ٢٨٣) ، وكذلك عالجه ثعلب فى كتاب الفصيح ٥ — ٧ .

وبطبيعة الحال كانت هنا أيضاً فروق عظيمة، في طريقة التعبير اللغوى من ناحية الصحة اللغوية، ترجع إلى التربية، والنسب، والمركز الاجتماعى. فرجال، كالطاهريين، كانوا لا يزالون يقيمون وزناً للغة الفصيحة. وقد كان جدهم طاهر بن الحسين (١٥٩ — ٢٠٧ هـ) خراسانياً، ولغته الأصلية الفارسية؛ ويروى أن آخر ماقاله هو: دَرْمَرْج نيز مَرْدى فَايَدْ[١] (حتى فى الموت يجب أن يكون الإنسان رجلا). وروى إسحاق بن إبراهيم الموصلى، الذى عُمِّر طويلا (١٥٠ — ٢٣٥ هـ)، على لسان إسحاق بن إبراهيم المصعبى، من رهط طاهر المذكور، أنه قال بالفارسية فى قصيدة له من أخريات قصائده: * يامَرْدُمَىْ خَرْ[٢] * (يارجل اشرب خمراً). وإلى جانب هذا تمكن طاهر من العربية تمكناً تاماً باللسان والقلم. وقد اشتهرت بصورة خاصة رسائله التى يهنئ فيها المأمون عند دخوله إلى بغداد[٣]، وكتاب مطول له حافل بالنصائح الغالية لابنه عبد الله عندما نصب هذا فى عام ٢٠٦ والياً على ديار بكر[٤]. ويروى أنه استاء أشد الاستياء عندما خاطبه أحد الكتاب بعبارة سقيمة ملحونة[٥]. والآن، بعد جيلين من ذلك العهد، كان حفيده محمد ابن عبد الله (٢٠٩ — ٢٥٣ هـ) يحتسب فى عداد أعلم الرجال وأوسعهم ثقافة فى الدولة. ولما دعاه المتوكل إليه سنة ٢٣٧ هـ من خراسان إلى العراق، ولاه ولاية مضاعفة، إذ جعله والياً على الشرطة ببغداد، وقيما على الجزية والخراج، ولما كان نزيهاً فى علاقاته، واثقاً من نفسه، لبقاً فى مواقفه، وإلى ذلك مسامراً حلو الحديث، فسرعان ما انتهت إليه الكلمة فى بلاط الخلافة. ولقد كان يقيم وزناً للغة المتخيرة؛ وآخذ مرة حاجبه محمد بن أبى عون ممازحاً له، على كثرة استعماله لفظ: قد، فى البيتين التاليين اللذين بعث بهما إليه مع أزهار من بستانه وريحان :

---

(١) تاريخ الطبرى ١٠٦٣/٣ .

(٢) الأغانى ٨٥/٥ .

(٣) الفهرست ص ١٧٠ .

(٤) ذكره الطبرى ١٠٤٦/٣ — ١٠٦٢ ؛ وكتاب بغداد لابن أبى طاهر ص ٣٦ ؛ والكامل لابن الأثير ٢٥٨/٦ .

(٥) إرشاد الأريب ٢٤/١ .

قد بعثنا بطيِّب الريحان   خير ما قد جُنى من البستان
قد تخيَّرته لخير أمير   زانه الله بالتقى والبيان

[حيث وقع على ظهر رقعته :

عون ياعون قد ضللت عن القصـ   ـد وعمِّيت عن دقيق المعانى
حشو بيتيك « قد وقد » فإلى كم ؟   قَدُّكَ الله بالحسام اليمانى][1]

ومع هذا فقد كان محمد بن عبد الله نفسه غير ثابت القدم فى قواعد النحو ، مثلا فى قواعد أسماء العدد ، فهو لم يكن يكتب : ألف درهم واحدة ، فحسب ، بل كان يغير الصيغة على هذا الوجه أيضاً كلما وقعت عينه على التعبير الصحيح : ألف درهم واحد ، فى كتاب ، بل كان كتابه إذا أنكروا ذلك عليه يغلط عليهم ويهابونه فلا يبتدئونه فيه بشئ ، ولم يستطع إلا ثعلب (٢٠٠ — ٢٩١ هـ) أن يرشده فى إحدى المناسبات إلى الصواب ، حينما علم بذلك ؛ فقد أخبره الأمير يوماً أن الفراء ألف كتابه : البهىّ ، لعبد الله أبيه ، بأمر من طاهر جده ، فذكّره ثعلب بكتاب : المذكر والمؤنث ، الذى ألفه الفراء أيضاً لآل طاهر ؛ ولما سأله محمد — دون شعور — عن موضوع هذا الكتاب تعلَّم ، بهذه المناسبة ، من ثعلب ، أنه ينبغى أن يقال : ألف درهم واحد[2] . وأسوأ من هذا أن أخاه سليمان بن عبد الله — صاحب الشرطة ببغداد ٢٥٥ — ٢٦٥ هـ — صاغ مثنى لاسم العدد : عشرون ، فى شعر له :

* وقد مضت لى عشرونان ثنتان[3] *

كما أن آخر النابهين من الطاهريين ، وهو الرفيع الثقافة : عبيد الله بن عبد الله (٢٣٣ — ٣٠٠ هـ) — كان نابه الذكر فى تلحين الأغانى بوجه

---

(١) الموشح ص ٣٤٩ فما بعدها .

(٢) إرشاد الأريب ٢/١٣٧ .

(٣) الموشح ص ٣٥٧ . وذكر الرقم : اثنين أو اثنتين بعد المثنى ليس أمراً نادراً فى العربية ؛ ففى القرآن الكريم : « زوجين اثنين » (سورة ١٣/٣) « الهين إثنين » (سورة ١٦/٥١) وانظر أمثلة أخرى فى كتاب Wright II236 وهنا ألجأ الشاعر إلى التكرار وزن الشعر وقافيته (شبيتالر) .

خاص[١] — جلب لنفسه المؤاخذة على شتى أنواع التساهل فى أشعاره ، مثل استعمال : رَضِى ، بالإشباع بدلا من فتح الياء[٢] .

هذا ، فالتربية النحوية ، والإلمام الراسخ باللغة الفصحى ، لم يكونا بعد إذ ذاك ؛ حتى فى الأوساط الراقية للمجتمع الإسلامى ، أمراً مفهوماً بالبداهة فقد صار الكلام على طريقة البدو ، أى بالمحافظة على جميع ظواهر الإعراب — الأمر الذى كان يعد فى القرن الثانى منتهى التقريظ لتعبير أحد البلغاء — يعتد نسجاً على الطراز القديم الذى لا يساير روح العصر . ولما زار الخليفة المعتضد مدينة البصرة سنة ٢٨٣ هـ . مع وزيره القاسم بن عبد الله ، استقبله أعيان المدينة وجمع غفير من الشعب على القوارب والسفن . وقد تقدم إذ ذاك أبو خليفة الجمحى الطاعن فى السن (حوالى ٢٠٥ — ٣٠٥ هـ) ابن أخى العلامة اللغوى : ابن سلام الجمحى ، وتلميذه ، فألقى شكاته بحضرة الخليفة من البلاء الشديد الذى قاسته المدينة من ثورة الزنج ، فى لغة من ذلك الطراز القديم البالى — إذ اعتاد الإعراب منذ صباه ، حتى صار فطرة ثانية له — بحيث دهش جميع الحاضرين[٣] . كما أثبت أبو خليفة أيضاً أنه لغوى متزمت ، باعتراضه على استعمال الكلمة الفارسية : هَمْ ، بمعنى أيضاً[٤] .

ومع هذا ، فليس أوضح دلالة على تلك الهوة السحيقة ، التى قامت فى حياة اللغة على مر القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، بين العربية القديمة الفصحى ، والعربية المولدة الآخذة فى الانتشار ، من أن النحويين أنفسهم فى ختام القرن المذكور ، لم يكونوا يستعملون اللغة الفصحى فى مسامراتهم ومحاوراتهم .

فها هو ذا ثعلب (حوالى ٢٠٠ — ٢٩١ هـ) لم يجر فى محاضراته على قواعد الإعراب ، إذ كان يدخل المجلس ، فيقوم له تلاميذه ، فيقول لهم : أَقعدوا ، بفتح الهمزة[٥] ، كما فى اللهجة الدارجة إذ ذاك ؛ بيد أن العالم المحدث الكبير :

---

(١) الأغانى ٨/٤٤ — ٥٥ .

(٢) الموشح ص ٣٥٧ .

(٣) المسعودى (١٣٤٦ هـ) ٢/٤٦٦ .

(٤) تاريخ بغداد ٤/١٩٤ .

(٥) إرشاد الأريب ٢/١٣٩ .

إبراهيم الحربى (المتوفى ٢٨٥ هـ) لم يجد فى ذلك شيئاً معيباً[١] . ولم يراع ثعلب النحو حتى فى رسائله ؛ فقد كان إذا كتب كتاباً إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة[٢] . وعلى الرغم من ذلك ، كان ثعلب أبرز ممثلى مدرسة الكوفة فى عصره . وكتابه : الفصيح[٣] ، الذى يحتوى فى ترتيب واضح ، وأسلوب مختصر ، على طائفة كبيرة من قوالب اللغة الفصحى التى كانت تهددها إذا ذاك قوالب أقل منها فصاحة ، أو قوالب أخرى من لغة العامة ، هو من أكثر الكتب الأساسية فى مبدأ « تنقية اللغة العربية » تداولا بين القراء . وكان له تأثير باقى الأثر بعيد الخطر ، بعد قرون طويلة ؛ على الرغم من سوء حكم ابن الأثير عليه[٤] . وروى عن نحوى آخر فى هذا العصر ، هو الكوفى محمد بن الحسن الأحوال أنه كان لحاناً يستعمل صيغاً من لغة العامة ؛ وقد سمعه نفطويه (٢٤٠ — ٣٢٣ هـ) يقول مثلا : لم يزلوا بدلا من : لم يزالوا[٥] .

وهذا هو الأخفش الأصغر (حوالى ٢٣٥ — ٣١٥ هـ) الذى اشتهر قبل كل شئ بإخراج كتاب الكامل لأستاذه المبرد ، وكتاب النوادر لأبى زيد ، يستعمل الاسم المنسوب ، فى شعر نظمه ارتجالا ، كما لو كان خالياً من الإعراب[٦] ! وقد فعل مثلا ذلك أيضاً — على غير أهبة واستعداد — معاصره المفجّع ، (المتوفى ٣٢٧ هـ) ؛ على حين أنه راعى التنوين فى إحدى قصائده الفاخرة مراعاة دقيقة[٧] .

وبهذا توطد تماماً الحد الفاصل ، بين العربية الفصحى التى صارت منذ ذلك العهد لغة العلم والأدب ، والعربية المولدة الدارجة ، حوالى نهاية القرن الثالث ، حتى فى الأوساط المثقفة كذلك .

---

(١) تاريخ بغداد ٥/٢٠٦ .

(٢) إرشاد الأريب ٢/١٤٢ .

(٣) نشره : J. Barth ، فى ليبزج سنة ١٨٧٦ م ، ثم نشره محمد أمين الخانجى بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، مع شرحه لأبى سهل الهروى فى مجموعة « الطرف البهية لطلاب العلوم العربية » . وقد أعاد نشره محمد عبد المنعم خفاجى بالقاهرة سنة ١٩٤٩ (المترجم) .

(٤) المثل السائر ص ١٧٥ .

(٥) إرشاد الأريب ٦/٤٨٣ .

(٦) إرشاد الأريب ٥/٣٢١ .

(٧) إرشاد الأريب ٦/٣١٩ .

(٨)

عربية الأدب فى القرن الرابع الهجرى
(العاشر الميلادى)

أخذ النمو والانتشار اللغوى ، فى خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، يطارد العربية الفصحى التى نظم النحاة قواعدها ، والتى قامت على أساس لغة البدو ، ويمعن فى عزلها باطراد من جميع مناطق اللغة الدارجة . بيد أنها ظلت فى الأدب الملكة المتوجة التى أقسم لها يمين الطاعة كل من انتمى إلى الثقافة بسبب أو نسب . لقد منحت كل أثر أدبى ثوبه اللائق به ، وإن كانت فروق الأسلوب بين الشعر الرفيع ، وأبيات الفرص والمناسبات ؛ وبين النثر الفنى المنمق ، وأدب المسامرة والمحاورة ؛ وبين كتابة العلماء ، وكتب الأدب المتخصص ؛ قد صبغت التعبير اللغوى بشتى الأصباغ والألوان. بيد أنها مع ذلك كله لم يعد يسمع رنينها فى الخطاب الحى . وإن لهجات البدو أنفسهم لتعد مع نقائها الأثرى القديم ، خشنة غير مهذبة . وعلى الرغم من ذلك فقد تركت — لأنها وحدها كانت ذات قواعد ثابتة ، ومعايير مقدرة — أثراً خفياً فى اللفظ المنطوق ، وإن كان مختلف الصور بحسب درجة المتكلم من الثقافة ، وباختلاف الوسط الذى يتردد فيه اللفظ .

والنتائج ، التى ترتبت على النمو اللغوى المذكور بالنسبة للأسلوب ، أبرزها قدامة بن جعفر ، فى الحد الزمنى الفاصل بين القرنين الثالث والرابع ، فى كتابه : نقد النثر [١] . إنه يتحدث ، لا عن رأى نظرى فحسب ، بل لقد استفاد من التجارب العملية لكاتب لم يزل يتردد فى أوساط الخِدَم الديوانية بدار السلام ، ويترقى إلى أن صار كاتب الدولة فى إحدى وزارات بغداد [٢] ،

---

(١) لقد ثبت علمياً زيف عنوان هذا الكتاب ، ونسبته إلى قدامة بن جعفر ، فاسمه فى الحقيقة هو : « البرهان فى وجوه البيان » ومؤلفه هو : أبو الحسين بن وهب الكاتب . وقد نشره الدكتور أحمد مطلوب فى بغداد سنة ١٩٦٧ ، ثم نشره الدكتور حفنى شرف بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م (المترجم) .

(٢) إرشاد الأريب ٦/٢٠٥ .

وعرف ما ينتظر من كاتب جيد الأسلوب ، وهو يفرق فى الأسلوب بين السخيف الملحون ، والجزل الفصيح (ص ١٢٠) ؛ فهذا من سمات الطبقات الحصيفة المثقفة من العلماء والحكماء ، وذلك من كلام الرعاع والعوام ، إلا أن الحكماء ربما استعملته فى خطاب من لا يعرف غيره طلباً لإفهامه ؛ وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره ، وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء ؛ فإنه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوه خرجت عن معنى ما أريد بها ، وبردت عند مستعملها ، وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها ، وقعت موقعها وبلغت غاية ما أريد بها (ص١٢٠ س ٤ — ٨) .أما فى الصلات بين الخاصة والعلماء ، والعرب الفصحاء ، والكتاب الأدباء ، فالمقام للأسلوب الجزل ، وهو يتعلم بمجالسة الأدباء ، ومعاشرة الخطباء ، وحفظ أشعار العرب ومناقلاتهم ، والمختار من رسائل المولدين الأدباء ومكاتباتهم . وللمران على ذلك ينبغى التبكير بتعليم الأولاد كتابة الرسائل ، ورواية أشعار القدماء ، وحفظ القرآن (ص ١٢٠ أسفل الصفحة) .

كذلك يتخذ قدامة موقفاً خاصاً تجاه نقاء اللغة ، واللحن فيها : فهو يرى أن الفصاحة الكاملة ، وصحة الإعراب ، لا تتم إلا لأعرابى بدوى نشأ حيث لا يسمع غير الفصاحة والإصابة ، فيتكلم حسب عادته وسجيته . نعم قد فقد بعض هؤلاء قوة السيطرة على لغتهم ، فوقعوا فى اللحن لقربهم من الحاضرة ، ونزولهم على طريق السابلة ، فسقطت عند أهل اللغة منزلتهم ، ودُفعت ورُفضت لغتهم . أما الأعراب الخلص فإنهم متى خوطبوا باللحن لم يفهموا . وفيما عدا هؤلاء لاتوجد اللغة الفصيحة إلا عند المولدين الذين تأدبوا ونظروا فى النحو واللغة ، وأخذوا بهما أنفسهم ، ومرروا عليهما لسانهم حتى صار ذلك عادة لهم . أما لغير هذين النوعين فليس يصح إعراب ، ولهذا كثر الخطأ فى النحو ، وانتشر اللحن والفساد ، بحيث أصبح مغتفراً بوجه عام .

نعم يرى قدامة من الطبيعى أن يستعمل اللحن ويُتعمد له عند الرؤساء والملوك الذين يلحنون ولا يعربون ؛ فإن الرئيس والملك لا يحب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه ؛ ومتى رأى أن أحداً منهم قد فضله فى حال من الأحوال

نافسه وعاداه وأحب أن يضع منه ؛ كما صوب قدامة رأى رجل تكلم فى مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون ، فلحن ، فعوتب على ذلك ، فقال : لو كان الإعراب فضلا لكان أمير المؤمنين إليه أسبق (ص ١٢٤) ؛ كما يذكر أن اللحن قد يستملح من الجوارى والإماء ، وذوات الحداثة من النساء لأنه يجرى مجرى الغرارة منهن وقلة التجربة . وفيما عدا ذلك يطلب ، إذ كان من المترمتين من رجال اللغة ، أن يتحرى الكاتب تجنب اللحن . على الأقل فى اللفظ المكتوب ، الذى لا يغتفر فيه اللحن ؛ لأن الطرف يتكرر فيه ، والرَّوِيّة تجول فى إصلاحه ؛ وليس كمثل الكلام الملفوظ الذى يجرى أكثره على غير روية ولا فكرة (ص ١٢٤ س ٤) .

وقد أضاف قدامة إلى مطالبة النظرية فى « نقد النثر » الإرشاد العملى إلى الأسلوب الجزل فى كتابه « جواهر الألفاظ[1] » . فى المقدمة (ص ٢-٨) يبين فى لفظ قليل دال، المطالب التى ينبغى أن تتحقق فى الأسلوب الجزل ، ويوضح أقواله بأمثلة أحسن اختيارها .

ولما كان يعيش فى عصر شهد النثر المسجوع فيه باكورة ازدهاره ببغداد[2] فقد رأى من الطبيعى أن يستخدم الكاتب الناثر السجع من حيث هو أداة من أدوات الأسلوب ، وألقى وزناً راجحاً لكمال الأسلوب من حيث الشكل والقالب : فنى الترصيع ينبغى أن تكون الألفاظ متساوية البناء ، متفقة الانتهاء ، سليمة من عيب الاشتباه ، وشين التعسف والاستكراه ، يُتَوَخَّى فى كل جزأين منها متواليين أن يكون لهما جزءان متقابلان : يوافقانهما فى الوزن ، ويتفقان فى مقاطع السجع ، من غير استكراه ولا تعسف ؛ كقول بعضهم : « حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وصار تمريضك تصحيحاً ».

وينبغى أن يتسق البناء والسجع ، اتساقاً فنياً دقيقاً ، كما فى الحديث المنسوب إلى النبى [صلى الله عليه وسلم] أنه قاله لجرير بن عبد الله البجلى[3] :

---

(١) طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م .

(٢) انظر : Mez, Die Renaissanec des Islams 231

(٣) كنز العمال ٨/٤٤ ؛ الجامع الصغير للسيوطى ، وهو ينقله عن : غريب الحديث لابن قتيبة .

« خير الماء الشَّبِم ، وخير المال الغَنَم ، وخير المرعى الأَرَاكُ والسَّلَم ، إذا سقط كان لَجِيناً ، وإذا يبس كان دَرِيناً ، وإذا أكل كان لَبِيناً » .

كما ينبغي اعتدال الوزن ، كما فى قولك : « اصبر على حَرِّ اللقاء ، ومَضَض النزال ، وشدة المِصاع ، ودوام المِراس » . على حين أنه لو قال : على حر الحرب ، ومضض المنازلة ، وشدة الطعن ، ومداومة المراس ، يفقد ذلك التوازن .

ولكن قدامة لا يكتفى قط بهذه المطالب المتعلقة بالأسلوب الشكلى ، بل يعنى أيضاً عناية فائقة بالموضوع . فمثله الأعلى هو الانسجام بين القالب والمادة ، وهذا الانسجام يظهر أولا فى صحة التفسيم بحيث يتعانق التعبير اللغوى تماماً مع مجرى التفكير دون نقص ولا زيادة .

وفوق هذا يفترض هذا الانسجام أن يكون كل مقطع جزءاً من المعنى ، ويستقل فى ذاته (توفير تمام الأقسام) . كما أن الجمل المترادفة تتقابل أيضاً فى التفكير (تصحيح المقابلة) ؛ كما فى المثال : « أهل الرأى والنصح ؛ لا يساويهم ذَوُو الأَفْن والغش ؛ وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة ، كمن جمع إلى العجز الخيانة » .

وكذلك فى وسائل التعبير ينصح قدامة ، إلى جانب ما يتصل بالقوالب ، كمراعاة الاشتقاق فى الجناس مثلا ، استخدام ما يتعلق بالمعنى أيضاً ... فيبرز الفكرة إبرازاً جميلا كالاستعارة ، والمبالغة ، والتمثيل ، وما سماه : إرداف اللواحق ، وهو نوع من الكناية فسره بأن تراد من اللفظ دلالة على معنى ، فلا يؤتى باللفظ الخاص بالدلالة على ذلك المعنى بنفسه ، بل بلفظ هو ردفه وتابع له ضرورة ، ليكون فى ذكر التابع دلالة على المتبوع .

حقاً يحمل النثر الفنى فى طياته دائماً مظنة تغلُّب الأسلوب على الفكرة وقدامة نفسه لم يحتط لذلك ، بل ساعد عليه — من حيث لا يشعر — على الرغم من شدة حرصه على الانسجام الحقيقى بين الشكل والموضوع ؛ إذ جعل مكاناً فى وسائل الأسلوب لكل من : « العكس » فى نظم البناء ، أى صوغ الألفاظ ،

و « تكافؤ » المعانى فى المقابلة والتوازى من جهة اللفظ أيضاً ؛ ففى كلتا الحالتين يخضع المعنى للفظ ، ويكون موقوفاً عليه ، صادراً عنه ؛ فمثل : اشكر من أنعم عليك ، يقتضى فى العكس : وأنعم على من شكرك ؛ ويبقى بعد هذا النظر فيما إذا كان ذلك التعبير ذا معنى مقبول . وقد تتولد أفكار عميقة على هذا النحو ، كما تدل عليه الجملة التى ذكرها قدامة عن عمرو بن عبيد : اللهم أغننى بالفقر إليك ، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك .

والأمر كذلك فى حالة « التكافؤ » ، إذ يعين عنصر المقابلة فى الألفاظ مادة التفكير ، كما فى قوله : كدر الجماعة ، خير من صفو الفرقة ؛ فإن التركيب الأول بكلا شقيه ؛ يتطلب التركيب الثانى بكلا شقيه أيضاً . وهذه الجملة تفيد معنى مقبولا ، ولـكن الأمثلة الأخرى التى ساقها قدامة تدل على مبلغ المسخ غير الطبيعى للأفكار ، الذى تؤدى إليه هذه الوسائل اللفظية ، إذا رفعت إلى مرتبة المبدأ والمذهب فى الأساليب .

فمثلا تستدعى صورة الممدوح الذى يحصد بسيفه من يكفر نعمه ، عكس هذه الصورة ، أى أن يزرع بنعمه من يشكره : إنما هو مَالُكَ وسيفك ، فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك .

وهنا تظهر الخطوات الأولى لذلك التطور الذى جعل النثر العربى المسجوع يتحول سريعاً إلى تلاعب لا طائل تحته بالألفاظ الجوفاء، ينمّى تورّمه وانتفاخه كل فكرة طبيعية نمواً غير طبيعى ، ويهوى بها أخيراً إلى الفناء .

وعلى أثر هذه المقدمة يسوق قدامة فنوناً وألواناً من المترادفات العربية ، على أنها مادة الكتاب الأساسية ، تجمع فى ترتيب موضوعى تلك الألفاظ والتعبيرات التى يجوز لصاحب الأسلوب الجيد أن يستخدمها .

على أن وضع الثروة اللفظية فى ترتيب موضوعى لم يكن فكرة مبتكرة ، ولا سنة جديدة ؛ فمنذ القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وضع كثير من اللغويين شتى الموضوعات لعلم المفردات ، وجمعوا الثروة اللفظية المطلوبة فى مجموعات متفرقة . ولكن موازنة بين كتاب قدامة ، وبين المترادفات

الناضجة تمام النضج إبان القرن الثالث ، فى «كتاب الألفاظ [١] » لابن السكيت الكوفى (المتوفى سنة ٢٤٤ هـ) ، تدل ، مع التوافق التام المتجلى فى تشابه المادة وتوافق الغرض ، على فروق عميقة الصدى على الرغم من ذلك .

فابن السكيت يجمع فى طائفة من الموضوعات — يبدو أنه لم يمل عليه اختيارها نظره إلى الحاجة العملية لاستعمالها — تلك الثروة اللغوية الخاصة من لغة الأعراب البدو ، ويذكر فى ذلك كثيراً من العبارات الغريبة ، النادرة ، الخارجة عن دائرة الاستعمال ، مع كثرة استشهاده على ذلك ، إلى جانب الشعر القديم ، بأدب الأراجيز . على حين أن قدامة الذى يعرف الضرورات العملية حق معرفتها ، يقتصر على الثروة اللغوية العامة ، بالمستوى الذى يحتاج إليه الكاتب الإدارى فى معظم رسائله الرسمية ، ويختار الموضوعات التى تتفق عناوينها المختلفة مع ذلك الغرض طبقاً لذلك . يضاف إلى هذا انتقاؤه فى كل موضوع ألفاظاً وعبارات مطابقة للمقاييس الشديدة المتزمتة ، فى مذهبه اللغوى المتطرف .

وبينما يعرض ابن السكيت مجموعة زاخرة بماء الحياة ، ومادة دسمة قوية من لهجات الأعراب الحية ، حتى فى باب الفحش والسباب ، ويستمد من نبع لغوى معين ، أجرت سلساله فرص الخواطر وانفعال مختلف المؤثرات ، إذا بنا لا نجد عند قدامة لفظاً بعيداً ، ولا استعمالا غريباً ؛ بَلْهَ كلمة نابية غير شريفة ، أو عبارة مستهجنة غير متخيرة ، ولا متنخلة . بل عملياً واقعياً ينظم قدامة فى سلك كل عنوان عن وعى ، ما يصح ويحسن فى نظره من الألفاظ والعبارات ، واضحة مستنيرة بعضها إلى جانب بعض ، مع الاختصار فى سياق الشواهد والمصادر وكثيراً ما يعرض فى ذلك أسجاعاً مزدوجة لكيلا يقتصر المُراجع على استخدام اللفظ الذى يحتاج إليه ، بل ليجد كذلك لفظاً آخر ينتظم معه فى قَرَن .

ولم يكن قدامة كذلك ، أول من كتب مترادفات عربية لسد حاجات الكاتب العملية ؛ فهو ينقد فى عبارة مختصرة من المقدمة ، كتاباً على هذا

(١) أخرجه لويس شيخو فى صورة كتاب : «تهذيب الألفاظ» للتبريزى ، بيروت ١٨٩٦ — ١٨٩٨ .

الطراز يبدو أنه ظهر قبل ذلك بقليل . ويستطيع القارئ بسهولة — وإن لم يصرح بما يعني — أن يعرف في ذلك « كتاب الألفاظ الكتابية[١] » لعبد الرحمن ابن عيسى الهمذاني . في الباب الأول من ذلك الكتاب توجد جميع الأمثلة التي نقدها قدامة في مقدمة كتابه . وفوق هذا يظهر في كلا الكتابين ، وفي الترتيب الاختياري الذي سلكاه ، توافق بعيد المدى ، بحيث إنه لا بد أن يكون أحدهما ناقلا عن الآخر ، إذا لم نركن إلى افتراض أنهما جميعاً يتبعان نظاماً واحداً لكتاب مشترك بينهما ، على الرغم من أنهما لا يتساويان في الحجم ، وأنهما أيضاً في الموضوعات المتشابهة التي يعرضان لها[٢] قد اختارا عناوين تختلف تماماً في مدلول ألفاظها .

ويظهر أن الهمذاني كان معاصراً لقدامة أكبر سناً منه ؛ إذ كان كاتباً[٣] لبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف[٤] الذي مات في طبرستان ٢٨٥ ﻫ . وكانت وفاته في سنة ٣٢٠[٥] . وكتابه « الألفاظ الكتابية » لم يصل إلينا في صورته الأصلية ، بل تبدو فيه زيادات ترجع إلى النحوي ابن خالويه[٦] (المتوفى ٣٧٠ ﻫ) ، ولكن لا على أنها تنقيح كامل للكتاب ، بل مجرد تعقيبات[٧] وتصحيحات[٨] .

ويؤخذ من المقدمة أن الباعث للمؤلف إلى تأليف كتابه هو أنه وجد من المتأخرين في الكتابة قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة ، والحرف الشاذ ، ليتميزوا بذلك من العامة ، ويرتفعوا عند الأغبياء عن طبقة الحشو ؛ ووجد آخرين قد توجهوا بعض

---

(١) نشر في بيروت ١٨٨٥ .

(٢) عارض : جواهر الألفاظ لقدامة ص ٢٧ — ٤٥ بالألفاظ للهمذاني ص ٥ — ٢٢ ؛ وقدامة ص ٥٢ — ٨٣ بالهمذاني ص ٢٨ — ٤٦ وقدامة ٤٦٢ — ٣٦٨ بالهمذاني ٢٤٥ — ٢٥٦ .

(٣) تاريخ الطبري ٢١٨٥/٣ .

(٤) الفهرست ص ١٩٧ .

(٥) هكذا في ترجمته التي كتبت في نسخة بيروت مع ملاحظة أنه قيل أيضاً غير ذلك .

(٦) مثل ص ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ من الألفاظ الكتابية .

(٧) انظر الألفاظ ص ٢٠٣ س ١ — ٤ ؛ ص ٢٠٦ س ٦ — ١٤ ؛ ٢٦٧ س ٨ — ١٤ .

(٨) انظر الألفاظ ص ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢٧٥ .

التوجه ، وعلوا عن هذه الطبقة ، غير أنهم يمزجون ألفاظاً يسيرة قد حفظوها من ألفاظ كتاب الرسائل ، بألفاظ كثيرة سخيفة من ألفاظ العامة ، استعانة بها ، وضرورة إليها ، لخفة بضاعتهم . ولمساعدة كلتا الطائفتين جمع طائفة من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، الجارية على مذاهب الكتّاب وأهل الخطابة . دون مذاهب المتشدقين والمتفاصحين ، من المتأدبين والمؤدبين المتكلفين .

وهو يريد بهذا أن يرسل نماذج من كتب الرسائل وأفواه الرجال ، وعرصات الدواوين ، ومحافل الرؤساء ، أى صوراً تحتذى لا فى كتابة الرسائل الخاصة فحسب ، كالتهانى والتعازى والبشارة ، والوعد والوعيد ، والاحتجاج والاختصار ، والتذكرة ، والإنذار ، والاعتذار ، بل كذلك فى كتابة الرسائل الرسمية والوثائق ، مالم يكن موضوعها ذا طابع فنى خاص .

وككتاب « قدامة » يحتوى أيضاً كتاب الهمذانى ، فى أبوابه الستة والستين والثلاثمائة ، على عبارات الأدب الجزل بصورة تجمع فى كل باب ما يتصل بناحية معنوية معينة من المترادفات ، وصيغ الاستعارة ، والأمثال . ونثرت الشواهد فى الكتاب باقتصاد . وأحياناً تساق حكمة مثالية لعظيم ، أو آية من القرآن ، أو حديث للرسول [صلى الله عليه وسلم] . والنصوص النحوية جد نادرة . وقد يحذر من عبارة مستكرهة بقوله : لا يقال[١] ؛ أو قوله مثلا[٢] : كاد يفعل ذلك ، وكاد أن يفعل لغة ضعيفة ؛ أو قوله مثلا[٣] : « أغلفَ السيف » غير مستعمل ؛ وينبغى أن يميز المرء بين الإفراط والتفريط[٤]

أما أن كتاب« الألفاظ الكتابية » للهمذانى قد جمع أصفى لآلىء الإنشاء العربى فى صفحات قليلة ، فقد صرح بذلك الصاحب بن عباد ، الذى كان

---

(١) مثل ص : ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٦٤ .
(٢) ص ٢٣٣ .
(٣) ص ١٢١ .
(٤) ص ١٤٠ وانظر : دوزى فى المادة ؛ وخزانة الأدب ١/٢٨١ .

هو نفسه أحد كبار الكتاب فى القرن الرابع ؛ ولكن أدعى إلى الدهشة ذلك اللوم الذى عقب به على ذلك المدح : لقد جمع شذور العربية الجزلة فى أوراق يسيرة ، فأضاعها فى أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدبين تعب الدروس ، والحفظ الكثير ، والمطالعة الكثيرة الدائمة[١] .

وهذا الحكم ، على لسان خبير ، يبين كيف أنه سرعان ما تحول النثر الفنى إلى بريق لفظى أجوف فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى . فليكن كتاب الهمذانى قد قدم للكتاب ، السطحيين الساذجى التفكير ، المادة اللازمة لتعبيرهم ؛ فإن سبب الانحطاط لم يكن راجعاً إليه ، بل إلى اتجاه الذوق الأدبى فى ذلك العصر ، ذلك الاتجاه الذى أعلى مرتبة القالب على المعنى ، لمجرد الإعجاب برونق اللفظ ولمعانه .

على أن هذا التلذذ الجمالى باللغة ، من حيث جرس الألفاظ ورنينها ، ووزن لحنها الموسيقى ، كان دأباً وديدناً للعرب منذ عهد سحيق . ففيما قبل الإسلام كان للخطيب إلى جانب الشاعر مقام عظيم ، إذا كان صاحب الكلمة العليا فى القبيلة ، ولم يكن من النادر أن يستخدم النثر المسجوع[٢] . . وقد كان السجع يرفع الفَوْرات الانفعالية لدى الكهان القدماء فوق مستوى اللغة العادية ؛ كما كان أداة الأسلوب التى ميزت القرآن من ناحية الصورة ، من حيث هو كلام الله ، عن كلام الناس .

وكانت نتيجة كلتا الحالتين أن منع الأتقياء من استعماله حلية فى كلام الناس . ولكن ، كما يحوط النغمة الرئيسة السائدة فى الموسيقى إيقاع دائم متنقل ، بين أنصاف النغمات وأرباعها ، مع ما فى ذلك من تعاقب مختلف الأوزان والألحان ، وتنوع نغمات الختام ، إلى غير ذلك من الترديدات والتعقيدات ؛ وكما يملأ الوشى والحَلْى من النقش الزخرفى ، الصادر عن حرية الرسام وذوقه المفتن ، لوحات الرسم فى العمارة الهندسية الخاضعة لقوانين دقيقة الخطوط ؛ كذلك وجد مثل الجمال الأعلى فى الكلام المنثور أعلى درجات

---

(١) انظر ترجمة الهمذانى فى مطلع كتاب الألفاظ الكتابية ؛ بيروت ١٨٨٥ .

(٢) انظر : دائرة المعارف الإسلامية EI, 2, 995 مقالة : Pedersen

كماله فى النثر الفنى ، الذى يصور السجع فيه النقاط الثابتة الهادئة محفوفة بالترصيعات وتساوق الألحان ، واللعب بالألفاظ ، وفواصل الكلام وأجزائه المختلفة .

ولهذا علت كلمة النثر المسجوع تدريجاً على الرغم من كل الشبه والمعارضات الدينية ، وانعقد له إكليل النصر فى كافة العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . ومنذ ذلك العهد لم يتنازل عن السجع كتاب نثرى يريد أن يدعى بحق من الأسلوب الفنى .

وبهذا صار التعبير اللاشعورى الذى كان يوحى به التأثير النفسى العميق ، تعبيراً إرادياً محضاً ، تصوغه الصنعة والفن الرفيق . وهنا كان الأدباء الخصيبو الذهن ، الذين ملكوا زمام فنهم ، وحذقوا صنعتهم ، يصقلون ويقومون ثقاف السجع لنثرهم عن تعمد وقصد .

وهذه الكتب المختصرة ، مثل كتاب الهمذانى ، كانت تقدم لهم فى ذلك أجل الخدمات .

(٩)

العربية ولهجات البدو

فى القرن الرابع الهجرى ــ العاشر الميلادى

أعلن مبدأ « تنقية اللغة العربية » ، منذ أول ظهوره فى مختتم القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى ، لغة البدو مثلا أعلى ، يجدر بالمسلم المثقف أن يتخذه قدوة وإماماً . وكانت لهجات البدو ، حتى أواسط القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، هى النبع القراح الخالد ، الذى يستقى منه النحاة وعلماء اللغة معارفهم عن العربية الفصحى .

وبنفس المستوى الذى نضجت به طرق التعبير فى العربية المولدة بين الطبقات الوسطى والدنيا على لغة المجتمع الرفيع ، تغير نظر المثقفين إلى لهجات البدو من الأعراب . فالاحتذاء التام للغة البدو ، الذى كان حتى مختتم القرن الثانى ، أسمى مطامح الحضريين المثقفين ، صار على ممرّ القرن الثالث نوعاً من التقعير الذى يختلف باختلاف الأحوال ، بين أن يكون مطلوباً ، أو داعياً إلى السخرية ، أو غير لائق .

وهكذا صارت العربية الفصحى ، فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، لغة للكتابة قطعت جميع أشواط نموها وتكوينها ، ولم تعد قابلة لزيادة من النمو الحى . فقد غدت لغة قديمة نموذجية ، وتغلب إشعاع الجمال الفنى فى قوالبها على الفاقة الخشنة ، والعراء المستكره ، فى لهجات البدو المعاصرين .

حقاً لقد كانت لغة البدو إذ ذاك أيضاً فى مستوى من الخلوص والنقاء لا تدانيه لغة الزراع والحضريين ، لا سيما إذا كانت ألسنتهم لا تزال محتفظة بمظاهر الإعراب والتصريف القديمة . بيد أنه فى كل مكان كثر فيه اختلاط البدو بغيرهم من طبقات السكان ، وكذلك عند تحولهم بوجه خاص إلى الإقامة

والاستقرار ، وبهذا إلى الاتصال الذى لا غنى عنه بالسكان الزراع الذين كانوا يجدونهم أية سلكوا ؛ فقدت لغتهم من صفائها وخلوصها قدراً كبيراً .

وإلى أى حد كانت الأحوال متشابكة معقدة ؟ هذا ما يكشف عنه بيان الهمدانى (المتوفى ٣٣٤ هـ) عن الصلات اللغوية فى جنوبى الجزيرة العربية حوالى نهاية القرن الثالث[١] . فهنا كانت اللغة الحميرية الأصلية لا تزال تمعن فى الاختفاء أمام عربية الشمال . ويقول الهمدانى[٢] إن اللغة الحميرية القُحَّة المتعقدة كانت سائدة بعد فى المنطقة الممتدة من حقل قَتَاب (عند يَرِيم الحالية) إلى ذَمَار . وقد كانت هذه هى المنطقة المحيطة بظفار عاصمة دولة حمير القديمة . أما فى العاصمة الجديدة للإقليم وهى : صنعاء. ففى أهلها بقايا من العربية المحضة ، ونبذ من كلام حمير (ص ١٣٥ س ٢٥) . ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات ، لكل بقعة منها لغة ؛ لأنها كانت مدينة هامة إذ ذاك أيضاً . وعلى النقيض من ذلك يقع غربى صنعاء مركز ثان للغة الحميرية الخالصة (الحميرية المحضة ص ١٣٦ س ١) يمتدبين شِبَام أقيان عبر سلسلة جبال المصانع حتى جبل : تُخْلىَ .

وكذلك كانت الحميرية كثيرة فى منطقة : خَيْوَان ، الواقعة بعيداً نحو الشمال من صنعاء إلى ناحية صَعْدَة (ص ١٣٥ س ١٥) التى كانت تسود فيها عربية الشمال .

وفيما عدا هذا ، اختلطت الألسنة الأصلية بعربية الشمال شتى وجوه الاختلاط ، إذا لم يكن قد قضى عليها الداخلون من عرب الشمال تماماً .

وقد ضاعف من عناء الهمدانى وتعبه فى تصوير هذه الأخلاط من اللهجات ، أنه لم يكن يرى فقط أن لغة الكتابة هى القدوة والمثال ، بل كان يرى فوق ذلك أنها تصور اللغة الأصيلة الخالصة البعيدة عن التغيير والتبديل ، والتى

---

(١) صفة جزيرة العرب ص ١٣٤ — ١٣٦ .

(٢) ص ١٣٥ س ٤ ، وفى كلمة : المتعقدة ، انظر الفهرس اللغوى الذى عمله : دى غويه للكتاب .

تفرعت منها تدريجاً الألسنة واللهجات التى كانت سائدة فى عصره بالفساد والتحريف .

وعلى هذا النحو وحده يتضح كيف استطاع أن يفترض (ص ١٣٥ س ٢٥) أن صنعاء كانت فيهم بقايا من العربية المحضة ، أو أن يلاحظ أن أهل عدن لغتهم مولدة رديئة (ص ١٣٤ س ٢٤) ، وأن فى بعضهم نُوكاً وحماقة إلا من تأدب منهم .

ولا نستطيع أن نستنتج من مثل هذا الأسلوب فى ملاحظة علاقات اللهجات بلغة الكتابة إلا أن الهمدانى يقيس كل لهجة بمقاييس النحو ، ويحكم عليها من حيث الفصاحة والغتمة من وجهة نظر واحدة ، هى مطابقتها أو مخالفتها للقواعد . وهو ينظر بعد هذا ، هل هى معقدة صعبة الفهم على من خرج عن محيطها ؟

وهكذا نراه لا يفترض أن للّهجتين : المهرية والشحرية ، أساساً من لغة أخرى ، تبتعد عن عربية الشمال إلى حد يتعذر معه التفاهم ؛ بل يصور سكان الشحر والأسعاء على أنهم قوم لا ينطقون نطقاً فصيحاً ، والمهريين على أنهم غُتْم يشاكلون العجم (ص ١٣٤ س ١٧) .

ولا يذكر أكثر من ذلك عن لهجات حضرموت ، فهو يكتفى بأنهم ليسوا بفصحاء ، وربما كان فيهم الفصيح ، وأفصحهم كندة وهمدان وبعض الصدف (ص ١٣٤ س ١٨) .

وهو يعد من الفصيح كذلك تلك اللهجات التى يتكلم بها فى سَرْو مذحج ، ومأرب وَبيْحان ، وحَريب ؛ ففى هذه المناطق الواقعة على طريق العطور والتجارة ، التى كانت تمتد من مأرب عاصمة الدولة السبئية القديمة نحو الشمال الشرقى ، كانت اللغة الرديئة أمراً نادراً (ص ١٣٤ س ١٩) .

وكانت فصيحة أيضاً لهجة المنطقة بين مأرب وذَمَار ، التى يحددها الهمدانى على الصورة التالية : جبل إسبيل الواقع فى الشمال الشرقى من ذمار ، وإقليم كَوْمان المتاخم له من الشمال الشرقى أيضاً ، وإقليم الحَدَا المجاور له ، وجبل

دِقـرار الواقع فى منطقة مأرب . وأخيراً منطقة « قائفة » التى تعد من مناطقة « مراد » (١٣٥ س ٥) . وسكان كومان حميريون فى الأصل ، ولـكنهم صاروا على عهد الهمدانى من قبيلة مذحج[١] ؛ مما يدل على أن خلوص اللغة لا يرجع إلى الدم والنسب .

ويعد الهمدانى أيضاً فيمن يتكلمون بفصاحة أقساماً من منطقة همدان[٢] الممتدة إلى الشمال الشرقى من صنعاء ومأرب حتى نجران ، وما جاور هذه الأقسام أيضاً ، حيث تسكن قبائل بَلْحارث فى الرحبة ؛ على حين أن صَنَاف بالجوف الأعلى دون ذلك فى الفصاحة (ص ١٣٥ س ٢٠) .

كذلك يعد من الفصحاء سفيان بن أرحب ، وهو شعب من همدان ، على الرغم من أنهم يتخذون : أمْ ، بدلا من : أل ، أداة للتعريف[٣] . ويستعملون المثنى بالألف فى جميع الحالات[٤] .

وبنو حرب ، فخذ من همدان فى بلد : وادعة ، وهم أهل إمالة فى جميع كلامهم ؛ على حين أن بنى عمهم[٥] بنى سعد أفصح (ص ١٣٥ س٢٣).

على أن المنطقة العظمى التى تغلب فيها الفصاحة تبدأ فى الشمال من حدود اليمن الحقيقية عند وادعة ، وتمتد عبر سلسلة السروات على الساحل إلى غربى شبه الجزيرة .

---

(١) انظر الهمدانى ص ٩٢ س ٢٢ (وأصلهم حميرى وهم يتمذحجون اليوم) .

(٢) يؤخذ من ص ١٣٥ س ١٩ أن هؤلاء هم : عذر مطرة ونهم ومرهبة وذيبان ، وهو مخالف لما ذكره فى س ١٢ من نفس الصفحة . وانظر فى هذه القبائل : J. Schleifer, فى دائرة المعارف الإسلامية EI II 302 B

(٣) يعد هذا من خصائص لغة اليمن : انظر ابن يعيش على المفصل ص ١٢٢٠ ؛ العينى ٤٦٥/١ ؛ ووردت أيضاً فى مسند أحمد ٣٤٣/٥ فى الحديث : ليس من امبر امصيام فى امسفر » (وفى البخارى فى كتاب الصوم : بأداة التعريف المتادة أى الألف واللام) ؛ ويسميها آخرون لغة حمير ، وهى التسمية المشهورة . انظر الصحاح للجوهرى ومنتخبات من شمس العلوم لنشوان الحميرى ٣٠ ؛ ١٠١

(٤) ذكر ابن جنى أن هذه لغة بلحارث ؛ انظر : O. Rescher, ZA 23 S. 23

(٥) انظر الهمدانى ص ٢٤٤ س ٣ .

وقد ذكر الهمدانى (فى ص ١٣٦ س ٣) من القبائل التى تسكن هذه المنطقة التى يخترقها طريق القوافل ، بعض أفخاذ من مذحج (جَنْب وزُبيد) ، وقضاعة (سِنْحان ونهد) وأزد شنوءة (بنى أسامة [١] وعنز) ، ثم من خثعم [٢] وهلال وعامر بن ربيعة ؛ ثم بعد هذا مرة أخرى فصائل من الأزد (الحِجْر [٣] ودَوْس وغامد ويشكر) ، ثم من فهم فثقيف فبجيلة ، وأخيراً طائفة يسميها بنى على . ولكنه ينبه بوجه خاص إلى أن المجموعات التى تسكن سفوح الجبال الغربية من هذه القبائل (تجاه تهامة) أقل فصاحة ممن يعيشون فى أعالى الجبال . وكما أثر جوار تهامة تأثيراً سيئاً فى فصاحة اللغة فى هذه المناطق ، أثر أيضاً نفس التأثير فى إقليم الجوف ، كما يرى الهمدانى (ص ١٣٥ س ٢١) إذ يقول إن سكان الجوف فصحاء إلا من خالطهم من جيرة لهم تهاميين .

أما أن أهل تهامة ينطقون عربية رديئة ، فهذا ما يستفاد بوضوح من ملاحظته (ص ١٣٥ س ١٠) ، حيث يقول إن بلد الأشعر وعك وحكم (من بنى سعد العشيرة) من بطن تهامة لا بأس بلغتهم إلا من سكن منهم القرى [٤] ، وكما يقول فى (ص ١٣٤ س ٢٥) ، يوجد قبيلتان أخريان فى جوار الأشعريين ، هم بنو واقد ، الذين يعدون من ثقيف [٥] ، وبنو مجيد الحميريون فى الأصل [٦] ، وهما فصيحتان أيضاً .

كذلك فى ناحية صعدة توجد العربية الفصيحة فقط عند بنى خولان ، الذين يخيمون فى السهل ، على حين أن بنى قبيلتهم الساكنين بالمنخفض (الغَوْر) غُتْم غير فصحاء (ص ١٣٦ س ٢) .

ويصف الهمدانى لهجات أخرى بأنها غير فصيحة ، كاللهجات الجارية

---

(١) انظر الهمدانى ص ١١٨ س ١٥ .

(٢) يسميها الهمدانى (ص ١١٦ س ١١) خثعم بن ربيعة بن عامر . ويبدو أنها من هوازن مثلها فى ذلك مثل : هلال بن عامر بن صعصعة ، وعامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

(٣) انظر ص ١١٩ س ٧ .

(٤) كرر الهمدانى فى ص ١٣٥ س ١٨ أن « الأشعر وعك وبعض حكم . . . فصحاء » .

(٥) ص ٥٣ س ٢٥ .

(٦) ص ٥٣ س ٢٠ .

بين ذمار وصنعاء (١٣٥ س ٢٤) ولهجة السكاسك التابعين لـكندة .

ويعد وسطاً فى الفصاحة ، وإلى اللُّكنة أقرب (ص ١٣٥ س ٦) لهجات بعض بقاع تقع فى المنطقة الجبلية ألْهان وأنيس ، (غربى ذمَار) ؛ وإلى اللكنة أقرب أيضاً ما جاور ذلك فى جبال حَرَاز (ص ١٣٥ س ٧) وإن كان بينها ما هو متوسط بين الفصاحة واللكنة ؛ على أن بينها أيضاً ما هو أدخل فى الحميرية المتعقدة ، لا سيما فى القبائل الساكنة بمنطقة جبال الحَضُور .

وعن الجحادب الذين يدخلون ضمن القبائل الأخيرة يقول الهمدانى (فى ص ١٠٦ س ١٨) إن أصلهم حميرى : والجحادب من حمير وقد يتهمدنون .

وأبعد من ذلك نحو الشمال ، فى همدان ، كما يقول الهمدانى (فى ص ١٣٥ س ١٢) هناك إلى جانب عُذَر ، وهِنَوْم ، وحَجور الفصحاء ، يوجد غُتْم أيضاً مثل بعض قُدَم ، وبعض الجبرَ . كذلك فى النجد من همدان ، تسود عربية مخلوطة بحميرية فى سهلى البَوْن والخَشَب[1] .

أما ظاهر همدان ، النجدى ، أى النواحى الواقعة على الأطراف من الهضبة ، فلغتها فصيحة أو أقرب إلى الفصحاء .

ولهجة جُبلان ، فى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبى جبال : ألْهان ، عسيرة الفهم ، فيها تعقد ، على حين لهجة أن يَحْصِب[2] ورُعَيْن المتصلتين بجُبلان من جهة المشرق أفصح من جُبلان (ص ١٣٥ س ٢) ، على الرغم من أن الأخيرين ، وهم رُعَيْن ، حميريون فى الأصل[3] .

وكذلك شأن العلاقات اللغوية فى منطقة الكَلاَع فى الجنوب (ص ١٣٤ س ٢٦) : ففى نجاديها فصاحة عالية ، مع عسرة من اللسان الحميرى (أى من أثر البقايا اللغوية الحميرية فيما يظهر) . وفى سراتها أى أعاليها (المناطق الجبلية) تعقّد . وتسود اللهجة الحميرية تماماً فى المناطق الواقعة بالداخل من النواحى

---

(١) انظر فى اختلاط سكانه : الهمدانى ص ١١١ س ٩ .

(٢) كتبها Müller : يحضب بالضاد المعجمة ، انظر : ملاحظاته على ص ١٠١ س ١ من كتاب الهمدانى .

(٣) الهمدانى ص ١٠١ س ٢٣ (حيث يقول : وجميع مخلاف رعين لا يسكنه إلا آل ذى رعين إلخ) .

الجبلية الوعرة من سَرْو حمير ، لا سيما بين من ينتمون — دون حق —[1] إلى جعدة بن كعب من هوازن التى هى من عرب الشمال ، ومساكنهم فى منطقة الجبال الجنوبية المرتفعة على الطريق من عدن إلى صنعاء . ويقول الهمدانى فى وصف لهجتهم : ليسوا بفصحاء وفى كلامهم شىء من التحمير ويجرون فى كلامهم ويحذفون فيقولون : يابنَ مْعَمّ فى : يابن العمّ ، و : سِمَعْ فى : اسْمَعْ (ص ١٣٤ س ٢١) .

وأبعد من ذلك إلى الجنوب ، توجد لهجة أفصح ، فى لَحْج ، وأَبْيَن[2] ، ودثينة ؛ والعامريون من كندة والأوديون أفصحهم .

ويصف الهمدانى لهجة السكاسك الساكنين بجوار مدينة جَنَد ، بأنها متوسطة (ص ١٣٤ س ٢٦) .

ولهجات جيشان الواقعة جنوبى اليمن ، وما جاورها من بقاع ، حميرية . مثل لهجة السرو (ص ١٣٥ س ١) .

وأخيراً فى المَعَافِر — فى منطقة : تَعِز الحالية — ينطقون فى سافلتها لهجة فيها غُتْمَة ، وفى علياها أفصح من ذلك (ص ١٣٤ س ٢٥ ، وانظر ص ٩٩ س ١٧) .

أما عن اللهجات التى يتكلم بها خارج اليمن ، فيكتفى الهمدانى (ص ١٣٧ س ٨) بملاحظة عامة : وأما العروض ففيها الفصاحة ما خلا قراها ، وكذلك الحجاز فنجد السفلى فإلى الشام وإلى ديار مضر وإلى ديار ربيعة ، فيها الفصاحة إلا فى قراها .

هذا ، بيد أنه لم تكن مراعاة هذا التنوع للحياة اللغوية المتجلى فى اللهجات هى العامل الوحيد الذى حمل المثقفين ، منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، على تغيير نظرهم إلى لغة البدو ؛ بل لقد كان أدعى إلى ذلك التطور هذه

---

(١) انظر الهمدانى ص ٩٠ س ١ .

(٢) انظر ص ٨٨ س ٢٠ .

الحقيقة الثابتة ، من أنه قد حل فى ذلك العهد ، محل النشاط فى الجمع والوصف الذى كان يقوم به علماء اللغة القدامى ، علم للغة منظم تنظيماً فلسفياً زاد الباحثين قوة وثقة من أنفسهم .

فهذه البداهة المطلقة التى كان القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، يعتمد بها كل أعرابى فصيح على أنه قاض لغوى غير منازع ، وكان ينحنى لحكمه ، ويمتثل لنطقه ، قد تركت مكاناً للروية والنظر العلمى ، الذى لم يعد —كما كان فى القرن الثالث الهجرى— يكتفى بأن يعترض على صيغ واستعمالات متفرقة من لغة الأعراب ؛ بل أخذ يبحث فى نقد وتمحيص عن وجه معقول للتضاد بين لغة الأعراب وقواعد النحو .

وقد كان ابن جنى (المتوفى ٣٩٢ هـ) يختلط كثيراً فى سنى شبابه — إذ كان لا يزال يعيش فى الموصل — بأعرابى من بنى عُقَيل ، هو محمد ابن العَسّاف الشجرى الذى كان ابن جنى يقدر صفاء عربيته ، وناقش معه بعض قضايا اللغة[1] . وعلى الرغم من ذلك فقد خصص ابن جنى فى كتابه : الخصائص ، باباً مستقلا لأغلاط الأعراب[2] ؛ ذهب فيه بالاتفاق مع أستاذه أبى على الفارسى (٢٨٨ — ٣٣٧ هـ) إلى أن الأعراب قد يقعون فى اللحن ؛ لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها ، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشىء فزاغوا عن القصد .

وها هو ذا مثلا ينظر إلى الكلمات : حَلَّأت السويق ، بدلا من : حَلَّيت ورثأت زوجى ، بدلا من : رثيت ، ولبأت بالحج ، بدلا من لبيّت ، واستلأمت الحجر ، بدلا من : استلمت ، فلا يقدّر أنها لهجات خاصة أو لغات ذات نصيب من الصحة قل أو كثر ، وقصارى أمرها أن يتساءل : هل يجوز للكاتب البليغ استعمالها ؟ ولكنه يعدّها — ببساطة — من الغلط ، لأنها تتصادم مع أصول الصيغ والقوالب .

---

(١) انظر : إرشاد الأريب ٥/٢٦ ؛ شرح الدرة للخفاجى ص ١٤٨ س ٥ — ١٢ .
(٢) ذكره السيوطى فى المزهر ٢/٢٠٨ — ٣١٠ .

وبما أن لفظ : مصيبة يرجع أصله إلى : ص و ب ، فمن الغلط إذاً جمعه على : مصائب ، بدلا من مصاوب ، وإن انتشرت هذه الصيغة المقيسة على صحائف خطأً فى استعمال الأعراب اللغوى .

وعلى عكس ذلك يعد : أمسلة ، جمعاً قياسياً صحيحاً للفظ : مسيل ، أى مجرى الماء ، لأنه لا يرى أنه مشتق من سال (س ى ل) ، بل من : مسل بمعنى : سال أيضاً .

وكذلك يرى الميم فى : معين ، أى ماء جار ، أصلية ، لأنه فى نظره ليس من : العين ، بل من قولهم : أمعن له بحقه إذا طاع له به ، فكذلك الماء إذا جرى من العين فقد أمعن بنفسه وأطاع بها .

هذا وكون النزاع فى هذه الأمثلة راجعاً فى الأغلب إلى أصل الكلمة واشتقاقها ، لم يأت من ابن جنى عرضاً واتفاقاً ؛ فقد كان لابن جنى فى هذا الموضوع بالذات ، من حيث هو مؤسس مبدأ الاشتقاق الكبير ، رأى علمى ثابت . ولم يكن على استعداد أن يتنازل عنه ضحية لاستعمالات غير المثقفين من البدو .

وعلى النقيض من ذلك ما وصل إلينا فى ذلك التوجع الشعرى الذى قاله عمار الكلبى يشكو من غرور النحاة وجرأتهم[1] :

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا

إن قلت قافية بكراً يكون بها ... بيتٌ خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا

قالوا : لحنت وهذا ليس منتصباً ... وذاك خفض وهذا ليس يرتفع

وحرّضوا بين عبد الله من حمق ... وبين زيد فطال الضرب والوجع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قوم على إعرابهم طُبعوا

ما كان قولى مشروحاً لكم فخذوا ... ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

لأن أَرْضِىَ أرضٌ لا تُشَبُّ بها ... نار المجوس ولا تُبْنَىَ بها البِيَع

(١) إرشاد الأريب ٥/٢٦ . والأبيات مع اختلاف فى الرواية فى شرح الواحدى لديوان المتنبى ، نشر ديترتصى ٥٣٣ — ٥٣٤ (ومجموعها ١١ بيتاً منها ٧ فى شرح العكبرى — القاهرة ١٣٠٨ هـ ١/١٨٠) ، والشاعر هو عمار الكلابى (شبيتالر) .

ويروى أن قائل هذه الأبيات استعمل لفظ : مزعوج ، وجر بذلك على نفسه لوم النحاة الذين لا يجيزون إلا : مُزْعَج . وهذا من الأحوال التى استعمل فيها مفعول الثلاثى غلطاً بدلا من مفعول الرباعى ، مثل : مأثور ، بمعنى مختار ، ومتعوب بمعنى مُتْعَب[١] ، ومفسود ، بمعنى مُفْسَد ، ومبغوض بمعنى مُبْغَض .

والحالة الآنفة الذكر ذات فائدة خاصة من حيث دلالتها على أن التجديدات التى لا يزال يجرى استعمالها فى اللهجات الحديثة لم تقتصر على المدن ، بل ظهرت كذلك عند البدو من الأعراب .

ومثل هذا الموقف المرتاب ، وتلك النظرة الناقدة إزاء عربية البدو . ظهرت عند الأزهرى صاحب تهذيب اللغة (المتوفى ٣٧٠هـ) . لقد امتُحِن بالإسار عندما عارض القرامطة الحج بالهبير[٢] ، وكان ذلك عند رجوعه من الحج سنة ٣١١ هـ ، وكان العرب الذين وقع أسيراً فى أيديهم من قبيلة هوازن وفيهم جماعة من أسد وتميم ، وقد ظل عندهم دهراً طويلا ، وصحبهم فى مشتاهم ومصيفهم . وفى مقدمة معجمه « التهذيب » اعترف بأن مخالطته لهم عادت على كتابه بفائدة عظيمة ، ولكنه قرن إلى ذلك أنهم كانوا يتكلمون بطبائعهم البدوية وقرائحهم التى اعتادوها ، ولا يكاد يكون فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش[٣] .

هذا ، فمن كان يقصد إلى البدو ، فإنما كان يفعل ذلك قصداً إلى ثروتهم اللفظية ؛ وهكذا عاش المعجمى الأشهر : الجوهرى ، فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى بعض الوقت بين قبائل ربيعة ومضر[٤] . ولا حرج فى التلقى عن البدو فى أى مكان ؛ ماداموا محتفظين بأساليب البداوة ؛ فقد حصل

---

(١) وردت هذه الصيغة أيضاً فى النصوص النصرانية العربية ؛ انظر :
Graf, Sprachgebrauch 84

(٢) والهبير زرود فى طريق مكة كانت عنده وقعة ابن أبى القرمطى بالحاج سنة ٣١٢ هـ (النجار) .

(٣) انظر تهذيب اللغة (اقتبسه Zettersteen, MO 14,7:) ، وإرشاد الأريب ٢٩٩/٦ ؛ وابن خلكان ٣١٦/٢ ؛ وانظر أيضاً كلام الأزهرى عن : السليقية ، أى طريقة البدو الطبيعية فى الكلام . فى تاج العروس ٣٨٣/٦ س ٣٠ .

(٤) إرشاد الأريب ٢٦٧/٢ .

الخارزنجى (المتوفى ٤٠٨ هـ) على معارفه اللغوية الواسعة التى لفت بها الأنظار إليه فى بغداد ، من الأعراب الذين نصبوا خيامهم بين طوس وبست[١] .

وذاك الحكم الناقد على لهجات الأعراب يرجع — قبل كل شىء — إلى أن الطبقات الوسطى من المجتمع فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، لم تعد تحوط البداوة بذلك الإطار البديع من الكَلَف والشَّغَف ، والإعجاب العاطفى الشعرى ، الذى كان لايزال ، إبان القرن الثالث ، يرى فى أبناء الصحراء الأحرار صوراً مجسمة للرجولة الحقة وجميع فضائل الإنسانية ، ومُثُلا عليا للوفاء والشرف ، والسخاء وكرم الضيافة .

وحروب القرامطة الرهيبة ، التى زعزعت الدولة منذ ٢٧٧/ ٨٩٠ ، وخَرَّبت أقاليم برمتها ، وأشلَّت حركة التجارة والمعاملة ، وأعملت السلب والنهب فى قوافل الحجيج ، وبلغت أخيراً فى سنة ٣١٧ / ٩٣٠ ، باختطافها الحجر الأسود من حرم الكعبة الحرام بمكة ، منتهى قسوتها وفظاظتها التى اقشعر لهولها كل مسلم ؛ كل ذلك ألقى على البداوة ضوءاً آخر ، فعرضها فى صورة قطعان من اللصوص الجشعين الخونة ، الناقضين للعهود ، الغلاظ الأكباد ، غير المثقفين ولا المهذبين ؛ وسرعان ما غيَّر الرأى العام نظرته إليهم .

وقد ساوق هذا جنباً إلى جنب تغير فى حكم الشعور بالجمال ، والذوق الفنى . ففى أيام الجاحظ كان يعد من أنفس المتع الاستماع إلى الأعراب الفصحاء ؛ أما فى أواخر القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، فيقرر ابن بسام (حوالى ٢٣٠ — ٣٠٢ هـ) فى أبيات يمتدح بها النحو ، أنه كثيراً ما سمع من الأعراب ألفاظاً مستكرهة قبيحة[٢] .

ومن المعايب التى يطعن بها الصاحب بن عباد فى المتنبى ، أنه يحرص على تعاطى التفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء ، أو غُذِى بألبان النوق ، ولم يطأ الحضر ، ولم يعرف المدر[٣] .

---

(١) إرشاد الأريب ٢/ ٦٥ .
(٢) إرشاد الأريب ٥/ ٣٢٥ ؛ العمدة ٢/ ٢٠٦ .
(٣) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى للصاحب بن عباد (القاهرة ١٣٤٩) ص ١٤ .

ومع ذلك لم يكن من رأى ابن عباد أن شاعراً أيا كان يستطيع أن يبرّز فى الشعر دون إحاطة بغريب اللغة . فقد سجل أبو حيان التوحيدى فى رسالته[١] التى كتبها فى مثالب ابن عباد وابن العميد ، موقفاً أنكر فيه الصاحب على أحد الشعراء أن يتجرأ على قول الشعر وهو يجهل كثيراً من الغريب ، ثم سرد عليه — سائلا — طائفة كبيرة من الكلمات النادرة المهجورة من لغة الأعراب ، كان يفخر الصاحب المعتد بنفسه إذ يحيط بمعرفتها ، فسأله عن الهِبْلَع[٢] ، وهو اللَّقِم الأكُول ؛ والعُشَلِط[٣] ، وهو اللبن الخاثر الثخين ؛ والجَلَعْلَع[٤] ، وهو القنفذ وقيل الجُعَل ؛ والقَهْقَب ، بتخفيف الباء أو تشديدها ، وهو الضخم المسنّ ، أو الطويل الرغيب ؛ والباذنجان ؛ والقَهْبَلِس[٥] وهو المرأة الضخمة ؛ والخُزَعْبِلة ، وهى الباطل ؛ والقُذَعْمِلة ، وهى المرأة القصيرة الخسيسة ؛ والقُرْمُوط[٦] ، وهى ثمرة الغَضَى ؛ والجِرْفاس ، وهو الرجل الضخم الشديد ؛ واللَّسُوس ، وهو الرجل الذواق ؛ والنَّعْثل ، وهو الشيخ الأحمق ؛ والطِّرْبال[٧] ، وهو كل بناء عال .

ثم سأله عن الفرق بين العَرِم وهو الدَّسَم وبقية القدر ؛ والرَّدم ، وهو السد ؛ والخذم ، وهو القطع ؛ والخرم ، وهو فصم الخرزة ونحوها ؛ والقضم وهو أكل الشىء اليابس ؛ والخضم ، وهو القطع ؛ والفضخ ، وهو كسر

---

(١) إرشاد الأريب ٢/٣٠١ .

(٢) النقائض قصيدة رقم ١٠١ بيت ٤٥ .

(٣) اللبأ واللبن لأبى زيد ص ١٤٤ س ٥ .

(٤) نقل صاحب تاج العروس شرح هذه الكلمة عن ابن عباد .

(٥) انظر تهذيب الألفاظ لابن السكيت ص ٣٧٣ .

(٦) فى النسخ المتداولة ، كما فى النسخة الخطية : العمروط ، وقد ذكر البستانى فى محيط المحيط ص ١٤٧١ أنها صيغة شعبية للفظ : عرموط ، وهو اللص القوى والمارد الصعلوك ، ولكنه غير ظاهر هنا ، ويرى فيه مرجليوث لفظ الغرموص مشيراً إلى كتاب الحيوان للجاحظ ٣/٤٦ ؛ ولكن هذا فيما يظهر تحريف مطبعى عن : قرموص ، وهو عش للحمام ، وعند ابن الأعرابى : قرموط ، بمعنى الجحر الذى يضع فيه الجعل بيضه .

(٧) فى النسخة المطبوعة : الطريال بالياء ، وهو غلط . وطربال ورد فى شعر جرير : ديوان ص ٤٧٠ س ٣ ، وورد فى شعر دكين الراجز ؛ انظر تاج العروس ٧ / ٤١٦ ؛ انظر معاجم اللغة وانظر الاصطخرى ص ١٢٤ س ٧ . وليست كلمة « طربال » عربية بدوية ، وإنما هى فارسية : تربالى . انظر Vollers (شبيتالر) .

الشيء الأجوف ؛ والرضخ وهو كسر مثل الحصى أو النوى . والفصم وهو الكسر من غير فصل ؛ والقصم ، وهو كسر الشيء مع فصله ؛ والعَبَنْقس وهو الرجُل جدتاه لأبويه أعجميتان ؛ والفَلَنْقَس[١] ، وهو الرجل أبوه مولى وأمه عربية ، والخيتعور[٢] وهو الخَدّاع المخاتل ؛ واليستعور[٣] وهو الباطل .

ثم سأله عن : الشُّنعوف ، وهو قمة الجبل والخُذْرُوف وهو لعبة للأطفال (كالنحلة) ؛ والحَلَزُون[٤] وهو دابة تكون فى الرمث ؛ والقَفَنْدَر[٥] ، وهو القبيح المنظر ؛ والجمعليل ، وهو الذى يجمع كل شيء ، وعن غير ذلك من الألفاظ البدوية التى طرحت من الاستعمال ، ولكن الصاحب لم يمثل فى أسئلته مبدأ « تنقية اللغة العربية » المتطرف ، الذى لا يقيم وزناً إلا للمادة اللغوية الموجودة فى شعر البدو من الأعراب ، بل نظر إلى استعمال ألفاظ الأعراب ، على أنه معتضلة من معضلات الأسلوب . وربما كان استيعابه للألفاظ اللغوية المستعملة خارج محيط الاستعمال البدوى الخالص ، هو سبب الطعن[٦] فى معجمه اللغوى ذى السبعة الأجزاء : المحيط — الذى ألفه مع آخرين فيما يظهر — بأنه غزير المادة ولكنه فقير فى الشواهد .

ومما يدل على أن مبدأ « تنقية اللغة » كان بعيداً عن دائرة اهتمامه ، تلك الحقيقة المعروفة ، من أنه كان يسامر بلغة اللصوص والدجالين (بنى ساسان) أبا دلف الخزرجى ، الذى كان أيضاً شاعراً أفاقاً حِلْسَ طريق ، وقدم للوزير

---

(١) فى النسخة المطبوعة : والعلنكس بالعين المهملة ؛ ولكن انظر فى التضاد بين العبارتين المذكورتين ، الألفاظ لابن السكيت ٤٨٠ والمعاجم .

(٢) فى النسخة المطبوعة : الخيثعور ، بالثاء المثلثة وهو غلط ، وورد لفظ خيتعور مثلا فى ديوان هذيل ص ١٢٩ س ١ ؛ وفى الأغانى ١٥/٨٥ فى بيت موضوع على آكل المرار .

(٣) ورد فى شعر عروة بن الورد ؛ انظر الديوان نشرة : Nöldeke قصيدة ١ بيت ١٠ .

(٤) هذا اللفظ المأخوذ من السريانية ، فسره الدميرى بأنه دود فى جوف أنبوبة حجرية يوجد فى سواحل البحار وشطوط الأنهار ؛ والظاهر أن هذا المعنى كان غريباً على البدو .

(٥) ورد هذا اللفظ فى شعر أبى النجم ؛ انظر تاج العروس ٣/٥٠٤ ، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ص ٢٤٦ (دون تسمية القائل) ؛ وفى النسخة الخطية الفقندر بالفاء قبل القاف ، وقد رأى مخرج الكتاب أنه محرف عن قفندد بالدال ، والصواب : قفندر بالراء كما ذكر .

(٦) كشف الظنون (استانبول ١٣٠١) ٢/٣٩٦ .

قصيدة (القصيدةالساسانية) يصف فيها حياة الأفّـاقين والدجّـالين وسعيهم ، مع استعمال اصطلاحاتهم ورموزهم فى استفاضة وتوسع [١] .

ولـكن على حين يرى ابن عباد معرفة غريب اللغة أمراً لا مناص منه ، يرى أبو حيـان فى تعقيبه على الموقف الذى صوره آنفاً [٢] ، أن أحداً لا يهتم بمثل هذه الألفاظ غير ابن فارس ، أستاذ ابن العميد ، وأن الشاعر لا يصنع بمثل هذه الألفاظ شيئاً . وماذا بين الشاعر وهذا الضرب من الألفاظ ؟ الشاعر يطلب لفظاً حراً ، ومعنى بديعاً ، ونظماً حلواً ، وكلمة رشيقة ، ومثلا سهلا ، ووزناً مقبولا .

فالسهولةوالرشاقة ، والصقلوالانتقاء ، هى المطالب التى تُـتوخى فىالأسلوب البليغ . وهذه الأمور تعد معاييرفىالنثر كما فى الشعر ، أى فى جميع النتاج اللغوى الفنى لذلك العصر الإسلامى الأوسط ؛ وهى مع الإبداع والأصالة الفكرية من حيث المعنى والخيال ، تعير ذلك النتاج الأدبى للقرن المذكور طابعاً عقلياً يتجه إلى الغوص والتعمق .

وهكذا يصبح الشعر الرفيع ضرباً من بلاغة التعبير يقترب من النثر ، وعلى العكس يكتسب النثر المسجوع صبغة شعرية فنية . وبينما كان يفرق من قبل تفريقاً واضحاً بين الشاعر والناثر ، صارت القاعدة أن الـكاتب البليغ يعرف كيف يتصرف فى التعبير بين الخطاب المنظوم والخطاب المنثور .

ولا توجد بين كبار رجال النثر فى القرن الرابع ، من لم يقرض أيضاً الشعر الرشيق ، والنظم الأنيق : الخوارزمى ، البديع الهمذانى ، ابن العميد ، الصاحب ابن عباد ، المهلبى ، الإسكافى . . . وغيرهم .

وإلى أى حد رسخ الشعور والإحساس بشدة القرابة ، وقوة الرابطة ، بين النثر والشعر ؟ هذا يتصدى لبيانه كتاب « الصناعتين » لأبىهلال العسكرى الذى يعالج كلا الأسلوبين جميعاً فى النتاج الأدبى .

---

(١) نحو مائتى بيت من الشعر ذكرها الثعالبى فى اليتيمة ٣/١٧٦ ؛ وانظر فى هذا : Goldziher, Muh. Studien 2, 165, Mez, Renaissance des Islames 238

(٢) إرشاد الأريب ٢/٣٠٢ .

(١٠)

((العربية)) واللغة المولدة

فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى

آذن انحلال الدولة العباسية نهائياً إلى أكثر من عشر دويلات مستقلة سنة ٣٢٤ / ٩٣٦ ؛ بابتداء عهد جديد للعربية المولدة .

فاكتساب التحرر الجديد من سلطان بغداد ، لم يظهر أثره فى السياسة والاقتصاد ، فى كل إقليم ، فحسب ؛ بل كان كذلك بعيد الآثار فى الدائرة اللغوية .

وقد انضمت لهجات كل إقليم ، بعضها إلى بعض ، وتألفت مجموعات من اللهجات تمتاز كل منها عن الأخرى امتيازاً يختلف ، قوة وضعفاً ، باشتراكها فى كيفية خاصة من الأصوات ، والصيغ ، وقواعد التركيب ، والثروة اللفظية .

وهذه اللهجات الإقليمية ، فى العراق وبلاد الرافدين ، وسورية ، وفلسطين ، ومصر ، وشمالى أفريقية ، وأسبانيا ؛ نضحت على لغة المثقفين ، وأكسبتها فى كل إقليم لوناً محلياً ذا طابع خاص ؛ بحيث أقدم «المقدسى» فى كتاب رحلته المكتوب سنة ٣٧٥ / ٩٨٥ ، وفى وصفه للعالم الإسلامى إذ ذاك ، على محاولة تمييز كل إقليم ، من الوجهة اللغوية ، بذكر التعبيرات المحلية الخاصة به .

وبهذا كان كتابه ، الذى يصور ذروة الأدب الجغرافى للعصر الإسلامى الأوسط ، كنزاً لتاريخ العربية المولدة ، ندين له ببيانات نفيسة القيمة ، لاسيما بالنظر إلى جغرافية الكلمات .

ومن ناحية أخرى بقى مقام العربية الفصحى ، من حيث هى لغة الأدب الوحيدة فى العالم الإسلامى ، ثابتاً غير منازع ، نظراً لبقاء وحدة الثقافة فى الدولة كاملة غير منقوصة ؛ بل لقد ازداد انتشار هذه العربية الفصحى عن ذى قبل ؛ لأن جميع الأقاليم أخذت تسهم فى إقامة صرح الأدب العربى بنشاط أعظم من الأوقات التى كان أدب العراق يحتل فيها المقام الأول .

لم تضع حدود الأقاليم حواجز وفواصل فى سبيل الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء ؛ فالقالى (٢٨٨—٣٥٦ هـ) الذى نشأ فى أرمينية ، وتأدب ببغداد، علّم وأنتج فى أسبانيا ، والخوارزمى (المتوفى ٣٨٣هـ) غادر وطنه إلى العراق ؛ وخدم سيف الدولة فى حلب ؛ والبلعمىّ فى بُخارى ؛ والميكالى فى نيسابور ؛ والشار فى سجستان ؛ والصاحب فى أصفهان ؛ وعضد الدولة فى شيراز ؛ وختم حياة مغامراته فى نيسابور[1] . ومثل ذلك طوّف بديع الزمان الهمذانى فى خراسان ؛ وسجستان ؛ وأفغانستان ؛ قبل أن يستوطن هراة ، حيث توفى بها سنة ٣٩٨ هـ عن نحو أربعين عاماً[2] .

وتقدم لنا مثالا آخر حياة المتنبى ، التى كان مجالها بين العراق ، وسورية ، ومصر ، وفارس .

ومثل هذه الحياة فى التجول والمغامرات لم يكن أمراً غير مألوف ؛ بل كان هو القاعدة المطردة . وهو يبين إلى أى مدى تشابهت إذ ذاك فى جميع البلدان نظم الحياة الأدبية وشروطها . فقد طوفت طبقة كبيرة من الأدباء الجوالين فى محيط العالم الإسلامى من أدناها إلى أقصاها ، وكفلت بذلك نشاطاً دائباً فى تبادل الأفكار والمذاهب ؛ وحفظ هذا للغة الأدب طابعها القديم ؛ كما جعلها أيضاً لغة العلم والثقافة فى العالم الإسلامى كله ، التى كانت تفهم أيضاً خارج المحيط العربى .

هذا ، وقد ساعد على اتساع دائرة نفوذ العربية ، أنها صارت لغة فصحى فى درجة ثابتة كاملة الحلقات ، ولم يعد لها تأثير حى متبادل مع لهجات البدو فلم يعد من المستطاع أن ينشأ المرء ويترعرع معها فى بيئة لغوية حية ؛ بل كان عليه أن يتعلمها كما يتعلم لغة ميتة دائرة .

وتشير إلى وجهة نظر الدوائر الإسلامية إذ ذاك حول هذه المسألة ، دعوى المقدسى : أن أسمى درجات العربية كان يتكلم فى فارس ، أى فى

(١) يتيمة الدهر ١٢٣/٤ فا بعدها .
(٢) الكتاب المذكور ١٦٨/٤ فا بعدها .

أرض غير عربية اللغة ، لأن الناس هناك كانوا يبذلون اجتهاداً عظيماً فى دراستها .

وفى ذلك العهد كان يعد فصيحاً من سلم من الخطأ فى مراعاة الإعراب والتصريف ، ولاحظ قواعد العربية فى صوغ الأفعال والأسماء ، وتجنب العبارات الدارجة فى اختيار الألفاظ . وإذن فقد صارت الفصاحة وسلامة اللغة أمراً محصوراً فى الثقافة المكتسبة ؛ ومن هنا غدت حذقاً فنياً يحسنه المرء على تفاوت كبير فى المراتب والدرجات .

وكان لا يعد إذ ذاك من اللحن اللغوى إلا الاصطدام الشنيع مع قواعد النحو ؛ فلم يعد ينشأ اللحن من الاختلاف بين الاستعمال اللغوى القديم والحديث فى مجارى التعبير الحى .

وكثير من التصادم مع روح العربية الفصحى القديمة يواجهنا عند جميع المنشئين فى أوائل العصر الإسلامى الأوسط ، لأن صلب الأسلوب فى لغتهم قد صار فعلا من العربية المولدة .

وحتى لغة المتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ) التى تأثرت تأثراً قوياً بمثل لهجات البدو [قضى الشاعر ما يزيد على سنتين وهو صبى من سنة ٣١٣ إلى ٣١٥ هـ فى قبيلة كلب فى أرض السماوة[١]] تحمل سمات من العربية المولدة .

فهو يتحدث عن رُكَب ناقته[٢] ، فيجمعها على صيغة : رُكُباتها ، بدلا من صيغة التثنية : ركبتيها . وهذا لا يصح توجيهه ، كما ذهب إليه الواحدى ، بالإشارة إلى آية سورة التحريم ٦٦ / ٤ : [إن تتوبا إلى الله فقد صغت] قلوبكما ؛ ولا إلى البيت الذى يتكرر الاستشهاد به كثيراً : ظهراهما مثل ظهور التُّرْسَيْن[٣] . إذ إن التثنية فى هاتين الحالتين مفهومة من تثنية الضمير المضاف إليه ، أو من الاسم المثنى المضاف إليه[٤] . بل هو اتجاه إلى الظاهرة

---

(١) Blachere EI III 844

(٢) انظر : المثل السائر ص ١١ (ديوانه ص ٧٣٨ Diet) .

(٣) انظر فهارس الشواهد لفيشر ٢٥٨ .

(٤) انظر الشواهد والأمثلة التى ذكرها : Reckendorf, Arab. Synta S. 138

الملحوظة اليوم فى كثير من اللهجات العربية . وهى مطاردة الجمع للمثنى وتغلبه عليه .

وشبيه بهذا استعمال لفظ الجمع : أيدى ، بل جمع الجمع : أيادى[١] ، فى مكان المثنى . ففى عهد الصفدى[٢] (٦٩٤ — ٧٦٤ ﻫ) كانت جمهرة علماء اللغة تكتب فى رسائلها الخاصة : المملوك يقبل الأيادى الكريمة ؛ وكان الإحساس اللغوى عند الصفدى تجاه المثنى ضعيفاً بحيث عد وضع لفظ : الأيدى ، بدلا من : الأيادى ، فى ذلك التعبير الخاطىء ، وسيلة كافية لتصحيحه ، ووضعه فى قالب فصيح .

ومن العربية المولّدة — عدا ماذكر — عند المتنبى ، استعماله فعل المطاوعة : انهوى ، بمعنى هوى وسقط[٣] ؛ وتعديته فعل : بعث ، بالباء وإلى جميعا :

[فآجرك الإلـه على عليـل] بعثت إلى المسيح به طبيبـا[٤]

واستعماله لفظ : رؤيا بمعنى الحلم ، بدلا من الرؤية ، بمعنى النظر[٥] ، يرجع إلى أن علامات التأنيث ، كالتاء والألف المقصورة ، والممدودة ، قد اختلطت ، كما فى الكلام الدارج فى اللهجات الحديثة .

ويبدو أن هذه الظاهرة بدت مبكرة فى هذين اللفظين : رؤيا ورؤية[٦] ، ففسروا القرآن من أهل السنة يعدون لفظ : رؤيا ، فى آية سورة الإسراء

(١) يراد من الأيادى ، فى اللغة العربية القديمة غالباً : النعم والحسنات حتى فى مثال الأغانى ١٦/١٤٠ الذى ذكره ركندورف فى كتابه السابق ص ١٣٨ .

(٢) انظر الكشكول للعاملى (١٢٨٨ ﻫ) ص ٢١٥ .

(٣) شرح الديوان للواحدى (Diet) ص ٤٦٤ وانظر : شرح درة الغواص للخفاجى ص ٦٣ وانظر : Fleischer I 173

(٤) من القصيدة ص ٩٩ فى شرح الديوان ج ١ (طبع بولاق ١٢٨٧ ﻫ) ؛ وانظر درة الغواص ص ٢١ .

(٥) مطلع القصيدة ص ٤١٥ من الديوان ج ١ ، وانظر : درة الغواص ص ٩٥ .

(٦) بل ساق ابن برى (المتوفى ٥٨٢) بيتا للراعى ، ذكره الشهاب الخفاجى فى شرح درة الغواص ص ١٤٢ :

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفسا كان قبـل يلومها

انظر الموضع المذكور .

١٧ / ٦٠ فى قصة المعراج بمعنى المشاهدة الحقيقية ، عن نظر فى العلانية ، لا بمعنى الحلم[١] .

ويقرن الشاعر أن الناصبة بالفعل المضارع المرفوع ، كآخرين ممن سبقه[٢] ؛ كذلك يصوغ أفعل التفضيل من أسماء الألوان[٣] : لأنت أسود فى عينى من الظلم .

أما استعماله أفعل التفضيل من الرباعى حيث قال : أذهب للغيظ[٤] ، فقد وجد ما يشبهه فى القرآن والشعر القديم[٥] ؛ وإن طالب المتزمتون فى اللغة بتغيير ذلك إلى أشد ذهابا للغيظ ، لزيادة الإيضاح والبيان .

وفى مثل هذه الأحوال لا يتيسر الفصل فى إرجاع الأمر إلى الاستعمال اللغوى للعربية المولدة ، أو إلى رخصة الشعر جرياً على طريقة اللغة الشعرية القديمة .

وهكذا يتكرر فى شعر المتنبى ما عابه النحاة القدامى ، وإن قاله الكميت ، وأجازه ثعلب ، وهو استعمال : أبرق[٦] ، (بالمعنى المجازى) ، واستعمال لفظ : ذو ، مع الضمير ، بمعنى صاحب[٧] ، له شبهه فى بيت الكميت[٨] ، كما فى النثر أيضاً[٩] .

---

(١) انظر شرح ديوان المتنبى للواحدى ص ٢٤١ (نشر Diet) ، وانظر كتب التفسير فى الآية المذكورة .

(٢) انظر : Diet فى الشرح المذكور ص ٥٠٣ وملاحظته ص ٧١ .

(٣) انظر : Diet ص ٥٢ ؛ درة الغواص ٣١ ؛ خزانة الأدب ٣/٤٨١ ؛ ٤٨٤-٤٨٦ .

(٤) شرح الديوان للواحدى ص ٣٣ .

(٥) انظر : Fleischer Beitraege 4, 249-252 Reckendorf, Syntax, S. 95 Anm. 1 وانظر كذلك مقدمة الدرة الفاخرة فى الأمثال على أفعل لحمزة الإصفهانى (المترجم) .

(٦) انظر ص ١٧ من شرح الواحدى المذكور .

(٧) ذواتها ، فى مطلع القصيدة ص ١٥٧ من شرح العكبرى على الديوان ج ١ .

(٨) انظر ابن يعيش ص ٣٥٥ و ص ٦٣ ...

(صبحن الخزرجية مرهفات   أبان ذوى أرومتها ذووها)

وقد نسب هذا البيت إلى كعب بن زهير — دون حق — فى أشعار الحماسة ٤٤٢ وفى ابن يعيش أيضاً .

(٩) انظر : فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٣٢ س ٧ (نشر دى غويه) .

وإدخال أداة الاستثناء : إلاّ ، على الضمير المتصل[١]، هو وإن كان لم يرد فى الشعر القديم ، فإن الفراء (المتوفى ٢٠٧ هـ) وضع يده على بيت استشهد به على ذلك [٢].

والجمع الشاذ : آخاء[٣] ، أى إخوة ، المصوغ على مثال آباء ، كان معروفاً عند يونس[٤] شيخ سيبويه .

والجمع غير القياسى : رُوس[٥] ، = رُؤْس بدلا من رءوس ، استشهد عليه الواحدى ببيت ، هو وإن نسبه خطأ لامرىء القيس[٦] ، فإنهِ أقدم من المتنبى على كل حال .

كذلك ترخيم اسم العلم : عمرو بن حابس ، إلى عمرو بن حاب ، فى غير النداء[٧] ليس أمراً عديم النظير[٨] وإذا استعمل المتنبى لفظ : حالل[٩] ، فى الشعر ، بدلا من لفظ حالّ ، بالتشديد ، غير الممكن فى الاستعمال الشعرى ، فإنه يلجأ فيه إلى رخصة الشعر التى كان يلجأ إليها الشعراء فى مختتم القرن الأول[١٠].

والأمثلة التى ذكرت أخيراً تنقلنا إلى الحالات التى يتجلى فيها أسلوب

---

(١) إلاك ص ١٣٢ شرح الديوان للعكبرى ج ٢ ؛ وانظر : درة الغواص ص ١١٠ .

(٢) خزانة الأدب ٤٠٦/٢ .

(٣) انظر : الكشف عن مساوى شعر المتنبى للصاحب بن عباد ص ١٦ ، العمدة ٢٠٥/٢ (وفى الديوان شرح الواحدى : كل آبائه ، بدلا من : كل آخائه) وفى شرح العكبرى على الأصل.

(٤) انظر تاج العروس ١١/١٠ .

(٥) انظر شرح الواحدى ص ٩٥ .

(٦) انظر : ملحق ديوانه ق ٢/٢٨ (أهلورت) .

(٧) شرح الواحدى المذكور ص ٥٩٢ .

(٨) انظر خزانة الأدب ٣٨١/١ .

(٩) انظر شرح الواحدى ص ١٧٩ ، وابن الأثير فى المثل السائر ص ١٨٤ .

(١٠) استعمل قعنب بن أم صاحب لفظ : ضننوا (مختارات ابن الشجرى ص ٨) ؛ والعجاج لفظ : أظلل (أرجوزة رقم ٨٨/٢٩) ؛ وانظر نوادر أبى زيد ص ٤٣ ؛ سيبويه ١٠/١ (١٣١٦ هـ) ؛ الموشح ص ٩٤ ؛ وهناك مثال من النثر عند القالى فى الأمالى ٢٥٩/١ (الطبعة الثانية) ، وآخر فى حديث ؛ انظر اللآلى للبكرى ص ٥٧٦) .

الشاعر الخاص فى اختيار الألفاظ وصوغ الكلام . ويتعلق بهذا إيثاره أسماء الإشارة : ذا ؛ ذى ؛ هذا ؛ هذى ؛ بدلا من : هو والذى[١] ، وإغراقه فى ذلك حتى ذكر فى بيت واحد إلى جانب ذا ، ذلك اللفظ المهجور تماما ، وهو : اللَّذْ ، بدل الذى ؛ واللفظ الدارج : هُـو (بدلا من : هُوَ) ، أى بالإشباع بدلا من فتح الواو[٢] .

وفى مطلع القصيدة السادسة والخمسين ، الذى كثر حوله الجدل :

أحاد أم سداس فى أحـاد لُيَيْلَتُنَا المنوطة بالتنادى

أخذ عليه[٣] — بحق — استعماله لفظ : أحاد ، التقسيمى [مثلا : جاءوا أحاد أى متفرقين] وسداس أيضاً ، بدلا من اسم العدد المحض : واحدة ، وستة . يضاف إلى هذا أن هذه الصيغة إنما جرى بها الاستعمال فى أسماء العدد الأربعة الأولى ، وإن أجاز الكميت لنفسه ذات مرة لفظ : عشار[٤] . وفى نفس البيت عد لفظ : لييلة خطأ من حيث الصيغة والدلالة ؛ إذ الصواب يقتضى . لُيَيْلِيَة[٥] ؛ ثم إنه وإن كان لفظ : دويهية ، معناه الداهية العظيمة ، فلا يقتضى هذا استعمال كل تصغير بمعنى التعظيم . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن حذف أداة الاستفهام فى هذا البيت من ظواهر العربية المولدة .

كذلك خاصة أخرى من خصائص أسلوب المتنبى ، وهى تأليفه للجمل والألفاظ على وجه اختيارى إرادى متصنع للغاية ، تعد أمارة ظاهرة على طابع العربية المولدة فى حقيقة أسلوبه اللغوى . وفى الواقع يناسب العربية المولدة — لفقدانها الإعراب — نوع ثابت من نظام الجملة . وعلى النقيض

---

(١) العمدة لابن رشيق ٥٧/٢ .

(٢) انظر الديوان ص ٢٠١ (نشر :Diet) .

(٣) انظر شرح الواحدى والعكبرى على المطلع المذكور ، والحريرى فى درة الغواص ص ١٤٨ .

(٤) انظر الأغانى ١٤٥/١٣ ؛ أدب الكاتب ص ٥٩١ .

(٥) انظر : Fleischer, Beiträge 4, 241

من ذلك نظام الجملة فى اللغة الفصحى القديمة ، فهو فيها حر وإن لم يخل من تقييد [بعض الأمثلة على فساد التأليف وفاها النقد حقها من التشهير [(١)]] . أما الاختيار الذى يؤلف المتنبى نظمه على مقتضاه سقيما مضطرباً ، فيتجلى فيه عجزه عن التعبير الموافق لروح العربية القديمة ؛ على العكس من تقديم المسند إليه فى الجملة الفعلية ، فهو ظاهرة خاصة بالعربية المولدة ، كذلك زيادة ضمير [(٢)] الإسناد المنفصل مع الجملة الفعلية أيضاً دون حصر ولا تأكيد كما [(٣)] فى البيت المشهور [(٤)] .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تسترع هذه الظواهر المخالفة للفصحى فى شعر المتنبى انتباه معاصرية كثيراً ، بله الإحساس بأنها من اللحن . ويدل على ذلك جدل الصاحب بن عباد فى الرسالة التى كتبها فى نقد المتنبى بعنوان الكشف عن مساوى شعر المتنبى [(٥)] . وقد كان الصاحب بن عباد دعا الشاعر إلى زيارته بالرى ، حينما جاء إلى شيراز سنة ٣٥٤ هـ ، ولكن الشاعر الأبى النفس لم يره أهلا لذلك ، فانتقم الصاحب لنفسه فى رسالته المذكورة من أجل هذه الإهانة .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ص ١٨ ؛ الموشح ١٠٢ — ١٠٤ ؛ سيبويه ٩/١ (ديرنبورج) .

(٢) زيادة هذا الضمير هنا أمر شائع جداً وقديم (وقد أخبرنى بذلك فلك مؤخراً)ويتحدث Reckendorf عن هذه الظاهرة فى كتابه. Synt. Verh, 380 مع شواهد للبيد والهذليين . ومن الواضح أن زيادة الضمير هنا ليست ضرورة شعرية ، بدليل وروده فى النثر فى مثل قوله تعالى : « وإن أنتم ضربتم » (١٠٦/٥) وقوله أيضاً « فإذا هى تلقف » (١١٧/٧) شبيتالر .

(٣) ص ٢٠٠ فى شرح العكبرى ج ١ ص ٥٣٣ فى شرح الواحدى .

(٤) أكثر ما أخذه المؤلف على شعر المتنبى تبع فيه رأى النحاة البصريين ، وهم الذين يقصدهم دائماً بوصف المتزمتين فى اللغة ، ولكن المتنبى قد عرف بمتابعة الكوفيين ، وهم يعتمدون كل ماورد عن العرب بوجه من الوجوه . وقد عرف أنهم أوسع رواية من البصريين ؛ على أن كثيراً مما أخذه المؤلف على المتنبى ورد فى بعض القراءات القرآنية ، فضلا عن النصوص العربية (النجار) .

(٥) طبع فى القاهرة (١٣٤٩ هـ) واشتمل الجزء الأول من اليتيمة للثعالبى على مضمون الكتاب المذكور . وقد ذكر القزاز القيروانى (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) شيئا من أخطاء المتنبى فى مقدمة كتابه « مايجوز للشاعر فى الضرورة » (المترجم) .

والرسالة فى صورة خطاب إلى خبير بالشعر طلب إلى الصاحب أن يعرب — كتابة — عن رأيه النقدى فى وضع المتنبى عن مستواه الرفيع . وهو يتظاهر بإبعاد نفسه عن مظنة التحامل فى الحكم — وأى عالم لا يهفو ، وأى صارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو — وأنه لا يبغى إلا حقه فى تعليل حكمه ، وهو حق تمسك به محتذياً حذو الوزير العظيم : أبى الفضل بن العميد ، الذى ساق الصاحب رأيه الحر فى البحترى وأبى تمام ؛ ثم ذكر الصاحب أن الدعوى الخاطئة ، من أن علماء اللغة وحدهم هم الإخصائيون الذين يحذقون النقد ، دعوى على غير أساس ، مشيراً إلى اختيارات ابن الخياط [(١)] التى جمعها دون ذرة من الذوق الأدبى . وبعد أن أزال الصاحب بهذه المقدمة الطويلة ، التى تعدل ثلث هذه الرسالة القصيرة ، هيبة القارىء ورهبته تجاه الفن الرفيع ، وأعده فى مهارة وحذق للجرأة على نقد الشعراء ، خلص أخيراً إلى موضوعه ، بادئاً بمآخذه على أبيات متفرقة للمتنبى (ص ١١ — ٢٦) دون جرى على نظام ثابت .

وهو يتهمه كثيراً بالسرقة ، ويرميه بفساد الحس ، وسوء أدب النفس [(٢)] فى مرثيته لأمّ سيف الدولة ، ويسخر من تعقيد أسلوبه وعسر فهمه ، بحيث لا يعد أسلوب أبى يزيد البسطامى المشهور بالتعقيد شيئاً إليه [(٣)] .

كما يغمز إلى أشعاره الحكمية التى حظيت بإعجاب الكثيرين (ص١٦ س ١١) ويحط من قيمة عدد من أفخم مطالعه ، ويهزأ من ثقة الشاعر بنفسه ، ويتندر بأسلوبه ، حيث لا يتورع ابن عباد أيضاً عن إساءات للفهم مقصودة عن خبث ونكاية (ص ٢٦ س ١) .

وفى هذا يجد الصاحب فى لوازم المتنبى وخصائص لغته مدعاة قوية للهزء والسخرية مثل ميل المتنبى إلى تكرير اللفظ ، وولعه بترديد طرق

---

(١) كان شيخا للصاحب بن عباد ومات ٣٢٠ ﻫ ؛ انظر الفهرست ص ١٢١ ؛ إرشاد الأريب ٦ / ٢٨٣ .

(٢) انظر فى هذه المرتبة : العمدة لابن رشيق ٢/١٢٤ ؛ المثل السائر ص ٤٩٦ .

(٣) انظر الرسالة الحاتمية (نشر البستانى بيروت ١٩٣١) ؛ O. Rescher,Islca 2, 439 - 475 :

التعبير [١] — ذكر فى بيتين ستة عشر وصفاً متتاليات [٢] — والتعسف فى الاطراد [٣] ، والتفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، مثل كلمة : التوارب ، بدلا من التراب (ص ١٤ س ٦) ، وكلمة : جَفَخْتُ [٤] ، أى فخرت (ص ٢٥ س ١٦) .

بيد أنه ، على الرغم من أنه لم يدع فرصة تمر دون النيل من الشاعر والسخرية منه ، وعد حرية الشعر عليه خطأ فاحشاً ، لم يوجه إليه تهمة اللحن فى اللغة أصلا ، مع أن فى الأبيات التى ساقها كثيراً من الأمثلة على اللحن فى الاستعمال اللغوى . وحتى فى هذا البيت :

أحاد أم سداس فى أحاد   لييلتنا المنوطة بالتنادى

الذى يدعو لحنه إلى النقد دعاء صريحاً ، لم يعلق الصاحب (ص ٢٠) إلا بأنه من عيون قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب مالا يدرك إلا بالأرثماطيقى وبالأعداد الموضوعة للموسيقى ، وتصور كلام الحكل ، ورطانة الزط .

وكذلك فى البيت :

أطعناك طوع الدهر ياابن ابن يوسف   لشهوتنا والحاسدو لك بالرُّغم

اقتصر على تخطئة التركيب : الحاسدو لك .

وفى تعرضه للناحية اللغوية لا يتناول إلا ما تعلق بالأسلوب ؛ فهو يجد كلمة : جبرين (ص ٢٠ س ١) ، بدلا من جبريل [٥] ، التى يستعملها

---

(١) انظر فى التكرار العمدة لابن رشيق ٢/٥٩ فما بعدها ، وفى الترديد العمدة ٢/٢ .

(٢) ص ١٨٤ من شرح الواحدى وهناك مثال آخر به ٢١ وصفاً فى ص ٩١ ومجموعة من أفعال الأمر فى ص ٤٩٣ ، ٤٩٥ انظر : العمدة ٢/٢٤ فما بعدها ، وانظر المثل السائر ص ١٨١ ، ١٨٣ .

(٣) انظر : العمدة ٢/٦٨ .

(٤) انظر : المثل السائر ص ٩٨ .

(٥) انظر فى هذه الصيغة وما شاكلها (إسرائين ، إسرافين ، إسماعين إلخ) أمالى القالى ٢/٤٤ (طبع دار الكتب) .

المتنبي لضرورة الشعر : غريبة بغيضة ؛ كما يرى (ص ١٩ س ١٥) أن حذف كلمة : الدُّنَا ، جمع دنيا ، فى شعر المتنبى ، خير من ذكرها ، ويتساءل (ص ١٦ س ١٥) فى سخرية من البيت :

شديد البعد من شرب الشَّمول   تُرُنْجُ[1] الهند أو طلع النخيل

هل استهلال الأبيات أحسن ،أم المعنى أبدع ، أم قوله : ترنج ، أفصح؟.

وهذا التساهل والتجاهل التام الذى يبدو من ابن عباد تجاه اللحن اللغوى فى شعر المتنبى ، هو ظاهرة عامة للموقف الذى أخذه الأدباء فى أوائل العصر الإسلامى الأوسط ، من مسألة الفصاحة وسلامة اللغة ؛ فبين الحين والآخر يتذكر أحد علماء اللغة ، على ضوء معارفه عن أدب القواعد القديمة ، أن هذا التركيب أو ذاك خاطئ فى قانون اللغة الفصحى القديمة ؛ ولكن مثل هذه الملاحظات تأخذ تدريجياً فى الندرة عند أدب الشروح ، حيث يأخذ تفسير الشعر هنا طابع الذوق الأدبى ، الذى لم يعد يصدر فى حكمه عن القواعد والنحو ، بل عن مقاييس الأسلوب بوجه خاص .

وكذلك من نتائج ذلك الطابع الصناعى الفنى للغة الأدب ، احتياج دواوين الشعر الرفيع ، والنثر الفنى البديع — فى ذلك العصر — إلى الشرح والتفسير ، حتى انتشرت لدى الرأى العام فكرة أنه كلما تعسر فهم الأثر الأدبى الفنى ، رجح وزنه وعلا قدره .

والمتنبي لم يكن يقتصر على إنشاد شعره فحسب ، بل كان يشفع ذلك أيضاً بالشرح والتوضيح . ومن رواته ابن جنى السالف الذكر(المتوفى ٣٩٢ ﻫ) الذى يروى أن الشاعر كان يلقى وزناً كبيراً لحكمه بحيث كان يحيل سائليه فى مختلف الأحوال عليه . وقد ذُكِرَ من الأمثلة على ذلك[2] ماورد فى شعر المتنبي من تصغير لفظ : إنسان ، على : أنيسيان[3] ؛ وقوله[4] :

(١) ترنج لغة فى : أترج ، انظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٤٠١ (نشر : Grünert)

(٢) إرشاد الأريب ٢٥/٥ .

(٣) انظر تاج العروس ١٠٢/٤ . والراجح عندى أن أنيسيان كلمة منحوتة من : أنيسى (مصغر إنسى) وإنسان (شبيتالر) .

(٤) ابن خلكان ٥٦٣/١ ؛ وذكره الدميرى فى حياة الحيوان ٤٦١/١ (١٣٤٧ ﻫ)

باد هـــواك صبرت أم لم تصبرا

بنصب المضارع — فى ظاهر الكلام — بعد : لم الجازمة[(١)] .

ومهما يكن من أمر ، فمن الثابت أن ابن جنى كتب شرحين لديوان المتنبى[(٢)] ، أحدهما وهو : الفسر[(٣)] لشرح ديوان أبى الطيب ، مقصور فى جملته على شرح معانى الألفاظ ، على حين يعنى الآخر ، كما يعبر عن ذلك عنوانه : معانى أبيات المتنبى ، بما يحتويه شعره من أفكار .

ولم يكن ابن جنى على الرغم من ذلك — إذا أخذنا بحكم الواحدى فى مقدمته لشرح ديوان المتنبى ، المكتوب ٤٦٢ هـ — أبا عذرتها فى تقريب فهم الأشعار الحديثة للقارىء . إذ يفترض شرح مثل هذه الأشعار — زيادة على الدراية العميقة باللغة والموضوع — تذوقاً لفنون الأدب ، وإحساساً بالجمال الفنى ، وحكماً ثابتاً صحيحاً . على حين أن ملكة ابن جنى كانت ذات وجهة واحدة ، هى ميدان علم اللغة. ولذلك كان يرى عمله ينحصر فى توضيح العبارات التى يستعملها الشاعر ، وبيان صيغها وعملها النحوى . وهو يرخى العنان فى ذلك كثيراً لنزوعه إلى بسط دقائق النحو العربى ، بحيث يشتمل شرحه على القسم الأعظم من النوادر اللغوية التى جمعها أبو زيد ، ويعالج كثيراً من المسائل التى أثارها سيبويه .

وقد أورد كتابه لشرح الظواهر اللغوية النادرة (الغريب) نحو عشرين ألفاً من الشواهد (يحتوى ديوان المتنبى بأكمله على ٥٤٠٠ بيت) ؛ كما حفل بمجموعة كبيرة من الأقاصيص المقفرة التى لا تساعد أدنى مساعدة على فهم

---

(١) فى هذه الضرورة الشعرية التى جرى استعمالها فى كثير من شعر الأوائل (الأعشى قصيدة ١٧ بيت ٢٠ ؛ العجاج رقم ٥١ بيت ١٠ وغير ذلك ، انظر فهارس الشواهد لفيشر ص ٢٥٢) يحمل على أنه أبدل الألف من نون التوكيد الخفيفة فى حالة الوقف، انظر : خزانة الأدب ٥٦٩/٤) نعم يزعم اللحيانى (نزهة الألباء ص ٢٣٦) أن نصب المضارع بعد لم ، لهجة من لهجات العرب ، وروى قراءة شاذة فى ألم نشرح لك صدرك ؛ بفتح الفعل بعد لم ! ولكن ابن جنى فى المحتسب رفض هذه القراءة ولم يسوغها .

(٢) الفهرست ص ١٢٨ .

(٣) نشره الدكتور صفاء خلوصى الجزء الأول منه فى بغداد ١٣٩٠ هـ (المترجم) .

شعر المتنبي . وعلى الرغم من ذلك ينقص ابن جنى الفهم العميق ، والنفاذ فى دائرة المعانى . فمثلا يتحدث المتنبي ، فى ذلك الأسلوب التصويرى المألوف فى شعر الغزل ، عن مطر الدموع الذى يسكبه المحب المغرم ، إذا أظهرت الحسناء المتدللة المتجافية أسنانها البراقة عند الابتسام :

تبلّ خَدَّىَّ كلما ابتسمت   من مطر برقه ثناياها

فيفسر ابن جنى هذا المطر بريق الحبيبة الذى يسيل من فمها إذا ضحكت [١] . وهذا العجز عن الإحساس والشعور بمقاصد الشعر ومراميه يزيد من بخس شرحه وخفة وزنه ، إذا لا حظنا أن مثل هذا الديوان الموسوم بطابع البلاغة القوى ، يتوقف هضمه ، والنفاذ إلى عالم تفكير شاعره ، على الفهم الذى لا يتيسر بسهولة لاستعاراته ومجازاته وأخيلته الكثيرة ، التى تحجب أفكاره أكثر مما تكشف عنها الغطاء .

ومن هنا أيضاً يتجنب شرح ابن جنى ، اللاصق بمفردات الألفاظ ، جانب المعانى ، وتقدم الأفكار والابتكار فيها ، والبناء الداخلى للشعر . وبهذا يغفل الطابع الخاص الذى يميز الشعر العربى المحدث تمييزاً أساسياً عن شعر البدو . فنى هذا الأخير ربما جاز اكتفاء الشارح بتفسير بعض المفردات ، وعبارات الكلام ، وتوضيح غرض الشاعر ومرماه ، بذكر ألفاظ دالة مختصرة مثل : مديح ، هجاء ، فخر ، أو نحو ذلك . أما فى شعر المحدثين ، ولا سيا شعر المتنبي بوجه خاص ، فإن بناء الشعر وتكوينه الداخلى يلعب دوراً عظيما ، بحيث لا يجوز إغفاله فى الشرح والتفسير .

فما يدل على أن القصيدة بتمامها كانت ماثلة أمام نظر المتنبي ، من حيث هى وحدة تامة الأجزاء عند الشروع فى إنشائها ، ما يروى [٢] من أنه كان إذا نظم قصيدة يتغنى بأبياتها بيتاً بيتا ، وكلما توقف مرة بدأ يتغنى من أول القصيدة ؛ وكان يبذل جهداً كبيراً فى الانتقال من جزء إلى آخر .

---

(١) انظر : المثل السائر ص ٢٢٩ .

(٢) انظر العمدة لابن رشيق ١/١٤١

وقد اشتهرت بعض قصائده لإبداعه ، وابتكاره فى أبيات مطالعها ؛ على حين حظيت بعض قصائده الأخرى بالإعجاب بحذقه فى أبيات خواتيمها. ولكن الإلمام بمثل هذه الدقائق لم يكن من فن ابن جنى ولا طبيعته .

ولم يغفل النقاد عن تبيان عيوب شرحه ؛ فقد حمل عليه معاصره ابن فُورَجَه [١] حملة شعواء فى كتابين يطابق عنوانهما موضوعهما : الفتح على أبى الفتح [٢] ؛ والتجنى على ابن جنى ؛ ولم يتورع فى ذلك ، كما يشير إليه نص من كتاب الفتح [٣] ، عن طعنه بتهم تخدش الشرف . ويشهد له الواحدى الذى قرأ الكتابين [٤] ، بأنه محق فيما ذهب إليه فى غالب الأحوال .

كذلك كتب أبو حيان التوحيدى (المتوفى ٤٠٠ هـ) رداً عليه بعنوان : الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى [٥] .

كما أن الشريف المرتضى (٣٥٥ — ٤٣٦ هـ) نقيب الأشراف العلوى الذائع الشهرة ، اشترك فى النزاع بكتابه : تتبع الأبيات التى تكلم عليها ابن جنى [٦] .

وآخر أيضاً ، هو أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الإصفهانى ، صنف لبهاء الدولة البويهى (حكم ٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) تهذيباً لشرح ابن جنى الكبير فى قالب مصحح مختصر [٧] .

---

(١) إرشاد الأريب ٤/٧ ؛ بغية الوعاة ص ٣٩ ؛ وانظر : فريدة العصر لأحمد الحق ص٧١٥ — ٧١٨ ؛ وتسميته : ابن فورجه ، التى ذكرها ياقوت بالتشديد ، هى فى الظاهر صيغة أخرى إلى جانب : ابن فورك .

(٢) نشره عبد الكريم الدجيلى فى بغداد سنة ١٩٧٣ (المترجم)

(٣) إرشاد الأريب ١٢٥/١ .

(٤) ديوان المتنبى ، بشرح الواحدى (نشر : Dieterici) ص ٣ .

(٥) إرشاد الأريب ٣٨١/٥ .

(٦) انظر : إرشاد الأريب ١٧٤/٥ ؛ لسان الميزان ٢٢٤/٤ ، وقد عرف هذا الكتاب فذكره بعنوان : الرد على ابن جنى فى شرح ديوان المتنبى . وانظر : كشف الحجب الكنتورى ص ٩٧ وفهرست الطوسى ٢١٩ (شبرنجر) .

(٧) وقد أخذت عنه ترجمة المتنبى المستفيضة فى خزانة الأدب ٣٨٢/١ — ٣٨٩ .

وأغلب الظن أن ابن وكيع (المتوفى ٣٩٣ هـ) قد حمل أيضاً على ابن جنى ، فى كتابه : المنصف ، الذى عالج فيه مسألة ابتكار المتنبى ومتابعته لمن سبقه ، مع نقد وتحقيق ؛ لأن ابن جنى ألف ما يسمى : كتاب النقض على ابن وكيع فى شعر المتنبى وتخطئته [١] .

وعلى كل حال يبدو أن ابن جنى احتفظ بأسلوب الشرح الذى اختاره ، على الرغم من جميع النقد الذى وجه إليه بسببه ؛ إذ إنه ألف كتاباً خاصاً فى شرح بيت واحد نظمه عضد الدولة البويهى [٢] ؛ وألف أيضاً فى العقد الأخير من حياته شرحاً لأربع مراثٍ من شعر تلميذه : الشريف الرضى (٣٥٩ — ٤٠٦ هـ) عنوانه : تفسير العَلَوِيّات ، فى أربعة أجزاء ، لكل مرثية جزء [٣] .

هذا الطابع ، العلمى الأدبى ، للشعر الفنى ، الذى جعل ذلك الشعر وقفاً ، أو حقاً ممتازاً لشرذمة قليلة من علية المثقفين الضليعين فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، ازداد قوة على قوته فى القرن التالى ؛ بحيث قرن أبو العلاء المعرى بعض دواوينه بالشرح والتفسير ، تيسيراً لفهمها على القارىء .

فأشعار شبابه فى سَقْط الزند ، التى تنم على تأثر قوى بالمتنبى ، والتى صيغت فى أسلوب حافل بالأخيلة والمجازات ، احتاجت إلى شرح سقط الزند (ضوء السقط) .

كذلك النثر المسجوع فى كتابه : الفصول والغايات أنشأه فى سن متأخرة كما يظهر ، والذى قال فيه الرحالة الفارسى : ناصرى خسرو (٣٩٤ — ٤٥٢ هـ) حينما زار الشاعر سنة ٤٣٩ هـ : إنه بقى غير مفهوم فى القسم الأعظم منه حتى لتلاميذ الأستاذ أنفسهم .

---

(١) إرشاد الأريب ٥ / ٣١ .
(٢) إرشاد الأريب فى الموضع السالف .
(٣) إرشاد الأريب ٥/٣٠ .

(١١)

استعمال اللغة الدارجة فى أشعار

القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى

يحمل شعر القرص والمناسبات طابع العربية المولدة ، بمقدار أعظم وأظهر كثيراً من الشعر الفنى الرفيع ؛ كما تعرض مادة غزيرة ، من الشواهد على ذلك ، المختارات المشهورة من أشعار القرن الرابع ، التى تشتمل عليها يتيمة الدهر للثعالبى (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) .

ويقدم الفصل المعقود لابن الحجاج على الأخص (المتوفى سنة ٣٩١ هـ) تصويراً جم الفوائد[١] ؛ فهذا الشاعر الموهوب ، وإن كان زَمِرَ الخلق والمروءة ، والذى ينتمى إلى أسرة رفيعة من ذوى الجاه والمناصب ، والذى شغل منصب « المحتسب » ببغداد ردحاً من الدهر فى ظل بَخْتِيار البويهى (حكم ٣٥٦ – ٣٦٧ هـ) ، ولكنه آثر أخيراً أن يبتز الأموال ، بأهاجيه وملحه ، من ذوى المناصب والرتب ؛ هذا الشاعر يعد أنبه ممثلى أسلوب المجون والسخف .

وهذه وجهة فنية تحللت من جميع القيود المفروضة على صناعة الفن التقليدى ، واختارت – على معارضة متعمدة للشعر الرفيع – الأسلوب المبتذل الدارج ، بما فيه من ضعة ، وبذاءة ، وقذر ، ووضر .

وفى معارضته لوسائل الأسلوب القديم ، يدعى ابن حجاج النبوة فى السخف ، ويطلب إلى معشر السخفاء أن يؤمنوا بالمعجزات التى لا تجارى فى أبياته العارية من الحياء[٢] .

وقد طابق الموضوع المبتذل الدارج أسلوب مبتدل دارج ؛ إذ تتجنب الثروة اللفظية من ذلك الشعر الماجن – فى الأعم الأغلب – كل مختار دقيق

(١) يتيمة الدهر ٢/٢١١ – ٢٧٠ .
(٢) إرشاد الأريب ٤/٧

من العبارات الجارية فى الأسلوب الرفيع مادام هو لا يعارضه ولا يجاريه — وما دام لا يعارض وسائل الأسلوب فى الشعر القديم — وهو يولع بدلا من هذا بتفضيل لغة العامة، متنزلا إلى لهجات الشحاذين، والعيّارين والخلديين، والمكدين. ببغداد [١].

ويرجع إلى هذا الدخيل من لغة بغداد الدارجة، ما يشيع فى أشعاره من الألفاظ الفارسية، مثل: [٢] لَقْلَقَ (ص٢٤٦ س١٦) وهو طائر؛ والفصيح لَقْلاَق. وهو لفظ دارج، وأخذ استعماله [٣] على المتنبى [٤]: [يصيح الحصى فيها صياح اللقالق]. وجُلّنار [٥] وهو الرمان (ص٢٦١ س ١)؛ بَلّور [فى الفارسية الحديثة: بِلُّرْ] (ص ٢٤٣ س١٩)؛ دَوْرَق [فى الفارسية الحديثة: دُورَه] (ص ٢٤٦ س ١٥)؛ نَمكْسود [٦]: اللحم المملح (ص٢٥٢ س١)؛ سِكْباج [٧]: لحم مطبوخ على طريقة خاصة (ص٢٢٠س١) وفى البيت (ص ٢٤٩ س ١٠) وردت الكلمات: دِكْشاب أى ليلة أمس؛ ودُوغَباج، أى اللبن الحامض؛ وزِيرَباج، أى مرق اللحم.

وتكثر العبارات الفارسية بوجه خاص فى قصيدته فى غزل المذكر (ص ٢٦٤ س ٧ — ١٥) التى يسوق فيها حواره مع غلام أعجمى.

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ٢/٢١١، والعيار: الذكى الكثير التطواف، وأطلق على الدجال الواسع الحيلة. والخلدى: نسبة إلى حى فى بغداد، اشتهر بكثرة أهل الحيل على الارتزاق. والمكدى من الكدية وهى شدة الدهر، ويراد به أيضاً الفقراء المتسولون.

(٢) ترجع أرقام الصفحات المذكورة إلى الجزء الثانى من يتيمة الدهر (طبع دمشق ١٣٠١هـ)

(٣) المثل السائر ص ١٠٨.

(٤) شرح العكبرى على الديوان ص ٤٨٩ (بولاق).

(٥) فى الفارسية الحديثة: جلنار، بسكون اللام وتسمى به النساء أيضاً، وكان اسم أم بشار بن برد جلنار (انظر الأغانى ٢٠/٧٤).

(٦) يرد هذا اللفظ كثيراً فى كتاب المقدسى: أحسن التقاسيم، انظر فهرس الأماكن فيه. Dozy, فى مادته ومادة (تمكسود)!

(٧) فى الفارسية الحديثة: سكبا، وسكباجة كثير فى كلام الجاحظ، وذكر فى تاريخ بغداد ١٤/٣٥٩ س ١٧، والأغانى ١٠/١٢٥ س ٧، وورد كتاب فى الأطبخة بعنوان: كتاب السكباج لجحظة وآخر لعبيد الله بن أبى طاهر، انظر الفهرست، وورد لفظ سكباج لقباً؛ تاريخ بغداد ٣/٣٥٧.

وفى ص ٢٤٨ س١٩ ، يستعمل لفظ : هَمْ ، بمعنى أيضاً ، الذى عابه من قبل أبو خليفة الجمحى فى القرن الثالث ، والذى أنكر استعماله من بعد كل من الحريرى (المتوفى ٥١٦ هـ) فى درة الغواص [١] ، وفى القرن السابع الطبيب المشهور بكتابه فى أخبار مصر ، موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ — ٦٢٩ هـ) فى كتاب الذيل الذى ألفه تعقيباً على فصيح ثعلب [٢] .

ويدل على أن ابن حجاج كان يحسن الفارسية لفظ : خَرْكُوش (ص٢٣٥ س ١) الذى معناه فى الفارسية : أرنب ، وشبه به فى الشعر كلباً سلوقياً سريع العدو على المعنى الأصلى للفظ : له أذنا حمار .

كذلك مادة الألفاظ العربية عند هذا الشاعر ، كثيراً ما يستمدها من لهجة بغداد الدارجة : (ستىّ ، راسمال ، شوّش أى أزعج) . وهى غنية بالتعبيرات الدارجة على الأخص فى غزل المذكر ، مثل الكلمة المولدة : سُرْم ، بمعنى الدبر ، والصيغة الشعبية لها صُرْم ؛ وقد تجنب الكتاب الملتزمون للدقة ، بسبب ذلك ، المشترك اللفظى لهذه الكلمة وهو : الصرم ، بمعنى الهجر . وأخذ ابن الأثير [٣] على المتنبى استعماله هذا اللفظ الفصيح الذى يكثر فى الشعر القديم .

ويعبر الشاعر فى ص ٢١٢ س ١٤ عن تحقيره لمبدأ « تنقية اللغة » تعبيراً حاداً عنيفاً .

وهو وإن استعمل لغة الكتابة كذلك ، فقد اشتملت أشعاره الهزلية بوجه خاص ، على سمات مولدة كثيرة : فقد ترك الهمز إلى حد بعيد (ص٢٢١س ١٧ برى بدلا من : برىء؛ ص٢٦٨ س ٢٠ قران بدلا من : قرآن ؛ ص ٢٣٩ س ٤ أظما بدلا من أظمأ ، الخ) ؛ كما ترك حركات أواخر

---

(١) ص ١٨٣ .

(٢) انظر المزهر للسيوطى ١/١٨٠ .

(٣) المثل السائر ص ١٠٧ س ١٠ .

الكلمات فى أحوال مثل : (ص ٢٣٧ س ٧ رُؤِى بدلا من : رُؤَىَ ؛ ص ٢٣٠ بَقِى، بدلا من : بَقِىَ) ؛ وأهمل تشديد ياء النسبة باطراد فى القافية ؛ (مثل ص ٢٢٠ أسفل) ؛ واستعمل لفظ : مَعْ ، ساكن العين باطراد بدلا من فتحها ، واستعمل هُو وهِى بالإشباع باطراد بدلا من فتح الواو والياء (ص ٢٣٨ س ١ ؛ ص ٢٤٩ أسفل ؛ ص ٢١٤ س ٢) .

ومن مخالفة القواعد استعماله المؤنث على : غضبانه[1] . بدلا من : غضبى (ص ٢٥١ س ١٦) .

ويدل على قلق[2] فى قواعد الإعراب والتصريف استعماله : الوَصِى . بالإشباع بدلا من تشديد الياء ونصبها ؛ واستعماله : لا بد أن تحكى (ص ٢٦٥ س ١٨) ، أيضاً بإشباع الياء بدلا من فتحها واستعمال المضارع المرفوع بعد حتى (انظر ص ٢٢١ س ١٥ ؛ ص ٢٤٩ أسفل) ، ومثل : أو ترنى بدلا من أو ترانى (ص ٢٤٥ س ٢) .

ولقد شهد كذلك غربى العالم الإسلامى فى القرن الرابع تحرراً من النماذج والقوانين المتوارثة ، التى أقرها العرف الأدبى فى ميدان الشعر .

بيد أنه فى الوقت الذى اتجهت فيه حركة التحرر المذكورة فى الشرق إلى الموضوع بوجه خاص ، واستنفدت قوتها فى خبث التصوير للرذيلة والسقوط ، واستخدام أساليب المعارضة فى تحقير رفيع الخلال ، وكريم الخصال ، عمد الشعر الأسبانى العربى باختراع « الموشح » إلى إبداع قالب فنى أعلن ثورة فى الأسلوب على العروض القديم .

---

(١) ثبت أنها لغة لبنى أسد .

(٢) لا يصح أن يوصف الغلط فى الإعراب وقواعد التصريف على أنه قلق وتردد ؛ فكل الخصائص المولدة فى هذه الأمثلة المسوقة هنا عبارة عن استخدام لصيغ عامية ، غير أنه لا يمكن القطع دائماً بسهولة بالسبب المؤدى إلى ذلك : أهو الضرورة الشعرية ، أم الأسلوب العامى الساقط ؟ (شبيتالر) .

حقاً لقد ظهر من قبل بالمشرق فى باكورة العصر العباسى شعر الأدوار من المزدوجة والمخمسة ؛ ولكن هذا لم يختلف عن قالب الشعر القديم اختلافاً هاماً إلا من حيث الربط بين اثنين أو أكثر من أنصاف الأبيات — وغالباً من بحر الرجز — بقافية واحدة ، لتكوين دور واحد (على طريقة أ أ ، ب ب ، ج ج ، الخ) ، أو من حيث التأليف بين جميع مصاريع كل دور بواسطة قافية خاصة به ، مع تقفية المصراع الأخير من كل دور إلى نهاية الشعر بقافية مشتركة بين جميع أدوار القصيدة (على طريقة أ أ أ ، ب ب أ ، ج ج أ ، الخ) .

كذلك ما يشبه الأدوار الشعرية من تأليف أنصاف الأبيات على صورة التصريع أى الأجزاء المسجوعة ، لم تشهذ فى أوزانها عن طريقة العروض القديم . وأغلب الظن أن أقدم شعر الأدوار فى أسبانيا يجول أيضاً فى دائرة بحور العروض الأولى ؛ ولكنه حطم بعد ذلك أسوارها .

وعلى ما ذكر ابن بسام[1] ، أنشأ قديماً أحد الشعراء فى بلاط الأموى الأسبانى عبد الله بن محمد (حكم ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ، واسمه محمد بن محمود المقبرى الضرير[2] موشحات فى القوالب المستحدثة [عبارته : وكان يصنعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة] وهذا لا يكاد يفهم منه إلا أن الموشحات قد أخذت هذه الثروة المتنوعة القوالب من حيث العروض فى القرن الثالث الهجرى ، تلك الثروة التى ظهر إلى جانبها الشعر القديم ، بأوزانه الستة عشر ، فقيراً موحد النغمات .

بيد أن ابن بسام قد عد الأب الحقيقى لهذا الفن الجديد عبادة بن ماء السماء (المتوفى ٤٢٢ أو ٤١٩ هـ) الذى أبدع فناً ثابت الدعائم ، وابتكر على الأخص أسلوب « التضفير » الذى فسره ابن بسام بأنه يعتمد فيه على مواضع الوقف فى المراكز .

---

(١) ذكره ابن شاكر الكتبى فى : فوات الوفيات (١٢٩٩هـ) ١ / ١٩٩ .

(٢) انظر : M. Hartmann, Das arabische Strophengedicht I Das Muwassah, S. 69 f.

والظاهر أن مراده بهذا هو الموشحات ذات الأقفال ، التى تتكون من أدوار ، كل دور منها ذو أبيات مجزأة ، توحد صدورها قافية ، وتوحد أعجازها قافية أخرى ؛ مع استقلال كل دور عن الآخر فى قوافى صدوره وأعجازه ، ثم يختم كل دور بالقفل ؛ وهذا الأخير تتحد قوافيه السائدة فى جميع القصيدة .

وفى الحق تدل موشحتا عبادة ، اللتان ساقهما الكتبى ، على عناية فائقة بإبداع القالب ؛ وكنموذج لذلك نذكر الدور الثانى من الموشح الثانى ، مع قفله :

رشيقة المعاطف ... كالغصن فى القوامِ
شهدية المراشف ... كالدر فى النظامِ
دِعْصِيَّة الروادف ... والخصرُ ذو انهضامِ

* * *

جوالة القلاده ... محلولةٌ عِقْدَ الإزارِ
حسنها أبدع ... من حسن ذَيَّاك الغزالِ ... أكحلِ المدمع

فالأجزاء الستة الأولى تؤلف الدور ؛ وما بعد ذلك هو القفل الذى يشتمل على القوافى المكررة فى جميع الموشحة ، وكل دور تقفى أجزاؤه تقفية خاصة كما ذكرنا . فالموشحة المذكورة تتألف من ستة أدوار ؛ مطلع الدور الأول :

لله ذات حسن ... مليحة المحيَّا

ومطلع الثالث : ليلية الذوائب ... ووجهها نهار
ومطلع الرابع : سفرجل النهود ... فى مرمر الصدور
ومطلع الخامس : عفيفة الذيول ... نقيسة الثياب

ويتحد الجزء الأول من القفل مع أجزاء الدور فى الوزن فقط ، أى لا فى القافية ، على حين تختلف بقية الأجزاء عنها فى الوزن والقافية ، ولا تتحد

أجزاء القفل بعضها مع بعض ، ولكنها تتحد مع أجزاء بقية الأقفال فى الموشحة كلها ، كما ذكر ، أى أن كل جزء يتحد مع الجزء المقابل له ، فقفل الدور الثالث مثلا كما يلى :

ناديت وافؤاده من غادة ذات اقتدارِ

لحظها أقطع من حد مصقول النصالِ فى الفتى الأشجع

وقفل الدور الأخير :

فى النوم لى شَمرَاده وحكمها حكم اقتدارِ

كلما أُمنع منها ، فإن طيف الخيال زارنى أهجع

والقفل الأخير من الموشحة ، وهو الذى يسمى : الخَرْجَة ، هو القمة التى تتجه الموشحة كلها إليها ؛ ولذلك يحسب حسابها من أول الشروع فيها ؛ فجميع الأدوار الأولى، عليها أن تجمع من شتات انتباه السامع لتوجهه إلى القفل الأخير . وهذا عليه أن يرضى تطلع السامع وتشوفه بمفاجأة معنوية ولفظية تشبع ميوله ، وتقنع فضوله ؛ كما يؤخذ معنى ذلك من : «دار الطراز » لابن سناء الملك ، فى القفل الأخير من هذه الموشحة ، تؤثر هذه الكلمات الأخيرة أعظم التأثير :

. . . فإنْ طيف الخيال زارنى أهجع

وفى هذه الموشحة ، كما فى كل موشحة تامة ، تقدم ، على جميع الأدوار ، قفل مماثل لجميع الأقفال ، ويسمى : مطلع الموشحة :

حب المها عباده من كل بَسَّام السّوار

قمر يطلع من حسن آفاق الكمال حسنه الأبدع

هذا الفن المتنخّل الدقيق من التقفية والتسميط ، الذى يضفر أجزاء متباعدة من الموشحة ويداخلها بعضها فى بعض ، ويطبع الموشحات بأسمى طابع من الكمال الفنى الناضج ، ربما كان هو المعنى « بالتضفير » الذى يعد « عبادة ابن ماء السماء » أبا عذرته .

كذلك الموسيقى التى كانت تلحن لهذه الموشحات [كل الموشحات كان هدفها الغناء] كان عليها أن تراعى هذا التنوع والافتنان ، وأن تأخذ أيضاً طابع التعقيد الحافل بالكمال الفنى .

ولم يكن هذا التكوين العروضى البديع ، المعتمد فى بناء هيكله على قواعد غريبة على الشعر البدوى الفصيح ، ولا ذلك الفن الغنى المتنخل فى التقفية والتصريع ، ولا تلك الموسيقى الرفيعة المعقدة ، هى كل الخصائص التى ميزت بين الموشحات ، والشعر الفنى القديم . بل كذلك يحملنا القالب اللغوى لهذا الفن الجديد على ملاحظة التحرر أيضاً من القيود الأولى .

فعلى رأى ابن سناء الملك[1] ، ينبغى أن تكون « الخرجة » — فيما عدا المديح لأنها تتضمن اسم الممدوح فى هذه الحالة — بعيدة عن أسلوب السخف الحجّاجى (نسبة إلى ابن حجاج الماجن الذى ذكر آنفاً) ، وأن تكون صيغتها على قالب ابن قُـزْمان ، أى فى أسلوب ملحون مجرد من الإعراب ، كما يحسن أن تشتمل على عبارات دخيلة وكلمات أعجمية اللغة[2] .

نعم لم يكن من السهل ، مع ذلك التغيير الشديد الذى أحدثه ترك الإعراب فى مواد الألفاظ ، صوغ عبارات من اللغة الشعبية تصلح لذلك النظام العروضى العسير ، الذى يعتمد على مقاييس الحركات ، ولا يتحمل التطويل الزائد ، ولا المقاطع المغلقة غالباً ؛ وعلى ابن سناء الملك أن يذعن لأن الخرجة فى أحوال كثيرة لا بد أن تكون فى أسلوب نحوى فصيح ، بل هذا هو المستفيض الغالب فيما بقى من الموشحات .

أما أن رأى ابن سناء الملك فى ضرورة صوغ « الخرجة » باللغة الشعبية الدارجة لم يكن مجرد نظرية مفترضة ، بل حقيقة عملية ، فهذا مالا تنحصر الدلالة عليه فيما ورد من الموشحات الجارية على ذلك ؛ بل ما تدل عليه النماذج

---

(١) انظر تلخيص أقواله فى كتاب M. Hartmann السالف الذكر ص ٩٩ فما بعدها .
(٢) ص ١٠١ من الكتاب المذكور .

الواردة فى ديوان: يهودا هالّيفى (المتوفى ١١٤١ م)، والتى تستعمل العبارات العربية والأسبانية القديمة مختلطاً بعضها ببعض على سواء؛ كما تدل على ذلك قبل كل شىء موشحات ابن قزمان (المتوفى ٥٥٥ هـ) التى صيغ كل ما وصل إلينا منها باللغة الدارجة.

ذلك أن محاولة نظم «الزجل» أى الموشحة الشعبية الأسلوب، إنما أمكن التجاسر عليها بعد أن تقدمت الموشحات الفصيحة باقتباس عبارات وجمل مبتذلة من لغة الشعب، وهيأت بذلك الصيغ والقوالب فى لغة العامة للاندماج فى أوزان الموشحة. على أنه يتراءى أن هذا المزج والتقريب بين لغة الكتابة الفصيحة، واللغة الدارجة العامية، فى الاستعمال الفنى، بقى مقصوراً على الأندلس؛ على الرغم من أن أسلوب الموشحة قد شق مجالا لاحتذائه وتقليده خارج الأندلس، فى شمالى أفريقية، ومصر، وسورية، وبلاد الرافدين.

أما لماذا لم ينفذ إلى العراق[1] ؟ فربما رجع ذلك إلى أن الموسيقى الفارسية هنا كانت أسبق إلى التغلغل والاستيطان، إذ إن الموشحة ترتبط بالموسيقى العربية أشد الارتباط، وحتى يومنا هذا تكون الموشحة جزءاً أسياسياً لا يستهان به فى محيط الموسيقى العربية[2].

---

(١) العراق هو بلاد الرافدين، والمؤلف هنا متناقض فى أقواله! (المترجم).

(٢) يشتمل كتاب الأغانى المصرية لمحمود حمدى البولاقى المسمى «المغنى المصرى» على ٥٠٠ صوت منها ١٣٤ موشحة قصيرة، القاهرة ١٣٦٦/١٩٠٨.

وصف المقدسى للصلات اللغوية فى المحيط الاسلامى

إبان القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى

كتاب : أحسن التقاسيم ، فى معرفة الأقاليم ، الذى أكمله أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى [1] سنة ٣٧٥ / ٩٥٥ ، والذى يعد أنضج نتاج للعصر الإسلامى الأوسط فى ميدان وصف الدول والبلدان ، لا يحتوى على طائفة صالحة من الأخبار عن الأمور اللغوية فحسب ، بل هو فى نفس الوقت عظيم الفائدة من حيث أسلوبه الخاص .

فكما بلغ المؤلف الذروة فى كلا مقصديه على سواء : من حيث استيعاب النظرة ، وقوة الملاحظة تجاه البلدان والشعوب ؛ ومن حيث الإحساس الدقيق ، والذوق المرهف ، أمام الأسلوب الأدبى ، والتعبير اللغوى ، عرف أيضاً كيف يوفق بين مطالب الكتابة فى الناحية العلمية الخاصة ، ومذاهب الأسلوب الأدبى الرفيع .

ويدل استخدامه ذلك التعبير البلاغى : التقسيم [يعبر لفظ التقسيم فى اصطلاح البلاغة عن استيفاء أقسام المعنى المراد بيانه] على توفر الميل الأدبى عند المقدسى ، كما يدل على ولعه بالنثر المسجوع ، الذى لم يقتصر على استعماله فى المقدمة ، بل تعاطاه فى مواضع كثيرة من صلب الكتاب .

ولشدة تعلقه بالسجع لا يندر أن يؤثر عبارات متنخلة متخيرة ، مثل استعماله لفظ : أثام ، بمعنى خطيئة ، مريداً به الخمر (٤١٠ س ٥) ولفظ : دِقَال ، أى قلاع ، بمعنى السفن (ص ٤٥٩ س ١٥) .

كما حبب إليه تحلية عبارته بالاقتباس القرآنى ، مثل : من كل فج عميق

---

(١) « كتاب أحسن التقاسيم فىمعرفة الأقاليم » نشره M.J. De Goeje للمرة الثانية سنة ١٩٠٦ (المكتبة الجغرافية العربية ٣) .

(ص ٢٧٨ س ٧ سورة الحج ٢٢ / ٢٧) ؛ وما يدريك (ص ٣٧٨ س ٤)، وغير ذلك .

وأحياناً يضمن عبارات أدبية من الذاكرة ، مثل تعبيره عن قمصان الدروع القديمة التى رآها فى تيماء ، والتى بطل استعمالها فى أزياء السلاح لعهده بالدروع الداوودية (ص ٢٥٣ س ٤) .

وبحكم اعتياده على ملاحظة الفروق بين مختلف البلدان الإسلامية فى الكلام ، والأصوات ، واللغة ، لم يقتصر على ذكر قائمة من العبارات المحلية (ص ٣٠ س ١٥ — ٣٢ س ٣) بل أكد أيضاً أنه سيتكلم فى وصف كل إقليم بلسانه ، ويناظر على طريقته ، ويضرب من أمثاله ، فإذا تكلم فى غير الأقاليم — من أجزاء الكتاب — تكلم بلغة الشام لأنها إقليمه الذى به نشأ[1] .

ومما يدل على أن مراده من لغة الأقاليم التى يتكلم بها لغة المثقفين لا لغة الشعب الدارجة ، دعواه أن أصح العربية يتكلم بها فى المشرق ، أى فى الإقليم اللغوى الفارسى ، لأنهم يتكلفونها تكلفاً ويتعلمونها تلقفاً ؛ (ص ٣٢ س ٨) .

ومن هذه الناحية كان ذلك الكتاب كنزاً ثميناً من الوجهة اللغوية . فهو يذكر (ص ٩٦ س ١١ — ٩٧ س ٢) أن أصبح العربية فى جزيرة العرب عند هذيل ، ثم فى قسمى نجد ، ثم أخيراً بقية الحجاز ، على حين يصف لغة بلاد السواحل (الأحقاف) بأن لسانهم (وحش)[2] .

وفى مدينة الثغر : صُحار ، تسود اللغة الفارسية ، فى التجارة والمعاملة . كذلك الثغران : جدة وعدن ، أكثر أهلهما فرس ، بيد أن العربية هى لغة الكتابة والتفاهم .

ويذكر المقدسى الحميرية التى لا تفهم بسهولة .

---

(١) ص ٣٢ س ٤ .

(٢) « وحش » عبارة يولع المقدسى بكثرة إستعمالها ، انظر دى غويه فى الفهرست اللغوى للكتاب .

ومن خصائص لهجة عدن التزام المثنى فى جميع الأحوال : يَـدَيْـنه ورِجْـلَيْـنه ، مع الجمع بين النون والإضافة ، وجعلهم الجيم كافاً ، أو جيما غير معطشة[١] وساق مثلا لذلك الحديث الذى روى فيه بدل لفظ : رِجْـس ، رِكْـس[٢] .

وهو يصف عربية العراق (ص ١٢٨ س ٧ — ٩) بأنها حسنة فاسدة ، والظاهر أن مراده أنها حسنة الوقع فى الأذن وإن لم تطابق قواعد النحو ؛ بل هو يعد لهجة بغداد أجمل اللهجات العربية وأحسنها لساناً (ص ٣٤ س١٤) ، على الرغم من اعترافه فى موضع آخر بأنه طالما خجل من اللحن اللغوى على لسان قاضى القضاة ببغداد ، دون أن يرى أحد فى ذلك عيباً[٣] .

ولهجة الكوفة أصح نسبياً لقربهم من البادية وبعدهم عن النبط ، أما ضرة الـكوفة القديمة : البصرة ، فإنها منذ استيلاء الزنج عليها سنة ٢٥٧ هـ تأخرت كثيراً ، بحيث لم يرها المقدسى أهـلا لعدها فى هـذا السياق أصـلا ؛ فهو يقتصر على ملاحظة أن اللهجة العربية فى البطائح (المستنقعات بين البصرة وواسط) ركيكة قبيحة (ص ٣٢ س ٩ ؛ ٣٤ س ١٦) ؛ ولا شك أن هذا نشأ من اختلاف السكان هناك بين قبائل عربية ، وأنباط . وأخلاف السكان الآراميين القدامى ، وأمشاج الزط الذين أسكنهم الحجاج هناك[٤] ، وأخيراً العدد الذى لا يحصى من الزنج ؛ وهو يقول عن سكان البطائح النبط باختصار : ليس لهم لسان ولا عقل .

ومثل عربية العراق ، كذلك عربية إقليم ما بين النهرين فى حكم المقدسى (ص ١٤٦ س ٢ — ٣) حسنة ، أى حسنة الجرس فى السمع ، وإن لم تكن سليمة من جهة النحو ؛ وعلى كل حال فهى من هذه الوجهة أصح من لغة سورية ، لأن سكان ما بين النهرين عرب بدو فى الأعم الأغلب ،

---

(١) انظر فى هذا : Marcais, EI I,1090

(٢) انظر البخارى فى كتاب الوضوء ولفظ رجس فى Wensinck, Concordance

(٣) ص ١٨٣ س ٥ ، وعبارته : كنت إذا حضرت مجلس قاضى القضاة ببغداد أخجل من كثرة ما يلحن ولا يرون ذلك عيباً .

(٤) انظر : دائرة المعارف الإسلامية EI, IV 1337

كما تدل على ذلك أسماء مناطقها : ديار بكر ، ديار ربيعة ، ديار مضر ؛ وهو يمدح على الخصوص لهجة الموصل بأنها أحسن لهجاتها ؛ كما تمتاز صيدا بين مناطق سورية ، بأنها (أوحش) لهجاتها (ص ٣٤ س ١٥) .

وعلى الرغم من أن لغة أهل الذمة بمصر (أى المسيحيين) هى القبطية (ص ٢٠٣ س ٥) ، فإن لغة البلاد هى العربية ، وإن كانت لهجة يصفها المقدسى بالركاكة والرخاوة (أى الإهمال من جهة النحو) ، لأن السكان اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب ، والكتاب الذين يتمتعون بهذه الثقافة ، يختارون من النصارى (ص ١٨٣ س ٥) .

وأخيراً يجد المقدسى لهجة المغرب شديدة الاختلاف عن عربية البلدان الإسلامية الأخرى ، منغلقة عسيرة الفهم ، أما البربرية فلا يستطاع فهمها أصلا ، (ص ٢٤٣ س ١٠) .

وعظيمة الفائدة — بوجه خاص — تلك القائمة ، المشار إليها آنفاً ، من الاستعمالات المحلية ؛ فهى تشتمل على مترادفات من أوصاف الأشخاص والأشياء التى يحتاج إليها المسافر ، وتتبادر إلى ذهنه : أنواع السفن ، وأوصاف رجالها ، ومفردات خاصة بالملاحة ، واصطلاحات جغرافية ، وألفاظ المكس ورجاله ، والمقاييس والموازين ، والخانات والفنادق والعبيد والخدم ، والمراتب المختلفة ، والأسواق والمتاجر ، والتجار والبضائع ، والأقمشة والثياب ، وأدوات النعال ، والأوعية ، والنباتات ، والحيوانات الأليفة — يضاف إلى ذلك قائمة تشتمل على ٤٩ صنفاً من أجناس التمر ، و٢٤ نوعاً من سمك دجلة الذى يجلب إلى سوق البصرة (ص١٣٠ ملحوظةP) — والصيادين ورطانتهم ، وعجلات الرى والسقى ، والقنوات ومجارى المياه ، وأخيراً اصطلاحات الإدارة والحكم

نعم هو لا يحدد فى ذلك مناطق استعمال كل تعبير ، بيد أن مواضع أخرى من كتابه ، وورود الكلمات فى مظان أخرى ، واشتقاقها اللغوى ، أو بعض التقييدات التى توجد عند كتاب آخرين ، كل ذلك يساعد أحياناً على ذلك التحديد .

وهكذا يبين فهرست أسماء السفن فى حكاية أبى القاسم بن المطهر [١] مثلا، أن أكثر أسماء السفن الخمسة والثلاثين التى عدها المقدسى [٢] كانت تستعمل فى العراق — وإن لم يلزم من ذلك اختصاص العراق بها — : جاسوس : سفينة التفتيش ؛ خَيْطِيّة : سفينة من خشب البلّوط الهندى لا توثق ألواحها بالمسامير بل بألياف النخل ؛ زَبْزَب : قارب حربى صغير ؛ طيّار : قارب سريع للتجديف خاصة ببغداد والعراق ؛ شذى : قارب حربى ؛ كما يذكر لفظ : قارب، المنتشر استعماله فى المغرب وكذلك لفظ : بُرْمَة التى لا يعرف أصلها .

ويبدو أن من خصائص العراق أيضاً لفظ : زورق [٣] (قارب) ؛ ومِعْبَر (معدية) .

ومن المستعمل فى البلدان الواقعة على المحيط الهندى : بيرجه : سفينة لصوص البحر ؛ دونيج : سفينة ذات قلع واحد تسير على السواحل ؛ ومما يدخل هنا أيضاً فيما يظهر : شَنْكولية [٤] وزَنْبوق Sambuk فى حالة ما إذا جعل ذلك بدلا من المطبوع شَبُّوق [٥] (ص ٣٢ س ٢) .

ومما يختص بالبحر الأبيض : شَلَنْدى : مركب بيزنطى لنقل الجنود ؛ شيناً (سفينة بيزنطية كثيرة القلاع Galeere) .

وللتعبير عن محرك السفينة (الدفّة) تعد كلمة : سُكّان، أصيلة الموطن بالعراق لصحة وجودها فى اللغة المنداعية [٦] واللغة الأكادية فى صيغة :

---

(١) Abulkasim ein bagdader Sittenbild, hrsg. von A.Mez, Heidelberg 1902:107

(٢) جمعت المواد المتصلة بهذه الكلمات فى أطروحة الدكتوراه التى قدمها فى مدينة (بون) الألمانية : Kindermann : Schiff im Arabischen, Zwickau 1934

(٣) ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة قصيدة رقم ٢٠ بيت ١٥ وملحق ديوان الزفيان القصيدة ٣ بيت ١٥ وديوان رؤبة القصيدة ٢٧ بيت ٣٠ و ٤١ / ٦٥ .

(٤) فسرها دى غويه فى فهرست ألفاظ الكتاب بسفينة لصوص البحر ، على أنها مأخوذة من : شنجول : لص فى الفارسية .

(٥) انظر : Kindermann فى الأطروحة المشار إليها ص ٤٥ .

(٦) Johannesbuch 152, I Lidsbarski

سكّانُ ، وقد استعمله طرفه بن العبد (ق ٤/٢٨) فى سفينة بنهر دجلة ، والفرزدق (ديوانه ص ٨٦٨) فى وصف السفن فى الخليج الفارسى [١] .

أما فى المغرب [٢] فيستعملون فى ذلك لفظ رِجْل . وربما كان ذلك أيضاً فى سورية [٣] .

وللتعبير عن الملاح يستعمل فى سورية لفظ : نَـوْتى ، كما ذكره الجوهرى وهو مأخوذ عن اليونانية ، على حين أن لفظ : ملاح ، الذى يرجع أخيراً إلى السومرية ، ربما كان خاصاً بالعراق .

ويعبر الملاحون العراقيون عن السير إلى أسفل النهر : شِـبَالاً ، وإلى أعلى النهر : زِقافاً [٤] ؛ وقد ذكر المقدسى الاصطلاحين فى وصفه للعراق ولغته (ص ١٢٤ س ٧) .

وتسمى الريح المساعدة فى العراق : شَـرْتَـه [٥] ؛ وفى غيرها (ربما فى سورية ؟) : طارُوس .

كذلك لفظ قَـلْـس ، المأخوذ عن اليونانية ، بمعنى حبل السفينة ، الذى ذكره المقدسى إلى جانب لفظ : حبل ، كان مستعملا فى العراق بشهادة ابن دريد [٦] .

وعظيمة هى الفروق فى دائرة أسماء المقاييس والموازين والنقد ؛ فمثلا لفظ : مَـنّ (Mine) معروف فى جميع المحيط الإسلامى بمعنى رطلين ، إلا فى مكة حيث يستعمل لفظ : رطل (ص ٩٩ س ٤) ؛ كذلك يستعمل

---

(١) ذكرت مظان أخرى فى : Fraenkel, Fremdwörter 222

(٢) ذكر Dozy شواهد مستخرجة من رحلة ابن جبير ص ٣٢١ س ٥ والشرح المغربى لشعر مسلم بن الوليد ١٢/١٩ .

(٣) انظر المسعودى ١/٢٨٢ طبع باريس ، يوافق ١/٧٨ س ٧ (طبع القاهرة ١٣٤٦ ﻫ) .

(٤) انظر حكاية أبى القاسم السالفة الذكر ص ١٠٨ س ١ ، وكلا اللفظين مأخوذ عن الآرامية .

(٥) انظر فهرس ألفاظ الكتاب وحكاية أبى القاسم ١٠٨ .

(٦) انظر : A. Siddiqi, Ibn Duraid 737 وانظر النسبتين : القلاس والقلوسى

فى مكة بدلا من لفظ : قنطار ، لفظ : بهار ، ويزن ثلاثمائة رطل (ص٩٩ س ٩) . وأصغر النقد فى كل مكان عادة لفظ : حَبّة ، واسمها فى عمان: طَسوُه[١] . وهو دليل على اتصال هذا الإقليم بالدولة الساسانية من الناحية الاقتصادية . فكلمة : تاسوك فى الفارسية الوسطى ، وتاسو ، فى الفارسية الحديثة ، وطسُّوج ، فى العربية ، تعبر عادة — بحسب الأصل — عن ربع الدانق ، وبهذا عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار ، ثم بطريق المجاز عن جزء من الأرض يمكن سقيه بربع من الماء . وأخيراً عبر به عن الناحية ، لأنها تصور أقل وحدة من وحدات التنظيم الإدارى .

وذكر المقدسى من وسائل السقى والرى إلى جانب لفظ : دولاب (الساقية أو عجلة الماء) الفارسى ، ولفظ : حَنّانة ، العربى ، لفظ زَرْنُوق بمعنى البئر ، وهو لفظ ينتمى إلى الآرامية[٢] ولا يزال حياً إلى اليوم عند أهل نجد[٣] وفى خوزستان تسمى السواقى : نواعير ، جمع ناعورة أو ناعور ، وهذا اللفظ الآرامى الأصل[٤] ، كان غير معروف فى المغرب ، بحيث وجد المقدسى من اللازم التعبير عنه بلفظ : دواليب (ص ٤١١ س ١١) .

ومن الألفاظ الدالة على سكان الريف ، فى مقابلة كل من سكان البادية وسكان الحضر ، يظهر أن لفظ : قَرَيَاتى[٥] من ألفاظ اللهجة السورية ، ولفظ سوادى من ألفاظ العراق[٦] ، كلفظ : رُسْتاقى ، نسبة إلى : رُستاق ، من البهلوية رستاك[٧] .

---

(١) هذا ما يؤخذ من ص ٩٩ س ١٤ ومن عطفة طسوج على حبة فى ص ٣١ س ٣ .

(٢) انظر : Fraenkel, Fremdwoerter 134 واختلط هذا اللفظ على Mez فى كتابه : Renaissance ص ٤٢٤ بلفظ : زرزور .

(٣) Bräunlich, The Well in Ancient Anrabia 31 f.

(٤) Fraenkel فى الكتاب السابق ص ١٣٤ و Mez فى Renaissance 424

(٥) وهى نسبة شاذة إلى الجمع المولد : قريات بفتح الراء ذكرها المقدسى فى ص ١٧٣ س٦. انظر دى غويه فى فهرس الألفاظ . واستعمل الجاحظ لفظ : قروى فى البيان ١/٦٨ س ٢٧ ، ٤/٢ س ٢٧ فى مقابل : بدوى .

(٦) انظر : حكاية أبى القاسم ص ١٠٧ س ٨ .

(٧) لسان الرستاق ص ٤٧١ س ١١ هى لغة السهل من كرمان .

ومن الألفاظ الدالة على السنور، ثبت استعمال لفظ هِر ، اسماً مؤنثاً في العربية القديمة ؛ ولفظ : دِمّة ، المأخوذ من: دِمَتْ ، الحبشية، يبدو أنه كان مستعملا في جنوب الجزيرة[1] . ولفظ : قطة كلفظ: قَطُّس ، يبدو رجوعه إلى اللغة المصرية ، وهو منتشر في سورية ومصر وشمالى أفريقية . ولفظ : سِنَّور ، مستفيض في الكتابة القديمة بالعراق[2] .

وفى أسبانيا يسمى عنقود العنب : كَرمة، ويستعمل المقدسى كثيراً جمعه على : كرامات— وقد أثبت «دى غويه» أنه مغربى فى فهرس الألفاظ— فى وصفه للأندلس . وفى المشرق يستعمل بدلا من ذلك لفظ : دالية ، المأخوذ من الآرامية . وفى موضع آخر (ص ٢٣٥ س ٦) نستفيد عرضاً أن الحديقة تسمى بالأندلس: مُنْية؛ وهناك أيضاً ينبه إلى أن لفظ : إقليم، يدل فى أسبانيا على ما يقابل رستاق وهو المنطقة الريفية .

وفى أحوال أخرى يدل الاختلاف اللغوى على إختلاف الثقافة وتضادها بين سكان البادية ، وسكان الحضر المستقرين ، ذلك التضاد الذى بلغ من البعد بحيث تصور اللهجات البدوية إلى اليوم وحدة لغوية مستقلة .

فمثلا لفظ : أثافى ، أى حجارة الموقد ، لفظ بدوى ، على حين لفظ : موقدة ، الذى لم يذكره الجوهرى ، مستعمل عند سكان الحضر . زيادة على ذلك يستعمل المقدسى (ص٣٦٤ س ١٣) لفظ : دِيكْدان ، (الأثافى أيضاً) الفارسى ، فى وصف بناء سد يأجوج ومأجوج ، لإعارة هذا الوصف صبغة محلية .

ويبدو أنه يقصد إلى تنويع الكلام وتجميله أكثر مما يرمى إلى التلوين بالصبغة المحلية ، فى ذكر التعبيرات المختلفة عن : الخصى ؛ فلفظ : خصى ، القديم الجاف ، قد خفف إلى لفظ : خادم ؛ ولما كانت التربية كثيراً من صنعة الخصيان ، فقد خوطبوا تأدباً بألفاظ : معلم ، أستاذ ، شيخ . وهكذا

---

(١) انظر دوزى فى المادة . وكذلك نولدكه : NBSS 58 :

(٢) انظر كلمات أخرى بمعنى القطة فى حياة الحيوان للدميرى تحت كلمة : سنور ولما يقابلها فى المغرب انظر مقالة فيشر فى : ZDMG 71,217

يتحدث المقدسي (ص٢٤٢ س ١٣) مع « عَـرِيب » الخادم عن أمر الخدم، ويوجه الخطاب إليه بلفظ : المعلم ، ثم استعمل هذه الألفاظ أيضاً فى غير الخطاب بمعنى « الخصى » .

وأحياناً يتعاطى المقدسى ألفاظاً خارجة عن محيط اللغة العربية ، كما فى التعبير عن مجامع الأبنية التى لا تقتصر على تقديم أماكن لراحة المسافرين الأجانب — على وجه الخصوص — ومحطات لرحالهم ، بل تشتمل أيضاً ، كما هو الخان فى كبار الفنادق الحالية ، على مخازن ومتاجر ومصانع ، وتقرن بين صفة دار الضيافة وصفة السوق العامة ؛ وفى هذا يعد لفظ : فندق ، المأخوذ من : باندكيون اليونانية ، من خصائص سورية ومصر وشمالى أفريقية أى منطقة نفوذ الدولة البيزنطية ؛ مثل لفظ : خان فى فارس ؛ ولفظ : تِيم فيما وراء النهر ، الذى يستعمله المقدسى كثيراً فى وصفها ، وإلى هذا يستخدم أيضاً اللفظ العربى : دار التجار [1] .

وإذا كان المقدسى يستعمل زيادة على ذلك للدلالة على ساحات السوق لفظ : قيصرية ، فربما جاز لنا أن نرى فى هذا اللفظ أثر اللهجة السورية ، لأنه راجع إلى أصل يونانى كان جارياً فى تلك البلاد التى خضعت سالفاً للسلطان البيزنطى [2] .

وفى التعبير عن استحكامات الأبنية ، يبدو أن لفظ : حصن ، مقصور على جزيرة العرب وسورية وفلسطين ، على حين كان لفظ : قلعة ، يتردد فى محيط أوسع انتشاراً ، وعلى الأخص فى شمالى أفريقية وأسبانيا ؛ ويطـابقه فى المنطقة اللغوية الإيرانية لفظ : كلات [3] ؛ وفى خراسان وما وراء النهر تسمى القلعة التى توجد فى كل مدينة تقريباً : قُـهَـنْـدِز [4] ، ومعناه الأصلى : الحصن القديم .

---

(١) وعلى عكس ذلك يدل لفظ : خانقاه على « الدير » فى كرمان ، انظر دى غويه فى فهرس الألفاظ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية : Streck EI 2,706

(٣) انظر فى هذا اللفظ : دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) انظر فى لفظ : قهندز ، المعرب للجواليقى ص ١٢٢ س ٣ ؛ معجم البلدان ٤/٢١٠ ؛ تاج العروس فى المادة ، وهو يطابق فى المغرب لفظ : قصبة ، انظر : EI 2. 838

بيد أن عناية المقدسى اللغوية لم تقتصر على العربية ، بل تمتد إلى جميع اللغات التى يجرى الكلام بها فى العالم الإسلامى . ومن المهم حديثه عن الصلات اللغوية فى إيران لذلك العهد[1] . وكلامه صريح فى أنه كان يفهم الفارسية إلى حد كبير ،حتى إنه كان يستطيع أن يحكم على لهجاتها بحسب مكانتها من لغة الأدب .

فهو يسم لهجة نيسابور (ص ٣٣٤) بأنها فصيحة مفهومة غير أنهم يكسرون أوائل الكلم (علامة الفعل الأصلية : ب) مثل بِيشَوْ ، أى كُنْ ، ويزيدون السين بلا فائدة مثل : بِكُفْتَسْتِي .

ويعد لهجتى طوس ونسا قريبتين إلى لهجة نيسابور ، بل أحسن لساناً ؛ كذلك لسان بُسْت حسنة ، ولهجة سجستان فيها تحامل وخصومة ، يخرجون الكلام من صدورهم ويجهرون فيه ؛ على حين أن لسان مرو ومروروز له مهابة وعظمة ، غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا فى أواخر الكلم ، كذلك لهجة بلخ حسنة إلا أن فيها كلمات تستقبح .

وغاية فى القسوة حكمه على لسان هراة (الوحش) ، وهنا يحكى قصة عن بعض ملوك خراسان إذ جمع رجالا من خمس كور خراسان الأساسية ، فلما حضروا تكلموا جميعاً ، فقال عن السجستانى : هذا لسان يصلح للقتال ، والخراسانى يصلح للتقاضى ، والمروزى يصلح للوزارة ، والبلخى يصلح للرسالة (لكتابة الرسائل) ، أما لسان هراة فيصلح للكنيف (٣٣٤) .

وتشبه اللهجة المروزية لهجة سَرَخْس وأبيورد ؛ وبين المروزية والهروية لهجة (جَرْجستان جَرج الشار) ؛ وبين المروزية والبلخية لهجة جوزجان . وأخيراً تشبه البلخية لهجتا طخارستان وباميان ، إلا أن هاتين منغلقتان عسيرتا الفهم . أما لغة خوارزم فهى لا تفهم أصلا . وقد لفت نظره فى اللهجة البخارية تكرار كلمات من الحشو الذى لا طائل تحته ؛ مثل : يكى ، أداة للتفكير ،

---

(١) انظر ص ٣٣٤ س ٧ ؛ ٣٣٦ س ١ ؛ ٣٦٨ س ٩ — ١١ ؛ ٣٩٨ س ٧ — ١٠ ؛ ٤١٨ س ١ — ١١ ؛ ٤٧١ س ١١ — ١٢ ؛ ٤٨٢ س ٩ .

إلى جانب حرف : ى (ياء التنكير) أو : دَانِسْتِى ، هل تعلم ؟ ولكنها لغة البلاط (دَرِيَّة) ؛ لأن بخارى كانت عاصمة الصفريين .

وفى السمرقندية لاحظ المقدسى صوتاً بين الكاف والقاف ، والظاهر أنه نوع من الجيم ؛ وعد من لهجات الهيطل لغة الشاش أحسنها . والصغدية تشبه لغة القرويين فى بخارى ؛ وهنا يستطرد ملاحظاً أن الناس فى كل إقليم من الأقاليم التى ذكرها يتكلمون فى الريف (الرساتيق) بلسان مغاير للهجة الحضر .

وفى اللهجتين المتقاربتين : لهجتى قومس وجرجان ، اللتين يصفهما بالحلاوة ، يستعملون علامة الفعل الأولى : هَا ، بدلا من : ب ، مثل : هاكُن :. افعل .

ونستفيد فى موضع آخر (ص ٣٦٩ س ٤) أن العالم فى جرجان يسمى : معلماً ، وأن : لوك ، معناه جيد . وقريب إلى ذلك لسان طبرستان الذى يقول المقدسى إن فيه عجلة . أما الديلمية فهى ذات صبغة مخالفة لما تقدم منغلقة عسيرة الفهم . ولفت نظره فى الجيلانية حرف الخاء ؛ والخزرية عسيرة الفهم ؛ ولهجة الرى (ص ٣٩٨ / ٨)تستعمل اللاحقة الفعلية : رَ ، مثل : رَادِه، راكُن ؛ وفى همدان يقولون : وَاتَمْ. وفى لهجة قزوين يستعمل حرف القاف ، ويقولون للجيد : نِجْ (بدلا من : نك . والأصفهانية لهجة (وحشة) فيها مد .

ووصف المقدسى حالة اللغة (فى ص ٤١٨ س ١ — ١١) فى خوزستان وصفاً مفصلا ،فقال : إنهم يمزجون بين العربية والفارسية إذ يحسنون اللغتين على سواء ، وأحسن ما تراهم يتكلمون بالفارسية حتى ينتقلوا إلى العربية . والكرمانية (ص ٤٧١ س ١١ — ١٢) تشبه الخراسانية ، وهى سهلة الفهم على النقيض من البلوصية التى تشبه لغة السند .

ثم يصف لغة مكران (ص ٤٨٢ س ٩) بأنها (وحشة) .

وجدير بالملاحظة أن المقدسى يسوق حديثاً مذهبياً يصرح بروح العداء للفرس : « أبغض الكلام إلى الله الفارسية ، وكلام الشياطين الخوزية ،

وكلام أهل النار البخارية ، وكلام أهل الجنة العربية »[1] . وهذا الخبر الذى كشف النقاد المسلمون[2] عن شدة الجرأة فى وضعه ، تعلمه المقدسى فى رامهرمز حيث كانت اللغة الخوزية ، التى لا صلة لها بالعربية ولا بالفارسية ، لا تزال مستعملة على ألسنة السكان .

كذلك نستفيد طرفاً من أسماء الأعلام المعتاد استعمالها فى فارس (ص٣٩٨ س ٤ — ٦) . ففى الرى يقولون بدلا من : على ، حسن ، أحمد : علكا ، مسكا ، حمكا ، للتمليح . وفى همدان يقولون بدلا من : أحمد ، محمد ، عائشة : أحمد لا ، محمد لا ، عيشلا ؛ فيضيف الأولون مقطع —كا ، والآخرون مقطع : —لا ، إلى الأسماء . وفى ساوة يضيفون مقطع : آن ، أبو العباسان ، حسنان ، جعفران . وفى كرمان أحب الكنى : أبو جعفر ؛ أما فى أصفهان فهو : أبو مسلم ؛ وأخيراً فى قزوين : أبو الحسين .

هذا ، وإن ذلك الطلاء البلاغى ، والافتنان فى أنواع الأساليب التى حلى بها المقدسى كتابه ، لا يمكن أن يخدع النظر عن أن لغته فى جوهرها من العربية المولدة .

فهو لا يعنى كثيراً بالتفرقة بين المقصور والممدود ، وهو يسوق فى قافية السجع (ص ١٥١) مع لفظ : دنيا ، الكلمتين : لأوى (بدلا من لأواء) وأمْيا ، الذى هو بدوره جمع مولد للفظ : ماء[3] ؛ ومثل (ص ٤٤ س ١٤) لفظ : كِرًا ، بدلا من : كراء .

ووردت عنده صيغة « تفاعل » من رأى : ترايا . وهو يصوغ (ص٢٢٥ س ٧ ، ١٢) جمعاً للفظ : مأجن : على مواجين ؛ وللفظ : أذاة ، ضرر (ص ٢٠٢ س ٣) على : أذايات .

---

(١) ص ٤١٨ س ٦ — ١١ ؛ انظر : تهذيب التهذيب ١ / ٢٢٩ ، ويوجد حديث فى كنز العمال ٢/١٨٤ يحرم استعمال الفارسية فى الحج .

(٢) انظر ابن حبان (ذكره ابن حجر فى الموضع السابق) ، والذهبى فى ميزان الاعتدال ، وابن حجر فى لسان الميزان ، تحت : إسماعيل بن زياد .

(٣) انظر : Nöldeke NBSS 168 .

ومن المولد استعماله لفظ : أَخْشير (ص ٣٤ س ١٧) بدلا من : خير [١] .
ومن الاستعمال الشعبي الدارج معاملته التركيب الإضافى معاملة اللفظ المفرد ، وصوغه النسبة إليه على هذا الأساس (ص ٢٠٣ س ٤) كان شفعوياً أبو عمرياً (أى شافعى المذهب يقرأ على طريقة أبى عمرو [٢]) .

وكثيراً ما يستعمل أوصافاً مختومة بمقطع : —آنى ، مثل : بلغمانى (ص ٤٧٩ س ٩) ، ذنبانى ، كالذيل (ص ٤٠٣ س ١٨) ، طولانى ، طويل (ص ٤٨٧ س ٣) .

وهو يستعمل لفظ : منبوت : ، بمعنى مُنْبَت (ص ١٨٣ س ١٩) وداخَل ، مكان : أدخل ؛ ويستعمل مضارع المعلوم : يزن ، يجد ، يقد، وربما أيضاً : يقف ، بمعنى مضارع المجهول .

وهو يقول (ص ٤٥٠ تعلق) : أدخلوا به ، أى دخلوا به ، وهو تعبير خطأه الحريرى [٣] .

وهو يعدى خطب بالام أو على ، فى حديثه عن الأمير الذى يتم له الاعتراف بالولاية بإلقاء الخطبة .

وإلى جانب استعماله لفظ : خاصة ، عند التخصيص ، يستعمل أيضاً لفظ : وبخاصة ، وبخاصّية .

وجدير بالملاحظة من تعبيرات الاستعانة بالأداة على تحديد الغرض استعماله : بِرَسم ، بمعنى : لأجل (ص ١٨٨ تعليق) .

ومن الاستعمال الشعبي الدارج استعماله : ترى ، بمعنى : فإذا ، فيكون (ص ٣٦٤ س ٩) .

وهو يستعمل أحياناً : ما ، بمعنى أى شيء .

---

(١) Fleischer, Beiträge 4, 248

(٢) يقصد أبا الطيب بن غلبون (المتوفى ٣٨٩ هـ) ، انظر : تاريخ القرآن لنولدكه ، ٢١٧ ، ١٧٢/٣ .

(٣) درة الغواص، ص ١٦ .

وهو يجرى على قواعد الإعراب والتصريف بوجه عام ، وإن دل تعبيره (ص ٣٥٨ س ٥) وتراهم . . . حزبان ، بدلا من : حزبين ، وربما أيضاً (ص ٣٧٧ س ٨) شبه ثوران ، بدلا من : ثورين [القراءة فى كلتا الحالتين مؤكدة السجع] على أن الشعور الحى عنده إزاء الإعراب غير قوى .

وكذلك فى الجمل الشرطية تظهر التعبيرات المولدة فى استعمال المضارع مع إذا ، بدلا من إن مع الماضى .

ومن العربية المولدة قبل كل شيء الثروة اللفظية . ذلك أن وصف البلدان والشعوب الإسلامية ، ليس من السهل اليسير بوسائط اللغة العربية القديمة . فنتائج الصناعة ، ومحاصيل الزراعة ، والمهن ، والحرف ، والظواهر المختلفة المتنوعة للحياة اليومية ، ينبغى التعبير عنها بالمصطلحات المتعارفة ؛ وفى هذا تلعب اللغة الفارسية دوراً عظيما . على أنه هناك أيضاً ، حيث لا توجد أسباب واقعية يحبب إليه أن يستخدم ألفاظاً وعبارات مولدة . ومن أمثال هذه الألفاظ القريبة إليه : على كل حال ؛ بما يدور ، بمعنى تحلق؛ بليد ، بمعنى قذر (من الفارسية الحديثة : پليد) ، بلاذه ، قذارة ؛ تعفن ، غلبة ، بمعنى العصبية .

ومن المعروف أن النسخة التى نشرها دى غويه De Goeje تعتمد على مخطوطتين متغايرتين ، تقدمان صورتين مختلفتين للكتاب . فكثيراً ما تقدم إحداهما صيغة شعبية ، على حين تذكر الأخرى صيغة فصيحة مكانها . وفى مثل هذه الأحوال عمد الناشر غالباً — طبقاً للسنة المتبعة فى القرن الماضى — إلى اختيار الصيغة الفصيحة فى النص ، والتنبيه إلى الأخرى فى التعليق ، وإن ذكرها أيضاً فى الكشاف لألفاظ الكتاب .

على أنه لا يقتصر الأمر على احتمال تسرب عبارات شعبية إلى النص بسبب تساهل الكتاب — وهذا ينطبق أيضاً بصفة أساسية على جميع النصوص التى لا تتناول بالعناية الدقيقة فى الرواية المدرسية ، ولذلك كانت ضحية لإهمال الكتاب وتساهلهم — بل قد حصل العكس أيضاً ، حيث عمد الكتاب أحياناً إلى تصحيح عبارات دارجة فى النص من تلقاء أنفسهم .

فمثلا (ص ١٢٥ س ٢) كتب أحد الكتاب على هامش النسخة : B معلقاً على الجمع الدارج : الأفام (وضع دى غويه : الأفواه اعتماداً على نسخة : C) ملاحظته الاستنكارية : لا يصدق أن المؤلف يقع فى مثل هذا الخطأ الشنيع .

فلو وجدت نسخة أخرى مشهورة ، أخذت عن نسخة : B تلك ، لربما قرأنا فيها العبارة الصحيحة : الأفواه ، بعد التصحيح بناء على التعليق المذكور .

وفى مكان آخر (ص ٣٩٤ س ٣) ساقت — على عكس ما سبق — نسخه : C أفام (أو بعبارة أخرى على سبيل التصحيف : أقام) ؛ ولنولدكه NBSS175(Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenrschaft) كل الحق إذ ذكر هذا الجمع : الأفام ، من خصائص المقدسى .

كذلك يوجد (ص ٣٠٤ س ١٣) فى نسخة : B الحقائب ، وفى نسخة : C الحقيبات ، و (ص ٤٠ س ١٥) وكذلك (٢٣٨ س ٤) الحيعلة فى : B ، والهيعلة فى : C على حين تقدم كلتا النسختين (ص ٤٨١ س ١٠) الصيغة الملحونة : يهوعلون[1] .

أما مسألة : كيف كتب المقدسى نفسه فى حقيقة الأمر ، فلا يمكن الحسم فيها بصفة عامة . بل لا بد فى كل حالة خاصة من الفحص الدقيق .

وعلى حين يلقى المقدسى وزناً للأسلوب المجود المتنخل ، ويكتب فوق هذا فى نثر مسجوع ، يتخلى كتاب متخصصون آخرون ، فى قمة العصر الإسلامى الأوسط ، عن كل طلاء بلاغى ، ويستخدمون فى كتبهم لغة تعد من العربية المولدة ، لا من حيث قوالبها الداخلية فحسب ، بل كذلك من حيث ثروتها اللفظية وعباراتها الخاصة كذلك .

وقد حفظ هؤلاء الكتاب من الانزلاق فى الشعبية الدارجة بالكلية ، أنهم كانوا لا يزالون يعيشون فى جو التراث الحى للثقافة الإسلامية ، والتربية

---

(١) الهاء فى أول الهيعلة والهوعلة يمكن أن تكون بالقياس على الهيللة (قول : أهلا وسهلا) أما الواو فى الهوعلة فهى قياس على الحوقلة (شبيتالر) .

اللغوية . فبوساطة المدرسة و المدارسة ، التى أحاطتهم علماً بالعربية القديمة وأعلامها الأوائل ، وبسبب اعتمادهم فى علومهم الخاصة على أسلافهم أيضاً من الوجهة اللغوية ، نجدهم محصنين قليلا أو كثيراً بسياج من قوانين النحو ، يراعون قواعدها ولو إلى حد معلوم ، يختلف باختلاف الأشخاص .

وهكذا نجد مثلا الثروة اللفظيةالتى يستعملها ابن النديم فى كتابه الفهرست [١] الذى ألفه سنة ٣٧٧ ، مولدة فى الكثير الغالب : أسباب (ص ٥٣ س ١٦) بمعنى أقارب [٢] ؛ طَنْز (ص ٨٦ س ١٠) بمعنى مزاح [٣] ؛ طَيِّب (ص ٤٤ س ١٢ ؛ ص ١٥٢ س ١٦) بمعنى : ذكى ، واستعمله الجاحظ أيضاً من قبل [٤] ؛ حكاية بمعنى : خبر [٥] . سائر ، بمعنى جميع [٦] ، وهو منتقد عند المتزمتين اللغويين .

وهو يستعمل أيضاً صيغاً مولدة مثل : حِلاب ، جمع حَلْبة (ص ١١٣ س ٢٨) ، ومثل ما ذكر ابن خالويه [٧] أنه مأخوذ من رطانة صبيان الكتاب : حواميم (ص ٢٦ س ١٤) بدلا من آل حاميم ؛ ومثل النسبة على : جسمانى وروحانى (١٠ س ٢٣) وهَيُولانى ، أى مادى (ص ١٠ س ٧) وصنعاوى أى كيميائى (٣٥١ س ١٨) وكثير من الألفاظ الدخيلة .

وهو لا يكفى بصوغ لفظ : أولا ، على الظرفية ، بل يصوغ منه أيضاً مؤنثاً على : أولة ؛ وهو ماعده الحريرى [٨] (حوالى سنة ٥٠٠) خطأ لغوياً شنيعاً على ألسنة العوام .

---

(١) أخرجه فلوجل فى ليبزج ١٨٧١ م .

(٢) توجد أمثلة أخرى لذلك الاستعمال فى : إرشاد الأريب ٢ / ١٣٦ س ٤ ؛ ٢/٣١٠ س ٦ وغيرها ؛ تاريخ بغداد ٣/١٨٤ س ٢١ وغيرها ؛ الأغانى ٢٠/١٥٣ س ١٣ وغيرها .

(٣) قال الجوهرى عن ذلك : معرب أو مولد، وانظر جولدزيهر JRAS (1912) 816

(٤) انظر البخلاء للجاحظ (نشر فان فلوتن وملاحظته على ذلك ص VIII) .

(٥) انظر ماكدونالد فى دائرة المعارف الإسلامية : EI II 321

(٦) انظر : درة الغواص، ص ٣ .

(٧) كتاب ليس ، حكاه المزهر ١/١٨٠ .

(٨) درة الغواص، ص ١٢٦ ، وانظر : Fleischer, Beiträge 5,123

ومن الشعبي أيضاً هذا التعبير : رجع ففعل (ص ٣٣١ س ١٤) بمعنى كرر الفعل . وقوله : وستة سورى (ص٣٣٦س ٨) أى وستة كتب سورية ، لم يطابق بين الوصف والموصوف ، كما فى اللهجات الحديثة فى الوقت الحاضر [١] .

وكثيراً مايفصل بين المضاف والمضاف إليه بلفظ معطوف على المضاف مثل : (ص ٧٧ س ٨) أسماء وأخبار جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين [٢] ، بدلا من الصحيح : أسماء جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين وأخبارهم . وكما فى هذا المثال المذكور : علماء النحويين واللغويين ، نجده يحذف فى مواضع مختلفة أداة التعريف من اللفظ المضاف لوصفه : مشايخ البصريين (ص ٢٨ س ١٤) أو علماء البصريين (ص ٥٤ س ٢٣) .

وهذا التركيب له نظائر قديمة فى : يوم الأحد ، ربيع الأول ، على سبيل الإضافة ، وما يشبه ذلك ، وإن لم تجد اعترافاً من النحاة ؛ وهى جارية باطراد فى الاستعمال الحديث .

كذلك من لغة العامة استعمال المجرور بدلا من المرفوع ، مثل (ص٣٢٩ س ٣) كونين ، بدلا من : كونان ؛ ونسختين ، بدلا من نسختان (ص ٢٧٤ س ٢٦ ؛ ٢٧٥ س ٥ ؛ ٢٧٦ س ٦) .

---

(١) انظر : قواعد اللغة المصرية العامة تأليف : Spitta Bey ص ٣٩٨ . وانظر كذلك ركندورف فى : Kl. Schriften II 13 وفير فى: ZDMG 97 (1943)39/40 (شبيتالر).

(٢) ورد مثل ذلك نادراً فى الشعر القديم ، انظر الأعشى قصيدة ٢٠ بيت ٤٩ . أما اليوم فهو كثير الاستعمال .

(١٣)

اللغة العربية فى عهد السلجوقيين

لم تكد تعمّر قرنين من الزمان مرحلة « عربية الأدب الفصحى » فى أوائل العصر الإسلامى الأوسط ، تلك المرحلة التى بدأت فى الثلث الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، مع الانحلال النهائى للدولة العباسية ، والتى نشرت لواء عربية الأدب فوق كافة ربوع العالم الإسلامى ، شعاراً موحّداً ، ورباطاً وثيقاً .

ذلك أن الغارات التى نشطت منذ بداية القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، فيما وراء النهرين ، والتى أشعل نيرانها السلجوقيون ، بعد أن دخلوا فى الرقعة الإسلامية قبل بضع عشرات من السنين ، مقبلين من أبعد نقطة فى حدوده الشمالية الشرقية ، لم تؤد تلك الغارات من الناحية السياسية فقط إلى إنشاء دولة مدت ظلها ، مع الدول التى خلفتها بحكم التوارث الإقطاعى ، على مناطق مترامية الأطراف فى آسيا الوسطى والصغرى حتى أواسط القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، فى مدة وجيزة ؛ بل لقد أحدثت أيضاً تغييرات أساسية فى ناحية الإدارة والاقتصاد .

فباستيلاء السلجوقيين على الحكم وصل الأتراك ، الذين ينتمون إلى أواسط آسيا ، والذين اعتنقوا الإسلام فيما وراء النهرين وخراسان ، إلى الرياسة والسلطان ؛ فاتخذوا دولة السامانيين ونظمها نموذجاً لهم ، وصارت الفارسية على عهد السلجوقيين لغة البلاط ، والسفارات الرسمية ، والسياسة ، والأدب والشعر ؛ وأخذت تنافس العربية من خراسان إلى داخل سورية .

وقد كتب بهذه اللغة كل من كتابى : « سياسة نامه » ، الذى ألفه الوزير نظام الملك سنة ٤٨٤ هـ ليقدمه إلى سيده : السلطان ملك شاه ؛ و« التبر المسبوك » الذى ألفه الغزالى لمحمد ، خلف ملك شاه .

وإذا نسب إلى السلطان محمود بن محمد هذا (حكم ٥١١ — ٥٢٨ هـ) أنه كان جيد الدراية بالعربية[1] ، فلا يقصد من ذلك إلا أنه تلقى فيها تعليماً مؤسساً ، لأن العربية حفظت مكانتها الفذة من حيث هي لغة القرآن ، والعبادة والفقه الشرعي ؛ ووجدت من أثر السياسة الدينية الشديدة المحافظة ، التي سار عليها السلجوقيون ، عناية أكثر من أي عهد سابق .

نعم طالما تمتع العلماء والكتاب والشعراء ورجال الفنون من قبل ذلك بالحظوة عند الأمراء ، فعادت هذه الحماية الأدبية على تلاميذهم أيضاً عن طريق مباشر ؛ ولكن الأمراء السلجوقيين هم الذين ربطوا تشجيعهم ومؤازرتهم لرجال العلم بالتكليف الرسمي ، والإسناد العملي .

ولما كانوا مقتنعين بأن بقاء سلطانهم ، وأمان دولتهم ، متوقف على طائفة من القضاة ، ورجال الإدارة ، راسخة القدم في المذهب السني المحافظ فقد أسس السلاطين والوزراء والولاة وكبار أصحاب المناصب في الدولة ، منذ أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، مدارس قام فيها العلماء المقربون (وأحياناً كبار القضاة) على تخريج النشء المطلوب ، لإدارة الضرائب والدخل والخراج ، ورعاية الفقه والقوانين .

وقد كان من أثر التحديد العملي لهدف طبيعة التعليم المذكور ، أن صار الفقه الشرعي محوراً لمنهاج التعليم بالضرورة . أما دراسة النحو ، فلم تكن لها إلا دلالة علم اللغة المقدس (sacra philologia) وكان هدفها تعريف التلاميذ باللغة الفصحى .

وتسمح لنا بنظرة في نوع هذا التعليم وطريقته ، كتب أبي زكريا التبريزي (٤٢١ / ١٠٣٠ — ٥٠٢ / ١١٠٩) ، الذي ظل عشرات من السنين أستاذاً للعربية في مدرسة الدولة الأولى : المدرسة النظامية ببغداد ، التي أسست سنة ٤٥٩ هـ للفقيه الشافعي أبي إسحاق الشيرازي :

---

(١) ابن خلكان ٢ / ٥١٩ (١٢٩٩ هـ) .

فهو يذكر فى مقدمة كتابه المعروف : شرح ديوان الحماسة ، كيف اهتدى إلى التفكير فى شرح هذا النص . وهو يصدر فى هذه المقدمة عن الرأى المحافظ المشهور : من أن أشرف العلوم كلها علم الكتاب والسنة ؛ ولا يصح حقيقة معرفتهما إلا بعلم الإعراب ، الدال على الخطأ من الصواب ؛ وعلم اللغة الموضحة عن حقيقة العبارات ، المفصحة عن المجاز والاستعارات ؛ وعلم الأشعار . وهو يسوق ، للتنبيه على قيمة الشعر ، الحديث المروى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما »[1] ؛ ويذكر أيضاً خبراً عن ابن عباس أنه لم يفسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتاً من الشعر[2] .

وقد ساقه ذلك إلى أشهر المختارات من أشعار العرب : حماسة أبى تمام : الفصيحة التى تناولها كثير من الشراح . وهو أيضاً كان قد شرحها شرحاً مستوفى ، غير أنه وجد أن أكثر تلاميذه يطلبون شرحاً يفسر الأشعار بيتاً بيتاً ، ليسهل عليهم معرفة ما يشكل فى كل بيت منه ؛ وهكذا عقد عزمه على شرح المختارات مرة أخرى ، وهو يريد فى ذلك أن يبين اشتقاق أسامى الشعراء ثم يفسر الأشعار بيتاً بيتاً على الولاء ، مع شرح الغريب ، والإعراب ، والمعنى ، وذكر اختلاف آراء الشراح السابقين فى المواضع التى اختلفوا فيها ، وإيراد الأخبار ، أى الأسباب والدواعى التى دعت إلى إنشاء الشعر .

وتبين مقدمة التبريزى المشار إليها أن طلاب العلم ، فى أول مدرسة عليا للدولة ، لم يكونوا بحالة تسمح لهم بفهم الأشعار الفصيحة دون شرح أوّلى .

---

(١) الترمذى : أدب ، وانظر مراجع الحديث فى : فتح البارى ٤٤٦/١٠ ؛ كنز العمال ١١٧/٢ والصواب : لحكما بصيغة الجمع ، كما فى عيون الأخبار (نشر بروكلمان) ٤٠٩/١٠ والأغانى ٤٩/٢١ : ١٧ والحماسة ١٣/١٠ ومن المألوف رواية المثل بالمفرد كذلك (لحكمة) وهو كذلك فى الترمذى : أدب . وانظر : معجم فنسنك ٤٩١/١ ب ١٣ (شبيتالر).

(٢) ابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص١٢١ س ٢؛ ويتعلق بذلك خبر الخارجى نافع بن الأزرق عن ابن عباس ، المتضمن أسئلة عن مواضع من القرآن ، وتفسير ابن عباس لها ، مستشهداً على تفسيره بأقوال من شعر العرب ، وقد وردت هذه الرواية على صور مختلفة كثيراً ؛ انظر : الكامل ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ؛ مقدمة جمهرة أشعار العرب ؛ الإتقان ص ٢٨١ — ٣٠٩ وغير ذلك . ونشرها الدكتور إبراهيم السامرائى فى بغداد ١٩٦٨م (المترجم)

وشرح التبريزى ، الذى أريد به أن يسد هذه الحاجة ، والذى احتفظ بمكانته ، من حيث إنه عون مريح على قراءة هذا الديوان ، حتى يومنا هذا [١] إنما هو مجموعة تضم ، فى مهارة وحذق ، نتائج الجهود التى بذلها علماء اللغة القدامى [٢] .

فمثلا اشتقاق أسماء شعراء الديوان ، مأخوذ برمته من مختصر ابن جنى (المتوفى ٣٩٢ هـ) المختص بهذا الموضوع : المبهج فى أسماء شعراء ديوان الحماسة [٣] ، دون تسمية ذلك المصدر فى كل حالة .

كما يظهر أن الأخبار عن الحوادث التى هيأت الدواعى الخاصة لإنشاء الأشعار ، ترجع بصورة عامة كما يبدو إلى شرح أبى رياش [٤] .

وكذلك شرح التبريزى للمعلقات ، لايزيد زيادة تذكر على خلاصة بحوث علماء اللغة ، فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى ، كما يتبين ذلك من موازنته بشرح ابن الأنبارى السابق عليه ؛ ولكنه يمتاز أيضاً باختصاره وشموله .

ومما يتسق مع هذه الطريقة المتجهة اتجاهاً كلياً إلى سد حاجات التعليم ، أن التبريزى قد تناول كلا من كتاب الألفاظ ، وإصلاح المنطق [٥] لابن السكيت بالتهذيب الدقيق ، حيث أكمل النصوص ، وذكر أسماء الشعراء ،

---

(١) انظر فى ضد هذا الحكم الإيجابى على شرح الحماسة للتبريزى مقالة ريتر فى مجلة : Oriens II(1949) 249 (شبيتالر) .

(٢) الحقيقة أن التبريزى كان فى جمهورشرحه عالة على المرزوقى فى شرحه للحماسة . انظر مقدمة عبد السلام هارون للشرح الأخير ص ١٦ (المترجم) .

(٣) طبع بالقاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٤) انظر فى أبى رياش : إرشاد الأريب ١/ ٧٤ فما بعدها ، وشرحه لديوان الحماسة ذكر فى خزانة الأدب عدة مرات .

(٥) ثبت كذلك أن التبريزى نقل معظم كتابه تهذيب إصلاح المنطق ، من شرح شواهد إصلاح المنطق لابن السيرافى . انظر : رسالة تلميذنا محمد صالح التكريتى فى تحقيق الكتاب الأخير (المترجم) .

وشرح الغامض من أبيات الشواهد لفظاً ومعنى [١] .

وخلف التبريزى فى المدرسة النظامية زميله ، وسليل وطنه : من مدينة أستراباذ : على بن أبى زيد (المتوفى ٥١٦ هـ) [٢] .

وتدل نسبته التى عرف بها : الفصيحى ، على وجهته وهدفه العلمى ؛ وهو يدين بهذه النسبة لولعه بكتاب الفصيح لثعلب ؛ الذى كان يحفظه ويكثر من قراءته على تلاميذه [٣] .

ولما كان مجاهراً بنزعته الشيعية ، لا يدارى فيها ولا يوارى ، فقد اضطر إلى النزول عن التدريس بالمدرسة النظامية لأبى منصور الجواليقى (٤٦٦ — ٥٣٩ هـ) [٤] الذى تسامت عقيدته السُّنية على كل مظنة .

وقد عنى الجواليقى — على النقيض من أستاذه التبريزى — عناية خاصة بمتن اللغة العربية . وكتاب المعرب [٥] ، من بين مؤلفاته ، يعد مختصراً مريحاً ، لأعمال أجيال سالفة من الباحثين ، ولكنه لا يكاد يحتوى على رأى جديد [٦] كما أن شرحه على كتاب : أدب الكاتب لابن قتيبة [٧] ، مجهود جد متواضع

---

(١) كانت لغة التبريزى الأصلية الفارسية بلهجة أذربيجان ؛ انظر القصة المروية فى ذلك عند السمعانى فى الأنساب ١١٠ ب ، وذكرها ياقوت فى الإرشاد ١/١٧٣ ؛ ونقل ياقوت فى معجم البلدان ١/٨٢٣ عن التبريزى أنه كان ينطق : تبريز ، بكسر التاء ؛ وليس معنى هذا هذا أنها تنطق كذلك فى الفارسية ، وإنما هو تعريب منه لذلك اللفظ ، لأن المتزمتين اللغويين لايعترفون باسم على وزن تفعيل بالفتح .

(٢) انظر : نزهة الألباء ص ٤٤٨ ؛ إرشاد الأريب ٥/٤١٥ — ٤٢٠ ؛ بغية الوعاة ٣٥١ .

(٣) وكذلك الحال فى « البقالى » تلميذ الزمخشرى ، فقد لقب بالأدمى ؛ لحفظه موسوعة الأدمى المعروفة فى النحو . انظر : الجواهر المضية ٢/٣٧٢ .

(٤) نزهة الألباء ٤٧٣ ؛ إرشاد الأريب ٧/١٩٧ ؛ بغية الوعاة ٤٠١

(٥) نشره إدوارد سخاو فى ليبزج سنة ١٨٦٧م ، عن مخطوط فى ليدن ؛ وأكمل شبيتابلك بعض مافيه من السقط عن طريق مخطوطين فى دار الكتب المصرية (ZDMG 33, 208 - 224) وهناك نسخة مكتوبة فى القرن السابع ناقصة من الأول والآخر فى ميونيخ ؛ فهرست جلازر ١٢٣ كما نشره الشيخ أحمد شاكر بالقاهرة سنة ١٣٦١ هـ (المترجم) .

(٦) انظر المعرب ص ٢٦ س ١١ .

(٧) طبع بالقاهرة ١٣٥٠ هـ .

يتلاشى أمام الأعين، إذا وازناه قبل كل شيء بالشرح النفيس القيمة للنقادة البطليوسى .

والصورة التى يقدمها التبريزى لانحطاط مستوى الثقافة اللغوية فى بغداد إبان القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، تجد ما يؤيدها ويكملها فى كتاب عن اللحن اللغوى، على ألسنة الطبقات المثقفة : درة الغواص، فى أوهام الخواص[١] ، الذى ألفه معاصر للتبريزى ، هو الحريرى ، صاحب المقامات المشهور (المتوفى سنة ٥١٦ / ١١٢٢) .

وكما يؤذن به العنوان، لا يعنى الكتاب المذكور بالأخطاء اللغوية الجارية على لسان الجماهير العامة من الشعب ، التى كان يوجد إذ ذاك عدد كبير من المؤلفات فيها ، بل بأخطاء الطبقات الرفيعة[٢] ، أى الأوساط التى كان الحريرى نفسه ينتمى إليها بأصله ومرتبته .

فقد كان الحريرى صاحب الأخبار بالبصرة ، كما أن أباه لم يكن من الأغنياء فحسب ، بل كان كذلك رجلا ذا ثقافة خاصة[٣] ، بحيث اهتم بأن يتلقى ابنه العلم على أشهر نحاة البصرة لذلك العهد : الفضل بن محمد القصبانى[٤] .

والحريرى يمثل مبدأ « تنقية اللغة العربية » المتزمت ، والأخطاء التى يثيرها فى درة الغواص ، هى فى أغلب الحالات نفس الأخطاء التى لاحظها ابن قتيبة قبل ذلك بقرنين ونصف فى كتابه : أدب الكاتب ؛ محليات تسربت تدريجاً إلى لغة المثقفين .

---

(١) نشره : Thorbeeke فى ليبزج ١٨٧١ ؛ وتشتمل طبعة الجوائب باستانبول سنة ١٢٩٩ هـ على شرح الشهاب الخفاجى على درة الغواص أيضاً .

(٢) وهو الحال كذلك فى كل الكتب المؤلفة فى لحن العامة فى العربية . انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٦٤ (المترجم) .

(٣) يؤخذ هذا من درة الغواص ص ٧٩س ١ .

(٤) ذكره الحريرى فى درة الغواص ، ص ٣١ ، ٤٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٥ ؛ ويؤخذ من نزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٤٢٥ (انظر : إرشاد الأريب ٦/١٤٣ وبغية الوعاة ص ٣٧٣) أنه مات فى السادس من صفر ٤٤٤ هـ ؛ فإذا صح هذا فلا يكون ميلاد الحريرى كما قيل فى سنة ٤٤٦ بل يكون متقدماً على ذلك بعشر سنوات على الأقل .

بيد أن أعظم من تلك الأحوال إفادة ، ما ذكره الحريرى من الأخطاء التى وقع فيها معاصروه من شدة حرصهم على سلامة التعبير ، فلم يصيبوا القصد ، لتلاشى الشعور اللغوى ، والذوق العربى السليم عندهم ، تجاه طبيعة اللغة الفصيحة .

وهكذا نراهم يستعملون مثلا الإعراب ، فى حالة سرد الألفاظ دون تركيب جملى ؛ فهم يعدون : واحدٌ ، اثنان ، ثلاثةٌ الخ (ص١٧١) بالإعراب مع أن الإعراب إنما يصح فى حالة التركيب ، وفى سياق الجملة ؛ ولهذا تستغنى مجاميع الحروف المذكورة فى أوائل السور (الحروف المقطعة) عن كل إعراب ، ولا تقبل الجمع ؛ فمثل صيغة : حواميم ، بمعنى السور المبدوءة بحاميم ، إنما هى مسخ وضع بدلا من : آل حاميم ، أو ذوات حاميم .

ومن الترتيب الخالى من الإعراب : بينَ بينَ ، صباحَ مساءَ ؛ وهما ليسا منصوبين على الظرفية ، وإنما ختما بالفتحة مراعاة لجمال الصوت . ولكن معاصرى الحريرى يقولون بدلا من التعبير الأول : بين البينين (ص ٦٣) ، على حين يستبدلون من الثانى خطأ : صباح مساء ، على الإضافة أيضاً (ص ١٩٣) .

ويدل على اضطرابهم وعدم تمكنهم فى استعمال الإعراب ما لاحظه الحريرى من أنهم يخلطون بين : بكم ثوبك مصبوغاً ، وبكم ثوبك مصبوغ : فالأول سؤال عن ثمن الثوب ، والثانى سؤال عن ثمن الصباغة ؛ والفرق بينهما مثل الفرق بين : فى الدار زيد قائماً ، أى زيد فى الدار وهو قائم ؛ وفى الدار زيد قائم ، أى زيد قائم فى الدار[1] (ص ١٩٤) .

كذلك تلاشى عندهم الشعور الحى بالفرق بين المضارع المرفوع والمنصوب والمجزوم ؛ ولذلك استعملوا فى أمر الغائب صيغة المضارع المرفوع : يعتمدُ ، بدلا من الصحيح : ليعتمدْ (ص ١١٦) .

---

(١) انظر الخفاجى على درة الغواص ، ص ٢٤٧ س ١ .

وكذلك لم تعد لهم ألفة بصيغة المضارع المؤنث للمخاطب والغائب فى حالة الجمع ، التى استعيض عنها فى اللغة الدارجة بصيغة المذكر ، والتى امتازت فى اللغة الفصيحة بنون النسوة ، مثل : يكتبن وتكتبن ، إزاء المذكر : يكتبون وتكتبون ، فعمدوا إلى التفرقة بين الجنسين بمجرد التاء أول الفعل فى حالة جمع المؤنث الغائب (تكتبن) ظناً منهم أن التاء هى علامة التأنيث فى صيغ المضارع (ص ١٣٨) .

وعلى عهد الحريرى كان التنوين قد أهمل فى اللغة الدارجة منذ زمن طويل ، ولهذا كان خطأ المثقفين فى استعماله غير قليل . فقد صاغوا مثلا : دنياً ، أى عالماً (ص ٧٠) ، وهو استعمال غلط ؛ شذ ابن الأعرابى فدافع عنه ، كما تسرب إلى الحديث الشريف فى نصوص البخارى[١] ، على الرغم من أن أكثر النحاة قد أدركوا الوجه الصحيح من أن « دنيا » على أنه وصف للمؤنث (أدنى) غلبت عليه الاسمية ، لا يقبل التنوين فى حالة التنكير كذلك .

وزيادة على ذلك ، اختلطت فى العربية المولدة علامات التأنيث ، من التاء والألفين المقصورة والممدودة ، وهذا يوضح أن معاصرى الحريرى غيروا لفظ : عَزْلاء بمعنى فم المزادة ، إلى عَزْلة[٢] (ص ١٦٦) ، واختفى تدريجاً أيضاً الفرق بين ألف القطع وألف الوصل ، ونشأ من ذلك أن وقع بعض المثقفين فى أخطاء من هذا النوع .

وينحى الحريرى بشدة اللائمة (ص ١١٨) على صيغة : إبِنْت ، بكسر الباء مع همزة الوصل ، وهى خلط بين صيغتى : بنت وابنة .

وأجرى حكم الفعل المعتل الياء على الفعل المضعف فى اللغة الدارجة ؛ ولهذا بالغ معاصروا الحريرى فى إجراء الفعل المضعف مجرى السالم ، فقالوا : ساروه ، بدلا من : سارّه (ص ٨٥) ؛ كما صاغوا من أفعال معتلة أوزاناً

(١) القسطلانى ١/٥٦ .

(٢) تروى « عزلة » بدلا من : « عزلاء » مثلا عند أسامة (نشر ديرنبورج) ٥/٧٣ : « ومنخراه يدميان بالدم كالعزلتين » وأشار إلى ذلك فون كريمر فى WZKM 2 (1888) 267 (شبيتالر) .

على قياس الفعل الصحيح ، مثل : مَشْوَرَة ، بدلا من مَشُورة (ص ٢١) ، وكما فى اسمى المفعول : مبيوع ، بدلا من : مبيع ، ومصوون ، بدلا من : مصون (ص ٥٩) .

كذلك لم تتوفر لديهم الخبرة باستعمال فعلى المدح والذم : نعم وبئس ، لعدم جريانهما فى اللغة الشعبية ، ففى اللغة الفصيحة يتطلب كلا الفعلين إلى جانب الاسم المسند إليه المدح أو الذم ، اسماً مرفوعاً آخر يعين موضوع الجملة برمتها : نعم الرجل زيد ، بمعنى : أى رجل جدير بالمدح هو زيد ، أما : نعم الرجل فقط ، فهو مدح لمبهم بلام الجنس ، محتاج إلى التمييز . وإذا قيل : نعم مافعلت ، فهو كذلك محتاج إلى تمييز المفعول ؛ وعلى هذا خطأ الحريرى ما يقوله معاصروه ، مثل : نعم من مدحت ، وبئس من ذممت[١] (ص ١٤٤) .

وكان اسم الموصول القديم فى اللغة الشعبية قد تحول إلى الصيغة الجامدة : اللّى ؛ واستعمل أيضاً فى مصدر الجمل المصدرية ، مثل : أن فعل كذا ؛ ولهذا استعمل المثقفون على عهد الحريرى صيغة اسم الموصول القديم أيضاً : الذى ، متصدرة الجملة المصدرية ، فقالوا مثلا : الحمد لله الذى كان كذا[٢] أى : أن كان كذا (ص ١٦٢) .

ومن المشهور فى قواعد النحو أن الفعل المسند إلى المثنى والجمع الظاهرين الواقعين بعد الفعل ، يلازم حالة الإفراد ، ولكن اللغة الشعبية طابقت[٣] هنا أيضاً بين الفعل والفاعل (كما فى لغة أكلونى البراغيث) ، وعلى هذا طابق معاصرو الحريرى أيضاً بينهما (ص ١٠٨) .

كما عاملوا لفظى : كلا وكلتا معاملة المثنى ، فأخبروا عنهما بصيغة المثنى وقالوا : كلا الرجلين خرجا ، وكلتا المرأتين خرجتا ، مع أن الفصيح :

---

(١) انظر شرح درة الغواص للشهاب الخفاجى ص ١٨٨ وانظر : Nöldeke NBSS 219

(٢) انظر فى ذلك البحث القيم الذى كتبه أستاذنا شبيتالر فى مجلة Oriens (١٩٦٢) ١٥/٩٧-١١٤ بعنوان « الحمد لله الذى ، وماأشبهه » (المترجم) .

(٣) هذه المطابقة قديمة جداً فى اللغات السامية . انظر مقالتنا عن « الركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة » فى المجلة العربية (١٩٧٧) المجلد الثانى ١/٥٩ — ٦٠ (المترجم) .

خرج وخرجت ؛ وإن ورد الاستعمالان فى شعر الفرزدق[١] ، ديوان ص ٣٤ بيت ١ (درة ص ١٠٣) .

وعلى حين تقع فى الأمثلة التى ذكرنا أخطاء ناشئة من شدة الحرص على سلامة اللغة ، وموافقة القواعد ، تدل أخطاء أخرى ذكرها الحريرى أيضاً على مبلغ ضعف شعور المثقفين ، وقلة خبرتهم بالعربية الفصيحة .

فهم لم يعودوا يلاحظون أن أسماء الآلات تتميز بالميم المكسورة فى أول الكلمة عن أسماء الأمكنة والأزمنة ؛ ولذلك يستعملون مثلا لفظ : مَرْوَحة ، لا فى معنى الموضع الكثير الريح ، بل فى معنى ما يُرَوَّح به (ص ١٥٦) .

كما لم يفرقوا بين الاسم الدال على المرة الواحدة وهو : فَعْلة بفتح الفاء ، والاسم الدال على هيئة الحدث وهو : فِعْلة بكسر الفاء ، والاسم الدال على القِلّة ، وهو : فُعْلة بضم الفاء (ص ١٧١) .

وأهملوا جمع القلة ، فقالوا مثلا : ثلاثة شهور ، بدلا من : ثلاثة أشهر (ص ١٦٣) .

واستعملوا فى صيغة الاستفهام لفظى : أو ، وأم ، دون فرق ولا تمييز ، على حين أن اللغة الفصيحة تستعمل : أو ، فى الاستفهام عن أحد الشيئين ، مثل : أزيد عندك أو عمرو ؟ بمعنى هل أحد هذين عندك ؟ وفى الإجابة على ذلك يقال : نعم أولا . وتستعمل : أم ، فى الاستفهام عن التعيين ، نحو : أزيد عندك أم عمرو ؟ بمعنى قد علمت أن أحدهما عندك ، ولكن أيهما الذى عندك ؟ (ص ١٩٥) .

كما لم يفرقوا بين : نعم وَبلَى ، فيضعون كلا منهما موضع الآخر ؛ وموضع نعم هو جواب الاستخبار المجرد من النفى ، وموضع بلى هو جواب

---

(١) وقد اجتمعا فى قوله :

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى

وانظر الخفاجى على الدرة ص ١٤٧ .

الاستخبار عن النفى ؛ ولهذا وقعت فى جواب قوله تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» (سورة الأعراف ٧ / ١٧٢) ؛ قال ابن عباس : لو أنهم قالوا : نعم لكفروا ، (ص ١٩١) .

وأخيراً يمكن التنبيه إلى الأحوال التى لم يلاحظ فيها معاصرو الحريرى قواعد حذف تاء التأنيث وإثباتها . فقد صاغوا قوالب مثل : امرأة شكورة وصبورة ، على حين أن هذه التاء إنما تدخل فى اللغة الفصيحة على وزن : فعول بمعنى مفعول ، لا بمعنى فاعل (ص ١١٢)؛ ومثل هذا قولهم جُبَّة خلقة، والصواب جُبَّة خَلَق ،لأن العرب ساوت فيه بين نعت المذكر والمؤنث (ص١٦٣) . وكما قالوا ضَبُعَة (ص٧٤) ورِخْلَةٌ وهى الأنثى من ولد الضأن ، والصواب : ضبع ورِخْل، لأنهما لا يكونان إلا مؤنثين (ص ٩٧)

وينكر الحريرى جمع : جُوَالق على: جُوَالقات ، وصوابه : جَوَاليق؛ والجُوَالق الغرارة . (ص ١٩٠)؛ على أن جمع المؤنث السالم قد انتشر انتشاراً واسعاً ، على حساب جمع التكسير للمفرد المذكر ، بحيث ذكر الحريرى عدداً كبيراً من الشواذ فى ذلك الباب : جمع حمّام؛خَيال ، جوَاب ،مكتوب ، مقام ، مَصَام ، إوان، وهو حديدة تكون مع الرائض، وبِوان بكسر الباء وضمها وهو عمود فى الخباء ؛ وجمع أسماء الشهور : شعبان ، شوال ، المحرم ؛ والألفاظ الأعجمية : ساباط ، سرادق ، إيوان ، هاوُن، سِجِلّ؛ كما فى جمع تصغير المفرد المذكر مثل : دريهمات وثويبات .

وهذه الحرب التى حمل الحريرى لواءها فى درة الغواص ، لم تحتدم تجاه أخطاء متفرقة من الحماقات اللغوية ، أو الاستعمالات الشعبية ، بل هى موجهة إلى روح العربية المولدة على الإطلاق .

وهو يمثل مذهب اللغويين البصريين المتطرف المتزمت فى « تنقية اللغة العربية » ؛فهو يتطلب مثلاأن يقال : جاء القوم بأجْمُعهم ، بضم الميم (ص١٦٧) على أنه جمع للفظ : جَمْع ؛ على حين يجوّز ابن قتيبة [١] وابن السكيت [٢] ، إلى

(١) أدب الكاتب ص ٤٤٣ .

(٢) إصلاح المنطق ٢١٢/١ .

جانب هذا ، أن يقال : بأجمعهم ، بفتح الميم ، على أنه لفظ : أجمع ، المستعمل في التأكيد .

وهو يقصر استعمال لفظ : ثدى ، على : ثدى المرأة (ص ١٨٧) على الرغم من ورود هذا اللفظ للرجل أيضاً ، حتى في الحديث[١] .

وفى تأريخ الأيام يغلّـط الطريقة المتبعة (ص ٧٥) : فى عدهم أيام الشهر . بأن يقولوا : لأول يوم من الشهر ، مستهل الشهر ، لعشرين خلت من شهر كذا ؛ سالكاً فى التاريخ مذهب المتزمتين القدماء[٢] كما ذكره أبو على الفارسى فى تذكرته : وعلى هذا يقال فى أول الشهر : أوَّلَ يوم من شهر كذا ، أو غرة شهر كذا ؛ واليوم الثانى : لليلتين خلتا ؛ واليوم الثالث إلى العاشر : لثلاث ليال خلون ، لأربع ليال خلون الخ ؛ واليوم الحادى عشر إلى الخامس عشر : لإحدى عشرة ليلة خلت الخ ، واليوم الخامس عشر : منتصف شهر كذا ؛ واليوم السادس عشر إلى اليوم العشرين : لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر كذا الخ ؛ واليوم الحادى والعشرين إلى الثامن والعشرين : لعشر ليال بقين من شهر كذا الخ ؛ واليوم التاسع والعشرين لليلتين بقيتا من شهر كذا ؛ واليوم الثلاثين : سلخ شهر كذا[٣] .

ويتمسك الحريرى ، فى النظرية المتعلقة بلفظى : من ومنذ ، بمذهب سيبويه ، الذى يخصص الأولى بابتداء المكان ، والثانية بابتداء الزمان (ص٧٧) ولم تقتصر معارضة ذلك على الكوفيين ، بل عارضه أيضاً بعض العلماء من صفوف البصريين ، كالمبرد[٤] .

وفى مسألة الألفاظ الأعجمية ، يمثل الحريرى الرأى القائل بوجوب وضع اللفظ الأعجمى فى قالب عربى ، وطبعه على ذلك النحو بالطبع العربى .

---

(١) انظر الشهاب الخفاجى على درة الغواص ، وانظر : Nöldeke NBSS 121

(٢) انظر أدب الكتاب للصولى ص ١٨٠ فما بعدها .

(٣) هذا التزمت فى التعبير لايعول عليه أكثر العلماء ؛ انظر الشهاب الخفاجى على الدرة ص ١١٤ – ١١٧ .

(٤) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ص ١٦٣ فما بعدها .

وعلى هذا يجب أن يقال : شِطْرنج بكسر الشين ، بدلا من من فتحها ، ودستور بضم الدال بدلا من فتحها ، وسرداب بكسر السين بدلا من فتحها ، وهاون بضم الواو بدلا من فتحها (ص ١٣١ ، ١٠١ ، ٤٩ ، ١٧٧) ولكنها قوالب بقيت غريبة فى الاستعمال الحى ، لأنها لديه غير مألوفة ، ولجرأتها — فى بعض الأحيان — على تحويل المعنى والدلالة فى تغيير اسم المدينة المعروفة : سامراء ، إلى : سُرَّ مَنْ رأى (ص ١٨٠) .

كما تمسك الحريرى بمذهب البصريين فى النسبة ، من وجوب النسب إلى صيغة المفرد ، ما لم تكن صيغة الجمع عَلَماً (ص ١٥٣) على الرغم من ورود صيغ قديمة ، مثل : الأنصارى .

وجدد التنبيه — الذى لم يغن فتيلا — إلى منع النسب إلى مجموع صيغة التركيب الإضافى وما شاكله ، فلا يقال : رامهرمزى ، ودارقطنى ، واثناعشرية ، بل رامى ودارى (ص ١٥٣) .

أما تصحيحه تصغير مختار على : مُخَيِّر (ص ١٠٠) وتخطئته مُخيتر ، فهو ضرب من ضروب التزمت البالغ أقصى درجات التطرف ، ومثلها كثير فى أوزان التصغير [١] .

وفى كل هذا ، لم يخل الحريرى من الترجيح الاختيارى ، بل التصحيح الخاطىء تماماً فى بعض الأحيان ؛ فهو يذهب (ص ٩٩) — مع ابن قتيبة [٢] — إلى أن لفظ : بَصُر ، بضم الصاد ، خاص رؤية البصيرة ، وأبصر ، خاص برؤية العين ؛ على حين أن فى آية سورة القصص (٢٨/١١) : « فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُب » ، أى رأته (أخت موسى) بالعين .

وهو يرى أن لفظ : ركاب : أى موكب السلطان مثلا ، خطأ ، لأنه يرى أن الركاب اسم يختص بالإبل (ص ١٣٠) ، ولكنه أخطأ فى ذلك ، لأن معنى الركاب هنا هو آلة الركوب المعلقة فى السرج ، ويستعمل فى كل

---

(١) انظر نزهة الألباء ص ٢٠٠ .

(٢) أدب الكاتب ص ٣٨٠ .

من الفارسية والتركية أيضاً ، كالعربية ، كناية عن سير الملك ، تأدباً مع الملوك[١] .

وهو يريد تفسير لفظ : زوج ، بأنه أحد الزوجين ، المرأة أو الرجل ، ويخطئ إطلاقه على مجموع الاثنين أيضاً (ص١٨٥) وهو خطأ ؛ لأن الاستعمال الثانى أيضاً معروف قديماً وحديثاً .

ولفظ : قَيْنة : معناه فى لغة العرب الجارية المغنية بوجه خاص ، والأمة بوجه عام ؛ وإذا قصره الحريرى على التفسير الأخير ، مزيفاً الأول (ص ١٩٧) فهو يتابع فى ذلك أبا عمرو بن العلاء[٢] ، الذى ربط هذا اللفظ بكلمتى : قين ، أى حداد ، وقان القينُ الحديد ، سَوّاه ، ووجد معنى : الأمة ، بذلك أنسب ، لما فيه من معنى الخدمة والامتهان .

وينتقد الحريرى (ص ١٢٩) مع ثعلب[٣] : ركض الحصان بمعنى جرى ، مفسراً معناه بضرب الحصان بالرجلين لكى يسرع . وهذا خطأ لأن الفعل ورد لازماً بمعنى جرى ، ومتعدياً بالمعنى الذى ذكره .

وهو يفرق بحق بين : بَشَارة بفتح الباء ، وبِشَارة بكسرها ، وبُشَارة ، بضمها (ص ١٤١) فهى بالفتح الجمال والحسن ، وبالكسر مابشرت به من بشرى ، وبالضم حق ما يعطى على البشارة بالكسر ؛ أما قوله : إن البشارة بالكسر تستعمل فى الشر كذلك ، فقد اعتمد فى هذا على حالة التهكم باستعمال الضد ، فى مثل قوله تعالى : «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (سورة الانشقاق ٨٤/٢٤)

أراد الحريرى أن ينفخ من روحه فى العربية القديمة الفصيحة ، ليبعثها إلى الحياة من جديد ؛ بيد أن القوة الكامنة التى لا تبارى ، فى اللغة الدارجة الحية ، كانت أقوى من كل مبادئ المتزمتين وتعاليمهم .

---

(١) انظر الشهاب الخفاجى ص١٧٣ ؛ وانظر : دائرة المعارف الإسلامية : EI III 1251

(٢) انظر فى هذا : Geyer : Zwei Gedichet (SWA 192,3)2,161

(٣) فصيح ثعلب ص ٩ س ٢ (نشر : Barth)

نعم ، بل لقد انزلق الحريرى نفسه فى التيار ، فلم يندر عنده اللحن والخروج على القواعد التى قررها فى « الدرة » .

فبدلا من لفظ : أوَّلُ ، بضم اللام ، تعثر قلمه فكتب : أولا[1] ، اللفظ الذى خطأه (فى ١٢٦) .

وعلى النقيض من تعاليمه (ص ١٨٢) ، استعمل لفظ : حساب ، بمعنى : حِسْبان[2] .

وهو يعلم (ص١٢٩) أن فعل : سُقِط فى يده ، فعل غير شخصى ملازم للبناء للمجهول ، ومع ذلك يكتب فى مقاماته (ص٣٩٦ س٣) سُقِط الفتى فى يده .

وهو يؤكد فى الدرة (ص ٩٥) أنه لا يجوز صوغ الرباعى المضعف من أسماء العدد ، بل الثلاثى فقط مع أنه يقول فى مقاماته (ص ٣٢٩ س ٤) : فتربع صاحب ميمنته فى نظمه ، وتسبع صاحب ميسرته على رغمه ؛ فخالف نفسه .

وهو ينبه فى كلامه (ص ٤٣) إلى أن لفظ كافّة لا يعرف باللام ولا بالإضافة ، وأنه لابد من تنكيره ونصبه على الحال ، حتى وإن قال ابن قُرَيعة القاضى (المتوفى ٣٦٧)[3] ؛ فى بعض حكمه : الكافة ؛ ومع ذلك يقول الحريرى فى موضع آخر (ص ١٧٦) : اتفق كافة أهل الملل .

وهو يزعم (ص ٢٦) أن وزن : افعلّ ، يقال فيما تمكن واستقر وثبت واستمر ، أما إذا كان اللون عرض بسبب يزول ومعنى يحول فيقال فيه : افعالّ ، مثل اصفارّ واحمارّ . ولكن هذه الدعوى غير معروفة : على حين أنه نفسه يقول فى المقامة الحرامية (ص ٤٨ س ٧) : فازورت مقلتاه واحمرت وجنتاه ؛ وقال فى موضع آخر : اسود العيش الأبيض .

---

(١) مثلا : درة الغواص ص ٧٦ س ١٤ .

(٢) انظر الخفاجى ص ٢٣٣ س ٣ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٢/٣١٧ — ٣٢٠ وابن خلكان ٢/٤٥ وما بعدها .

وهو يحذر من سوء استعمال علامات التأنيث ، ولكنه يقول (فى المقامات ص ٥٥ س ٤) : غزالة ، بمعنى ظبية .

وبهذا يقدم الحريرى البرهان على أن الملاحظات العميقة ، والتعليمات الدقيقة لمذهب المتزمتين الذى يمثله فى الدرة ، لم تكن — عملياً — مستطاعة التنفيذ .

هذا ، بيد أن كلا من النتاج الأدبى المرموق ، كمقامات الحريرى ؛ والملاحظات الدقيقة ، البعيدة الغوص على الأخطاء اللغوية ، عند المثقفين ، كدرة الغواص ، لم تستطع أن تقف التطور اللغوى فى سبيله التى سلكها .

فلا ذلك الانحلال المطرد فى الدول الإسلامية ، ولا الاضطرابات الداخلية فى دولة السلاجقة ، ولا تلك الحروب العنيفة المحتدمة فى وجه الصليبيين (١٠٩٥ — ١٢٩١ م) ، ولا الدويلات التى قامت بالمشرق ، كانت تسمح بتهيئة الجو الصالح . والبيئة المواتية للعناية بالتراث الأدبى التليد .

حقاً لقد لقيت كتابة الحريرى عن اللحن اللغوى فى دوائر الطبقات الخاصة ، اهتماماً كبيراً عند صدورها ، وأثارت حلقات من النزاع المستعر الذى تجاذبه عدد من مشاهير اللغويين فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى . بيد أن كتب مناقشاتهم ومنازعاتهم إن دلت على شىء ، فإنما تدل على مبلغ ضعف الإحساس اللغوى العام ، وفى دوائر اللغويين الإخصائيين بوجه خاص ؛ كما تدل على مدى ضعف ملكة النقد والتمحيص عندهم ، بحيث لم يعودوا يستطيعون إدراك الفروق الأساسية بين العربية الفصيحة ، والعربية المولدة ، فاتجهوا إلى الاعتراف بألفاظ ، وقوالب ، وتعبيرات مولدة ، بل شعبية دارجة أحياناً ، على أنها صحيحة فى العربية الفصيحة ، مادام قد ثبت ورودها فى كتابة القرون الثلاثة الإسلامية الأولى ؛ وحملوا من أجل ذلك على تزمت الحريرى حملة شعواء ، واختلفوا فيما بينهم على أى الظواهر اللغوية التى غلّطها الحريرى يمكن تصحيحها وتسويغها ؟

وهكذا كتب ابن برى المصرى (٤٩٩ — ٥٨٢ هـ) المعروف بحواشيه على الصحاح ، تعليقات برهن فيها على صحة عدد كبير من العبارات التى خطأها

الحريرى ، وعدها ابن وطنه الشهاب الخفاجى (حوالى ٩٧٩ — ١٠٦٩ هـ) بعد حوالى خمسمائة عام ، متأثراً بمذهبه ، جديرة بإدماجها فى شرحه على درة الغواص [١]

وهذه التعليقات تنم على ضعف وتخاذل كبير فى ملكة النقد والحكم الصحيح ؛ فمثلا لا يستطيع ابن برى أن ينكر أن مادة : ش و ش ، غريبة على العربية ، وأنها من خصائص اللغة المولدة [٢] ؛ بيد أنه يصحح عربيتها ، اعتماداً على أن الليث صرح بذلك [٣] .

كما حاول أن يمحو الفرق الواضح بين عبارتى : مَخُوف ، أى حصل الخوف منه ، ومُخِيف ، أى مولدٌ للخوف ، بأنه فى حالة قولنا : الطريق مخوف لابد من تقدير مفعول محذوف ، تقديره : أخاف الطريق زيداً الهلاك ، وإذا قلنا الطريق مخيف ، فالطريق ليس هو المخوف منه فى المعنى ، وإنما المخوف منه فى المعنى هو الهلاك والعطب ، واستنتج من ذلك أن مآل المعنيين واحد ، وكلا التعبيرين صحيح [٤] .

وكذلك الأمر فى حُجِّية الحديث فى شئون اللغة ، فكون الحديث غير حجة فى أمور اللغة ، لعدم التعبد بلفظه ، حقيقة كان فى وسع كل عالم باللغة ، حتى فى هذا العصر المتأخر ، أن يكون على علم منها ؛ ولكن ابن برى لا يكتفى باتخاذ الحديث مصدراً للغة ، بل يعول فى ذلك أيضاً على الروايات التى ثبت ضعفها ، حيث آثر الأخذ بالرواية : « بُعِثْتُ إلى الأسود والأبيض » بدلا من الرواية المستفيضة « بُعِثْتُ إلى الأسود والأحمر » ، أى إلى العرب والعجم ، واستدل بذلك على صحة التعبير الأول فى المعنى المذكور [٥] .

أما ما كان يفهمه ابن برى من مبدأ « تنقية اللغة العربية » فيدل على ذلك

---

(١) انظر الشرح المذكور ص ٦٣ س ١١ ، ص ٧٣ س ١١ ، ص ٩٨ س ١٧ .
(٢) انظر فى تسربها من الآرامية : Nöldeke. ZDMG 37, 537
(٣) الخفاجى ص ٦٢ س ١٧ .
(٤) الخفاجى ص ٢٤٨ س ٣ .
(٥) الخفاجى ص ٢١٩ ، وانظر فى الحديث : مسلم كتاب المساجد .

كتابه : « أغلاط الضعفاء من أهل الفقه من أقطار مختلفة »[1] ، وهو عبارة عن ثبت جاف لنحو مائة حالة من الاستعمالات اللغوية المنتشرة بين الفقهاء التى يبدلها ابن برى بعبارات يعدها فصيحة . دون شرح ولا تعليل[2] . ويوجد بينها بعض الأحوال المعروفة من الكتب القديمة لعلماء اللغة المتشددين على أنها أخطاء مشهورة : مثل حذف همزة المد فى كلمة : ولاء ، أى السيادة على الرقيق (ص ٢١٨ س ٣) ، ومثل معاملة الفعل المهموز اللام على نمط المعتل اللام (ص ٢١٥ س ٣) : بداية ، بدلا من : بُدَاءة ؛ (ص٢١٥ س ٦) ميضاة ، بدلا من ميضأة ؛ ومثل إبدال حرف بحرف عن طريق المماثلة الجزئية ، مثل (ص٢١٩ س١٢) مَزْدَغَة ، بدلا من : مِصْدَغة ؛ ومثل الإبدال غير القياسى (ص ٢١٩ س ٤) نخاص ، بدلا من : نخاس ، تاجر الرقيق ؛ (ص٢١٩ س٣) هَدَر ، أسرع ، بدلا من حَدَر ؛ (ص٢١٩ س ٢) بَشِيمة ، بدلا من : مَشِيمة ، محل الولد ؛ (ص٢١٩ س١٢) دشيش أى الدقيق الخشن ، بدلا من : جشيش[3] . ومثل الخلط بين : قسم بكسر القاف (ص ٢١٨ س ٥) بمعنى : حصة ونصيب ، وقسم بفتح القاف بمعنى المصدر أى التقسيم ؛ ثم الأحوال الكثيرة التى استعملت فيها صيغ مولدة ، مثل : مُصَلاّة ، بدلا من : مصلى (ص٢٢٠ س١٤) ، ومثل : أجِنّة ، بمعنى حدائق (ص ٢١٦ س ٢) وآصُع جمعاً لصاع بدلا من أصْوُع (ص٢١٨ س ٧) ومثل : حَزْرات بسكون الزاى ، بدلا من فتحها ، بمعنى خيار المال (ص ٢١٧ س٢) ؛ ثم أحوال مثل : جَذْعة بسكون الذال بدلا من فتحها ، بمعنى الحَمَل الصغير (ص٢١٧س٣) وبكَرة بتحريك الكاف بدلا من تسكينها ، بمعنى العجلة التى يدور عليها حبل البئر (ص ٢١٦ س ٤) ومثل : شَوْرَة العروسة ، بدلا من : شَوَار العروس (ص ٢٢٠ س ١٤) .

---

(١) نشرة : Ch. Torrey ف : Nöldeke-Festschrift, Orientaliche Studien I, 211 - 224

(٢) ومعظمها منقول من كتاب : « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » لابن مكى الصقلى ، دون إشارة . قارن الكتابين (المترجم) .

(٣) انظر : R. Mielck, Terminologie und Technologie der Müller und Bäcker im islamischen Mittelalter 37

وفى الأفعال يهتم بوجه خاص بالخلط فى تصريف الفعل ، ولا سيما فى أسماء الفاعل والمفعول (مثل ص ٢٢٠ س ٢ ، ص ٢٢٢ س ٥) ، واستعمال المجهول خطأ (مثل ٢٢٠ س ٢ ؛ ٢٢١ س ١٠) .

كما اهتم اهتماماً خاصاً بالألفاظ الأعجمية التى ينظر إليها ابن برى بنظرة المتزمتين اللغويين ، فهو يطلب : صابورة (ص ٢١٩ س ١٠) ، وهو ما تثقل به السفن من متاع ، بدلا من : سابورة ، من الكلمة اللاتينية Saburra ومعناها الرمل أو الثقل فى قعر السفينة ؛ ويطلب : قَدَس (ص٢٢١ س٢) ويجمع على أقداس ، ومعناه السطل ، بدلا من الكلمة ، اليونانية الأصل بنفس المعنى : قادوس ؛ ويطلب : جِصّ (ص ٢١٩ س ٩) ، بدلا من : جِبْس ، ويطلب : زِنْبيل (ص ٢٢١ س ١٣) بكسر الزاى أو زَبيل ، بدلا من : زَنْبيل ، بفتحها ؛ ويطلب : مَرْوَرُوذ (ص ٢٢١ س ١٢) بتخفيف الراء الثانية بدلا من تشديدها[1] ، وهى كلمة معربة عن : مَرْوِرود ، ناحية من فارس ؛ ومرو اسم نهر . ويطلب جمع اللفظ القبطى : قُمُّس ، على : قوامسة ، بدلا من قمامسة (ص ٢١٩ س ١٦) ، خالطاً فى ذلك بين الكلمة القبطية المذكورة بمعنى نائب البطرك، والكلمة اللاتينية الأصل : قُومِس ، وهى تسمية كانت تطلق بالأندلس على رئيس الطوائف المسيحية .

كما التبس عليه (ص ٢٢٠ س ٦) لفظ : باعوث ، الوارد فى كتاب منسوب إلى الخليفة عمر[2] ، بمعنى عيد الفصح عند المسيحيين ، فطلب تصحيحه على : باغوث ، بالغين المعجمة . ولفظ باعوث يرجع إلى السريانية باعوثا ، ومعناه فيها بحسب الأصل : صلاة ، ولا يدل فيها بوجه عام على مطلق التغنى بالدعاء ، بل معناه عند المسيحيين الملكانيين ، أغنية خاصة[3] .

كذلك فى تفسير الغريب الوارد فى الحديث ، لا يصادف ابن برى دائماً كثير من التوفيق ؛ نعم هو يفرق تفرقة صحيحة بين لفظى : باسور وناسور

---

(١) هكذا يجب أن تقرأ . انظر : معجم البلدان ٤/٥٠٦ .

(٢) كنز العمال ٢/٣٠٢

(٣) انظر : G. Graf, ZS 7. 240 und 244

(ص ٢٢٠ س ٨) ، وهما تعبيران وردا فى مجاميع السنة مختلطين مختلفين[١] ؛ ولكنه يخطئ حيث يصحح (ص ٢١٩ س ١٤) لفظ : أرض بَـوْر[٢] بفتح الباء ؛ لأن ضم الباء الذى يخطئه هو ، يؤيده اللفظ السريانى : بُورًا ، الذى أخذ منه اللفظ العربى .

هذا ، وقد كتب أيضاً تعليقات فى مناقشة « درة الغواص » ابن ظَفَـر[٣] ، الذى توفى فى « حماة » بعد مغامرات كثيرة سنة ٥٦٧ أو ٥٦٨[٤] ، والذى كتب أيضاً شرحين على مقامات الحريرى ، وألف فوق هذا شرحاً لغريب ألفاظ المقامات .

وعلى نفس الطريقة أيضاً كتب العالم اللغوى البغدادى : ابن الخشاب (المتوفى ٥٦٧ هـ) نقداً على الدرة ، ووقع من أجل ذلك فى نزاع مع « ابن برى » الذى كتب كتاباً فى الرد عليه[٥] . والظاهر أن ذلك الاختلاف حول تصحيح بعض العبارات التى خطأها الحريرى .

وأخيراً تلاشى الإحساس اللغوى تجاه سلامة اللغة كل التلاشى ، حتى عد بعض النحاة ظواهر لغوية مولدة ، من اللغة الصحيحة الفصيحة ، لمجرد أنها وردت عرضاً فى حديث ينسب على أى وجه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) انظر البخارى : تقصير الصلاة ، حيث ذكر : بواسير ، على الوجه الصحيح . وسنن أبى داود : صلاة ؛ وابن ماجه : إقامة الصلاة ، حيث ورد على عكس ذلك : ناسور .

(٢) لم يقتصر ورود هذا اللفظ على الحديث المذكور فى لسان الميزان ٣/٤٢٦ ، كما ذكره العقيلى ، بل ورد كذلك فى مواضع أخرى ، مثل كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أكيدر صاحب دومة الجندل ؛ ابن سعد ج ١٢ ص ٣٦ س ٢١ .

(٣) انظر : إرشاد الأريب ٧/١٠٣ ؛ حاجى خليفة ١/٤٨٤ (١٣١٠ هـ) وقد ظن أنه شخصان لا شخص واحد .

(٤) كذا ذكره ابن العماد الأصفهانى الذى كان من معارفه. أما التاريخ الذى ذكره ياقوت فى الإرشاد ٧ / ١٠٢ والذى يذكر فى مواضع أخرى وهو ٥٦٥ ، فهو لا يكاد يصدق ، لأنه قد ثبت أن ابن ظفر ظل يمارس التعليم والإقراء حتى سنة ٥٦٦ هـ ، وانظر : ZDMG 42,626 Anm.1

(٥) انظر : كشف الظنون ١/٤٨٥ .

فقد أراد بعضهم أن يصحح العبارة التى وردت فى شعر رؤبة (قطعة رقم ٢١ / ٢ أهلورت) : كاد أن يفعل ، بدلا من الفصيحة : كاد يفعل ، اعتماداً على أنها وردت فى الخبر : كاد الفقر أن يكون كفراً[1] ، على أن أبا البركات بن الأنبارى (٥١٣ — ٥٧٧ ﻫ) قد رد على ذلك بأن « هذا الحديث إن صح [لم يرد هذا الحديث فى المجاميع الصحيحة] فزيادة : أنْ ، من كلام الراوى لا من كلامه عليه السلام ، لأنه صلوات الله عليه أفصح من نطق بالضاد »[2] .

وعلى الرغم من هذا فقد لقى الرأى القائل بحجية الحديث فى أمور اللغة تأييداً مطرداً . ويقال[3] إن أول من اعتمد على الأحاديث من حيث هى حجة فى أمور اللغة[4] هو النحوى : ابن خروف[5] ، الأندلسى ، الذى اختل فى آخر عمره ، ومات فى حلب فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واالذى نال شرحه على : « الكتاب » لسيبويه ، و « الجُمَل » للزجاجى ، حظوة كبيرة.

وتبعه فى ذلك أشهر نحاة القرن السابع : ابن مالك ؛ وقد كان عظيم الاعتداد والاهتمام بالحديث ، حتى إنه عاون « اليونينى » على تصحيح نسخة من البخارى ، وألف مصنفاً خاصاً فى تفسير بعض النصوص المشكلة من الحديث[6] . وهو يرى أن القرآن هو أوثق المصادر وأصحها فى أمور اللغة ،

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى ، وانظر : تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع ص ١١٤ ، (طبع ١٣٤٧ ﻫ) وفيهما أحاديث أخرى تشتمل على ذلك التعبير .

(٢) الإنصاف ص ٢٣٤ (نشر : Weil)

(٣) انظر ابن الضائع فى شرح الجمل ، كما هو مذكر فى خزانة الأدب ١/٥ س ١٢

(٤) لم يكن ابن خروف أول من استشهد بالحديث كما توهم هذه العبارة ، فعند سيبويه وأبى على الفارسى بعض الأحاديث . ولكن كان ابن خروف أول من أكثر من الاستشهاد بالحديث . وهذا هو نص عبارة ابن الضائع فى خزانة الأدب ١/٥ : « قال : وابن خروف يستشهد بالحديث كثيراً » فلتحرر عبارة المؤلف (المترجم) .

(٥) نفح الطيب ١/٩٠٠ ؛ بغية الوعاة ص ٣٥٤ ؛ إرشاد الأريب ٥/٤٢٠ وتختلف الروايات فى هذه المراجع اختلافاً كبيراً .

(٦) انظر : ZDMG 92, 81 f واسم كتابه : «شواهد التصحيح والتوضيح لمشكلات الجامع الصحيح » نشره محمد فؤاد عبد الباقى بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م (المترجم) .

وتجيء أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك مباشرة فى المرتبة الثانية ؛ على حين أن كلام البدو من الأعراب فى المرتبة الثالثة[١] . وقد أدى به هذا إلى تصحيح تعبير مثل : أكلونى البراغيث ، لمجرد أنه ورد مثله فى حديث رواه البخارى ومسلم ، وصيغته : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار [٢] » .

وتوسّع الأستراباذى ، الذى كتب حوالى سنة ٦٨٣هـ شرحه المشهور على متن الكافية لابن الحاجب[٣] ، فى صحة الاستشهاد فى أمور اللغة أيضاً حتى بأهل البيت . وبهذا طرأ على طبيعة العربية تحول حاسم .

وهكذا لم تعدعربية الأدب فى العصر الإسلامى الأوسط ، منذ مختتم القرن الهجرى الثالث ، لساناً طبيعياً لطائفة لغوية من الشعوب ، بل لقدتحولت إلى لغة أقامت قواعد النحو ومبادئها أساساً لتكوينها الحقيقى ، وطابعها الداخلى ، ولم تعد العناية بسلامة اللغة من حيث ظواهر الإعراب والتصريف ، التى ضعف إحساس الكتّاب بها ، أهم من العناية بحشد طائفة من العبارات القديمة ، والاستعمالات العربية الغريبة ، التى تقحم إقحاماً ولكن دون اقتصار على حدود استعمالها البدوى القديم .

وقد كان مبلغ تمسك الكاتب باللغة الصحيحة ، ووقوفه عند مبدأ تنقية اللغة ، يختلف كثيراً عن ذى قبل إما باختلاف الموضوع الذى يتناوله ، أو باختلاف الثقافة اللغوية التى حصل عليها ؛ وفى بعض الأحيان كانت لهجة وطنه الذى نشأ فيه ، تلعب كذلك دوراً هاماً فى تحديد تعبيره .

وكلما أخذت الرابطة التى كانت تربط بين جميع البلدان الإسلامية من ناحية الثقافة والعلم ، تضطرب عُرَاها ، وتضعف أواصرها ، بسبب الحروب

---

(١) فوات الوفيات ٢/٢٨٨ (طبع ١٢٩٩ هـ) ؛ بغية الوعاة ص ٥٥ ، المقرى ١/٦٠٨ .

(٢) البخارى : مواقيت الصلاة ، التوحيد ؛ مسلم : مساجد ؛ موطأ مالك (الزرقانى ١/٣٠٨) ؛ النسائى : الصلاة ؛ وفى البخارى : بدء الخلق ، ورد التعبير الفصيح : الملائكة يتعاقبون إلخ ؛ وأظهر من ذلك نص الموطأ (الزرقانى ١/٣٠٩) إن لله ملائكة يتعاقبون إلخ .

(٣) انظر : خزانة الأدب ١/٤ وفى ترجمته انظر الخزانة أيضاً ١/١٢ — ١٤

المتتالية ، ازداد الانحلال والانحطاط فى المستوى اللغوى والثقافى العام ، واستقل كل إقليم بثقافة خاصة ، ولهجة لغوية محلية .

وقول ابن الصلاح (٥٧٧ — ٦٤٣ هـ) إن كثيراً من شيوخ عصره لا يدرون ما يروون ، ولا يضبطون ما فى كتبهم ضبطاً يصلح لأن يعتمد عليه فى ثبوته ، لا ينطبق على المحدّثين فحسب ، بل على جميع العلماء فى عصر السلجوقيين بوجه عام(١)

وإزاء هذا التحول الكبير ، لم يكن من المستغرب أن تتكاثر الأخطاء واللحن فى قواعد العربية الفصيحة ، وأن تنضح اللهجات المولدة بقوة أشد من ذى قبل على لغة الأدب ، وأن تأخذ هذه اللغة فى كل إقليم طابعها المحلى .

وهكذا يجرى الفارس العربى المشهور : أسامة بن منقذ (٤٨٨ / ١٠٩٥— ٥٨٤ / ١١٨٨) على الحدود والقوالب العربية المتوارثة فى أشعاره ؛ بيد أنه فى الحديث عن ذكرياته ، ومغامراته التى شهدها فى حياته [تردد مجرى حياته فى المرحلة الكثيرة الزعازع والقلاقل المحدودة ، باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ / ١٠٩٩ واسترجاع صلاح الدين لها سنة ٥٨٣/ ١١٨٨] يخرج عن قيود اللغة الأدبية ، فيكتب فى أسلوب عربى طبيعى سهل ، يبدو فيه كثير من الطابع العام المتعارف اليوم فى اللغة العربية السورية .

وحتى النحوى ابن يعيش (٥٥٣ / ١١٥٨ — ٦٤٣ / ١٢٤٥) يتنازل فى شرحه للمفصل عن التظاهر بالأدب ، فيكتب فى أسلوب عادى ركيك .

وفى تراجم الأطباء التى كتبها معاصره المتأخر عنه قليلا : ابن أبى أصيبعة(٢) (٦٠٠ / ١٢٠٣ — ١٢٧٠/٦٦٨) نستفيد معرفة لغة المسامرة والحديث ، التى كانت سائدة بالقاهرة بين الطبقات المثقفة لذلك العهد .

وفى ذلك تقدم لغة كل كاتب فى ذلك العصر المتأخر ، مشاكلها الخاصة ؛ ولا بد من محاولات كثيرة لكشف النقاب عن جميع هذه التفاصيل .

---

(١) انظر عبارة ابن الصلاح المذكورة بتمامها فى شرح الإمام النووى على صحيح مسلم (على هامش القسطلانى ١/ ٢٠) .

(٢) انظر : Aug. Müller, Ueber Text-und Sprachgebrauch von Ibn abi Usaibiase Geschichte dcr Aerzte,in SMA 1884,853–977

(١٦)

نظرة خاطفة

جاء السيل المغولى، الذى أصاب فى الصميم بلداناً ،كان لها التصدر فى قيادة ركب الثقافة والمدنية فى العالم الإسلامى ، والذى اكتسح خلافة بغداد (٦٥٦ / ١٢٥٨) فأكمل حلقة الختام فى مراحل الانحلال اللغوى التى بدأت بظهور السلاجقة ؛ وبهذا تقطعت الخيوط الأخيرة من الثقافة التليدة المتوارثة فى الأقاليم التى تغلغل فيها المغول . وما ظهر بعد ذلك فى تلك الأقاليم من حركات تتجه إلى النهوض على استحياء ، لم تكن له صلة مباشرة بالقديم الغابر .

وقد برزت « مصر » إلى المكان الأول بين بلدان العالم الإسلامى منذ ذلك العهد ؛ فقد نجت من عاصفة المغول، وصارت تحت إمرة سلاطين المماليك، بعد رد الصليبيين على أعقابهم ، أولى دول الإسلام العظمى .

ذلك أن الثراء الواسع العريض ، الذى قام بمصر على أساس التجارة الهندية الواسعة المدى ، فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) ، قد هيأ الأسباب الضرورية لنشاط الحياة العقلية ، وساعد على إنشاء نهضة أدبية فى مصر وسورية ، تميزت —من الوجهة اللغوية — بظهور التعبيرات المحلية المصرية .

ولقد دامت هذه النهضة قرنين من الزمان ، ولكن كشف البرتغاليين طريق البحر إلى شرق الهند ،كان من أثرهالمباشر القضاء على امتياز مصر التجارى ، والقضاء على ذلك الثراء العظيم . وبهذا فقدت مصر سلطانها المسيطر واستولى العثمانيون عليها فى سنة ٩٢٣ / ١٥١٧

وعلى غرار مصر ، خضعت كل البلدان الناطقة بالضاد ، على وجه التقريب — ما عدا مراكش — شيئاً فشيئاً ، لسلطان العثمانيين .

وتشمل المرحلة التى بدأت بذلك العهد ، ممتدة إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادى ، أحلك قرون التاريخ العربى ، لا من الوجهة السياسية فحسب ، بل من الوجهة اللغوية كذلك .

وعلى النقيض من هذا تبدو المرحلة الحديثة ، التى تلت ذلك ، نَـيِّـرَة مشرقة مشمولة بالنور التاريخى الساطع . وتبدأ هذه المرحلة الأخيرة بحملة « نابليون » على مصر سنة ١٧٩٨م ، مقترنة بشعار تنظيم نفسها ، وترتيب أمرها ، تجاه العالم الغربى .

فإدخال النظم الغربية الذى بدأ على يد « محمد على » وإقامة المدارس والمعاهد على النمط الأوربى ، وتغذيتها بالعلماء الأوربيين ، وإرسال الشباب المصرى إلى الجامعات الأوربية ، وتأسيس مطبعة للدولة ، وإصدار صحيفة رسمية ، وإنشاء مكاتب للترجمة ،تقوم بنقل عدد لا يحصى من المؤلفات الأوربية فى شتى أنواع العلوم والفنون إلى العربية ، تيسيراً لتناولها فى العالم العربى ؛ كل ذلك عاد على اللغة العربية — فى مصر بادىء ذى بدء — بآثار بعيدة المدى فى التأثير .

ومما يشهد بذلك تلك الألفاظ الدخيلة من اللغات الأوربية : أولا من الفرنسية والإيطالية ، وأخيراً من الإنجليزية .

وقد أدت كثرة ذلك الغريب ، المهدِّد لكيان العربية ، إلى قيام حركة مضادة ، تدعو إلى استحضار الماضى العظيم ، وإحياء تليد الحضارة والثقافة من التراث القديم . وقد أعلنت تلك الحركة عن نفسها ببعث لغوى جديد ؛ فطبع منذ ذلك العهد ما لا يحصى من كتب الأدب العربى ، فى جميع العصور بالقاهرة وغيرها ، وأدى الاشتغال بالآثار الأدبية من مخلفات العصور الغابرة إلى بعث حركة « التنقية اللغوية » مرة أخرى .

ولم يقف الأمر عند نشر المؤلفات الكثيرة فى النحو العربى ، وما إليه من المعاجم العديدة الأجزاء ، بل اشتدت العناية أيضاً بالبحث فى مسائل الاستعمال اللغوى ، وصواب التعبير . وقد استعيض فعلا عن كثير من الكلمات الأجنبية ، بألفاظ عربية حديثة .

ومن أعمال المجمعين العلميين فى القاهرة ودمشق، إيجاد ألفاظ مناسبة للعدد الوفير من المدلولات ، لا سيما فى دائرة الشئون الهندسية ، والآلية ، والطبية ، والكيميائية ، والطبيعية ، وغيرها مما جلبته الحضارة الغربية الحديثة .

وهذا الكفاح فى وجه « الغريب اللغوى » يدور فى الأعم الأغلب حول مشكلة استعمال الكلمة ، واستخدام المادة اللغوية المولدة ، وتيسير النقل المجازى ، ومسألة الوضع الحديث .

على أنه لا يتعرض بمساس للنقل من الغرب فى الأمور العملية ، واقتباس الأشياء والمدلولات الغربية الأصل . فمثلا الحقيقة الثابتة من أن الشرق مدين للغرب بالسيارة ، لا يمحوها استعمال هذا اللفظ الفصيح : سيارة ، ومعناه الأصلى : قافلة ، بدلا من : أوتوموبيل .

وأهم من ذلك أن حركة « تنقية اللغة » تقصر نقدها غالباً على ظواهر وسائل التعبير ، على حين أن بواطن القوالب العربية معرضة لتأثير القوالب الأوربية ، المتغلغل خفياً دون انقطاع . فالمصرى الحديث الذى يستعمل مثلا هذا التعبير : (تحية) قلبية ، فى موضع heartily و herzlich ، يعترف بالتأثير الغربى من وجهة مضاعفة : فهو يصوغ على نموذج أوربى ، من اسم عربى ، بوساطة نسبة عربية ، وصفاً لا يجوز حسب القواعد العربية الفصيحة صوغه من أسماء الأعضاء الجسمية[1] ؛ كما أنه من ناحية أخرى يخالف مذهب لغته التى تعد القلب مركز العقل والشجاعة ، فينسب إليه مشاعر وإحساسات تنسبها العربية الأصيلة إلى الكبد أو الضلوع أو الأحشاء.

ومثل هذه الترجمة المعنوية ، التى هى العادة المتبعة فى عربية الصحافة بوجه خاص ، تقرب الشقة بين العربية الحديثة ، واللغات الأوربية الراقية تقريباً بيِّناً ، بحيث قد يتأتى فى المستقبل عدُّها عضواً فى الرابطة اللغوية الأوربية بالمعنى الذى قصد إليه : تروبتسكوى Trubetzkoy.

---

(١) لسناندرى علام اعتمد المؤلف فى هذا الحكم ، فالنسب إلى أسماء الأعضاء جائز فى العربية جوازه فى غيرها (المترجم) .

بيد أن الآثار البعيدة العمق ، التى تركها الغرب فى العربية الحديثة ، لا تقتصر على العربية الفصيحة ، بل كذلك اللهجات المحلية آخذة فى التغير البطىء المتواصل الخطى بوساطة التأثر بالغرب [١] . فقد كان من أثر انكماش الأمية أن تغلغلت لغة الكتابة الحديثة بقواعدها ، ومفرداتها فى دوائر كانت لا تعرف من قبل سوى العامية ، كما تعمل الصحافة عملها أيضاً فى ذلك الاتجاه .

ومما يوحِّد الألسنة وينفى الفروق اللغوية ، التجنيد فى الخدمة العسكرية ، إذ يجمع الرجال من المناطق اللغوية المختلفة فى حياة واحدة .

وأبعد من ذلك أثراً ما تقوم به فى هذا السبيل مسارح السمر الشعبى ، التى تقدم الأغانى والمقطوعات الفنية .

ومما يعمل على الانسجام وتقريب الألسنة بوجه خاص : المذياع ، والحاكى ، والخيالة (السينما) الناطقة .

ولما كانت مصر قد تقدمت خطوات فسيحة فى ميادين النقل الآلى والفنى المشار إليها ، فقد يكون متيسراً أن تصبح لغةُ التحادث القاهرية هى المثلَ الأعلى للعالم العربى خارج مصر فى نواحى النطق الصوتى ، والتعبير السائد ، والثروة اللفظية ؛ وأن يعيد التاريخ ثانية لمصر تلك المكانة التى حققت لها التصدر فى طليعة البلدان الناطقة بالضاد على عهد المماليك فى القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) .

وقد ظهر أخيراً فى ميدان اللغة أثر آخر من آثار التأثر بالغرب ، حيث علت أصوات فى دوائر بعض دعاة الإصلاح فى مصر ، تنحى بالنقد على العربية الفصيحة نفسها ، وتتحدث عن صبغ التعليم اللغوى بصبغة جديدة ، تواثم قواعد التربية اللغوية الحديثة .

---

(١) انظر: I. Lecerf, Atti del III. congresso internationale dei Linguisti (سنة ١٩٣٥) ص ١٨١ — ١٨٦ .

وقد كان لزاماً على العربية الفصيحة أن تقضى على تلك الحركة ، لا لأن انتصارها قد لا يبقى أثراً للنحو العربى ، بل لما هو أهم من ذلك ، وهو أن الحركة المذكورة تراعى اللهجة المحلية رعاية قوية يتعسر أو يتعذر معها استخدام اللغة الجديدة رباطاً عاماً لكل البلدان الناطقة بالعربية . وبهذا يمتد الإشكال ، ويخرج من الدوائر اللغوية الضيقة إلى دوائر الثقافة الإسلامية عامة .

وإن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمى أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة ، وهى أنها قد قامت فى جميع البلدان العربية ، وما عداها من الأقاليم الداخلة فى المحيط الإسلامى ، رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام فى الثقافة والمدنية .

ولقد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد، على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر .

وإذا صدقت البوادر ، ولم تخطىء الدلائل ، فستحتفظ أيضاً بهذا المقام العتيد من حيث هى لغة المدنية الإسلامية ، ما بقيت هناك مدنية إسلامية .

ملحق

مادة : ل ح ن ، ومشتقاتها

يتطلب معنى اللحن اللغوى أن يكون الصواب متقدماً عليه . وكلاهما يمكن حصوله وتصوره إذا تجاوز التفكير فى اللغة خطوات نشأتها الأولى . بيد أن مثل هذا التفكير والتأمل فى نشوء اللغة كان بعيداً كل البعد عن عرب البادية قبل الإسلام .

حقاً كان لهم ذوق مرهف ، وإحساس ناضج كل النضج بجمال اللفظ المنطوق : سواء فى الخطاب البسيط المألوف ، أم فى النثر الفنى المسجوع ، أم فى الكلام الموزون المنظوم . كما عرفوا أيضاً تلك العوائق الحسية والنفسية التى تعترض النطق ، وتؤثر فى المنطق ، فيعيا [1] الخطيب أو يُرتج عليه .

ولاحظوا كذلك عيوب اللسان كاللفّة ، والرُّتّة [2] ، واللجلجة ، والحُبْسَة ، بل لاحظوا أيضاً خصائص من اللهجات واللغات الخاصة [3] ؛ ولكنهم لم يعرفوا كنهاً للخطأ فى القواعد والخروج على النحو .

وهذا اللفظ القديم : اللحن ، الذى يطلقه علماء اللغة والنحو اصطلاحاً على : الخطأ فى اللغة ، إنما اكتسب هذا المدلول نتيجة لاتفاق عرفى على تغيير معناه الأصلى فى وقت متأخر نسبياً .

والمدلول الأصلى للفظ : لَحَنَ ، بفتح الحاء ، هو : مال ؛ وتفسر المعاجم دون ذكر الشاهد : لحن إلى ، بمعنى : مال إلى [4] . ومن هنا تدل مشتقات

---

(١) انظر مثلا المفضليات قصيدة رقم ٩١ بيت ٢٣ ؛ ديوان الحطيئة ص ٧٧ س ١٩ .

(٢) انظر التسمية بالأرت مثلا (الاشتقاق لابن دريد ٢٣٧ س ١٥) .

(٣) انظر الكامل للمبرد ص ٣٦٤ (نشر : Wright) .

(٤) قرن الزمخشرى فى كتابه : الفائق ٢/٢٢١ لحن إلى لحد بمعنى ضل ؛ ومسألة تعلق المادتين مع : لحظ ، بمعنى أصلى واحد ، ترجع إلى مبحث الاشتقاق الأكبر .

هذه المادة على معان تتميز بالإشارة إلى الميل والتحول عن الهيئة المألوفة . وهذا لا يعنى أن الحالة المألوفة هى الصواب ، وأن الميل والتحول عنها يؤدى إلى الانحراف والخطأ ؛ كما لا يعنى أن المقصود هو التحول إلى الصواب والحق .

وعلى هذا فمعنى : لَحِنٌ على وزن : فَطِنٌ ، سريع الميل والالتفات ، أى حُوَّلٌ قُلَّبٌ ، وهذا معناه الفطن الأريب ؛ وهكذا يصف لبيد مثلا (قصيدة رقم ١٣ بيت ٣ ؛ ص ٦١ نشر الخالدى) وليداً يمانياً مَرِناً على الكتابة :

متعوّد لَحِنٌ يعيد بكفّه قلما على عُسُبٍ ذَبَلْنَ وبانِ

وفعل : لحن بكسر الحاء يفسر على ذلك بمعنى : فطن ؛ ومصدره : اللحن بفتح الحاء ، كما فى بيت قعنب بن أم صاحب [1] الذى عاش فى عهد الوليد بن الملك :

[غَمَسْتُ عنهم وما ظنّى مخافتهم] وسوف يعرفهم ذو اللُّبّ واللَّحَنِ [2]

وقد روى أيضاً [3] أن اللحن بسكون الحاء مصدر لحن بفتحها ، ورد بمعنى الإصابة والفطنة كذلك .

وأفعل التفضيل : ألحن ، ورد فى حديث مستفيض ، روى فى كل مجاميع السنة [4] يحث المؤمنين على الصدق والحق إذا تقاضوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصون إلى ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

---

(١) انظر التبريزى فى : شرح الحماسة ص ٦٣٦ (نشر : Freytag) .

(٢) أدب الكتاب ص ١٣٢ ؛ والظاهر أن هذا البيت من الأبيات التى رواها ابن الشجرى لقعنب المذكور فى مختاراته ص ٧ — ٩ وإذا كان هذا البيت من قصيدة المختارات حقاً ، كان به إقواء لأن القصيدة من روى النون المضمومة (شبيتالر) .

(٣) انظر أمالى القالى ١/٥ س ١ .

(٤) الموطأ ، كتاب الأقضية (الزرقانى على الموطأ ٣/١٧٩ ؛ البخارى : كتاب الأحكام) (وانظر فنسنك فى : فهارس الأحاديث ٢/٣٧) .

ولما كان معنى اللحن فى هذا المثال الأخير متحققاً فى أن يكون أحد الخصمين أعرف بإلباس حالته حُلَّـة من البلاغة المُقْنِعة — فى بعض الروايات بدلا من : لعل بعضكم أن يكون ألحن : لعل بعضكم أن يكون أبلغ [١] — فقد استعمل لفظ : اللحن ، بسكون الحاء ، فى معنى : التعبير بصورة مخالفة للمألوف بوجه عام ، ويدخل فى ذلك الغناء ، بمعنى أن اللحن غالباً هو النغمة [٢] المخالفة للمألوف فى أصوات الغناء .

ويمكن استعمال اللحن مجازاً أيضاً فى هديل الحمام وغنائه [٣] . فقد قال شاعر بدوى من شعراء القرن الثانى : هو جهم بن خلف [٤] ، فى أبيات له [٥]

تَغَنَّت عليه بلحن لها ... يُهَيِّج للصبِّ ما قد مضى

وقال فى مكان آخر [٦] :

مألوفة الألحان مطراب الضحى ... تبكى بشجو دائم وتَوَجُّع

وفى قصيدة نسبت إلى جحدر ، أحد لصوص العرب ومعاصر الحجاج قال فى حمامتين [٧] :

---

(١) البخارى : كتاب المظالم (وانظر فنسنك فى المرجع السابق ١/٢١٧) .

(٢) وهذا هو المقصود دائماً فى الأغانى لأبى الفرج . وإلى جانب ألحان ولحون ذكر الزمخشرى أيضاً فى أساس البلاغة : ملاحن ، فى صيغ الجمع . وإطلاق اللحن على النغمة مستفيض فى اللهجة اليهودية العربية ، ويرد كثيراً فى ديوان يهودا هاليفى . وفى النصوص النصرانية العربية معناه نوع خاص من الغناء الدينى . انظر : G. Graf ZS 9, 245

(٣) هكذا البكرى فى اللآلى ص ٢١ س ٢ خلافاً لأبى على القالى ١/٥ حيث يريد أن يفسر ألحان الحمام باللغات على أن اللحن هو اللغة .

(٤) الفهرست ص ٧٠ .

(٥) كتاب الحيوان للجاحظ ٣/٦١ .

(٦) حماسة ابن الشجرى ص ١٧١ .

(٧) أمالى القالى ١/٢٨٢ ؛ شرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٤٠ نقلا عن تاريخ دمشق لابن عساكر ؛ الدميرى ٢/٤٥١ ؛ خزانة الأدب ٤/٤٨٤ نقلا عن كتاب اللصوص للسكرى ؛ معجم البلدان لياقوت ٢/٢١١ . والبيت فى الكامل للمبرد ٨٤ والعقد الفريد (القاهرة ١٣٠٥ هـ) ٣/١٤٣ (الزمردة الثانية فى آخرها ، قولهم فى الحمام) الأصمعيات (نشر أهلورت) رقم ٧٤/٣٨ — ٣٩ (لسوار بن المضرب) وعيون الأخبار ١٢/١٨٤ (للمعلوط) مع اختلافات قلت أو كثرت (شبيتالر) .

تجاوبتـا بلحن أعجمى على غصنين من غرب وبان

ومثل هذا المعنى ورد أيضاً فى البيت الذى لم يسم قائله[١] :

باتا على غصن بان فى ذُرَى فَـنَـن يردّدان لحـوناً ذاتَ ألوان

أما أن لفظ : لاحن ، على صيغة اسم الفاعل ، استعمل أيضاً بمعنى : حسن الصوت ، فيدل عليه المثل المعروف : « ألحن من الجرادتين » : أى أحسن صوتاً وغناء .

والجرادتان كانتا قينتين لمعاوية بن بكر العمليقى ، سيد العمالقة فى سالف الدهر .

وكذلك المثل الآخر : « ألحن من قينتى يزيد »[٢] ، والمراد بهما حبابة وسَـلاّمة ، مغنيتا يزيد بن عبد الملك اللتان قيل فيهما إنهما كانتا ألحن من رُئِى فى الإسلام من قيان النساء .

ويتصل بهذا المعنى فعل: لَـحَّـنَ بالتشديد ، أى رتّـل بالنغَـم القرآن مثلا ، حيث نهـى المحافظون عن ذلك[٣] .

وأخيراً صار لفظ : تلحين (وجمعه : تلاحين) أى طريقة الغناء ، أو النغمة الرئيسية ، اصطلاحاً من اصطلاحات الموسيقى[٤] .

---

(١) أمالى القالى ١/٦ ؛ كتاب الأضداد لابن الأنبارى ص ٢١٠ ؛ تاج العروس ٩/٣٣١ ؛ وذكر القالى مثالين آخرين لهذا المعنى .

(٢) مجمع الأمثال للميدانى (١٣٤٢ هـ) ٢/١٨٤ — ١٨٦ .

(٣) انظر مسند الدارمى : فضائل القرآن .

(٤) انظر : Dozy, Supplement فى المادة . وقد استعمل شاعر من عهد المأمون فعل : لحن فى تقسيم أصوات الغناء ، وهو محمد بن حازم الباهلى (الأغانى ١٢/١٥٨) ، كما ذكره ابن قتيبة فى : عيون الأخبار ٣/١٠٩ ، وبهذا ورد أيضاً فى رواية ساقها الزجاجى فى أماليه ص ٤٩ س ٢ ؛ كما ذكره أيضاً الهمدانى فى صفة جزيرة العرب ص ٢٠٣ س ٧ بمعنى تقسيم النساء أصوات الأغانى التى ينحن بها على الموتى إلخ .

ويقصد من اللحن أيضاً : النطق على أسلوب مخالف للمألوف ، كما يراد
طريقة التعبير بوجه عام . وفى هذا المعنى يقول ذو الرمة[1] :

* فى لحنه عن لغات العُرْب تعجيم *

ويقول عبيد بن أيوب ، أحد لصوص العرب فى القرن الثانى للهجرة ،
الغول :

أَرَنَّتْ بلحن بعد لحن [وأوقدت حوالىَّ نيراناً تلوح وتزهر[2]]

وفى بيت لم يُسَمَّ قائله[3] :

وقوم لهم لحن سوى لحن قومنا وشكل وبيت الله لسنا نشاكله

ويتصل بذلك القول المأثور : « هذا ليس من لحنى ولا من لحن قومى » ،
ناه تقريباً : ليس هذا من شأنى ولا من طريقتى[4] .

وهذا المعنى : طريقة التعبير ، ورد فى كثير من الأحاديث ، وإن كان
الصعب التحقق من قدمها وصحتها . فقد روى أن أبا ميسرة عمرو بن
حبيل (المتوفى ٦٣ هـ) أحد الصحابة المتأخرين ، استعمل هذا التعبير :
ايمن[5] . ورأى كل من الأصمعى وأبى زيد لفظ : لحن ، مرادفاً
: لغة[6] ؛ وعلى ذلك فمعنى : لحن ، نطق بلغته الخاصة[7] .

---

(١) ديوان ذى الرمة قصيدة ٧٥ بيت ٤٤ (نشر : مكارتنى) .

(٢) حيوان الجاحظ ٦/٥٠ ؛ الشعر والشعراء ص ٤٩٣ ؛ إعجاز القرآن للباقلانى ص ٤٤ ؛
طى فى شرح شواهد المغنى ص١٠٧ ، خزانةالأدب ٣/٢١٣ ؛ واستعمله الفرزدق فى عواء
(أمالى المرتضى ٤/٢٩) وفى مكانه بالديوان : نبح بدلا من : لحن .

(٣) تاج العروس فى المادة .

(٤) ذيل الأمالى للقالى ص٣٩ ؛ وذكره الزمخشرى فى الأساس ٢/٢٢٢ ؛ وكلاهما على أنه
كلام أبى مهدية الأعرابى أحد من يروى عنهم الأصمعى (المعارف ص ١٧١) . الذى يروى
لأصمعى هو أبو مهدى الباهلى ، أما أبو مهدية الكلابى فيروى عنه أبو عبيدة . انظر كتابنا :
عامة والتطور اللغوى ، هامش ٢١ (المترجم) .

(٥) أمالى القالى ١/٥ (اقرأ مع الفائق للزمخشرى ٢/٢٢٢ أبا ميسرة) .

(٦) أمالى القالى ١/٥ ؛ الفائق ٢/٢٢٢ ؛ وروى صاحب تاج العروس ٩/٣٣١ أن هذا
بالمعنى المذكور خاص بلهجة بنى كلاب .

(٧) أمالى القالى ١/٦ ؛ الملاحن لابن دريد ص٧ (القاهرة ١٣٤٧ هـ) .

وبهذا فسرت ثلاثة أقوال نسبت إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، وإن كان يظهر ضعف نسبتها إليه ، وهى : (١) تعلموا الفرائض والسنن واللحن[١] . (٢) تعلموا اللحن فى القرآن[٢] . (٣) أُبَىٌّ أقرؤنا وإنا نرغب عن كثير من لحنه[٣] . على أن الغالب استعمال اللحن فى معنى الطريقة غير المألوفة فى التعبير ، بوجه من الوجوه : فقد يقصد من ذلك أن تريد الشىء فتورى عنه بقول آخر . وهذا المعنى يبرز بوضوح فى بيت من قصيدة قالها القتال الكلابى الذى عاش فى عهد مروان بن الحكم ، يلوم قومه لتخلفهم عن مساعدته :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ووحيت[٤] وحياً ليس بالمرتاب[٥]

وفى مثال ثان لهذا التعبير يقول مالك بن أسماء صهر الحجاج بن يوسف فى جارية تَغَنَّىٌّ بها :

منطق صائب وتلحن أحيا نأ وخير الحديث ما كان لحنا[٦]

---

(١) أمالى القالى ١/٥ وفى الأساس والفائق والنهاية لابن الأثير فى المادة .

(٢) النهاية لابن الأثير ٤/٥٦ (١٣٢٢ هـ) .

(٣) الفائق ٢/٢٢٢ ؛ النهايةلابن الأثير ٤/٥٧ .

(٤) استعمال الثلاثى : وحى ، بدلا من الرباعى : أوحى ، ورد فى قراءات شاذة ، مثل : وحى إلى ، بدلا من : أوحى إلى (آية سورة الجن ٧٢/١) ، ومعناه الأصلى يؤخذ من آية سورة مريم ١١/١٩ : « فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيا » » أى أشار إليهم . ومن هذا المعنى يتفرغ المعنيان الآخران : : (١) الوحى الشرعى الذى ينزل على الرسول فى صور مختلفة (ويتصل بما ذكره فى دائرة المعارف الإسلامية ٤/١١٨١ من أن أصله فى العبرية والآرامية السرعة ، وفى الحبشةبمعنى المعرفة) (٢) الرسم ، الكتابة ، الخبر .

(٥) أمالى القالى ١/٤ ، والبكرى فى اللآلى ١/١٣ (كما ذكره أيضاً ابن حجر فى الإصابة ٣/٩٤ طبع القاهرة ١٣٢٨ هـ) ؛ أدب الكتاب للصولى ص ١٣٠ ؛ تاج العروس ٩/٣٣١ ؛ الأضداد لابن الأنبارى ص ٢٠٩ ؛ ورواه الزمخشرى فى الكشاف ص ١٣٧٠ ، ومحب الدين فى شرح شواهد الكشاف ص ٤٢ : لكيماتعرفوا . ومن رواه دون تسمية قائلة روى الشطر الثانى : واللحن يعرفه ذوو الألباب . وانظر الميدانى ٢/١٨٥ وأمالى المرتضى ١/١١ .

(٦) بيان الجاحظ ١/٩٢ ؛ عيون الأخبار ج١ فى المقدمة ؛ الشعر والشعراء . ص ٤٩٢ ؛ إرشاد الأريب ١/٢٢ .

ولما اشتهر لفظ اللحن فى الاستعمال المتأخر بالمعنيين : الخطأ اللغوى ، والغناء ، وهم الجاحظ فظن أن الشاعر أراد أنها تلحن فى الكلام أى تخطىء ، وأن اللحن فى الكلام مما يستحسن من النساء[١] .

نعم قد نبهه إلى وهمه العالم المشهور بين رجال القصور : على بن يحيى المنجم (المتوفى ٢٧٥ هـ) ، ولكنه لم يستطع إصلاح ما كتبه فى كتابه البيان والتبيين بعد أن سار فى الآفاق وانتشر أيما انتشار[٢] .

ونظراً لذلك التأثير البعيد الذى كان لكتب الجاحظ فى الأجيال من بعده ، لم يكن غريباً أن يؤخذ تفسيره الخاطىء بالقبول فى أوساط مختلفة ؛ كما فعل ذلك ابن قتيبة فى « عيون الأخبار »[٣] ، وهو كتاب نال من الحظوة مالا يكاد يقل عن كتاب البيان والتبيين ، وأسهم أيضاً فى إذاعة ذلك التفسير .

نعم لم تخرس المعارضة دونه بين حين وآخر ، كما أملى ابن دريد (المتوفى ٣٢١هـ) على تلاميذه تصحيحاً مدعوماً بالحجة ، للتفسير الذى ذكره الجاحظ[٤] وكما فعل مثل ذلك فى جيل آخر بعد ابن دريد أبو بكر الصولى[٥] (المتوفى حوالى ٣٣٦ هـ) .

وذكر ابن الأنبارى (المتوفى ٣٢٧ هـ) — الذى يتفق شرحه للفظ اللحن مع شرح ابن الأعرابى (المتوفى ٢٣١ هـ) الذى يرى الكلمة من كلمات الأضداد — أن مذهب ابن قتيبة من أن العرب تستحسن اللحن فى كلام النساء غير صحيح ، إذ إن العرب لم تزل تستقبح اللحن من النساء كما تستقبحه من

---

(١) البيان ١/٦٢ .

(٢) الأغانى ١٦/٤٣ (ونقله عنه تاريخ بغداد ١٢/٢١٤ ؛ اللآلى ١/١٧) وله رواية مساوقة عن المرزبانى فى أمالى المرتضى ١/١٢ ؛ إرشاد الأريب ٦/٦٥ ؛ الروض الأنف ٢/١٩٠ .

(٣) انظر مقدمة عيون الأخبار .

(٤) الميدانى ٢/١٨٥ عن حمزة الأصبهانى. وفى مقدمة كتاب الملاحن يذكر ابن دريد التفسير الصحيح دون تعرض للجاحظ .

(٥) أدب الكتاب ص ١٣٠ .

الرجال ؛ ثم عضد ذلك بشواهد فى طيب حديث الصواحب[1] .

بيد أن ذلك التفسير الخاطىء لم يكن من السهل تلاشيه ؛ فقد ذكره قدامة ابن جعفر[2] ، وإن فهم من كلامه أنه يأخذ به لعدم اتضاح تفسير آخر فى نظره[3] ؛ ويؤخذ من كلامه أيضاً عدم ارتياحه إلى أن الخطأ فى كلام النساء يعد جميلا .

وفى ختام القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) استطاع أحد حواريّ الجاحظ وهو أبو حَيّان التوحيدى أن يحاول تسويغ حمل اللحن فى هذا البيت على المعنى الذى ذكره الجاحظ ، أى الخطأ فى الكلام ، وإن لم ينف أيضاً احتمال تفسيره بالرمز والإشارة[4] . وابتداء من القرن الخامس درج الناس على فهم التفسير الصحيح للبيت ، أى الرمز والإشارة[5] .

وورد هذا المعنى فى النثر فى خبر عن غزوة الخندق . فقد أرسل النبى [صلى الله عليه وسلم] سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وغيرهما إلى بنى قريظة ؛ ليتبينوا ما إذا كانت قريظة تريد أن تنكث عهدها معه ، وقال لهم : فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه[6] » ، فلما رجع الرسل ذكروا للرسول [صلى الله عليه وسلم [لفظى : « عضل والقارة » وهما قبيلتان غدرتا بأصحاب النبى [صلى الله عليه وسلم] من قبل ، فعلم النبى [صلى الله عليه وسلم] من ذلك أن قريظة نكثت العهد .

---

(١) الأضداد لابن الأنبارى ص ٢١٠ (القاهرة ١٣٢٥ هـ) وتجد مواضع من حديث الصواحب فى البيان للجاحظ ١/١٠٩ ؛ عيون الأخبار ٤/٨١ — ٨٤ ؛ زهر الآداب (على هامش العقد ١٣١٦ هـ) ١/١٣ ؛ حماسة ابن الشجرى ص ١٩٥ ؛ أمالى المرتضى ٢/١٥٧ ؛ حكاية أبى القاسم ٥٤ ؛ تاج العروس ١٠/٢٦٩ وغير ذلك .

(٢) نقد النثر ص ١٢٤ — ١٢٥ (القاهرة ١٩٣٤) .

(٣) انظر قدامة فى الموضع السابق . وهو يروى البيت : وخير الحديث . ولكن روى أيضاً : وأحلى الحديث ، كما عند الجاحظ وابن قتيبة إلخ .

(٤) إرشاد الأريب ٦/٦٦ .

(٥) المرتضى ، البكرى ، الميدانى ، الزمخشرى فى المواضع المذكورة آنفاً ؛ وانظر ابن رشيق فى العمدة ١/٢١٠ ؛ إرشاد الأريب ١/٢١ ؛ ألف باء ١/٤٤ وغير ذلك .

(٦) ابن هشام ص ٦٧٥ ؛ الروض الأنف ٢/١٩٠ ؛ الواقدى : ص ١٩٧ ؛ الكامل للمبرد ص ٦٣٢ .

واشتهر أيضاً على أنه مثال للحن بمعنى اللغز والتورية ، ما جاء فى رسالة أرسلها أحد الأعراب فى يوم الوقيط ، وهو يوم من أيام العرب فى عهد فتنة عثمان ، إلى قومه يحذرهم من الغزو [١] ؛ قال : « قل لهم فليعروا جملى الأحمر ، وليركبوا ناقتى العيساء » يعنى ليتركوا عالية الصمان ويرحلوا إلى صحراء الدهناء .

وأخيراً ، يتصل بهذا ما جاء فى آية سورة محمد [عليه السلام] ٤٧/٣٠ ، وهو الموضع الوحيد الذى ورد فيه لفظ اللحن فى القرآن ؛ وفى هذه الآية ، التى نزلت بعد غزوة بدر بقليل ، يقول الله سبحانه عن المنافقين : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أن لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القَوْلِ » . ولا يوجد أفصح ولا أبلغ ، ولا أنصع ولا أبين فى إصابة المحزّ من ذلك التعبير : لحن القول ، فى وصف طريقة التعبير المعسولة التى لا يبدو فى ظاهر جرسها سوء ، التى يرمز بها أعداء محمد [صلى الله عليه وسلم] إلى معان يفهمها إخوانهم فى الرياء والنفاق .

ويتعلق بهذا السياق أيضاً فعل : لاَحَنَ (وهو مرادف لفعل : فَاطَنَ [٢]) ، أى أظهر له ذكاءه وفطنته ، ولا سيما بتعاطى التورية والإلغاز ؛ كما فى بيت الطرماح ، قصيدة ٤٧ بيت ٥ [٣] :

وأدّت إلى القول عنهن زَوْلَةٌ　　　تُلاحِن أو ترنو لقول الملاحن

وعلى حين يراد من اللحن بالمعنى الأخير ، أى التورية والتعمية كما فى الأمثلة الأخيرة ، الرمز إلى السامع بغير ما يفهم من صريح الكلام ، يستعمل اللحن أيضاً ، فى أحوال أخرى ، بمعنى ما يقصد إليه المتكلم نفسه ، من معنى يقصده ولا يتبين من ظاهر اللفظ ، كما فى حالة استعمال الألفاظ المشتركة فى معان غير متبادرة منها .

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١/٣٠٥ ؛ وذكر ابن دريد رواية أخرى فى الملاحن ص ٤ ، ونقلها القالى فى الأمالى ١/٦ (وعنه البكرى فى الآلى ص ٢١) والمرتضى ١/١٢ ؛ ونوجد الكلمات التى ذكرها ابن دريد والقالى فى معانى الشعر للأشناندانى ص ٥٧ .

(٢) أساس البلاغة ٢/٢٢٢ ، فسر : يلاحن الناس بقوله : يفاطنهم ويغالطهم بفطنته ودهائه .

(٣) ديوانه (نشر كرنكو) ص ١٦٤ .

وقد ظن كثيرون إذا أقسموا يميناً على شيء أنهم يرضون ضمائرهم بالقصد إلى معنى غير ما يفهمه السامع ؛ فإذا حلف إنسان : ما سألت فلاناً حاجة قط ، قصدوا فى أنفسهم من لفظ : حاجة ، أمراً معيناً .

وقد ذكر ابن دريد فى كتابه : الملاحن[1] ، مجموعة من مثل هذه الألفاظ المحتملة لمعان مختلفة ، مع ملاحظته على ذلك أن من يضطر إلى اليمين يستطيع استخدامها لينقذ نفسه من كيد المتسلط ، ويسلم مع ذلك من غضب القوى الجبار . وقد أمكنه أن يجمع من هذه الألفاظ نحو أربعمائة كلمة من كلمات الحيل فى القسم ، من بين العدد الهائل من الألفاظ المشتركة فى العربية :

وتنقل خطواتٌ قليلة لَفْظَ : لحن ، من معنى التضليل والتعمية ، إلى معنى الخطأ فى التعبير : لحن بفتح الحاء ، أخطأ فى الكلام ؛ لحن بالتشديد ، عده لاحناً ، عد عليه لحناً ؛ لَحّان ولَحّانة ولُحَنَة ، كثير اللحن .

وإلى هذا اسم الفاعل : لاحن ، فى قولهم : قَدَح لاحن ، أى ليس بصافى الصوت عند الإفاضة ، وقوس لاحنة عند الإنباض ، أى عند شد وترها للرمى[2] .

وهذا المعنى ، أى الخطأ فى الكلام ، يبدو فى العهد الإسلامى فى غير عربية البدو كثير الورود [لم يعق هذا الاستعمال عن الانفراد فى التعبير إلا استعمال اللحن بمعنى الغناء أيضاً] بحيث تورط ابن الأعرابى النحوى الكوفى (١٥٠ — ٢٣١ هـ) إذ ساقه اطراد ذلك الاستعمال إلى اعتقاد أن : لحن معناه أخطأ فى الكلام ، أو فطن وأصاب الصواب ، وأنه على ذلك من قبيل الأضداد[3] .

---

(١) نشره : H. Thorbecke سنة ١٨٨٢ فى هايدلبرج ، وأنا أستخدم هنا طبعة القاهرة ١٣٤٧ هـ

(٢) انظر الأساس للزمخشرى ٢/٢٢٢

(٣) كتب أخيراً فى طبيعة الأضداد فى اللغة العربية هانز كفلر فى تقديمه لكتاب الأضداد لقطرب (المتوفى ٢٠٦ هـ) الذى نشره أخيراً : وقطرب لايذهب إلى أن كلمة لحن من قبيل الأضداد كما فعل ابن الأعرابى .

وهذا الرأى المنحرف يتفق مع مذهب ذلك الكوفى العجيب الذى يذهب مثلا إلى جواز إبدال الضاد بالظاء حسب الرغبة والاختيار [١] ، والذى ينكر فضل أبى عبيدة والأصمعى فى تحقيق اللغة وجمعها [٢] ، والذى يعد شعر أبى نواس وغيره من المحدثين كالريحان يُشَمّ ويَذْوَى فَيُرمى به [٣]

ويظهر فى باب اللحن من كتاب الأضداد لابن الأنبارى [٤] (المتوفى ٣٢٧ هـ) ما أدى إليه هذا التفسير الذى مسخ معنى ذلك اللفظ : اللحن ، فى تفسير التعبيرات المتفرقة .

ومن الأمثلة لذلك ما ذكره ابن الأعرابى فى شرح البيت المذكور آنفاً لمالك بن أسماء :

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحناً

إذ قال : منطق قاصد للصواب وإن لم يصب ، وتصيب وتفطن أحياناً ، وخير الحديث ما كان إصابة وفطنة .

وهذا التأويل المتهافت يجد شبيهه فى تفسير ابن الأعرابى أيضاً، لبيت من شعر امرئ القيس فى معلقته [٥] .

وليس من التطور اللغوى للكلمة استعمال « لحن » فى لغة العوام والدجالين والمتسولين بمعنى : « أعطى » . وقد استخدمها بهذا المعنى « أبو دلف » فى قصيدته الساسانية [٦] .

---

(١) ابن خلكان ٢/٢٩٩ (١٢٩٩ هـ) .

(٢) تاريخ بغداد ٥/٢٨٢ .

(٣) الموشح ص ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ؛ وكان ابن الأعرابى متعصباً على أبى تمام بوجه خاص (الموشح ص ٣٠٤ ، ٣٢٩) ، ولذا ينكر عليه ابن الأثير كل حق فى الكلام فيما يتصل بالذوق الأدبى (المثل السائر ص ٤٩٠) .

(٤) الأضداد لابن الأنبارى ص ٢٠٧ — ٢١٤ (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

(٥) انظر خزانة الأدب ١/٥٥٠ .

(٦) يتيمة الدهر للثعالبى ٣/١٨٣ .

هذا ولا يزال ينقصنا كل دليل يبين متى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ فى الكلام . وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون. وكثير من هؤلاء لم يكونوا يستطيعون إخراج حروف الحلق والإطباق بالدقة المعروفة فى العربية من مخارجها ، فاستعاضوا عنها بحروف أخف على ألسنتهم وأسهل على طباعهم . وكان من أثر هذا إلى جانب الثراء العظيم فى ألفاظ العربية ، أن نشأ من التحريف واختلاط الكلمات مالا مناص عنه فى التفاهم العادى .

فإذا قال أعجمى مثلا : أَهَلَّ ، الذى معناه ظهر أو فرح ، بدلا من : أَحَلَّ ، بمعنى أجاز وأذن؛ أو : أرب ، الذى معناه الحاجة أو العقل ، بدلا من : عرب جمع عربى ؛ أو : سار ، الذى معناه ذهب ، بدلا من : صار بمعنى : تحول ؛ أو : دَلَّ الذى معناه هدى ، بدلا من: ضَلَّ ، بمعنى غوى وحار ؛ أو : ترك ، الذى معناه : ودع وأبقى بدلا من : طرق ، بمعنى دق على الباب ليلا ، ولم يكن من السهل على العربى أن يتابع كلامه بالفهم الصحيح وكان لا بد أن يؤدى ذلك إلى إدراك العربى معنى الخطأ اللغوى ، والخلط فى التعبير .

وليكن هناك من الفرص قبل الإسلام أيضاً ما يسمح باختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم فى المناسبات المختلفة ؛ فإن الهجرة العربية الكبرى التى تمت فى القرن الأول للإسلام ، وَهَيَّأت الفرصة العظمى لاحتكاك العرب بالأعاجم ، واصطدام لغتهم باللغات الأخرى ، هى التى يعوَّل عليها بالنسبة لما ترتب عليها من آثار جماعية غير فردية .

وقد كانت نتائج ذلك ما لاحظناه فى الأبواب المتقدمة ، وما قررناه من قيام مبدأ « تنقية اللغة العربية » فى أواخر القرن الأول للهجرة (السابع الميلادى) .

ومن آثار نشأة ذلك المبدأ المتزمت إطلاق لفظ اللحن على الخطأ اللغوى ، كما ورد مثلا فى شعر رؤبة ، ويحيى بن نوفل .

وقد يجوز أن نضيف هنا إلى هذين الشاهدين بيتاً للحكم بن عبدل الأسدى [١] وكان هذا الشاعر موالياً لوالى البصرة الأموى : عبد الملك بن بشر بن مروان (حكم البصرة فى سنتى ١٠٢ — ١٠٣ هـ[٢]) ، وكانت بينه وبين حاجب الأمير ملاحاة وخصومة ، فأراد أن يحمل الأمير على إقالته من منصبه وقال يهجوه :

ليت الأميرَ أطاعنى فشفيته من كل من يُكْنِى القصيد ويلحن [٣]

هذا البيت إلى البيتين المشار إليهما من قبل ، يبدو — فيما أعلم — أنه أقدم الشواهد على استعمال كلمة : لحن ، فى معنى الخطأ اللغوى .

(١) انظر الأغانى ٢/١٤٨ — ١٥٩ .
(٢) Zambaur, S. 40
(٣) حيوان الجاحظ ١/١١٨ .

فهرس تحليلى لموضوعات الكتاب

١ — تمهيد

٢ — العلاقات اللغوية فى عهد الدولة العربية (الأموية)

٣ — عربية الدولة ولغة الشعب فى أوائل العصر العباسى

(ص ٥٩ — ٩٢)

٧ — العربية تصير لغة الأدب الفصحى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى

٨ — عربية الأدب فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى
(ص ١٥٠ — ١٥٩)

٩ — العربية ولهجات البدو فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى
(ص ١٦٠ — ١٧٣)

١٣ — اللغة العربية فى عهد السلجوقيين

(ص ٢١٥ — ٢٣٧)

١٤ — نظرة خاطفة

(ص ٢٣٧ — ٢٤٢)

ملحق — مادة : ل ح ن ومشتقاتها

(ص ٢٤٣ — ٢٥٥)

فهرس الأعلام[1]

(الهمزة)

---

(١) الأرقام المذكورة بعد الحرف (ت) تبين مواضع ورود الأعلام فى التعليق أسفل الصفحات .

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(د)

(ذ)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ل)

(م)

* * *

فهرس مصادر الكتاب

(أ) المصادر العربية

(الهمزة)

١ — الإتقان فى علوم القرآن ، للسيوطى — نشر سديد الدين خان — كلكتا ١٨٥٦م .
٢ — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، للمقدسى — نشر دى غويه — ليدن ١٩٠٦م .
٣ — الأحكام السلطانية ، للماوردى — نشر إنجر — بون ١٨٥٣م .
٤ — أخبار النحويين البصريين ، للسيرافى — نشر كرنكو — بيروت ١٩٣٥م .
٥ — أدب الكاتب ، لابن قتيبة — نشر ماكس جرونرت — ليدن ١٩٠١م .
٦ — أدب الكاتب ، للصولى — القاهرة ١٣٤١هـ .
٧ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، لياقوت الحموى — نشر مرجليوث — ليدن ١٩٠٧ — ١٩٢٦م .
٨ — أساس البلاغة ، للزمخشرى — القاهرة ١٢٩٩هـ .
٩ — الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ، لابن عبد البر — على هامش : الإصابة لابن حجر — القاهرة ١٣٢٨هـ .
١٠ — الاشتقاق لابن دريد — نشر فستنفلد — جوتنجن ١٨٥٤م .
١١ — أشعار الحماسة ، لأبى تمام ، بشرح التبريزى — نشر فرايتاج — بون ١٨٢٨م .
١٢ — الإصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانى — القاهرة ١٣٢٨هـ .
١٣ — الأصمعيات ، للأصمعى — نشر أهلورت فى مجموع أشعار العرب — برلين ١٩٠٢م .
١٤ — الأضداد ، لأبى بكر بن الأنبارى — القاهرة ١٣٢٥هـ .
١٥ — إعجاز القرآن ، للباقلانى — القاهرة ١٣٤٩هـ .
١٦ — الأغانى ، لأبى الفرج الإصبهانى — بولاق ١٢٨٥هـ . والجزء الحادى والعشرون نشر برونو — ليدن ١٨٨٨م (طبعة القاهرة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م يشار إليها فى أماكنها) .

١٧ — الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، للبطليوسى — بيروت ١٩٠١م .
١٨ — ألف باء ، للبلوى — القاهرة ١٢٨٧هـ .
١٩ — الألفاظ ، لابن السكيت بتهذيب التبريزى — نشر لويس شيخو — بيروت ١٨٩٥م .
٢٠ — الألفاظ الكتابية ، للهمذانى — بيروت ١٨٨٥م .
٢١ — الأمالى ، لأبى على القالى — القاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م .
٢٢ — أمالى الزجاجى — القاهرة ١٣٢٤هـ .
٢٣ — أمالى ابن الشجرى ، نشر كرنكو — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩هـ .
٢٤ — أمالى المرتضى — نشر الشنقيطى — القاهرة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م .
٢٥ — الأمثال ، لأبى عكرمة الضبى — تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب — مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤م .
٢٦ — الانتصار ، للخياط — نشر نيبرج — القاهرة ١٩٢٥م .
٢٧ — الأنساب ، للسمعانى — نشر مرجليوث — ليدن ١٩١٢م .
٢٨ — الإنصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين : لأبى البركات بن الأنبارى — نشر فايل — ليدن ١٩١٣م .

(ب)

٢٩ — البخلاء ، للجاحظ — نشر فان فلوتن — ليدن ١٩٠٠م .
٣٠ — بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطى — القاهرة ١٣٢٦هـ.
٣١ — البلدان ، لابن الفقيه الهمدانى — نشر دى غويه — ليدن ١٨٨٥م .
٣٢ — البيان والتبيين ، للجاحظ — القاهرة ١٣١١هـ .

(ت)

٣٣ — التاج فى أخلاق الملوك ، المنسوب للجاحظ — نشر أحمد زكى باشا — القاهرة ١٩١٤م .
٣٤ — تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدى — القاهرة ١٣٠٦ — ١٣٠٧هـ .
٣٥ — تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى — القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .
٣٦ — تاريخ البلاذرى — نشر أهلورت — ليبزج ١٨٨٣م .
٣٧ — تاريخ الحكماء ، لابن القفطى — نشر ليبرت — ليبزج ١٩٠٣م .

٣٨ — تاريخ الطبرى — نشر دى غويه — ليدن ١٨٧٩ — ١٩٠١م .
٣٩ — تاريخ مكة ، للأزرقى — نشر فستنفلد — ليبزج ١٨٥٨م .
٤٠ — تذكرة الحفاظ ، للذهبى — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٣هـ .
٤١ — تمييز الطيب من الخبيث ، لابن الديبع — القاهرة ١٣٤٧هـ .
٤٢ — تهذيب إصلاح المنطق ، للتبريزى — القاهرة (بدون تاريخ) .
٤٣ — تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢٥هـ .
٤٤ — التيسير فى القراءات السبع ، لأبى عمرو الدانى — نشر برتسل — إستانبول ١٩٣٠م .

(ث)

٤٥ — ثلاث رسائل للجاحظ — نشر فان فلوتن — ليدن ١٩٠٣م .
٤٦ — ثلاث رسائل للجاحظ — نشر يوشع فنكل — القاهرة ١٩٢٦م .
٤٧ — ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، للثعالبى — القاهرة ١٣٢٦هـ .

(ج)

٤٨ — جامع الألفاظ ، للفاسى ، نشر سكوس — نيوهافن ١٩٣٦م .
٤٩ — جامع الترمذى — كاونبور ١٣٤١ — ١٣٤٣هـ .
٥٠ — الجامع الصحيح ، لمسلم — على هامش القسطلانى — بولاق ١٣٠٤هـ .
٥١ — الجامع الصغير للسيوطى = السراج المنير فى شرح الجامع الصغير — القاهرة ١٣٢٤هـ .
٥٢ — جمهرة أشعار العرب ، للقرشى — القاهرة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م .
٥٣ — جواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر — القاهرة ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م .
٥٤ — الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ، لابن أبى الوفاء — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢هـ .

(ح)

٥٥ — حكاية أبى القاسم البغدادى — نشر آدم متز — هايدلبرج ١٩٠٢م .
٥٦ — حماسة البحترى — نشر لويس شيخو — بيروت ١٩١٠ م .
٥٧ — حياة الحيوان ، للدميرى — القاهرة ١٣٤٧هـ .
٥٨ — الحيوان ، للجاحظ — القاهرة ١٣٢٣هـ .

(خ)

٥٩ — خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر البغدادى — بولاق ١٢٩٩هـ .
٦٠ — الخصائص الكبرى ، للسيوطى — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣١٩هـ .
٦١ — خمريات أبى نواس ، نشر أهلورت — جريفسفالد ١٨٦١م .

(د)

٦٢ — درة الغواص فى أوهام الخواص ، للحريرى — نشر توربيكه — ليبزج ١٨٧١م .
٦٣ — دمية القصر ، للباخرزى — حلب ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م .
٦٤ — ديوان أبى العتاهية — نشر لويس شيخو — بيروت ١٩١٤م .
٦٥ — ديوان أبى نواس — القاهرة ١٨٩٨م .
٦٦ — ديوان الأعشى — نشر جاير — ليدن ١٩٢٨م .
٦٧ — ديوان امرئ القيس (ضمن العقد الثمين) نشر أهلورت — لندن ١٨٧٠م .
٦٨ — ديوان جرير ، نشر محمد إسماعيل الصاوى — القاهرة ١٣٥٣هـ .
٦٩ — ديوان الحطيئة — نشر جولدتسيهر فى مجلة جمعية المستشرقين الألمانية — المجلد ٤٦ — ٤٧ .
٧٠ — ديوان ذى الرمة — نشر مكارتنى — كمبردج ١٩١٩م .
٧١ — ديوان رؤبة — نشر أهلورت فى مجموع أشعار العرب — برلين ١٩٠٣م .
٧٢ — ديوان الزفيان — نشر أهلورت فى مجموع أشعار العرب — برلين ١٩٠٣م .
٧٣ — ديوان طفيل الغنوى والطرماح بن حكيم الطائى — نشر كرنكو — ليدن ١٩٢٨م .
٧٤ — ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات — نشر رود وكاناكيس — فينا ١٩٠٢م.
٧٥ — ديوان العجاج والزفيان — نشر أهلورت فى مجموع أشعار العرب — برلين ١٩٠٣م .
٧٦ — ديوان عروة بن الورد — نشر نولدكه — جوتنجن ١٨٦٣ م .

٧٧ — ديوان علقمة (ضمن العقد الثمين) نشر أهلورت — لندن ١٨٧٠م .
٧٨ — ديوان عمر بن أبي ربيعة — نشر باول شفارتس — ليبزج ١٩٠٢م .
٧٩ — ديوان عنترة (ضمن العقد الثمين) — نشر أهلورت — لندن ١٨٧٠م .
٨٠ — ديوان الفرزدق — نشر محمد إسماعيل الصاوى — القاهرة ١٣٤٥هـ / ١٩٣٦م .
٨١ — ديوان القطامى — نشر بارت — ليدن ١٩٠٢م .
٨٢ — ديوان كثير عزة — نشر بريس — الجزائر ١٩٢٨ — ١٩٣٠م .
٨٣ — ديوان المتلمس — نشر كارل فوللرز — ليبزج ١٩٠٣م .
٨٤ — ديوان المتنبى ، بشرح الواحدى — نشر ديترتصى — برلين ١٨٦١م .
٨٥ — ديوان مسلم بن الوليد — نشر دى غويه — ليدن ١٨٧٥م .
٨٦ — ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكرى — القاهرة ١٣٥٢هـ .
٨٧ — ديوان النابغة الذبيانى (ضمن العقد الثمين) نشر أهلورت — لندن ١٨٧٠ م.

(ر)

٨٨ — الرسالة الحاتمية ، للحاتمى — نشر البستانى — بيروت ١٩٣١م .
٨٩ — الروض الأنف فى تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية ، للسهيلى — القاهرة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م .

(ز)

٩٠ — زينة الفضلاء فى الفرق بين الضاد والظاء ، لأبى البركات بن الأنبارى — تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب — بيروت ١٩٧١م .

(س)

٩١ — سفينة الملك ونفيسة الفلك ، لشهاب الدين محمد بن إسماعيل بن عمر — القاهرة ١٢٨١هـ .
٩٢ — سمط اللآلى فى شرح أمالى القالى ، لأبى عبيد البكرى — تحقيق عبد العزيز الميمنى — القاهرة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦ هـ .
٩٣ — سنن ابن ماجة — القاهرة ١٣٤٩هـ .
٩٤ — سنن أبى داود — كاونبور ١٣٤٥هـ .
٩٥ — سنن النسائى — القاهرة ١٣٤٨هـ .
٩٦ — سيرة رسول الله ، لابن هشام — نشر فستنفلد — جوتنجن ١٨٥٨م .

(ش)

٩٧ — شرح أدب الكاتب ، للجواليقي — نشر مصطفى صادق الرافعي — القاهرة ١٣٥٠هـ .

٩٨ — شرح درة الغواص ، للخفاجي — القسطنطينية ١٢٩٩هـ .

٩٩ — شرح سفر التكوين ، لعلي بن سليمان — نشر سكوس — فيلادلفيا ١٩٢٨م .

١٠٠ — شرح الشواهد الكبرى ، للعيني — على هامش الخزانة — بولاق ١٢٩٩هـ .

١٠١ — شرح شواهد الكشاف ، لمحب الدين أفندي — بولاق ١٢٨١هـ .

١٠٢ — شرح شواهد المغني ، للسيوطي — القاهرة ١٣٢٢هـ .

١٠٣ — شرح المفصل ، لابن يعيش — نشر يان — ليبزج ١٨٨٢ — ١٨٨٦ م .

١٠٤ — شرح موطأ مالك بن أنس ، للزرقاني — بولاق ١٢٨٠هـ .

١٠٥ — الشعر والشعراء ، لابن قتيبة — نشر دي غويه — ليدن ١٩٠٤م .

١٠٦ — شعر الهذليين — نشر كوزجارتن — جريفسفالد ١٨٥٤م .

(ص)

١٠٧ — صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، للقلقشندي — القاهرة ١٣٣١ — ١٣٣٨هـ .

١٠٨ — صفة جزيرة العرب ، للهمداني — نشر داود مولر — ليدن ١٨٨٤ — ١٨٩١م .

(ط)

١٠٩ — طبقات الحنابلة ، لابن أبي يعلى — نشر أحمد عبيد — دمشق ١٣٥٠ هـ .

(ع)

١١٠ — العقد الفريد ، لابن عبد ربه — القاهرة ١٣١٦هـ .

١١١ — العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق — القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥م .

١١٢ — عيون الأخبار ، لابن قتيبة — القاهرة ١٩٢٥ — ١٩٣٠م .

١١٣ — عيون الأنباء ، لابن أبي أصيبعة — القاهرة ١٨٨٢م .

(غ)

١١٤ — غاية النهاية في طبقات القراء ، لابن الجزري — نشر برجشتراسر — ليبزج ١٩٣٣م .

(ف)

١١٥ - الفائق فى غريب الحديث والأثر ، للزمخشرى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢٤هـ .

١١٦ - الفاخر ، للمفضل بن سلمة - نشر ستورى - ليدن ١٩١٥م .

١١٧ - فتح البارى ، بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى - القاهرة ١٣٠٠هـ .

١١٨ - فتوح البلدان ، للبلاذرى - نشر دى غويه - ليدن ١٨٦٦م .

١١٩ - فرق الشيعة ، للنوبختى - استانبول ١٩٣١م .

١٢٠ - فريدة العصر فى جداول يتيمة الدهر ، لأحمد الحق - كلكتا ١٩١٥م .

١٢١ - فصول فى فقه العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٧٣م .

١٢٢ - فهرست الطوسى ، نشر شبرنجر - كلكتا ١٨٥٣م .

١٢٣ - الفهرست ، لابن النديم - نشر فلوجل - ليبزج ١٨٧١م .

١٢٤ - فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى - بولاق ١٢٩٩هـ .

(ك)

١٢٥ - الكامل فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير - نشر تورنبرج - ليدن ١٨٦٧ - ١٨٧١م .

١٢٦ - الكامل فى اللغة والأدب ، لأبى العباس المبرد - نشر رايت - ليبزج ١٨٦٤ - ١٨٩٢م .

١٢٧ - الكتاب ، لسيبويه - بولاق ١٣١٦ - ١٣١٧هـ (الاقتباس من نشرة ديرنبورج - باريس ١٨٨١ - ١٨٨٩م يشار إليه فى مواضعه) .

١٢٨ - كتاب البديع فى القراءات الشاذة - مختصر نشره برجشتراسر - ليبزج ١٩٣٤م .

١٢٩ - كتاب الخراج ، ليحيى بن آدم - نشر أحمد شاكر - القاهرة ١٣٤٧هـ .

١٣٠ - كتاب الطبقات الكبير ، لابن سعد - نشر إدوارد سخاو - ليدن ١٩٠٥ - ١٩٤٠م .

١٣١ - كتاب الفصيح ، لثعلب - نشر بارث - ليبزج ١٨٧٨م .

١٣٢ - الكشاف عن حقائق التنزيل ، للزمخشرى - كلكتا ١٨٥٦م .

١٣٣ — كشف الحجب والأستار عن الكتب والأسفار — نشر محمد هدايت — كلكتا ١٩١٤م .
١٣٤ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، لحاجى خليفة — إستانبول ١٣١١هـ .
١٣٥ — الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ، للصاحب بن عباد — القاهرة ١٣٤٩هـ .
١٣٦ — الكشكول ، للعاملى — القاهرة ١٢٨٨هـ .
١٣٧ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ، للمتقى الكندى — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣١٢ — ١٣١٧هـ .

(ل)

١٣٨ — اللبأ واللبن ، لأبى زيد الأنصارى (ضمن البلغة فى شذور اللغة) نشر هفنر ولويس شيخو — بيروت ١٩١٤م .
١٣٩ — لحن العامة والتطور اللغوى ، للدكتور رمضان عبد التواب — دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧م .
١٤٠ — لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى — القاهرة ١٢٩٩ — ١٣٠٨هـ .
١٤١ — لسان الميزان ، لابن حجر العسقلانى — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢٥هـ .

(م)

١٤٢ — المثل السائر ، لضياء الدين بن الأثير — بولاق ١٢٨٢هـ .
١٤٣ — المجازات النبوية ، للرضى — بغداد ١٣٢٨هـ .
١٤٤ — المجتنى ، لابن دريد — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٢هـ .
١٤٥ — مجمع الأمثال ، للميدانى — القاهرة ١٣٤٢هـ .
١٤٦ — المحاسن والأضداد ، المنسوب للجاحظ — القاهرة ١٣٢٤هـ(الاقتباس من نشرة فان فلوتن — ليدن ١٨٩٨م يشار إليه فى مواضعه) .
١٤٧ — المحاسن والمساوئ ، للبيهقى — نشر شفالى — جيسن ١٩٠٢م .
١٤٨ — المحتسب فى القراءة الشاذة ، لابن جنى — نشر برجشتراسر — ميونخ ١٩٣٣م .
١٤٩ — محيط المحيط ، لبطرس البستانى — بيروت ١٢٨٦هـ .

١٥٠ — المختار من شعر بشار ، اختيار الخالديين — نشر محمد بدر الدين العلوى — القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م .
١٥١ — مختارات شعراء العرب ، لابن الشجرى — القاهرة ١٣٠٦هـ .
١٥٢ — مروج الذهب ، للمسعودى — القاهرة ١٣٤٦هـ .
١٥٣ — المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطى — القاهرة ١٣٢٥هـ .
١٥٤ — مسالك الممالك ، للإصطخرى — نشر دى غويه — ليدن ١٨٧٠م .
١٥٥ — المستطرف فى كل فن مستظرف ، للإبشيهى — القاهرة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م .
١٥٦ — مسند أبى داود الطيالسى — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢١هـ .
١٥٧ — مسند أحمد بن حنبل — القاهرة ١٣١٣هـ .
١٥٨ — مسند الدارمى — على هامش المنتقى ، لابن تيمية — دلهى ١٣٣٧هـ .
١٥٩ — المعارف ، لابن قتيبة — نشر فستنفلد — جوتنجن ١٨٥٠م (الاقتباس من طبعة القاهرة ١٣٠٠هـ يشار إليه فى مواضعه) .
١٦٠ — معانى الشعر ، للأشنانداني — دمشق ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م .
١٦١ — المعتزلة ، مختصر من كتاب ابن المرتضى — نشر أرنولد — ليبزج ١٩٠٢م .
١٦٢ — معجم البلدان ، لياقوت الحموى — نشر فستنفلد — ليبزج ١٨٦٦ — ١٨٧٠م .
١٦٣ — المعرب للجواليقى — نشر إدوارد سخاو — ليبزج ١٨٦٧م .
١٦٤ — المغازى ، للواقدى — نشر فلهاوزن — برلين ١٨٩٢م .
١٦٥ — المغرب فى ترتيب المعرب ، للمطرزى — حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢٨هـ .
١٦٦ — مفاتيح العلوم ، للخوارزمى — نشر فان فلوتن — ليدن ١٨٩٥م .
١٦٧ — المفصل ، للزمخشرى — نشر بروخ — كريستيانيا ١٨٧٩م .
١٦٨ — المفضليات ، للمفضل الضبى — نشر تشارلس لايل — أكسفورد ١٩١٨ — ١٩٢١م .
١٦٩ — مقالات الإسلاميين ، للأشعرى — نشر هلموت ريتر — إستانبول ١٩٢٩ — ١٩٣٢ م .
١٧٠ — المقنع فى رسم المصاحف ، لأبى عمرو الدانى — نشر برتسل — إستانبول ١٩٣٢ .

١٧١ — الملاحن ، لابن دريد — القاهرة ١٣٤٧هـ .
١٧٢ — الممدود والمقصور ، لأبى الطيب الوشاء — تحقيق الدكتور رمضان ، عبد التواب — القاهرة ١٩٧٩م .
١٧٣ — من كتاب الديارات ، للشابستى — نشر إدوارد سخاو — برلين ١٩١٩م .
١٧٤ — منتخبات من كتاب شمس العلوم ، لنشوان الحميرى — نشر عظيم الدين أحمد — ليدن ١٩١٦م .
١٧٥ — الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، للمرزبانى — القاهرة ١٣٤٣هـ .
١٧٦ — الموطأ ، للإمام مالك بن أنس ، بشرح الزرقانى — بولاق ١٢٨٠هـ .
١٧٧ — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى — القاهرة ١٣٢٥هـ .

(ن)

١٧٨ — نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، لأبى البركات بن الأنبارى — القاهرة ١٢٩٤هـ .
١٧٩ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقرى — نشر دوزى وكريل ورايت — ليدن ١٨٥٥ — ١٨٦١م .
١٨٠ — نقائض جرير والفرزدق — تحقيق أنطونى بيفان — ليدن ١٩٠٥ — ١٩١٢م .
١٨١ — نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر — إستانبول ١٣٠٢هـ .
١٨٢ — نقد النثر ، المنسوب لقدامة بن جعفر — نشر طه حسين والعبادى — القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م .
١٨٣ — النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى — نشر سعيد الشرتونى — بيروت ١٨٩٤م .

(هـ)

١٨٤ — الهاشميات ، للكميت — نشر يوسف هوروفيتس — ليدن ١٩٠٤م .

(و)

١٨٥ — الوافى بالوفيات ، للصفدى — نشر هلموت ريتر — إستانبول ١٩٣١م .
١٨٦ — الوزراء للجهشيارى — نشر متشك — ليبزج ١٩٢٦م .
١٨٧ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان — بولاق ١٢٩٩هـ .

(ى)

١٨٨ — يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر ، للثعالبى — دمشق ١٣٠٢هـ .

(ب) المصادر الإفرنجية

AKM = Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes.

Arthur Christensen, L'Iran sous les Sassanides, Kopenhagen 1936.

Fr. Baethgen, Fragmente syrischer und arabischer Historiker, Leipzig 1884.

BAHG = Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, hg. v. H. v. Mzik, Leipzig 1926.

BGA = Bibliotheca Geographorum arabicorum, ed. M. J. de Goeje, I - VIII, Leiden 1870 – 1894.

Bibl. Isl. = Bibliotheca Islamica, hg. v. H. Ritter, Leipzig 1929 ff.

Bräunlich, The Well in Ancient Arabia, Leipzig 1925.

C. Brockelmann, GLA (S) = Geschichte der arabischen Litteratur, Bd. I.II Leiden 1943 – 49 und Suppl. I – III Leiden 1937 – 42.

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, Leiden 1927.

EI = Enzyklopädie des Islam, Leiden 1913 – 1934.

Festschrift Ed. Sachau, hg. v. G. Weil, Berlin 1915.

Fischer und Bräunlich, Schwâhid – Indices, Leipzig 1945.

H.L. Fleischer, Beiträge zur arabischen Sprachkunde, Leipzig 1863.

S. Fraenkel, Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leiden 1886.

Friedlaender, Der Sprachgebrauch des Maimonides I., Frankfurt/M. 1902.

GMS = Gibb Memorial Series.

I. Goldziher, Abhandlungen zur arabischen Philologie, Leiden 1896 – 1899.

I. Goldziher, Muhammedanische Studien, Halle 1889.

G. Graf, Der Sprachgebrauch der ältesten christlich arabischen Litteratur, Leipzig 1905.

JNES = Journal of Near Eastern Studies.

JRAS = Journal of the Royal Asiatic Society.

E. Lane, An Arabic English Lexicon, London 1863 – 1893.

E. Lévi - Provencal, Documents inédits d'histoire almohade, Paris 1928.

LSS = Leipziger Semitistische Studien.

M. Mez, Die Renaissance des Islams, Heidelberg 1932.

MO = Le Monde Oriental.

B. Moritz, Arabien, Hannover 1923.

MSOS = Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprache in Berlin.

Th. Nöldeke, BSSW = Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1904.

Th. Nöldeke, NBSS = Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910.

Th. Nöldeke, Zur Grammaitk des classischen Arabisch, Wien 1896.

OLZ = Orientalistische Literaturzeitung.

Orientalische Studien, Theodor Nöldeke gewidmet, Giessen 1906.

Reckendorf, Arabische Syntax, Heidelberg 1921.

Reckendorf, Die Syntaktischen Verhältnisse des Arabischen, Leiden 1898.

SMA = Sitzungsberichte der bayr. Akademie der Wissenschaften, philol. hist. Klasse, München.

W. Spitta, Grammatik des arabischen Vulgärdialects von Aegypten, Leipzig 1880.

SWA = Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften zu Wien.

Wellhausen, Das arabische Reich und seine Sturz, Berlin 1902.

Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten, Berlin 1884 – 99.

A. Wensink, Concordance de la tradition musulmane Leiden 1936.

W. Wright, A Grammar of the Arabic Language, Combridge 1896 – 98.

F. Wüstenfeld, Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und Familien, Göttingen 1852 – 53.

WZKM = Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.

ZA = Zeitschrift für Assyriologie.

E. de Zambaur, Manuel de genealogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam, Hannover 1927.

ZDMG = Zeitschrift der deutschen Morgenländischen Gesellschaft.

ZA = Zeitschrift für Semitistik.

كتب للمترجم

تأليف :

١ ــ لحن العامة والتطور اللغوى ــ القاهرة ١٩٦٧

٢ ــ فصول فى فقه العربية ــ القاهرة ١٩٧٣

٣ ــ اللغة العبرية : قواعد ونصوص ومقارنات باللغات السامية ــ القاهرة ١٩٧٧

٤ ــ نصوص من اللغات السامية ، مع الشرح والتحليل والمقارنة ــ القاهرة ١٩٧٩

٥ ــ بحوث ومقالات فى اللغة (تحت الطبع) .

٦ ــ مشكلات العربية وتحديات العصر (تحت الطبع) .

٧ ــ التطور اللغوى فى عربية القرون الأولى (تحت الطبع) .

ترجمة :

١ ــ اللغات السامية ، لتيودور نولدكه ــ القاهرة ١٩٦٣

٢ ــ الأمثال العربية القديمة ، لرودلف زلهايم ــ بيروت ١٩٧١

٣ ــ تاريخ الأدب العربى ، لكارل بروكلمان (الرابع والخامس) ــ القاهرة ١٩٧٥

٤ ــ فقه اللغات السامية ، لكارل بروكلمان ــ الرياض ١٩٧٧

٥ ــ العربية ــ دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ليوهان فك ــ القاهرة ٩٨٠

تحقيق :

١ ــ لحن العوام ، لأبى بكر الزبيدى ــ القاهرة ١٩٦٤

٢ ــ البلاغة ، لأبى العباس المبرد ــ القاهرة ١٩٦٥

٣ ــ قواعد الشعر ، لأبى العباس ثعلب ــ القاهرة ١٩٦٦

٤ — ما يذكر ويؤنث من الإنسان واللباس ، لأبي موسى الحامض – القاهرة ١٩٦٧

٥ — الحروف ، للخليل بن أحمد الفراهيدى — القاهرة ١٩٦٩

٦ — المذكر والمؤنث ، لابن فارس — القاهرة ١٩٦٩

٧ — الحروف التى يتكلم بها فى غير موضعها ، لابن السكيت — القاهرة ١٩٦٩

٨ — المذكر والمؤنث ، لأبي العباس المبرد (بالاشتراك) — القاهرة ١٩٧٠

٩ — كتاب الثلاثة ، لابن فارس اللغوى — القاهرة ١٩٧٠

١٠ — البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث ، لابن الأنبارى — القاهرة ١٩٧٠

١١ — كتاب البئر ، لابن الأعرابى — القاهرة ١٩٧٠

١٢ — كتاب الأمثال ، لمؤرخ السدوسى — القاهرة ١٩٧١

١٣ — زينة الفضلاء فى الفرق بين الضاد والظاء ، لابن الأنبارى – بيروت ١٩٧١

١٤ — القوافى وما اشتقت ألقابها منه ، لأبي العباس المبرد — القاهرة ١٩٧٢

١٥ — مختصر المذكر والمؤنث ، للمفضل بن سلمة — القاهرة ١٩٧٢

١٦ — كتاب الأمثال ، لأبي عكرمة الضبيّ — دمشق ١٩٧٤

١٧ — المذكر والمؤنث ، لأبي زكريا الفراء — القاهرة ١٩٧٥

١٨ — الوافى بالوفيات ، للصفدى (الجزء الثانى عشر) — فيسبادن ١٩٧٩

١٩ — الممدود والمقصور ، لأبي الطيب الوشاء — القاهرة ١٩٧٩

٢٠ — ذم الخطأ فى الشعر ، لابن فارس اللغوى — القاهرة ١٩٨٠

٢١ — اشتقاق الأسماء ، للأصمعى (بالاشتراك) — القاهرة ١٩٨٠

٢٢ — الغريب المصنف ، لأبي عبيد القاسم بن سلام (تحت الطبع) .

٢٣ — فضائل القرآن ، لأبي عبيد القاسم بن سلام (تحت الطبع بالاشتراك) .

٢٤ — شرح كتاب سيبويه ، للسيرافى (تحت الطبع بالاشتراك) .

* * *

رقم الإيداع ١٩٨٠/٣١٥٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفـــــون : ٨٢٦٢٨٠ القـــــاهرة

هذا الكتاب :

تتبع فيه مؤلفه حياة اللغة العربية ، منذ أقدم نصوصها . ودرس العوامل المختلفة التى أثرت فى نموها وتطورها عبر التاريخ . وتعقب الأخبار التى تروى عن وقوع اللحن فى العربية من الشعراء والخلفاء والعلماء وغيرهم فى جميع العصور . كما وضح جهود علماء العربية فى تنقية اللغة من شوائب هذا اللحن . وابرز السر فى خلود العربية الفصحى على الزمن ، لارتباطها بالقرآن الكريم كتاب الاسلام الخالد .

وهذه الترجمة الجديدة :

تمتاز بالدقة وكثرة التعليقات والتصحيحات والمناقشات لبعض القضايا المهمة فى الكتاب ، كما تزدان بالمقدمة العلمية التى كتبها شيخ مستشرقى العصر المستشرق الألمانى أنطون شبيتالر .